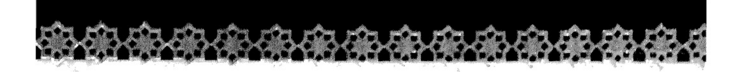
الموسوعة الشاملة
في
تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء الحادي والثلاثون

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الثالثة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي والثلاثون

دمشق ١٤١٨/ ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الثالثة

رواية شاهد عيان عن حروب رتشارد قلب الأسد

في

قبرص والأراضي المقدسة

مع رحلة حج

— سيولف الأنكلو سكسوني (١١٠٢)

— الراهب دانيال الروسي (١١٠٦)

— ورسالة فيتيلوس في وصف الأرض المقدسة (١١٣٠)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي والثلاثون دمشق ١٤١٨/١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يشعر كل باحث في تاريخ الحروب الصليبية بالأهمية القصوى لأحداث ما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، ويعجب كيف انتهت انتصارات صلاح الدين المدوية في يوم حطين ثم تحرير القدس بفاجعة سقوط عكا وانتكاسة صلح الرملة، ويتساءل عن الأسباب: هل هي راسية في إقدام رتشارد قلب الأسد وتدفق النجدات من أوربا، أم كان هناك خلل عظيم في بناء دولة صلاح الدين العسكري والإداري؟ أم أن سبب الداء رسا في بناء أسرة صلاح الدين؟ فقد كان أبرز أفراد هذه الأسرة تقي الدين عمر من الجانب العسكري، والملك العادل من كافة الجوانب،فقد تخلى تقي الدين عمر عن صلاح الدين في ساعة الحرج، وذهب إلى الجزيرة يغامر في سبيل تأسيس ملك واسع له، وبذلك فقد صلاح الدين العبقرية العسكرية التي أسهمت بالدور الرئيسي في حطين وسواها، أما العادل فكان طالب ملك بأي ثمن، والملك كما هو معلوم عقوق وعقيم، أنشأ علاقة ممتازة مع رتشارد قلب الأسد، وأنقذه في النهاية بالتوصل — إن لم نقل بإملاء — شروط صلح الرملة.

هذا ولسلوك العادل وأفراد البيت الأيوبي وحواشيهم فقد صلاح الدين في أواخر أيامه السيطرة على قادة جنده وانتابه التعب العظيم، ويبدو أن المعلومات عن الأوضاع داخل المعسكر الفرنجي كانت تحجب عنه، علماً بأنه امتلك جواسيس كانوا يعرفون كل ما يجري داخل صفوف الأعداء.

لقد حقق رتشارد قلب الأسد بعض التفوق العسكري، ونجح سياساً إلى أبعد الحدود، فقد تخلص من غي ملك القدس أيام حطين، وأزاح كونراد صاحب صور من على مسرح الأحداث بالتعاون مع الحشيشية، وفرض ابن أخته هنري ملكاً على مملكة القدس الثانية التي بعثها إلى الوجود، وهكذا أطال عمر الحروب الصليبية قرناً آخر، والقرن ليس بالزمن القصير.

ولما تقدم من أسباب وأسباب أخرى، اهتممت كثيراً بمصادر أخبار الحملة الثالثة لأن الحملات بعدها أمواج شاردة، ولأن مواد المصادر العربية لا تكفي، ولحسن الحظ تمكنت من تحصيل كتاب ذيل تاريخ وليم الصوري الذي كتبه واحد من الفرنجة البلديين، وهذا الذي أقدم له، وقد كتبه واحد من الفرنجة البحرية الوافدين بركاب رتشارد قلب الأسد، ونضيف إلى هذين المصدرين ما ورد في المجلد المتقدم وما سيرد في المجلد المقبل — إن شاء الله —، هذا ولن أتحدث عن مؤلف مصدرنا الحالي، فهذا قد ورد في مدخل الكتاب وسيرد المزيد حوله في المجلد المقبل.

وإتماماً للفائدة اخترت ثلاثة نصوص هامة جداً، كتبها بعض الحجاج الأوربيين الذين زاروا فلسطين فيما بين: ١١٠٢ و ١١٣٠م ، هذا ولدي المزيد من النصوص ستأخذ محلها في مجلدات مقبلة، والنصوص المقدمة اليوم هامة جداً، لأنه قبيل بداية الحروب الصليبية كانت هناك أوضاع خاصة في فلسطين وبالقدس بالذات نراها من خلال الجغرافيين العرب، وبعض الشيء من خلال رحلة أبي بكر بن العربي صاحب العواصم من القواصم، ثم جاء الاحتلال الصليبي وأحدث الفرنجة الكثير من التغييرات، وتلا هذا حطين وتحرير القدس وإقدام صلاح على إعادة النظر بأحوال المدينة المقدسة: في تطهير المسجد الأقصى وإقامة بيمارستان ومدرسة مع منشآت أخرى.

ومن هنا تنبع أهمية هذه النصوص، فضلاً عن أنها تومىء إلى ما أغفله المؤرخون، حيث واضح من خلالها أن شعب فلسطين العربي قاوم الاحتلال الصليبي بشتى السبل، وأن هذه المقاومة بلغت من الفعالية إلى درجات جعلت الفرنجة لا يرتحلون إلا على شكل جماعات محروسة، ولا يتجرأ أحد منهم على العيش، أو الظهور خارج أسوار القدس وغيرها من المدن المحتلة.

ولا شك أن القارىء الكريم سيجد المزيد من الفوائد، والله تعالى أسأل العون والسداد، وعليه جل وعلا دوماً أتوكل، والحمد لك اللهم أولاً وآخراً، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهداه إلى يوم الدين.

سهيل زكار

دمشق ٢/ ذي القعدة ١٤١٨هـ

٣٠/ آذار١٩٩٨م

مدخل

توفي النبي محمد ﷺ في عام ٦٣٢م، وتمكن العرب خلال المتبقي من هذا القرن من فتح معظم العالم المعروف آنذاك، وحررت القدس في سنة ٦٣٧، وظلت العلاقات لقرابة أربعة قرون بين الحكام المسلمين والحجاج المسيحيين جيدة،حتى أن بعضهم يزعم - بدون توثيق - أن الخليفة هرون الرشيد ذهب إلى حد الاعتراف بملكية شارلمان لكنيسة القيامة، وبحمايته للمسيحيين في القدس، ولم يحدث تغيير في المعاملة حتى حلول سنة ١٠١٠، ففي تلك السنة أقدم الخليفة الحاكم بأمر الله، وكان شديد التعصب، ومتهماً بعقله، على إصدار أوامر قضت أن الحماية قد سقطت، وانتهت، وأمر بهدم كنيسة القيامة.

وفي القرن الحادي عشر، عبر الغُزّ إلى خراسان، وانتزعوها بزعامة السلاجقة من أيدي أبناء دينهم، أي من أيدي الغزنويين، واحتلوا العراق ثم اجتاحوا آسيا الصغرى وسورية بما فيها فلسطين، واستولوا على القدس في سنة ١٠٧١، ولئن كان هؤلاء همجاً وعلى درجة عالية من التوحش في معاملتهم لأبناء دينهم المسلمين، فقد كانوا أكثر همجية وأشد وحشية تجاه المسيحيين الذين وقعوا في أيديهم. ودعا في سنة ١٠٩٥م البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية الأولى وقال:«إذا أردتم إنقاذ أنفسكم قاتلوا في سبيل المسيح».

ولم يحمل أيا من الشخصيات الملكية «شارة الصليب» في تلك الآونة، وكان أعلى الناس رتبة ممن انضم إلى تلك الحملة هو غودفري دي بويلون. ومن بين جميع الوحدات التي زحفت في الحملة الأولى، وحدته فقط هي التي لم تعان من مأساة قبل الوصول إلى الأراضي المقدسة،

واستولى بلـدوين أخو غـودفري سنة ١٠٩٨م، على مـدينة الرهـا، كما وتم الاستيـلاء الصليبـي على أنطاكيـة في السنـة التـالية،واقتحـم الصليبيـون القـدس في سنـة ١٠٩٩، وهكذا كـانـت هـذه الحملة أنجـح الحمـلات الصليبية جميعـاً، ونجم عنها تـأسيس المملكـة اللاتينية في القـدس، التي امتد سلطانها على الفـرنجة حتى مدينـة الرها، بما في ذلك إمـارة أنطاكية مع كونتيتي طرابلس والرها.

وانتخب غودفـري ملكاً، غير أنه رفض أن يلبس التاج الـذهبي حيث لبس يسوع تـاجاً من شوك، وآثـر عدم استخدام أي لقب أعلى مـن لقب «كونت»، وجرى بناء القلاع لحمايـة المملكة، وشحنت هذه القلاع بجنود انتموا إلى الـرهبانيات العسكـرية،التـي حصلت على العون مـن المقاتلين المؤقتين من بين الحجاج مـن أوربا، وتأثر الصليبيون الذيـن مكثوا بشكل دائم في المملكة بالسكان المحليين، وأصبحوا بسرعة الأشبه بأهل المشرق.

واستولى في سنـة ١١٤٤م، زنكي أتـابك الموصل، على الـرها، ممـا دفع برنارد أوف كليرفو للتبشير بالحملة الصليبية الثـانية، وتطوع كل من لويس السابـع ملك فرنسا، وكـونراد الثالـث امبراطور ألمانيا لقيادتها، وكـادا بعد كثير من المشـاكل أن يستـوليا على دمشـق، غير أنهما أعيقا بعـدد كبير من المعيقات ولقيـا مقاومة فعـالة، وفي سنـة ١١٤٩، عاد الأحياء الـذي بقوا من هذه الحملة إلى أوطانهم.

ويحكى أنـه عندما هددت دمشـق من قبل الصليبيين، عـاش في تلك المدينة فتى كان في حـوالي العاشرة من عمره، وكان ابناً لـواحد من ضباط زنكي، الذي كان من أصل كردي، واسمـه أيوب، وولد الفتى لدى توجه أسرتـه مـن العـراق إلى الجزيـرة، وكان ذلـك سنـة ١١٣٨، وكـان اسمـه يـوسـف غير أنـه شهر أكثـر بلقبـه وهـو «صـلاح الـدين» فهكـذا عـرفـه الصليبيون، وقد نشأ هـذا الفتى في سورية، وبات صاحـب أشهر اسم في تاريخ الصليبيين كله.

واصطرعت القبائل التركية مع القبائل العربية التي قُهرت من قبلهم، بشكل متواصل، ويعو الفضل في استمرار المملكة اللاتينية حية في القدس لمدة طويلة معتبرة في وسط الجسم الإسلامي، بالدرجة الأولى إلى أنها كانت القوة الوحيدة الموحدة في المنطقة، وقد تحالفت من وقت إلى آخر مع الخلافة الفاطمية بالقاهرة ضد الأتراك، وبات واضحاً أكثر فأكثر عندما وصل صلاح الدين إلى سن الرجولة أن المشرق الإسلامي إذا لم يتحد سيزول من الوجود، وقرر صلاح الدين وجوب توحده، ولقد كان هو الرجل الأكثر موائمة للوصول إلى هذه الغاية وتحقيق الوحدة.

وكان حاكم بلاد الشام آنذاك هو نور الدين بن زنكي، وفي سنة ١١٦٤، بعث نور الدين بشيركوه عم صلاح الدين إلى مصر للاستيلاء عليها، وكان صلاح الدين وقتها في السادسة والعشرين من عمره، وقد ذهب برفقة عمه بمثابة مساعد له ونائب، وعندما توفي شيركوه خلفه صلاح الدين، وقد قبل نور الدين بحلوله محل عمه، وكانت النتائج مرضية جداً، فعندما كان الخليفة الفاطمي في سنة ١١٧١ يحتضر كان صلاح الدين هو وزير مصر وحاكمها، وكانت سورية ومصر موحدتان في دولة واحدة.

وإثر وفاة نور الدين في سنة ١١٧٤، اضطربت الأوضاع في سورية، واضطر الفتى الصالح اسماعيل وريث نور الدين إلى مغادرة دمشق إلى حلب، فجاء صلاح الدين فضبط البلاد ووسع ممتلكاته حتى حلب، وتمكن في السنوات التالية من الاستيلاء على حلب نفسها، وهكذا بات سلطان مصر والشام، وفي العامين التاليين مدّ صلاح الدين سلطانه إلى ما بعد الفرات، ووحد المشرق الإسلامي تحت رايته. وأمضى الحقبة ما بين ١١٨٠ و ١١٨٤ بالحرب ضد المملكة اللاتينية، ووقع في السنة الأخيرة معها هدنة مدتها أربع سنوات، وخرقت هذه الهدنة وتعطلت سنة ١١٨٦ من قبل أرناط (رينودي شاتيلون حاكم أنطاكية، ثم

صاحب الكرك)، وهكـذا امتلك صلاح الدين المسوغ لإعـلان الجهاد من أجل طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة، ولـدمج ممتلكاتهم داخل دولته الكبرى؛ ومـع هذه النقطـة بدأ المؤرخ حـديثـه، أي مع الغـزوة الناجحـة لصلاح الـدين ضـد مملكة القدس، فهنـا تكمن بـداية الحملـة الصليبية الثالثة، وعندمـا انتهت هذه الحملة بهدنة ٢ـ أيلـول ١١٩٢، وعلى الرغم من جهود رتشارد الأول ملك انكلترا، كـان صلاح قد أزال مملكة القدس من الـوجود، ووحـد المشرق الإسلامـي، لكن نصره الشخصي عـاش لمدة وجيـزة لأنـه مـات في دمشـق في ٤ـــ آذار ١١٩٣، وهـو في الخامسـة والخمسين من عمره.

وكان صلاح الديـن أنبل الحكام المسلمين وأقدر القادة الذيـن توجب على الصليبيين القتـال ضـدهم، وكـانـت إنسـانيتـه وفـروسيته مـدهشـة واستثنائيـة في عصر العنف الـذي عاشـه، ومثل دومـا بأخـلاقه وسلـوكه وتصرفاتـه أرقى النماذج المثـالية التي بشرت فيهـا الديـانة التـي آمن بها، ومع أنـه كان في بعض لحظات الضيـق من الصليبيين كان يقول: دعـونا نزيل الهواء الذي يتنفسونه، لقـد عامل أسراه من الصليبيين بشكل أفضل بكثير مما عامل به الصليبيـون أسراهم من المسلمين، ومجد المرأة واحترمها، وحمى الضعيف، وعبر عـن إعجابه بشجاعـة عدوه، ولقد نظر هـو والملك رتشارد إلى بعضهما نظرة عالية وقـدرا بعضهما بعضاً، وكان من الممكن في أوقات سعيدة أن يكونا صديقين متقاربين.

ويـرى بعضهم أن رتشـارد كـان جنديـاً متفـوقـاً على الجندي صـلاح الدين، لكن صلاح الدين كان قـائداً أعظم، اعتمد على ما بثته قيادته في نفوس رجالاته، وعلى مـا قام به من توحيد للمسلمين، ومـن ثم ايمانه أن هذا سيحقق النصر لعسـاكره في القتال، وهو لم يتعلم كيف ينظـم جيوشه بشكل صحيـح، وهكذا لم تكـن هذه الجيـوش قط أكثـر من حشـود غير منظمة لكـن شجاعـة ومتحمسة، ونادراً مـا قاد هو قـواته شخصيـاً أثناء

القتـال، بمبـاشرة الحرب بنفسـه على رأس الصفـوف، وليـس مـرد هـذا لافتقاره إلى الشجـاعة، فقـد كان شجـاعاً، بـل لأنه رأى أنـه ليس مـن واجـب السلطـان مبـاشرة الحرب شخصياً، بـل إدارة المعـركـة والإشراف عليها، وكـان في الواقع، كما أشار مـؤرخنا، قد وجه النقـد إلى تهور رتشارد وإصراره على أن يكون الأول في سـاحة الـوغى،وصحيـح أنه تفـوق كثيراً على رتشارد كرجل دولة، لكنـه افتقر إلى الحزم، ولم يكن عبقرياً في الإدارة، ولذلك توزعت دولته الكبرى بين أقربائه ورجاله إثر موته.

وكان رتشارد أصغـر سناً من خصمه الكبير بتسع عشرة سنـة، ذلك أنه ولد سنـة ١١٥٧، لكل مـن هنري الثـاني واليانـور الأكوتـانية، وفي سنـة ١١٧٣ كـان رتشارد مـع اثنين مـن إخوانـه في حـرب ضـد أبيهم، لكـن الرجـل مالبث أن تصالـح مع والده سنـة١١٧٥، ثم رفض تقديـم الولاء إلى أخيه الأكبر هنـري، وأعقب هذا نشـوب حرب بين الأخويـن، انتهت بـوفـاة هنري في سنـة ١١٨٣، واقترح وقتهـا وجـوب تنازل رتشـارد عـن أكوتين لصـالح أخيه الأصغر جـون، وأدى هذا إلى نشوب حـرب أخرى، طلب خـلالها رتشارد العـون من فيليب ملـك فرنسا ضـد كل مـن أخيه وأبيه، وحدث في هـذه الآونة أن قدم رتشارد الولاء لفيليب عـن ممتلكاته في القارة الأوربيـة، وبعدها هـزم رتشارد والده، وأرغمـه على الاعتراف به ولياً لعهده وخليفة له.

وأدت وفاة هنري الثاني، واعتـلاء رتشارد العرش إلى الخلاف بين الملك الجديد لانكلترا وبين صديقه المتقدم فيليـب، وامتلك المؤرخ (الذي كان رتشارد بنظره دومـاً كاملاً ولايمكن أن يقترف الخطأ) كثيراً مـن التفاصيل ليرويها حول تطـور هذا الصراع، وعنـدما كـان رتشارد في حـوالي الرابعـة والثلاثين مـن عمره، قام بالمشـاركة بالحملـة الصليبية الثالثة، وتعـد هذه المشـاركة القسـم الوحيـد في تاريـخ حياتـه وأعماله الـذي أكسبه حسـن السمعة والمكانة.

ولم يسبق لرجل انكليزي، أن عدّ مملكته مجرد مصدر للمال لينفق على مطامحه العظمى، وكان ما سعى إليه من استخلاص القدس من المسلمين،مع طرائقه في استخراج المال من رعاياه، بلا رحمة قد سبب كثيراً من المعاناة والمصاعب، وعندما أثنى المؤرخ على كرم رتشارد نحو ضيوفه، وإنفاقه بسخاء على الحملة الصليبية، ينبغي ألا ينسينا فعله هذا دافع الضرائب الذي استخرجت منه الأموال.

ورأت انكلترا خلال السنوات العشرالتي حكمها فيها رتشارد، هذ الملك لعدة أشهر فقط، وفي الحقيقة لقد حكمت بشكل أفضل أثناء غيابه (فيما عدا الاضطرابات التي سببها أخوه جون، الملك المستقبلي) مما لو كان حاضراً، لأن المستشارين من الكنيسة والدولة الذين رست السلطة في أيديهم، بذلوا أفضل جهودهم للحكم بشكل جيد، تبعاً لمعطيات أيامهم.

حتى عندما عاد الملك رتشارد من الحملة الصليبية، أمضى عدة أسابيع قليلة في انكلترا، فقد كان اهتمامه أعلى بممتلكاته في القارة الأوربية، وبحروبه الصغيرة مع فيليب وجيرانه، وهناك لدى المؤرخ إشارات كثيرة لاستخدام الزنبورك، أو القوس العقار، الذي كان للتو قد جرى استخدامه، ذلك أن القوس الطويل لم يكن قد عرف بعد بين الأسلحة الانكليزية، وكان رتشارد نفسه بارعاً باستخدام الزنبورك، ولقد استخدم هذا السلاح الجديد بتأثير كبير وفعالية في معاركه الفلسطينية، وحدث أنه من جراء إصابته برمية من قوس عقار قد توفي لدى حصار كالو Chalus في نيسان عام ١١٩٩،وكان عمره وقتها اثنتان وأربعين سنة.

وكان رتشارد رجل عصره، كرس نفسه عن إيمان لتحرير الأماكن المقدسة، ومع ذلك كان خسيساً دنيئاً وبلا قيم، عندما كان مثل هذا السلوك يوصله إلى غاياته، وكان بخيلاً قذراً وخائناً، أو نبيلاً فارساً،

وتعلق ذلك كله بعواطفه وأحواله في ساعة من الساعات، وكانت ثقافته عالية جداً،ولكن شاردة متقلبة الأطوار مثل صاحبها، وكان من الممكن أن يجهش بالبكاء أثناء انفعاله لدى سماعه الموسيقى، التي أحبها وأغرم بها إلى أبعد الحدود، ومع ذلك امتلك عاطفة مماثلة وتعطشاً أعظم للقتل وللقتال، فهذا الرجل الذي يقال بأنه تولى ترقية ابن أخي صلاح الدين إلى مرتبة الفروسية بيده نفسه، أمر بتنفيذ مذبحة عكا، لا بل باشر قتل الأسرى بنفسه، ونادراً ما عاد من حملة ومعه أقل من عشرة رؤوس بشرية إلى اثني عشر رأساً قد علقها من أطراف سرج حصانه كبرهان على بسالته وقدراته الخارقة.

وجعلته رعونته وطباعه العنيفة حليفاً من الصعب جداً تحمله، لكن بلاريب كان أقدر جندي في أيامه، وكسبت تكتيكاته في الأراضي المقدسة إعجاب العدو والصديق، وكان على السواء معلماً سيداً في كل من حرب حصار المدن وفي معارك الالتحام، وكان شخصياً لا يعرف الخوف تماماً، وغالباً ما غامر بنفسه حيث خاف جنوده من اللحاق به، وجعلته قوته الجسدية وبراعته في استخدام جميع أنواع الأسلحة المقاتل الأكثر إرعاباً ممن وجد على كلا الطرفين، وشهر بتفوقه على جنوده أثناء الساعات الحرجة والعمل الصعب، بقدر ما تفوق بشهرته على القادة الآخرين في التكتيك. .

وكان في أثناء حياته، وبعد مماته بوقت البطل الأثير جداً لدى الشعراء المتجولين والرومانسيين، ذلك أنه لم يكتف بايثارهم وحبهم كثيراً، بل إنه عدّ نفسه واحداً منهم، وكان يسر إذا نظر إليه على أنه واحداً منهم، وتمتع بدون سبب في إظهار غنائه وصوته الجميل على القيثارة من نظمه الخاص، وفي الحقيقة لقد بقي عبر القرون شخصية زير النساء وموضع الإعجاب، وهكذا استمر الحال حتى أن السير وولتر سكوت قدمه في سنة ١٨٢٥ بمثابة بطل رومانسي في «الطلسم»، وهي رواية قادت إلى إحياء

شعبيته في القرن التاسع عشر بين أوساط الشعراء والرومانسيين.

وكانت الحملة الصليبية الثالثة آخر محاولة قامت بها المسيحية الموحدة، ومع موت كل من بطلي المسيحية والإسلام، أخذت حرارة الروح الصليبية تغدو مع الأيام أكثر ضعفاً حتى جاء الوقت الذي انطفئت فيه تماماً.

وأرغم أباطرة بيزنطة على إقامة الصداقة مع جيرانهم الأتراك، وهكذا أصبحوا موضع شك لدى بني دينهم المسيحيين، ونجم عن ذلك تعمق الانشقاق، وعلى ذلك لم تكن الحملة الصليبية الرابعة لعام ١٢٠٣، صليبية على الإطلاق، بل كانت حملة ضد القسطنطينية عاصمة بيزنطة، وقادت إلى إقامة الامبراطورية اللاتينية التي عاشت خلال نصف القرن المقبل، وجرى أثناء الحملة الخامسة التي استمرت من ١٢١٨ إلى ١٢٢١، الاستيلاء على مدينة دمياط في مصر، لكنها أخفقت في تحقيق أي تقدم أكثر، وكان الصليبيون سعداء في الموافقة على عقد معاهدة سلام لمدة ثمانية أعوام؛ وتمكن فردريك الثاني الألماني في الحملة الصليبية السادسة من الحصول على القدس، بوساطة المباحثات، وتتوج ملكاً في سنة ١٢٢٩، لكي يتعرض لغضب البابا غريغوري التاسع لأنه توصل إلى التصالح مع المسلمين، وفي سنة ١٢٤٤ ساعد الغزاة الخوارزمية الذين اجتاحوا آسيا الصغرى وأعالي بلاد الشام، على استرداد القدس.

وقاد في سنة ١٢٤٩ لويس التاسع ـ القديس لويس ـ ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة ضد مصر، لتكون مقدمة لتحرير الأراضي المقدسة، لكنه هزم ووقع أسيراً في المنصورة مع الجزء الأكبر من جيشه، ولم يطلق سراحه إلا بعد ما دفع فدية كبيرة جداً، ثم أقلع في سنة ١٢٧٠ في الحملة الصليبية الثامنة، لكنه لم يتجاوز مدينة قرطاج (تونس) حيث توفي، وتولى إثر ذلك الأمير إدوارد الانكليزي القيادة، ووصل إلى فلسطين، واستولى على عكا، لكنه أدرك في سنة ١٢٧٢، أنه لا أمل من حملته، فعاد

إلى وطنه بعدما أعد اتفاقية هدنة لمدة عشر سنوات.

وثابر في السنوات العشرين التالية فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية على الاحتفاظ بعكا وصور وبعدد قليل من الحصون في فلسطين،لكن لم تُبذل أية محاولات جديدة جادة لاسترداد الأراضي المقدسة قبل سقوط عكا بأيدي المسلمين في سنة ١٢٩١، حيث تبعها بسرعة استسلام صور مع بقية الممتلكات الصليبية.

وأدت الحروب الصليبية إلى زيادة التجارة وتبادل المؤثرات بين الشرق والغرب، وكان تبادل الأفكار هاماً، لأن النظرة الضيقة لكلا الجانبين قد توسعت كثيراً، فالناس الذين عادوا من الحملات الصليبية جلبوا معهم إلى أوربا أنواعاً من الأطعمة والتوابل لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت في الغرب،وذلك بالإضافة إلى معدات مفيدة وآلات تراوحت فيما بين الطواحين الهوائية إلى السجاد، وظهر السجاد في أوربا في القرن الثاني عشر، واستخدم في البداية لتغطية المناضد والموائد، وذلك قبل أن يتحول الاستخدام إلى تغطية الأرض، وارتفع مستوى المعيشة في أوربا، وبالإضافة إلى ذلك توفر عطاء دائم لاحترام متبادل، لأن المسيحيين والمسلمين أظهروا أفقاً واسعاً واستمرارية وصبراً في الصراع المرير، وهي سمات قدرها المتصارعون على ساحات القتال تقديراً عالياً.

إن كاتب التاريخ رجل مجهول، وبناء على معطيات المخطوطة، ساد اعتقاد أنه كان غيوفري دي فنسوف Vinsauf، لكن اكتشف في ١٨٧٣ م.غاستون الباريسي أن النص موجود شعراً، وقد ترجم من النورماندية الفرنسية إلى اللاتينية الوسيطة في شعر ثماني المقاطع منسوب إلى أمبرويز Ambroise، وهو شاعر جوال نورماندي رافق الملك رتشارد وذهب معه إلى الحملة الثالثة، وعرف العمل الأصلي باسم Carmen Ambroisii، والترجمة الشعرية باسم «رحلة حج وأعمال الملك رتشارد»، وتعرف الآن باسم «صليبية رتشارد قلب الأسد».

وهذا التـاريخ أفضل مصــدر حول الحملـة الصليبية الثالثـة، علماً بأن كل أمة اشتركت في هذه الحملة توفر لديها مؤرخوها .

-وقال نيكولاس تريفي Nicolais Trivet وهو كاتب فرنسيسكاني كان في أوائل القـرن الرابع عشر، بـأن شماساً كـان هنا اسمه رتشـارد من الثالوث المقدس في لندن قد كتـب «رحلة هذا الملك [رتشارد الأول] نثراً وشعـراً»، ونقـل نصوصـاً مـن التـاريـخ الحالي، ومن المحتمـل أن يكـون رتشارد الثالوث المقدس هذا هـو «رتشارد دي تمبلو»، الذي انتخب رئيساً للثالوث المقدس في سنة ١٢٢٢، والـذي توفي في حوالي سنة ١٢٥٠، ولا يستبعـد أن تكون «دي تمبلـو» هـي كنيته، وأن معنـاها هـو أنـه كان مـن الداوية Templar، ولعله كان شماساً في تلك المنظمة ولم يكن فارساً.

وهناك خـلافان صغيران بين نصي الشعـر والنثر، وقـد يكونـان مهمان، فلقد جرى في الشعـر استخدام الشخص الأول مفرداً، واستخـدم في النثر الشخص الأول جمعاً، وإذا صـح أن دي تمبلو قد ترجم بـالفعل الكتاب، لعله استخدم لغـة الجمع ليضم نفسه، على أساس أنه هـو نفسه خدم في الحملة الصليبيـة الثالثة، وتتضمـن هذه الفرضيـة بحقيقة، أنه في الـوقت الذي نجد فيه معظـم الكتاب عبارة عن ترجمة قريبة جـداً، نلاحظ وجود بعـض الإضـافـات الصغيرة أضيفـت إلى القسـم الأول الـذي عـالـج الأحـداث في فلسطين قبـل وصـول رتشارد، وفي إحـدى الفقـرات يقـول الكاتب: «لكم توقعنا وصول الملك وانتظـرناه بقلق وشوق»، ويومىء هذا إلى أنه كان في عكا قبـل وصول كل من فيليب ورتشارد، ومـع هذا كتب ما أشـار به إلى أنـه كان في أسطول رتشـارد أثناء الـرحلة إلى عكـا، ولعل المسألة مردها إلى تحريف صدر عن المترجم، أو إقحام جملة من قبله.

ولقـد اعتقـد بعضهـم أن أمبرويز ربما، هـو الـذي كتـب نصي الشعـر والنثر، وأن نيكـولاس تريفي أخطـأ في عزو الكتـاب إلى رتشارد، في حين أن الصحيـح هو التـأكيد أن الكـاتـب نفسه كـان المسؤول عـن النصين،

لكـن يبـدو أن هذا أقـل احتمالاً مـن القـول أنهما ترجما مـن قبـل مترجمين مختلفين، وعلى كل حـال من غير الممكـن تأكيد هـوية شخصيـة المؤلف، وستبقى المسألة موضع شك.

وفي ضـوء تكـريـس المؤلـف نفسـه بشكـل مطلـق للملـك رتشـارد، وملاحظـاته حـول سلوك الايرل جـون، حينما كان في فلسطين، يبـدو من المشكوك فيـه أن يقدم على المغامـرة بالظهور في البـلاط عندما كـان جون ملكـاً، لهذا مـن المستبعد أن يكـون الكـاتـب الأصيـل للشعر هـو أيضـاً الكاتـب لدى الملك جون، والـذي حمل الاسم نفسه، وهو الـذي دفع في ٢ــ تشرين أول سنـة ١٢٠٠، شلنا واحـداً، من أجـل غناء تـرتيلة أثنـاء تتويج الملك جون.

وقد طبعت منتخبات من هذا التاريـخ في هانوفر سنة ١٦١١ من قبل جاكـو بونغـار Jacques Bongars في كتابـه «أعمال الفرنجـة»، ونشر للمرة الأولى كامـلاً في سنة ١٦٨٧ من قبل غيـل وفيل Gall+ Fell في «مجمـوعهما»، وأعيدت طبـاعة النـص الـلاتيني في سنـة ١٨٦٤ من قبـل و.ستب W.stubbs ، في الجزء الأول من كتـاب «تواريخ ومـــذكرات حكم رتشارد الأول»، وتقدم على هذه الطبعة نشر ترجمة انكليزية لا نعرف صاحبها لصالح مكتبة بوهن أنتيكواريان Bohn Antiquarian وكانت قـد نشرت سنة ١٨٤٨، وجـرت الإفادة مـن هذه الترجمة كثيراً في عملنـا هذا.

كتاب
حملة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة

نحن الذين نعالج تاريخ القدس

جديرون بالتصديق حقا، لأننا أوردنا مارأيناه

ودوّنا بالقلم هذه الأعمال بينما ماتزال ذاكرتنا واعية لها. وإذا ما أراد قارىء متشدد اسلوباً

أكثر رشاقة، عليه أن يتذكر أننا كتبنا عندما كنا

بالمعسكر، ولم يسمح لنا ضجيج الحرب بالهدوء والتفكير العميق.

كيف هاجم صلاح الدين فلسطين

في سنة ١١٨٧ لتجسيد كلمة ربنا، عندما كان أوربان الثالث يرأس حكومة الكرسي الرسولي، وفردريك الأول امبراطورا لألمانيا، واسحق الثاني يحكم في القسطنطينية، وفيليب الثاني في فرنسا، وهنري الثاني في انكلترا، ووليم الثاني في صقلية، وقعت يد الرب بثقل فوق شعبه، إذا صح أن ندعو هؤلاء «شعبه»، لأن دنس حياتهم، وعاداتهم، وبشاعة شرورهم، قد أبعدتهم عن إحسانه، لقد غدت آثامهم واضحة إلى حد أنهم جميعاً (رموا جانبا برقع الحياء) وانغمسوا كلياً، في وضح النهار في حمأة ذنوبهم.

وسيكون عملاً طويلاً، لايتوافق مع هدفنا الحالي، أن نكشف مشاهد الدم، والسرقة والزنا التي لطختهم (إن عملي الحالي تاريخ وليس رسالة في الأخلاق)، ولكن عندما نشر عدونا القديم قرباً وبعداً، روح الفساد، استولى أكثر بشكل خاص على أراضي سورية وفلسطين، وهكذا أخذت الأمم الأخرى الآن تنهل الدنس من المنهل نفسه الذي زودهم من قبل بعناصر الديانة، فهذا ما جعل الرب، وقد رأى أرض ميلاده، وشهد مكان آلامه، قد سقط في حمأة الموبقات عامل باهمال ورثته، وجعل من صلاح الدين عصا عذابه، وصب غضبه في سبيل تدمير ذلك الشعب العنيد، لأنه بالحري كان يؤثر بأن تصبح أرضه خاضعة لوقت قصير للطقوس الدنسة للكفار على أن تبقى في حوزة أناس ليس لديهم تقدير لما هو صحيح ولما يحول دون الأخذ بالأشياء غير الشرعية.

وبناء عليه قام صلاح الدين بعدما حشد وحدات مقاتليه، بالهجوم بكل عنف على فلسطين، وبعث أمامه أمير الرها مع سبعة آلاف من الترك للقيام بالعيث فساداً في الأرض المقدسة، وبعد ما زحف هذا

الرجل بعيداً حتى الأماكن من حول طبرية اصطدم بجيرارد دي ردفورت، مقدم الداوية، وروجردي مولين مقدم الاسبتارية، وقد هزم هزيمة ساحقة واحداً منهما، وقتل الثاني في هجوم مفاجىء.

وعُزل في هذه المعركة (١— أيار ١١٨٧) عدد من جنودنا وحوصروا من قبل حشد كبير مما أدى إلى تحقق واقعة تستحق التدوين: كان هناك فارساً من الداوية، من أصل ألماني اسمه جاكوين دي ميللي، استطاع بشجاعته المفرطة أن يحول هجوم الأعداء ضده، فقد كان أصحابه من الجنود، وعددهم نحو خمسمائة، قد وقعوا إما بالأسر أو قتلوا، وصمد وحده يتحمل ثقل المعركة كلها، فلقد كان بطلاً حقيقياً لشريعة الرب، وأخيراً طوق تماماً من قبل عساكر الأعداء، وافتقر إلى المساعدة البشرية، وعندما رأى الآلاف المؤلفة تندفع نحوه من كل جانب، جمع شجاعته كلها وواجه بإقدام العدو وحده، وجذبت شجاعته اعجاب الأعداء، فامتلأوا بالعطف عليه، ودعوه باخلاص إلى الاستسلام، غير أنه واجههم بأذن صماء ولم يستجب لما رغبوه به، ولم يكن خائفاً من الموت في سبيل المسيح (وبعد ما أثقل بحمل النشاب، والحجارة، والحراب، استمر يقاوم ولم يسقط) غير أنه وبعد مصاعب جمة قتل، وتحول موته بالحقيقة إلى مجد وفخار، لأنه استطاع بسيف واحد أن يحيط نفسه بأكوام من القتلى.

وسرّ صلاح الدين بهذا النصر سروراً عظيماً، وحوّل ذهنه نحو أفاعيل أعظم، فبعدما استنهض جميع القوى في مملكته، هاجم بقوة وجرأة أراضي القدس، وعلى مسافة قصيرة من طبرية، وفي مكان اسمه حطين، امتحن الرب شعبه بالسيف، وجرح الكثيرين، وألقيت أعداد كبيرة جداً بالسجن، حتى أن تدمير شعبنا استدر عطف أعدائهم.

وتمّ الاستيلاء على صليب الصلبوت، الذي صلب عليه ربنا ومخلصنا، ولوث بأيدي غير المؤمنين، ولقد سقط حاملاه معه وهما:

أسقف عكا، وأسقف القديس جرجس (اللد) ، فقد قتل أحدهما وأخذ الآخر أسيراً.

لقد جرى أسر ملك القدس وصليب الصلبوت معا، وتم حفظ شطر من الأسرى دون أن يلحقهم أذى، ليوضعوا تحت تصرف المنتصر، ولاقى شطر مصيره بالسيف، وكان بين هؤلاء أرناط، أمير أنطاكية، وقد اقتيد أولاً إلى حضرة السلطان، وقام ذلك الطاغية فقطع رأس ذلك الشيخ بيده، وذلك بسبب شدة تعصبه أو حسداً منه وغيرة من هذا الرجل العظيم، وأمر أيضاً بإعدام جميع أسرى الداوية، ولم يوفر سوى مقدمهم، فقد امتلك رغبة في محق هؤلاء الذين تميزوا عن سواهم بالشجاعة اثناء القتال.

وعندما خمدت أصوات المعركة، رفع صلاح الدين عينيه نحو السماء، وقدم الشكر لله على النصر الذي ناله، ولقد قيل أنه قال: نحن لم ننتصر بقوتنا، لكن ذنوبهم أسلمتهم إلينا فانتصرنا، وهكذا تلاشى بلحظة واحدة مجد مملكة القدس كله، وزال عنها وخمد، ونال المصير نفسه حشد قوات المملكة كلها، فقد جمعها الملك تحت إمرته في سبيل المعركة الحاسمة، وبقي فقط يتولى حراسة المدن والقلاع، الضعفاء والنساء، والشيوخ، والذين كانوا غير قادرين على حمل السلاح.

وكان السلطان واثقاً أن قلاع المملكة ستسقط له بسهولة (بعد ما تم قتل المدافعين عنها)، ولهذا حمل معه الملك الأسير في موكب نصر، لعرضه أمام المدن التي رغب بالاستيلاء عليها، مستهدفاً بذلك ارغامها على الاستسلام، وقد زحف أولاً إلى عكا، واستولى عليها دونما جهد، وسمح لسكانها بالمغادرة، والسفر إلى حيث أرادوا ومعهم كل مقتنياتهم.

وحدث في الوقت نفسه أن البحارة منا، كانوا يتابعون رحلاتهم المعتادة نحو عكا، قادمين من البلدان المسيحية، وكان بعضهم محملاً

بالبضائع التجارية، وبعضهم الآخر بالحجاج، وباللأسف لم يكونوا قد سمعوا بما حدث، ولهذا دخلوا إلى الميناء المعادي ووقعوا أسرى.

وكان المركيز كونراد أوف مونت فرّات، بين آخرين، في طريقه من القسطنطينية، وقد رمى مراسيه خارج ميناء عكا، وكان الوقت يومها عند غروب الشمس، لذلك بقي حيث هو حتى الصباح، وقد أوجد الهدوء الذي لف المدينة في نفسه الريبة، حيث جرت العادة في غير ذلك من الأوقات بقيام صراخ عام وصيحات التهنئة بالقدوم، عندما يظهر أي مركب، كما أن رنوك وشعارات السلطان التي رؤيت في مختلف أجزاء المدينة قدمت السبب لمزيد من الخشية، وشوهد بالوقت نفسه قدوم عدد من المراكب الاسلامية واقترابها، وهذا ما أنذر الملاحين والبحارة، فأمرهم المركيز بلزوم الصمت وانتصب واقفاً وتقدم ليتحدث باسمهم، وعندما سأله المسلمون من هو ومن معه، أجابهم، أن سفينتهم تجارية، وهو مقدمها، وأنه قد سمع بما حدث، وبما أنه عبد مخلص للسلطان، سينتظر حتى انبلاج الفجر ثم يقوم بالنهار بعرض بضائعه.

وجاءت في تلك الليلة ريح طيبة مواتية، وأبحر إلى صور، وتولى هناك مهام الدفاع عنها.

وحدث بعد الاستيلاء على عكا أن استسلمت بيروت وصيدا، وتوقع السلطان أن يأخذ صور بالسهولة نفسها، لكنه رد عن أسوارها بشكل مهين، فقام برفع الحصار، وحمل معه ملك القدس وتوجه من هناك إلى عسقلان، ونصب مجانيقه وآلات حربه لرميها بالحجارة، ثم بدأ بالهجوم عليها.

وطبعاً كان من السهل الاستيلاء عليها نظراً لأن الحامية المدافعة عنها كانت ضعيفة، وذلك على الرغم من أن دفاعاتها قد أظهرتها قوية جداً لاترام، وأنها مشحونة بما يكفيها من جند، وكان المهاجم المتلهف،

متشوقاً للاستيلاء على هذه المدينة قبل كل شيء. ثم إنه لم يكن يثق تماماً بقدراته للاستيلاء عليها عنوة، لأنه لم يكن على بينة بأحوالها وراء الأسوار، ولا كيف أنها كانت تعاني من نقص بالسلاح، والرجال والطعام، ولذلك وافق على شروط استسلامها، التي قضت بأن يسمح لسكانها بالمغادرة بكل حرية وبحمل جميع ممتلكاتهم، وأن يجري اطلاق سراح ملك القدس مع خمسين آخرين من أعيان الأسرى، بأقصى سرعة ممكنة.

ولقد بات الآن أمر سقوط القدس محتوماً، وقام المنتصر بالزحف نحوها بسرعة عظمى لايوازيها سوى كراهيته، وباشر بحصار المدينة، وأنشأ آلات الحرب، ولوث الأماكن المقدسة بأعمال آثمة تدل على عدم الاحترام، وحاول سكان المدينة الدفاع عنها بقدر ما كانوا يستطيعون، غير أن جميع جهود رجالنا كانت بلا فعالية، فقد استخدموا النشاب والحراب والرماح وغير ذلك بدون فائدة، لأن الرب كان غاضباً، وسقوط المدينة أمراً تقرر.

وكانت أعداد كبيرة من الناس قد تدفقت معا على المدينة، واضعة ثقتها بقداسة المكان، أكثر منها بقوة دفاعاته، وكان من المستحيل أن يجد المرء في وسط هذه الحشود العظيمة أربعة عشر فارساً، وقام الكهنة ورجال الدين بتولي أعمال الجند (مع أن ذلك كان معاكسا لاختصاصهم)، وذلك بموجب حالة الطوارىء، وقاتلوا بشجاعة في سبيل بيت الرب، غير أن السكان، وكانوا جهلة ومرعوبين، فتجمهروا حول البطريرك والملكة، اللذان خلفا في موقع المسؤولية عن المدينة، واشتكوا بمرارة، وأعلنوا بصدق أنهم ربما سيطلبون من السلطان منحهم شروط استسلام.

وأخذت المدينة، وتجاوزت تكبيرات المسلمين قمة الصخرة المقدسة، ونشروا هناك شريعتهم الزائفة، لقد نشروها في المكان الذي ذاق فيه المسيح طعم الموت على الصليب، وقام الأعداء بعمل مغيظ آخر: فلقد

ربطوا حبالاً حول صليب، كان موضوعاً فوق قبة كنيسة الاسبتارية (المسجد الأقصى) وسحبوه إلى الأرض، حيث بصقوا عليه، ودحرجوه، وجروه — استهانة بعقيدتنا — وسط جميع قاذورات المدينة.

حصار عكا

أطلق سراح غي لوزغنـان، ملك القدس، من قبل صلاح الـدين، بعد ما أمضـى سنة بـالأسر، وذلك بعدمـا أعطى مواثيـق مشددة أنـه سيتولى التخلي عـن المملكـة، وسيغادر البـلاد نـافيـا نفسه إلى مـاوراء البحـار في القريـب العاجل، لكـن رجال الديـن حللوا الملـك من مواثيقـه وأيمانه، لسببين : أن ما قـام به كان تحت الإكـراه ويستحق الشطـب، ولأن جموعاً من المؤمنين كـانت في طـريقها إلى الأرض المقـدسة، وكـانت ستجـد فيه الرأس والقائد.

وقام الملـك بعد بـرهة قصيرة، بحشـد جيشه، وشرع في أواخـر آب، في يوم القـديس أوغسطين، أي بعد عامين مـن الاستيلاء على عكا مـن قبل الترك، هناك بأعمال ذلك الحصار الطويل والصعب، والذي استغرق أكثر من عامين، وذلك قبل استسلام المدينة.

ووصلت القـوات البيزيـة — التي اختارت السفـر بالبحـر لأنه أقصر وأسهل — بسفنهـا إلى مقربة عكـا، بانتظـام ، وبشجاعة استطـاعت أن تحتل السـاحل، وما أن أنجـز البيازنة تأمين قـاعدة، حتى شرعـوا بأعمال الحصار من جهة البحـر، بشجاعة وتصميم،ونصب الملك مـع بقية جيشه خيامهم على تلة مجاورة، تدعى عموماً جبل تورون Turon استطاع منه (نظراً لارتفـاعه عـن الأرض) أن يراقـب الطرق البريـة والبحريـة الموصلة إليها.

وفي اليوم الثالث الـذي تلا يوم الوصول، قام المسيحيـون بالهجوم على المدينة، وادراكـاً منهم أنـه كان من العبـث انتظار تـأثير أحجار المنـاجيق وبقية الآلات، اعتمدوا على دفـاعات ترستهم فقط، وحملـوا سلالم تسلق حتى يـركبون بها الأسوار، وكادوا في ذلـك اليوم أن يحصلوا نهايـة سعيدة،

لولا خداع العدو القديم، ووصول معلومات زائفة، أحبطت انتصارهم عندما كاد أن يكتمل، فقد روي أن صلاح الدين قد بات وصوله وشيكا، ولهذا رجع رجالنا إلى المعسكر مسرعين، لكن عندما أدركوا أن الذين وصلوا مجرد قوة صغيرة جاءت قبل سواها، عبروا عن غضبهم بدلاً عن أسفهم، لأن النصر اختطف منهم.

وكان السلطان في ذلك الوقت يحاصر قلعة الشقيف في الجليل، وعندما علم بما كان يحدث، زحف مسرعاً مع جيش كبير إلى عكا، وبما أن رجالنا كانوا غير قادرين على التصدي له ومنازلته، أبقوا أنفسهم داخل حدود المنطقة المتقدم وصفها، وهاجمهم الأتراك باستمرار، في الصباح وفي المساء، وجربوا كل وسيلة للتوغل حتى قمة الهضبة، وهكذا فإن أولئك الذين جاءوا لحصار آخرين، باتوا أنفسهم الآن محاصرين.

وبينما كان رجالنا، في هذا الوضع، شاهدوا اقتراب خمسين سفينة، تحمل نجدة قوامها اثني عشر ألفاً من الرجال، وأقام هؤلاء معسكرهم فيما بين المدينة وجبل تورون، ثم صرفوا قواهم العملاقة نحو تدمير الأعداء، وبعدما ازدادت أعداد المؤمنين على هذه الصورة، تقرر بالاجماع مهاجمة المعسكر المجاور لغير المؤمنين، وكان بينهما سهل واسع، قدم رقعة جيدة لاتخاذها ساحة للمعركة.

ووقف الترك بتصميم للدفاع عن معسكرهم، لكن عندما دنا رجالنا واقتربوا فتح الرجالة (الذين كانوا بالساقة) صفوفهم، وقامت قواتنا المحمولة بالانقضاض بكل شجاعة على الأعداء، ولحقت الهزيمة بغير المؤمنين، وتخلوا عن معسكرهم، ثم إن المسيحيين توقفوا عن أعمال المطاردة، رغبة منهم في الحصول على الغنائم، وتم الاستيلاء على خيمة السلطان نفسه، واندفع بالوقت نفسه حشد كبير من الأعداء من داخل المدينة، وزحفوا من المكان الذي لم يكن محاصراً، واستمروا في سيرهم نحو الجبل بوساطة ممر خلفي، بالحقيقة زحفوا عن عمد عبر ممر دائري،

بهدف أنه بينما يكون رجالنا في حيرة لايعرفون هل يقصدون مهاجمة المعسكر أم الجيش، ربما يكون بإمكانهم الانقضاض فجأة على الجيش من المؤخرة.

وكان الداوية، الذين لم يكونوا أدنى شهرة وإيماناً من أحد، قد تمكنوا في هذا الوقت من خرق صفوف الأعداء، ولو أن بقية الجيش تابعت خلفهم في أعمال المطاردة لنالوا في ذلك اليوم حظ الانتصار بالاستيلاء على المدينة وكذلك في المعركة، لكن عندما كان الداوية في جهدهم قد ابتعدوا كثيراً وتوغلوا طويلاً في متابعة حظهم، تعرضوا فجأة للهجوم وغلبوا، وذلك من قبل أهل المدينة، مع أن انتصار الأعداء لم يتم دون قتل عدد كبير من رجالهم.

وفي جزء آخر، بينما كان الألمان مشغولين جداً بأعمال النهب، عرض المخادع القديم أمام أبصارهم حصاناً فاراً، ورأوا جمعاً من الناس يطاردونه، فافترض البقية أنهم كانوا يفرون، وحدث بهذا الحدث التافه، لكن الحاسم، أن الخوف عم وسط الجيش كله، وتوجهوا جميعاً بعقولهم نحو الفرار.

ورأى قادتنا بعد هذا الحادث، أنه من الأفضل التمنع عن أعمال القتال في السهل، وشغلوا أنفسهم في تقوية المعسكر، وأقاموا حوله سوراً من الأتربة الممزوجة بالأعشاب والنباتات، مع خنادق عميقة من البحر إلى البحر، وبذلك أصبحت المدينة مغلقة من جهتي البر والبحر، وبينما كان رجالنا مشغولين في صنع الخنادق هاجمهم الترك بشكل متواصل، على شكل حملات قامت بها فرقة تلو أخرى من الصباح حتى الليل.

وعندما طوق رجالنا عكا من جميع الجهات، بدأ سكانها يعانون من مجاعة شديدة، ذلك أنهم كانوا قد استهلكوا جميع المؤن التي كانت لديهم، ولذلك عرضوا تسليم المدينة على شرط أن يسمح لهم بالمغادرة

مع مقتنياتهم دون أن يلحقهم الأذى، ولم تقنع هذه الشروط مقدمينا الذين قرروا إما إرغامهم بوساطة التجويع على الخضوع لإرادتهم، أو أن ينالوا فخار اقتحام المدينة عنوة، لكن عندما كانوا يناقشون ببطء أمور تسليم المدينة، قام السلطان بتحميل خمسين سفينة بالرجال والمؤن والسلاح من الاسكندرية وأرسلهم لمساعدة عكا، ووصل هؤلاء مساء عيد جميع القديسين، وعندما رؤيت هذه السفن عن بعد، قال بعضهم: إن العدو بات في متناول اليد، وقال آخرون: إن نجدة جاءت لعون المسيحيين، وفيما هم في حيرة غير متأكدين، دخل الأعداء إلى المدينة، وحملوا معهم بالقوة إحدى سفننا التي وجدوها بالميناء ، ولدى تقوية المدافعين عن المدينة بالمؤن، قام هؤلاء بالضغط علينا بشجاعة أعظم.

واستمر بالوقت نفسه الجيش التركي الذي كان موجوداً خارج المدينة بحملاته المتواصلة على رجالنا الذين كانوا خلف الخنادق، وبذل المسلمون جهودهم لطم الخنادق، وأكملوا ردم بعضها برمي التراب فيها، غير أن المسيحيين وإن تعرضوا للضغط الشديد من قبل أهل المدينة من جانب ومن هجوم الجيش من الجانب الآخر حافظوا على مواقعهم برجولة، وأقاموا الحراس على الخنادق، وبذلك تمكنوا من رد الهجمات من كلا الجانبين.

واشتكى رجال العامة الآن من عدم فعالية المقدمين، ومن استمرار الانغلاق بلا فائدة، وضاقوا ذرعاً بالحصار، ولدى قيام المقدمين بتقدير الموقف، رأوا بعد بعض الوقت الذي أمضوه في معرفة ما هو الأفضل للقيام به، أنه ينبغي مهاجمة العدو في الخارج والاشتباك معه في معركة عامة، لأنه إذا ما أرغم الجيش المعادي على الانسحاب، سيكون أمر اقتحام المدينة أكثر سهولة.

وبناء عليه قام قادتنا في اليوم التالي لعيد القديس مارتن بقيادة قواتهم، وقد تعبأوا وانتظموا للقتال، وعند غروب الشمس أكملوا زحفهم

ونصبوا خيمهـم، وهنا قدم سكان المدينـة، ودخلوا المنطقة التـي أخليت، وانقضوا على الأثقال لنهبهـا، لكن رجالنا استقبلـوهم برجولـة وأرغموهـم على الفرار.

وفي تلـك الليلة أمـر السلطان بنقـل جميـع خيمه وأثقـاله إلى الجبـال، والذي لم يمكـن نقله آنئذ أحرق، وهـذا الذي حدث فيـه دليل على روح مهزومة وعلى تردد، لأنه رفض القتال في المنبسـط ودمر أثقاله، وتراجع إلى الجبل، وعندما عثـر على بقعة لم يكن من السهل الوصـول إليها، توقف ، وأرسل عـدداً كبيراً من الـرجالـة والنبالة لإيقـاف من فكـر بالملاحقـة من قوات العدو وصده، وبـذلك بات بإمكانه من علو إغضـاب هؤلاء الذين خاف من الاشتباك معهم عن قرب، وشعـر رجالنا بأنهم خدعوا وأنهم لن يتمكنـوا من الالتحـام في معـركة، وأنهم أيضـاً عـاجزيـن عـن ملاحقـة الأعـداء عبر الطريـق الصعب، لهذا حملـوا أنفسهم وعـادوا دون الإصابـة بأضرار، ودون الحصول على المجد.

وازدادت في الوقـت نفسه الحاجـة إلى المؤن في جيشنا يـوميا، وأضـاف المناخ الحار رعباً إلى رعبهم فيما يتعلق بالمجاعة القائمة.

- ٨١٧ -

خبر ملكي انكلترا وفرنسا

بينما كانت هذه الأمور تحدث في فلسطين، انتشرت أخبار في جميع أرجاء العالم بأن مدن الأراضي المقدسة باتت في أيدي الكفار، وأن الآثار المقدسة تعامل بإزدراء وتداس بالأقدام. وأن المسيحيين تعرضوا للنهب والإهانة.

وتحرك أباطرة أوروبا نتيجة لاثارتهم من قبل البابا غريغوري الثامن، وثار عدد كبير من مختلف الأمم، وحمل الفرنسيون والانكليز قبل سواهم عن إيمان علامة الصليب، واستعدوا بكل ما أوتوه من قوة للاسراع إلى عون الأراضي المقدسة، وكانت الحماسة للحج الجديد هائلة حيث لم يبت السؤال: من سيحمل الصليب، بل من لم يحمله بعد، وأرسل بعض الأشخاص إلى بعضهم هدايا تكونت من مغزل وصوف، وذلك في إشارة إلى أن كل من رفض المشاركة بالحملة سينظر إليه باستخفاف واحتقار، وكأنه انسان قادر على القيام بواجبات النساء فقط، وحثت الزوجات أزواجهن والأمهات أولادهن ليكرسوا نفوسهم لهذا الصراع النبيل، وأسفن أن ضعفهن لكونهن نساء قد منعهن من الذهاب أيضاً، وهاجر الكثيرون من بيوتهم إلى المعسكر، واستبدلوا معاطفهم بالسوابغ وتخلوا عن تعلم الآداب إلى دراسة العمل بالسلاح، وبشر رجال الكنيسة في كنائسهم، وبينوا محاسن التوقف عن شرب الخمرة، وحثوا جميع الناس وأمروهم بالتخلي عما اعتادوا عليه من أسباب الرفاهية، وتم الاتفاق أيضاً على ضمان الحجاج الذين كانوا فقراء.

ومع أن فردريك امبراطور الألمان كان آخر حاكم تعهد بحمل الصليب، كان أول من نفذ تعهده، ولكن عندما كان على حدود أرمينيا (كيليكيه)، وبينما خيول النقل والأثقال تقوم بجواز نهر غوكسو (السن)،

استعد للجواز من أقرب نقطة مـن النهر، حتى يحصل في الأمام، ويمتلك الحرية في متابعة سيره، ولكن المياه قهرته فغرق ومات.

ووصـل رجـال جيشه بعـد ضيـاع وتشرد طـويـل جداً إلى أنطـاكيـة، فأطلقوا لأنفسهم العنان في الأكل وإشباع الـرغبات، ونتيجة لذلك مات عدد كبير منهـم بسبب التخمـة المفاجئة، وهكـذا هلك العـدد الأكبر من هذا الجيش بهذه الطريقـة المعيبة، وعاد معظم الذين بقيـوا على قيد الحياة إلى بلدانهم.

وكـان رتشارد — الـذي كان وقتـذاك كـونت بـواتو — أول مـن حمل الصليب ومعه حشـد هائل من الناس، ولكنهم لم ينطلقـوا بسبب خلاف نشب فيما بين فيليـب ملك فـرنسا، وهنـري ملك انكلترا، والـد رتشارد، وكان رئيـس أساقفة صُور (الـذي حمل إلى العالم المسيحي أخبار الفـاجعة العظيمة) قـد بذل بـإخلاص جهده للمصـالحة بينهما وحدد اليـوم الذي سيلتقيان فيه لحمل الصليب.

وعزمـا في ذلك اليـوم أن يحمل كل واحـد منهما الصليب، ويغـادر من بلاده، وبـدا هذا اجـراءاً احتياطيـاً سلبياً حتى لايقـوم أي منهما بمهاجمة مملكـة الآخـر، ذلك أن أيـا منهما لـن يغـادر مـا لم يغـادر الآخر، ثـم قـام الملكـان بتبـادل قبـلات السلام وحملا الصلبـان (وتميـز كـل منهما بلـون صليبـه، فقد كـان لـون الصليـب الفرنسي الأبيـض، والانكليـزي الأحمر، والفلمنكي الأخضر)، غير أن الملك هنري مات يـوم عيد الرسولين بطرس وبولـص في سنة ١١٨٩، لتجسيـد ربنا، وفي السنـة نفسها، وبعـد موت أبيه، قام رتشـارد كونت بواتـو بعدما رتب شـؤونه في نورمانـدي، أي بعد حوالي الشهـرين من الـوفاة، بالعبـور إلى انكلترا، وكان ذلك في يـوم عيد القديس جايلز، وقد استقبل في وستمنستز بموكب تشريف احتفالي.

وبعد مضي ثلاثة أيـام، في الثالث من ايلول رسم ملكـاً وتوج من قبل

رئيس الأساقفة بلـدوين، وكان أخوه جون حاضراً وقت التتـويج وكذلك أمـه إليانـور مـع عدد كبير مـن الكـونتات والبـارونـات، وحشد كبير مـن الناس والجند، وهكذا أسندت المملكة وآلت إلى أيدي الملك رتشارد.

على هـذه الصـورة وفي سنـة ١١٨٩، لتجسيـد الـرب جـرى تتـويـج رتشارد ملكـاً في يوم أحد، واحتفـل بالمناسبة لمدة ثـلاثة أيام، تـم خلالها استقبال الضيـوف في القصر الملكي في وستمنستر، وأكـرم الجميع بتـوزيع المال عليهم بـدون عد وإحصـاء، وأعطى الجميع تبعـا لمراتبهم، وبـذلك عبر عن كرمه وعظمته الكبيرة.

لقد امتلك شجـاعة هكتور، وسموآخيل، وعـادل الاسكندر (ولم يكن أقل من رولاند) في الشجاعة، وكان كـرم تيتوس كرمه، و (كل شيء نادر وجـد في جنـدي كان فيـه)، وكـان مفـوهـا لـه فصاحـة نستـور وحكمـة يـوليسيـس Ulisses وعبر عـن نفسـه وأظهر عظمتهـا في أثنـاء تنفيـــذ الأعمال، وجعلـه النجاح أكثر مـوائمة للعمـل، لأن الزمـان يـرعى دومـاً الجرىء، ومـع أنه كـان يظهر سروره ممـن يـريد ويضفـي بهجته على مـن يحب، لم يعان رتشارد قط من الهزيمة بالمتاعب والخصومات.

فلقد كان طـويل القوام، جميل المحيا، بشعـر ما بين الأحمر والخرنوبي،، وكـانـت أطـرافـه مستقيمة ومـرنـه، وامتلـك ذراعين أقـرب إلى الطـول، لايمكن موازاتهما في العمـل بالسيف أو الضرب به، وتناسـب طول رجلاه مع باقي بنيتـه، وفي الوقت الذي كان مظهره أخاذا وفيه جـلالة، وأخلاقه وعاداته موائمة، كـان ماناله من مكانة من نسبه الرفيـع أدنى مما حمله من محاسـن تزيـن بها، ولم يحتج إلى إطـراء كبير، ذلك أن حـاجته إلى المديـح كانت قليلة، والمديح كان دوماً المرافق الأكيد لأعماله العظيمة.

كـان متفوقـاً كثيراً على الآخـرين في كـل من المزايـا المعنـوية والقـوة، ومـذكوراً مـن أجل قـوته في القتـال، حيث أن أفعـاله الجبـارة فاقـت في

لمعانها جميع الأوصـاف البراقة التي يمكن أن نضفيهـا عليها، وكان والحق يقال لانظير له في أعماله الرائعة، وكان السبـب الوحيد لمعاداته هو روعته، وأنه الباحث عن الصفات الحميدة، ولم يكن عبداً للآثام والشرور.

وعندمـا انتهت إحتفـالات التتويـج، انتصب رتشـارد في مكان أبيـه، وتلقى يمين الـولاء من النبلاء حسبما جرت العـادة، ثم غادر لنـدن، وقام بجولة في مختلف المناطق، وبعد هذا قـام بالحج إلى القديس ادموند الذي اقترب حلول موعـد عيده، ووافق على تعيين عدد من الأسـاقفة في بعض الأسقفيات، وبعد ما أعد كل شيء من أجـل الرحلة، ورتب شؤون مملكة انكلترا بقدر مـا سمح له الـوقت، عاد إلى نورمـاندي حيث احتفـل بعيد ميلاد ربنا.

وجعلته نـواياه بالشروع بالـرحلة والوفـاء بما تعهد به متلهفاً، ذلـك أنه حكـم أن التأخير خطير، ولـذلـك قام في سنـة ١١٩٠، لتجسيـد مولانـا، بحث الملك فيليب صاحب فرنسا على أن يكون مستعداً أيضاً.

وكـان الاسطول الملكـي، قد وجهـه الملك رتشـارد وأمره بـالارتحال إلى (صقلية) فـوصل إلى هدفـه وهو ميناء مسينا، وذلـك بعد ما تخطـى جميع مخاطـر المحيط، وانتظـر هناك وصـول الملك، الـذي كـان يزحـف براً مـع جيشه.

وعندمـا غادر الملك تـور مع قواته، مـن الذي كان بـامكانه أن يـذكر عدد القوات التـي رافقته، وأنواع أسلحتهـم، وقطار النبلاء، وفـرق المنازلة المختـارة؟ أو من كـان يستطيع أن يصـف قوات الـرجالـة وكتائب حملـة المقاليـع بينهم؟ وقام الذيـن رأوهم بالبكاء والتـوجه أيضاً بالشكـر للرب من صميم قلوبهم. من أجل الملك الجديـد، والذي قام في بداية حكمه، ودون أن يذوق طعـم الراحـة، بالتخلي عن ايمان وبكـل سرعة عـن جميع المسرات، وتولى القيام بعمل عظيم ومفيد جداً، ومتعب وكذلك ضروري.

ياللتنهدات وبكاء الذين عانقوا بعضهم أثناء الفراق! ويالـلأماني الطيبة للذين كانوا مسافرين، وياللعيون المثقلة بالدموع، والحسرات التي قطعت كلمات المتكلمين وسط قبلات الذين كانوا عزيزين عليهم، ولقد حزنوا، وفقد بعض الذين كانوا منطلقين وعيهم من شدة الأسى، وذلك أثناء الفراق، وبعد ما تبادلوا تحيات الوداع وقفوا قليلاً أكثر ورددوا العبارات لكسب بعض التأخير، وأخيراً انتزعوا أنفسهم من وسط أصوات التحيات، وانطلقوا نحو الأمام حتى يخلصوا أنفسهم من بين أيدي الذين حبسوهم.

وعلى هذه الصورة، انطلق رتشارد، ملك انكلترا، في السنة الأولى لتتويجه من تور، وأخذ الطريق نحو فيزلي، حيث التقى الملكان ومعهما قواتهما، وبما أن كلا الأمتين كانتا أكبر من أن تحصيا عدداً، فقد انتشرت الخيام والسرادقات فغطت وجه الجبال طولاً وعرضاً، وكذلك سطح الأرض من حولها مع الحقول المزروعة، وأعطى ذلك الانطباع بشكل مدينة، وتمتن هذا الانطباع أكثر بتعدد أنواع السرادقات واختلاف ألوانها التي ميزت بعضها عن بعض.

وكان بإمكانك ان ترى الشباب العسكريين من أمم مختلفة شاكي السلاح، مستعدين للحرب، يبدون وكأنهم قادرين على اخضاع الأرض كلها بالطول والعرض، وأن يهزموا جميع أمم العالم، وأن يخرقوا صفوف مختلف القبائل، وان يحكموا أن ما من مكان شديد الصعوبة أو ما من عدو قوي جداً بحيث يستحيل قهره، ولقد بدوا وكأنه من المستحيل بالنسبة لهم أن ينصاعوا للخطأ ماداموا قادرين على عون بعضهم بعضاً، ومساعدة أحدهم للآخر بفضل شجاعتهم.

ومع هذا فإن ذلك الجيش، الفخور بأعداده الكبيرة، والمحمي بقوة أسلحته، كان مشحوناً بالمتاعب، ممزقاً بالخصومات والخلافات، مغلوباً على أمره بعدم الاتفاق، ولو أنه ظل موحداً بالنظام العسكري والإرادة

الطيبة، لبقي غير قابل للقهر بالنسبة لأي سواه، ولكنه بتمزيق روابط التبعية واجه سقوطاً مريعاً، وتخلى عنه الأصدقاء وابتعد عنهم، ذلك أن البيت الممزق ضد بعضه يغدو خاوياً.

وانطلق الملكان نحو الأمام ومعهما رجالهما، وأعدا الخطط لزحفهما، وعقدا اجتماعات دورية بأبهة عظيمة، ولدى مرورهم خلال المدن والقرى بعتاد عملاق هائل وبأسلحة الصدام، كان السكان يرددون في دهشتهم: أيتها السماء، ما هذا الحشد الهائل من الرجال وماذا يريد؟! أيها الجند النبلاء في زهرة شبابهم ما أروعكم! أيها الشباب السعداء كم هو جمالكم عظيم! أي أرض ولدت مثل هؤلاء الجنود الشبان الرائعين؟.

وهكذا تابع الجيش زحفه مبتهجاً من فيزلي إلى ليون على الرون، ووقتها غادر ملك فرنسا مع جميع قواته واتجه إلى جنوى، وكان المتفق عليه أن الذي يصل إلى مسينا في صقلية أولاً يتوجب عليه أن ينتظر وصول الآخر، وبعد مضي ثلاثة أيام غادر الملك رتشارد إلى مرسيليا، حيث مكثنا هناك لمدة ثلاثة أسابيع، ثم أقلعنا في اليوم التالي ليوم رفع العذراء المباركة إلى السماء، لنعبر البحر إلى مدينة مسينا.

ولدى انتشار خبر قدوم ملك انكلترا النبيل بين سكان مسينا، اندفعوا بحماس وتجمعوا لرؤيته، فلقد تجمهروا على طول الشاطىء حتى يلمحوه، ولدهشتهم رأوا البحر عن بعد، مغطى بالمراكب، وكانت أصوات الأبواق عالية وحادة، طرقت فوق أسماعهم، وكانت المراكب محملة ومزينة بالأسلحة من كل نوع، وكانت أعلامهم وراياتهم تخفق بالهواء وهي لاعدّ لها ولاحصر، وكانت مقدمات المراكب متميز أحدها عن الآخر، بمختلف ألوان الطلاء، وكانت ترستهم تلمع بالشمس، وكان بإمكانك أن ترى البحر يفور تحت المجاذيف، ثم يالـلأبهة، وقف الملك الرائع على مقدمة مركب كان أعلى من البقية وأكثر زينة، وكان مرتدياً ثياباً فاخرة، وانطلق البحارة مع بقية الحاشية أمامه ليقوموا باستقباله

بالتهاني، ولكي يجلبوا الخيول، التي كان سيركبها مع أركانه، وتجمهر السكان المحليون من حوله وأحاطوا به من جميع الجهات، واختلطوا برجاله ، ولحقوا به إلى نزل ضيافته.

وتحدث عامة الناس بإعجاب عن مجده العظيم، واتفقوا على أنه كان جديراً بحكم امبراطورية، ويستحق أن يحكم أمماً وممالك: « لأن شهرته التي سمعنا عنها من قبل وضحت أنها أدنى بكثير من الحقيقة عندما رأيناه».

كيف أمضت الجيوش الشتاء في صقلية

كان موسم الملاحة قد شارف على الانتهاء، لذلك تقرر أن على الانكليز والفرنسيين تمضيه الشتاء في صقلية، حول مدينة مسينا، المليئة بالأشياء الجيدة، مع أن سكانها هم أشرار، وعرق خبيث.

كان الملك تانكرد صاحب صقلية غني جداً، في كل نوع من أنواع الثروات، وكان قد خلف منذ أمد قصير الملك وليم الثاني على العرش، وفي هذه الآونة كانت أرملة الملك المتوفى تقيم في بلرم، وكانت أختاً للملك رتشارد، ملك انكلترا، الذي تبنى قضيتها، وأرغم الملك تانكرد على أن يعطيها ما يرضيها، وذلك فوق البائنة — الدوطة — التي تستحقها وزيادة عليها.

وبقي رجال الاسطول خارج المدينة حتى وصول الملك رتشارد، وذلك بسبب صفاقة أهلها التي لاتحتمل، لأن هذا الشعب الشرير (الذي يعرف بشكل عام باسم: غريفون) (أي اغريق حسب اصطلاح الصليبيين اللاتين) كانت أكثريته من أصل اسلامي، وهؤلاء كانوا معادين لأفراد شعبنا، وكانوا دوما يوجهون الإهانة إليهم بالاشارة بأصابعهم إلى أعينهم، وتسميتهم « كلاب قذرة»، والسخرية منهم بطرق أخرى كثيرة، وقد قتلوا بعضهم على انفراد، ورموا بآخرين في مجاري القاذورات، حيث اقترفت فيها بعد جرائم كثيرة، وهددوا بطرد رجالنا من مدينتهم، لأنهم كانوا غرباء غير معادلين لهم بالعدد.

والآن عندما رأى الغريفون، أن الملكين قد نزلا إلى اليابسة ومعهما قوة عملاقة، ضبطوا رعونتهم بعض الشيء، لأنهم أدركوا أنهم أدنى في الشجاعة والمظهر، لكن اللومبارد (الناطقين بالايطالية والمرابين) لم يتوقفوا عن أعمال الاهانة والتحدي لرجالنا، واثارتهم بالشتائم والإيذاء،

وقد أثارتهم غيرتهم على زوجاتهم، اللائي كان رجالنا يتحدثون معهن، غالبا بقصد إغضاب الأزواج، وليس بنية اغوائهن، وبسبب الخصام هذا، ومن خلال الحسد، كان اللومبارد دوماً معادين لنا، يفعلون كل ما يستطيعونه لاغضابنا، وقاموا بالوقت نفسه باعلاء أسوار ودفاعات أبراجهم وبتعميق الخنادق المحيطة بهم.

وكان في أحد الأيام واحد من رجالنا يتساوم مع امرأة حول رغيف خبز جديد كانت عارضة إياه للبيع، وقد هددها بالقيام بوزن الرغيف، ولأن الرجل رفض أن يعطيها السعر الذي طلبته انفعلت المرأة، وأهانته بعبارات شريرة، وتجمع عدد كبير من أهل المدينة لدى سماعهم أصوات المرأة وصراخ شتائمها، فأمسكوا بالرجل وضربوه بلا رحمة، وبعدما نتفوا شعره، وجرحوه جراحات كثيرة، داسوا عليه بالأقدام، وتركوه ليموت.

وعندما رفعت شكوى، تقدم الملك رتشارد بالرجاء من أجل السلام والصداقة، وأكد أنه جاء بسلام ليقوم بأداء حجه، وانه لن يتوقف عن الصلاة حتى يعود كل فريق بهدوء إلى مقره.

لكن حدث في اليوم التالي أن تجدد الخلاف بين سكان المدينة والحجاج، وفيما الملكان كانا مجتمعان مع قضاة صقلية وأعيان أهل المدينة، من أجل معالجة قضايا السلام والأمن، سمع صراخ عظيم وأصوات تقول بأن سكان المدينة كانوا يقومون بذبح رجال ملك انكلترا، ولم يصغ الملك إلى هذا، لسبب أساسي هو أن اللومبارديين أكدوا له أن ما قيل ليس صحيحاً، ثم مالبث أن جاء رسول آخر، أعلن أن سكان المدينة كانوا يهاجمون الحجاج،وهنا بادر الملك وخرج مسرعاً من الاجتماع، وامتطى على ظهر حصان، وتقدم بنية ايقاف النزاع وإقامة سلام بين المتخاصمين.

وعندما وصل، كان الفريقان في حالة هياج شديد، لم يعودا يتصارعان

بـالكلمات بل بـالأيدي والهراوات، وبـدلاً من أن يستجيـب اللومبـارد لجهود الملك بـالفصل بين المتنازعين هاجموه بالشتائم، وبعبـارات الاهانة، وقد انزعج من إهاناتهم له، فحمل سلاحه وبدأ بحصارهم في مدينتهم.

وكان الفرنسيـون في الوقت نفسه لايـدرون ما الذي سيفعله سيـدهم، لذلك أخـذوا يركضون بهذا الاتجاه وذاك بحثاً عنه، وعـم الهياج في أرجاء المدينـة، وحمل كـل انسـان مـا وصـل إلى يـديـه، وتحدثـوا بتبجـح أنهم سيدافعون عن أنفسهم حتى النهايـة، وذهب اللومبارد إلى الملك الفرنسي وطلبوا منـه العون والمساعدة، وعـرضوا عليه أن يضعوا أنفسهـم وأموالهم تحت تصرفـه ورهن اشـارته، فيما لـوقـام بالتفـريـج عن مـدينتهم، ومنـع الهجوم الـذي يتولاه ملك انكلترا، وأن يصبحوا مـن رعاياه مع مـدينتهم، وعلى الفور أجابهم ملك فرنسا بأنه يـؤثر تقديم المساعدة إلى اللومبارد على الوقوف إلى جانب رجال ملك انكلترا.

ولدى رؤيـة اللومبارد أن القتال بـات الآن جديا، وأنهم حـوصروا بكل عزيمة، قاوموا بكل ما أوتوا مـن قوة، ووقفوا في أعالي الأسوار، وقذفوا من هناك الحجـارة والنشاب مـن قسيهم، والحراب مثـل زخات المطـر، وبهذه الصـورة تمكنـوا في بدايـة دفـاعهـم الشـديـد من الحاق إصـابـات كثيرة بـرجالنـا، فبعضهـم قد قتـل، وبعضهـم أصيب بكـدمـات، ولقد جـرح بعضهم بعضهم الآخر، وقطعوا أطراف كثيرين.

وكـان الملك رتشـارد في اليـوم الثاني لـوصولـه قـد تجول حول أسـوار المدينة مـع اثنتي من مرافقيـه فلاحظ وجـود باب خلفي مهمل مـن قبل سكان المدينـة، ومن خلال هذا البـاب، توفر الآن مـدخل بوساطـة القوة والإقـدام الكبير والعنـف، وقـام الـذين دخلـوا بتـدمير البـاب، وبـذلـك سمحوا لبقية الجيـش بالدخول إلى المدينة، ثـم قاموا بذبـح وأسر كل من قابلوه من سكـان المدينة وقاومهم، ولقد سقط في هـذا الصراع عدد منهم ومن اللومبارد وكذلك من رجالنا.

وسار رجالنا الآن خلال المدينة المقهورة كمنتصرين، يتقدمهم الملك رتشارد، الذي كان دوما هو الأول في كل هجوم، وسار خلفه حوالي عشرة آلاف رجل، وقاموا بنهب المدينة كلها. وكان بإمكانك أن تسمع هناك أصواتاً مرعبة بلغات مختلفة ومتداخلة، فمن جانب كان رجالنا يحثون بعضهم بعضاً على المطاردة، وبالمقابل كنت ترى اللومبارد الفارين يصرخون برعب من رجالنا، لأن رجالنا ضاعفوا ضرباتهم لهم، فاندفعوا أمامهم مثل سنابل قمح قوم تصدوا بهم للسيوف، وعندما اقتحمت بيوت اللومبارد، رموا بأنفسهم من الأسطحة، مدركين أنهم ببخلهم وسوء معاملتهم للضيوف استحقوا فقدان كل حق بالرحمة.

وهكذا استولى الملك رتشارد على مسينا، بضربة واحدة، وبوقت أقصر مما احتاجه كاهن لترداد ترتيلة طقوسه. وكان من الممكن سقوط المزيد من سكان المدينة، لولا انه أمر بتوفير حياتهم، وكان هذا كرماً منه، لكن الذهب والفضة وكل شيء ثمين وجدوه بات ملكاً للمنتصرين، وأحرقوا سفن الأعداء، خشية أن يفروا ويستردوا قواهم للمقاومة، وقام المنتصرون أيضاً بأخذ أعلى نسائهم مكانة، وحملوهن معهم.

ثم إنه ياللعجب، حدث بعد هذا كله، أن رأى الفرنسيون أعلام الملك رتشارد تخفق فوق أسوار المدينة، فشعر ملك فرنسا بإهانة كبرى، وحمل في قلبه كراهية للملك رتشارد استمرت طيلة حياته، وقادته فيما بعد إلى غزو نورماندي.

وبعد الاستيلاء على المدينة، أرسل ملك فرنسا، بناء على مشورة ديوانه، أوامر إلى الملك رتشارد لينزل أعلامه، واستبدالها بأعلام فرنسية، وذلك اعترافاً منه بتفوقه وسيادته(*) ، وغضب الملك رتشارد من هذا

*— كان من أسباب الخلاف بين الرجلين، أن ملك انكلترا بحكم أملاكه في فرنسا، عدّ واحداً من أتباع الملك الفرنسي، غير أن رتشارد عدّ نفسه مساوياً للملك الفرنسي، يضاف إلى هذا ما تقدمت روايته حول خرق رتشارد للاتفاق مع الملك الفرنسي بالزواج من أخته أليس، وزواجه بدلاً عنها من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس ملك نافار، وتقدمت تفاصيل ذلك في المجلد المتقدم.

الطلب، ولم يبعث لـه بجواب، خشية أن يُرى أنـه يتخلى عن حقه، لكن تمّ مـن خلال جهود الـوسطاء اطفاء غضـب الملك رتشارد، ووضـع حد لهذا الخصـام، واستجاب لتهـدئة الأصـدقـاء له، واستجـاب إلى مطلـب ملـك فرنسـا في أن يتخلى عن حـراسـة الأبراج التـي استولى عليهـا، وأن يوضـع فيها حراس مـن كلتا الأمتين، وذلـك حتى يعلمان مشاعـر الملك تانكرد تجاه ما حصل، ولذلك تمّ رفع أعلامهما معا فوق أسوار مسينا.

وبعد اجتماع عام، تقرر وجوب ارسال رسـل من قبل الملك رتشارد إلى تانكـرد بغية طلـب تعويضـات عن الأضرار البـالغة التـي لحقت بشعبـه نتيجة الاضطرابـات، وأن يعطي الملكة الأرملة جـوانا «بائنة» تـرضيها مع حصتها من أموال الملك التي آلت إليها والتي هي حق لها.

وأثـار الملـك الفـرنسي في الـوقت نفسـه مشكلـة حـول نهب المدينـة، وطالـب بحصته، ولأن الملـك رتشارد رفـض بحنق طلبـه، لم يتوقـف عن إزعاجه وإثارتـه بمثيرات خبيثة ومنغصات مزعجة، وبناء عليـه قرر الملك رتشارد رفـض صداقته، وأمر سفنـه أن تكون مستعدة للمغادرة مـع جميع أثقالها، فهو قد آثر السير وحده مع رجاله فقط لانجاز حجة على أن تكون له أدنى معاملة مع رجل حسود، وعنـدما وصلت معلومات هذا الأمر إلى مسامع ملك فرنسـا، قبل بوساطة جهود الوسطاء بـاعادة تجديد الصداقة المقطوعـة، وأن يعود تعـايشهما كما كان مـن قبل، على شرط اقتسـام كل شيء بالتساوي سيتم الحصول عليه من الآن فصاعداً.

وبحث الـرسل الذيـن توجهوا إلى الملـك تانكـرد معه تقديـراته وآرائه بالقضايا المثارة معـه، فأجاب باجابات غامضة، وأكـد أنه سيتولى ارضاء الملكين وفقاً لمشورة نبـلاء البلاد، في الوقت المنـاسب، وفي المكان الموائم، وبالطريقة التي تخص الموضوعات بشكل محدد، وقيل بأن ملك فرنسا قد حث الملك تانكرد بوساطة رسالة بعثها إليه، على عدم الاستجابة لمطالب ملك انكلترا، بـل أن يظهر صلابة في الموقـف وفي الدفاع عن حقـوقه في

كل شيء، وأكد لـه أن ملك فرنسا سوف لن يشـارك الملك رتشارد في أي عمل يقوم به ضده، بل إنه سيكون مخلصاً وفياً لتانكرد.

وأعاد هذا الخصـام الشجاعة إلى السكان المحليين، فبعـد ما أثيروا من قبل ملـك فرنسـا، بذلـوا غايـة جهودهـم لإيذاء الملـك رتشارد ورجـاله بالقدر الممكن لهم: لقد منعوا تزويد المؤن لهذا الجيش الكبير، وأمروا بعدم عـرض أي شيء للبيـع، واستهـدفوا مـن وراء ذلـك إرغـام الانكليـز على إخضاع أنفسهم لسلطان السكان المحليين.

وبذل الملك رتشارد جهوداً كبيرة، ويقظة ونشاطاً في سبيل إنشاء قلعة أطلـق عليهـا اســم « ميتغـريفـون Maetgriffon: «*» ، وارتعـب الغريفـون كثيراً، لأنهم رأوا أنها صممت مـن أجل تـدميرهم، وقـد شيد البناء على رابية محاذية للمدينة، وكـان موائماً كثيراً للتقهقر والتراجع، وكان الجيش سيعاني كثيراً من نقص بالمؤن، لـولا أنه استخدم المؤن التي جلبها بالاسطول كاحتياطي ضد العوز المستقبلي.

وهكذا تأرجحت الأمـور، ثم إن الملك تانكرد اقتنع بـأن الملك رتشارد لـن يتوقـف حتى يحصـل على ما رغـب بـه، فأرسـل رسلاً عـرضوا عليـه السلام، وسـألوا باستعطـاف المصالحة، وتـم الاتفاق على شروط الصلح، وبـذلك ختمـت القضية، ثـم كـان أن صدرت فتـوى عن وولتر رئيـس أساقفة روان Rouen ، قضت أن كـل من لايعيد جميع مـا نهب من ذهب ومن الفضة سيكون خاضعاً للحرمان واللعنة.

---

* — معنى هذه « صد الغريفون»، وكانت هذه القلعـة مصنعة من ألواح من الخشب كانت جاهزة، تمّ تثبيتهـا داخل اطارات جاهزة بوسـاطة المسامير، ودعمت من الخلف بـدعائم، وعندما غادر رتشارد مسينا، فكها وأخذها معه حيث أقيمت حول عكا من الخارج.

وهكذا جرى استرداد كل شيء، وبذلك بدا ظاهرياً أن السلام قد توطد، وعبر سكان المدينة عن سرورهم لسلامتهم، والحجاج لحصولهم على الهدوء، وجددت الصداقة بين الملكين، لكن التنافس الذي كان قائماً بينهما استمر.

واحتفل بعيد الميلاد بوقار خاص، لتوفر الحاجة أكثر من ذي قبل لانقاذ الجنس البشري، وقام الملك رتشارد، على شرف هذا العيد، بتوجيه الدعوة إلى ملك فرنسا لحضور مائدته، وتوجه بالدعوة بوساطة المنادي العام إلى كل ذي روح بأن يمضي العيد بفرح وسرور، واستجابة لهذه الدعوة اللطيفة جاء ملك فرنسا مع مجموعات كبيرة من النبلاء وحشد من الناس الآخرين.

وتمّ استقبالهم بترحاب كبير وتكريم في قلعة ميتغريفون، وجلس كل واحد هناك وفقاً لمرتبته : من كان بإمكانه إحصاء الصحون المختلفة، وأنواع الكؤوس، أو حشود الخدم أو الملابس والمظاهر الرائعة؟ وما من شيء كان هناك لم يكن ثميناً له قيمته وهو موائم، فلقد كانت الصحون على اختلاف أحجامها من الذهب أو من الفضة، وكانت الأوعية مصنوعة وعليها أشكال رجال أو حيوانات وضعت على الحواف أو الأطراف، ورصعت بأحجار كريمة، زد على هذا كانت هناك وسائل سارة ظهرت للجميع مما أضفى بهجة على العيد، وتمتع الضيوف برؤية عروض سارة وأعمال مبهجة، وذلك بالاضافة لأنواع اللحوم والأشربة وزيادة عليها.

ولدى انتهاء الاحتفال، وضع الملك رتشارد أمام ملك فرنسا أجمل الأقداح وأعطاه خيار الإنتقاء منها على شرف المناسبة، ثم قدم لكل واحد من النبلاء هدية تبعاً لمرتبته، لأنه مثله مثل تيتوس (الامبراطور الروماني ٧٩ — ٨١م) عدّ اليوم الذي حدث ولم يعط به شيئاً يوماً خاسراً.

- ٨٣١ -

كيف غادروا نحو الأراضي المقدسة

في السنة١١٩١ لتجسيد مـولانا ، ولدى انتهاء أشهر الزوابـع من فصل الشتاء الكسول ، وحلـول الأيام المشرقة ، امتلأ الناس بهجة بعـودة موسم الإبحار والملاحة ، لأن الملكان أقـاما في مسينا من عيد القديـس ميكائيل حتى أيـام الصوم ، ثـم عقدا اجتماعـاً حول نقـل رجالهما، وارتـأيا عـدم موائمة التأخـر أكثر، بسبب توفر المناخ الجيـد، وبسبب أن وسائلهما سوف تحبط وتتـلاشى بـلا فائدة في إضاعـة الوقت بـلا عمل، ولأن رفـاقهم في عكا كانوا يعانون وفي أمس الحاجة إليهم.

وبينما كل واحد يعـد العدة ليتابع رحلته، وصل رسـل حملوا أخباراً إلى الملك رتشارد أن أمه اليانور تخف الخطـى وهي مسرعة للحاق به، وحيث أنها كـادت أن تنهي رحلتهـا، فقد بـات وصولها وشيكـاً، وكانـت جالبـة معها النبيلـة بيرنغاريـا، المعدّة لتكون زوجـة له، وكـان منذ وقـت مضى، حينما كان كونتـا لبواتو سحره حسنهـا وأبهتها ، وسمو مكانتهـا وأصالتها، وجاذبية أنـوثتها، فشعر بعاطفـة قوية نحوهـا، وبناء عليه، أودعها أبـوها ملـك نـافار إلى أم رتشـارد لتتـولى العنـايـة بها، ولتحملها إليـه، بغيـة أن يتمكن من الزواج منهـا، قبل عبوره البحر، حسبما كان ناويـاً، ولقد ابتهج الجميع بقدومها.

وكان في الوقـت نفسه ، قد أكمل ملـك فرنسا إعداد جميـع تجهيزاته ، فاغتنم فرصة تـوفر الريح الطيبة ،فأقلع ومعه اسطـوله في يوم السبت بعد يوم عيد بشارة مـريم العذراء المباركة ، وقد شيعـه الملك رتشارد وهو على ظهر مـراكبه ومعـه أعيان نبـلائه لبعض الطـريق ، ثـم عاد لأنـه لم يكن شخصياً قـد تهيأ بعـد لعبور البحـر ، حيث لم يكمـل جمع سفن شحنـه ، ورأى أن هـذه لم تتجهز بجميـع المؤن المحتـاجـة ، زد على هذا كـان قـد

سمع بأن أمه قادمة ومعها بيرنغاريا الـرائعة، ولهذا عندما ترك ملك فرنسا يمضي في طريـق رحلته بسلام رجـع بوساطـة طريق الفـاروس إلى ريغيو دي كالابيرا، حيـث سمع بـوجود أمـه الملكة وبيرنغـاريا فيهـا ، وبعدمـا تلقاهما على ظهـر سفينته بسرور عظيم، عـاد إلى مسينا، حيث بقـي هناك لوقت قصير، أسنـد وقتها إلى أمه شؤون العنـاية بالمملكة ، وتـركها تغادر برفقة وولتر، رئيس أساقفة روان، وكان شخصاً عظيم الفضائل.

وأبقى الملك رتشارد معه الفتاة التي كـان سيتزوج منها ، وبعدما جهز نفسه بكـل شيء كان ضرورياً للـرحلة، استعد تبعـاً للاتفاقـات ، للحاق بملك فرنسـا بقدر ماهو ممكـن من السرعة، وقد عين روبـرت دي تورنهام ليقود الأسطول وليتولى العنـاية به، وبعث بزوجته مـع أخته الملكة الأرملة لصقليـة، ليرحـلا قبله عبر طـريـق مبـاشر نحو الشرق، وذلـك على ظهـر إحدى السفن التـي تدعى عادة بـاسم «درمون» ، ووضع بـالسفينة عدداً من الفرسـان ، مع حشد كبير من خدم الحاشيـة، في سبيل تأمين راحتيهما وسلامتيهما.

وبقيت المراكـب بلا حراك، حتى أقـام الملك وليمة، احتفـل بها بوداع السكان المحليين ، وبـات الآن جاهـزاً للانطلاق وإيكـال نفسه للـرياح الطيبة ولأمـواج البحر، ثم أقلعـت جميع السفن المحشـودة، وصارت على وجه البحـر، تدفعها أعداد هـائلة من المجذفين ، ويحق لمدينـة مسينا أن تفتخـر بكـل حـق ، بـأنـه لم يحدث في القـرون الماضيـة أن رأت تلـك السواحل أسطولاً بهذه العظمة، ولن ترى مثيلاً له في العصور المقبلة.

وهكـذا دخـل الملك رتشـارد مـع سفنـه الكثيرة عرض البحـر، وكـان بعضها يُـوجه بـالأشرعة ، وبعضهـا الآخر بـالمجاذيـف ، وبقيت السفـن الحربيـة بالخلـف ، فهذا مـا خطط لـه الملك رتشـارد ، وخطط أن تبقـى السفـن قـريبـة مـن بعضهـا بعضـاً بقـدر الإمكـان ولا تفترق، وخففـت الغلايين مـن سرعتها عـن قصد ، ولازمـت البقاء على مسـافة مـن سفن

الحمولة بهدف حمايتها.

وتوقفت حركـة الريح، لهذا أرغم الأسطول على البقاء راسيـاً بلا حركة بين كالبيرا وجبل إتنا، غير أنه في اليوم التـالي (يوم عشاء الرب) قام الذي أوقف حـركة الرياح، بـإرسال الريـاح من خزائنـه، لقد بعث إلينا بـريح استمرت طوال اليوم، حيـث لم تكن قوية جداً، بل كافيـة لدفع الأسطول لأن يسير بسرعة لطيفة، لكن في الليلة التالية اختفت الرياح تماماً.

وفي يوم الجمعـة المقدسة سـاقت ريـاح معاكسة الأسطـول إلى الخلف وهـاج البحر (لأنـه أثير بـذلك كثيراً) وفـار مـن أعماقـه، وبينما تلاطمـت الأمواج ازدادت قـوة العاصفة ، وكانـت أصوات زئير الأمواج المتـلاطمة، وأنين السفن التي كانت تواجه الرياح العنيفة العاتية، قد أصابت الجميع برعـب عظيم، ولعتـو الرياح ، بـاتت إدارة السفن وقيـادتها عاجـزة كلياً، لأنـه لم يعد بـإمكـان أي قبطان تحريـك سفينتـه، وحُـملت السفـن بهذا الاتجاه وذاك، ففقدت نظامها، وذهبت كل سفينة باتجاه مخالف.

ويئس البحارة مـن الحصول على عون أرضي، لذلك سلمـوا أمرهم إلى الرب، وقـرروا، بقدر ما سمح بـه الضعف الإنساني ، أن يتحملـوا الأمور بصبر، تحت نـاظري مخلصنـا، الـذي عانـى في ذلـك اليـوم من مـوت لا يستحقه، وذلك مـن أجل خلاصنا،وفيما السفن تتقاذفهـا الأمواج في هذا الاتجاه وفي ذاك، وتمضي بها باتجاهات مختلفـة، بدأت بطون الرجـال تشعر بآلام الغثيـان، وأصيبوا بـدوارات بحر عنيفـة، وجعلهم الشعـور بالغثيـان أشبه بـالمجانين تجاه المخاطر التـي أحاقت بهم، ولكن مـع اقتراب المساء غدت الأحوال هادئة إلى حـد بعيد، وتوقفت الرياح المجنـونة مع الأمواج الصاخبة.

وانتشرت الآن ريح طيبة توافق رغباتنا، واسترد البحارة قواهم وثقتهم، وبذلنا جهودنا للمحافظة على الطريق المباشر لرحلتنا.

وبقي الملك رتشارد هـادئاً، وسط هذه الحالة من الفوضـى، ولم يتوقف عـن تهدئة ومواسـاة الذيـن كانـوا يائسين، حـاثاً إيـاهم على التشجـع، والأمل بحظ أفضـل، وحسبما جرت العادة كان لديه ضـوء شمعي داخل مصباح، علقه عـالياً في سفينته ليعطي الضوء لبقية الأسطـول، وليوجههم على طريقهـم، وكان معـه على ظهر سفينته أكثـر البحارة خبرة، وقـد بذل هـؤلاء كل جهـد يستطيـع الإنسان أن يقـوم به، واستخـدمـوا كل حيلـة لمواجهة الـرياح الغـاضبة، وبقـي الملك واقفـاً لبعض الـوقت بهدف جمع الأسطول، الذي تقاطرت سفنه للتجمع حـول الضوء، وهذا شابه دجاجة تولت جمع صيصانها معاً.

ويدأنا بعد هـذا بريح طيبة، وأبحرنا باستمـرار دون أن نواجه عقبة أو نعاني مـن أذى، وذلك يوم سبت فصـح اليهود حتى يوم الأربعـاء التالي، واقتربنا في هـذا اليوم مـن كريـت حيث تـوقف الملـك للراحـة، وعندمـا اجتمعت السفن معاً، تبين فقدان خمس وعشريـن منها، الأمر الذي سبب حزناً كبيراً للملك.

وفي يوم الخميس عـاود الملك وجيشه كله الدخـول إلى سفنهم، حيث بدأت الـريح تصبح أشـد قوة، ومع أنها ظلـت موائمـة، كانت قـوية في دفعنا نحو الأمـام، لذلك تحركنا بسرعـة بوساطة أشرعـة منتفخة، وسواري منحنية بعـض الشيء، ليس بـدون شبه لطيـور طائرة، ولم تهدأ أبـداً طوال الليل، وساقت عند فجر النهار اسطـولنا بعنف نحو جزيرة رودس، حيث انتشرت الأمواج والزبـد على طول الشاطىء، وهكذا لم نكـن قادرين على الوصـول إلى الميناء، وعلى كل حال عنـدما تمكنا في يوم الاثنين التـالي من الرسو، تمتعنا براحتنا بشكل جيد لأننا كنا بحاجة إليها تماماً.

وكانت رودس في العصـور القديمة مدينة كبيرة ، لا تختلـف عن روما، وهناك بقايا الكثير مـن البيوت، وأجزاء عديدة من الأبـراج ساقطة، لكن بقـايـاهـا ما تـزال قـائمـة، وآثـار رائعـة لأبنيـة وأسوار عمـرانها جـديـر

بالإعجاب، ومـن الصعب تقدير امتدادهـا، كما ما يزال هناك أيضـاً بقايا قلـة من الأديـرة الكثيرة، لأن معظـم الأجزاء كـانـت مهجورة ، مـع أنها كانت فيها مضى مسكـونة بأعداد كبيرة من جماعات الـرهبان، وقدم منظر مـدينـة عظيمة بهذا القـدر (مـع أنها الآن مبـددة) شواهـد وبـراهين على وجود عدد كبير من السكـان، لكن توفر الآن عدد قليل مـن السكان ممن كانوا بإمكانهم بيعنا الطعـام، وبما أن الملك كان متعباً، فقد استراح هناك لبضعـة أيام قليلـة، انتظـر خلالها وصـول السفـن التـي أضلت سبيلهـا، وشردت عنا، وانتظر أيضـاً وصول الغلايين التي سارت تابعـة للأسطول، وقـام أيضاً بـالتقصي حول اسحـق، الطاغيـة الوحشي، امبراطـور قبرص، الذي اعتاد على حبس الحجاج الذين كانوا يرسون في مينائه.

وبعدمـا أمضينا عشرة أيام في رودس التي كـانت جزيرة خصبـة جداً، ومنتجة، صعـدنا ثـانية إلى ظهـور سفننا، وتـابعنا سفـرنا، وكـان ذلك في الأول من أيار، وحملتنا سفننا ونحن في طـريقنا إلى أعظم الأماكن خطورة، الـذي يعرف بـاسم خليـج أضاليـا، حيـث تتصارع تيـارات عنيفة جـداً تشكل وصلـة بين أربعة بحار، وتصطدم مـع بعضها بعنف شديـد، وكل منها ينـدفع ضـد الآخر ويقاومـه، وعندمـا كنا على حافـة الدخـول إليه، عندها يا للعجـب، حملنا تيار عائدين إلى المكان الذي شرعنـا منه، وكأنه أراد سلامتنا، لكن قامت الـرياح، التي تهب دوماً في تلك الأجزاء وتتغير، بعد وقـت قصير بدفعنا عـائدين ثانية إلى الخليـج، وصاحب ذلـك خطر ازداد لازدياد عنف الريـاح، وخشية منا من نتائج هياج الـريح، فعلنا كل ما نستطيعه لحماية أنفسنا ضد مخاطـر المكان، وعبرنا فوق الأمواج الهائجة التي كانت ترغو وتزبد من حولنا.

وكانت السفينة الملكيـة تسير دوماً بالأمام، وعندما رفع الملـك ناظريه، رأى تحت السماء الهادئة سفينة كبيرة جـداً من النوع الـذي يعرف بـاسم

بصّ *Buss، وكانت متجهـة نحونا، وعائدة مـن مملكة القدس، وبادر الملك مسرعـاً فبعث ببعض الـرجال ليحصلوا مـن الرجـال الذين كـانوا على ظهـر السفينة على معلـومات فيما يتعلـق بحصار عكـا، فأخبروه بـأن ملك فرنسـا وصل سالماً إلى عكا يوم السبت في أسبـوع الفصح، وانشغل بنشاط في صنع آلات حربية، وذلك بـانتظار وصول ملك انكلترا، وعندما سمع الملـك رتشارد هـذا، تابعت البـصّ طريقها، وقـام هو بصنـع جميع الاستعدادات بروح معنويـة عالية، ولم تكن الرياح طيبة، ولقـد بذل غاية جهـوده للسيطـرة على تقلبـاتها، لكـن الأسطــول أرغـم بهبـات الـريـح المتضـادة، والأمـواج الصـاعدة والهابطـة، على العـودة، وسيـق إلى وسـط عرض البحر.

وكان في الـوقت نفســه قد وصل الغليـون [الدرمـون] الذي أبحـر من ليون مـع الملكتين إلى ميناء ليماسـول، في جزيرة قبرص، لكــن عوضـاً عن النـزول إلى البر، ألقى مـراسيه على مسـافـة داخل البحـر،واعتادت مملكـة القدس أن تحصـل من هـذه الجزيرة سنويـاً على مرابـح كبيرة، لكن الآن بعد رفعهـا لنير الخضوع، تمنعت عـن تقديـم أي شيء، وذلك بتوجيـه من طاغيتهـا اسحق، الـذي اغتصب السلطـة الامبراطوريـة، وكان مـن أكثر النـاس سوءاً وشروراً، وقـد تفـوق على يهوذا بالخيـانـة، وعلى جدعـون في التآمـر، وقد أراد فقط تعذيـب الذي اعتنقوا الـديانة المسيحية، وقـد قيل بأنه كان صديقاً لصلاح الدين، وقد حكي أنهما شربا دماء أحدهما الآخر كعلامة شاهـدة على عهدهما المتبادل، فبمزج دمهما ظاهريـاً قد يصبحان أقربـاء حقيقة، وقد تـأكد هذا فيما بعـد ببعض البراهين، فبعدمـا اطمئن

* — bucca أو buzzos — وهي سفينة تجاريـة من سفن البنادقــة، ذات تجويف كبير، وقدرة على التخزين، وقـد استخدمت بمثابة سفن خزن وحمولـة، وأطلق الصليبيون على مثل هذه أحياناً اسـم «درمون» أو «بص» دونما تمييز، وكثيراً ما أرادوا بذلـك السفن الكبيرة، مع أن هذا النوع كان متميزاً عن سواه.

هذا الطاغية بهذه الخطوة، وبعدما ألغى خضوعه المتوجب عليه، اغتصب السلطة وادعى زيفاً اسم الامبراطور، واعتاد على إلقاء القبض على كل واحد نزل إلى الجزيرة طوعاً، أو لأن الرياح قذفته بقوتها إليها، وكان يستخرج من الغني فدية، ويرغم الفقير على العبودية، وبناء عليه عندما سمع خبر وصول درمون غريب، قرر إلقاء القبض على جميع من كان على ظهر السفينة، وأن يقوم بسلبهم جميع أموالهم، والاحتفاظ بهم أسرى لديه.

- ٨٣٨ -

حول الملك رتشارد في قبرص

في عشية اليوم السالف لعيد القديس مرقص الرسول، وقبل غياب الشمس بوقت قصير، غطت غمامة داكنة الأفق، وهبت عاصفة عاتية، وحرك عنف الريح المياه، وبينما كانت بعض سفننا التي بعثرتها الرياح تحاول الوصول إلى جزيرة قبرص قبل اشتداد العاصفة، دفعت بها الأمواج المضادة والريح إلى الصخور، ومع أن الملاحين بذلوا غاية جهودهم لمقاومة الريح التي هاجمتهم، فإن ثلاثة من سفن الملك امتلأت بالماء، وتحطمت إلى قطع، وغرق بعض الذين كانوا على ظهرها، وواتى الحظ بعضهم الآخر، حيث أمسك كل منهم بقطعة من حطام سفينة، واستطاعوا (لكن ليس بدون بذل جهود كبيرة وسط البحر الهائج) بهذه الوسيلة الوصول إلى الشاطىء، وقد وجدوا أنفسهم عراة مفلسين، وكان بين الذين غرقوا روجر الذي كنيته كاتولوس Catulus ، وكان يحمل خاتم الملك، وضاع الخاتم، لكن عندما قذف تيار البحر بالجسد إلى الشاطىء، وجد أحد الناس الخاتم معه، فجلبه إلى الجيش ليبيعه، وبذلك تمّ انقاذه.

ورحب سكان الجزيرة بسرور، تحت شعار غطاء السلام ،بالبحارة الذين وصلوا إلى الشاطىء، وتظاهروا أنهم يريدون تأمينهم فقادوهم إلى أحد الحصون بالجوار، وقام الغريفون بتجريد جميع الذين وصلوا إلى الشاطىء سالمين من أسلحتهم، وقادوهم إلى المكان نفسه، وكانوا يؤكدون لهم أنهم إذا دخلوا الحصن وهم يحملون أسلحتهم فسيبدون وكأنهم جواسيس، أولديهم نوايا عدوانية بمهاجمة الجزيرة، وأن عليهم الانتظار حتى يحصلوا على ثقة الملك وإرادته.

وكان النبلاء منا قلقين بشأن أحوال الرجال الذين وضعوا رهن

الاحتجاز، فبعثوا إليهم بالملابس وبالأشياء الأخرى الضرورية لهم، وبعث إليهم ستيفن دي تورنهام وكان حاجب الملك وخازنه، بكميات كبيرة من المؤن، التي (عندما جلبت إلى مدخل الحصن) نهبت من قبل الغريفون، وحراس المدينة، وعلى كل حال قاموا بتهدئة رجالنا ومواساتهم بكلمات ناعمة، ولم يظهروا بعد نحوهم عداوتهم بشكل مكشوف، غير أنهم رفضوا إطلاق سراحهم ومنحهم حرياتهم حتى يتم إخبار الامبراطور بما حدث، ووعدوا بالوقت نفسه بكلمات منمقة أن يزودوهم بكل شيء ضروري، ثم إنهم وجهوا الدعوة إلى نبلاء البلاد، وعقدوا مشاورات معهم في سبيل إلقاء القبض على أكبر عدد من الحجاج بمختلف الأساليب الخادعة، ومن ثم يتولون قتلهم.

وعندما بات هذا معروفاً لدى رجالنا، حشدوا أنفسهم وتجمعوا داخل الحصن وعزموا على الدفاع عن أنفسهم، غير أن بعضهم قتل من قبل السكان المحليين،وهكذا قدروا المخاطر حق قدرها، وأنهم فعلاً معرضون لها، ولذلك اختاروا مواجهة المخاطر في القتال على أن يموتوا جوعاً بعد وقوعهم في أيدي الكفار الذين يتولون تعذيب المسيحيين، وبناء عليه تقدموا من خارج الحصن حتى وصلوا إلى أحد السهول، وبدأ السكان المحليون بحصارهم وقتلهم، ومع أنهم كانوا غير مسلحين، ولا يحملون سوى ثلاثة أقواس كانوا قد أخفوها عن السكان المحليين، فقد قاوموا بقدر ما استطاعوا، وأوقعوا في صفوف أعدائهم عدداً من القتلى لم يكونوا أقل من العدد الذي فقدوه.

وكان بينهم روجر دي هاردكيرت Hardecurt وقد صدف أن وجد فرساً هناك فركبه وهاجم حشود الذين تصدوا له، وكان كذلك وليم دي بويس Bois(وهو نورماندي كان من أبرع الناس بالرمي) الذي تمكن أولاً من تفريق مجموعة ثم فرّق مجموعة أخرى، بوساطة رميهم بالنشاب والسهام نحوهم بدون توقف، ورآهم الجنود الذي كانوا ما يزالون على

ظهور السفن، فبادروا مسرعين لنجدتهم وتخليصهـم بقوة السلاح، ومع أن الغريفـون أعاقـوهم بنشـابهم وقسيهم بقدر مـا استطاعـوا، ومنعوهـم من النزول إلى البر، لقد نجحوا أخيراً، تحت حماية الرب، بالنزول من سفنهم.

وبعدمـا تفرق الغريفـون، ودفعوا نحو الخلـف، شق الحجاج طـريقهم إلى الميناء، حيـث وجدوا هناك رجـالنا الذيـن نزلـوا من سفنهم يقـاتلون بكل طـاقتهم ضد الغـريفون الذيـن واجهوهم، ولـدى تمكن رجالنـا من الاتصال ببعضهـم فرقوا الغـريفون، واستـولوا على ميناء ليماسـول، حيث وجـدوا الملكتين، اللتـان لجهلهما بـأوضــاع الجزيـرة، وخشيـة منهما مـن وحشية الامبراطور وخيانته بقيتا بالسفينة ولم تنزلا إلى اليابسة، وقرابة مساء ذلك اليـوم وصلت أخبـار ما حدث إلى امبراطـور قبرص، ولدى اطـلاعه على أن الحجاج وصلـوا ، جاء إلى المدينة، وعندمـا شكا إليه الحجـاج ما لحقهم مـن أذى ومضار، وعدهـم بكل مـا يرضيهم، ووافـق على أن يعيد إليهم الأموال التي أخـذت من الرجال الذين تحطمـت سفنهم، وحصلوا على حق الـدخول إلى مـدينة ليماسـول والخروج منها، بشرط تبـادل أربعة رجال بمثابة رهائن.

وفي الوقـت نفسه، أعطى الامبراطـور الأوامر، بحشد جميـع المقاتلين في امبراطوريته، وهكـذا شكل جيشاً قويـاً، وأرسل في اليوم الذي وصـل فيه رسالة تغرير إلى الملكتين، يطلب منهما النزول إلى اليابسة لأنها أكثر أماناً، وأن تتجولا حسبما تـرغبان دون خوف من أذى أو إسـاءة معاملة مـن قبل شعبـه، ولدى رفضهما بعـث إليهما في اليـوم التـالي، على سبيل التكـريـم بخبز، ولحم كبـش، وخمرة، من عصير عنـب قبرص، التي قـال لا مثيل لها بمـزاياهـا في جميع أنحـاء العالم، وحـاول في اليوم الثـالـث مـرة ثانيـة أن يخدعهما، وأن يأسرهما زيفـاً بكلمات لطيفة في رسـالة منمقـة، وضعتهما في حالـة من الإربـاك عظيمة، فـإذا ما أصغيتـا إليه ربما سيجعلهما أسيرتين لـديه، وإذا مـا رفضتـا بعناد لا بـد مـن أن يخشين مـن التعرض لبعـض

العنف، وكان الحال غير معروف بعد الوقت المتوقع فيه وصول الملك، أوالحالة الجيدة لأسطوله، ولقد تركتا الامبراطور في وضع غير مؤكد بإجابته إجابة مبهمة، وقالتا إنهما في الغد ستمثلان بحضرته وستكونان تحت تصرفه، ولتوقع الامبراطور قيامهما بتنفيذ ما وعدتا به لازم الهدوء.

وحدث فجأة في اليوم التالي أنه بينما كانت الملكتان في وضع مضطرب كثيراً، وواقعتان تحت تأثير قلق عظيم، وكانتا تتناقشان وتتحادثان وتقلبان أوجه الأمور،بينما هكذا كان الحال ، فجأة ظهر بالأفق البعيد مركبان وكأنهما غرابان فوق ذرى الأمواج المتحركة، وكانا يتحركان نحو الأمام، ويسيران نحوهما بسرعة كبيرة ، وفيما الملكتان ومن معهما في شك حول ما كانا، لمحت بعض المراكب الأخرى قادمة من بعيد، وإثر هذا كان ممكناً رؤية بقية الأسطول، وكله قادم بسرعة يؤم الميناء، ولدى معرفتها أنه كان أسطول الملك، فرحتا فرحاً عظيماً، وقدرتا أنه جاء في الوقت المناسب لإنقاذهما من الوضع السيء والمحرج الذي عاشتا به.

ووصل الملك رتشارد، بعد تجاوزه لعدد كبير من المخاطر، تقوده عناية الرب وتوجهه إلى ميناء قبرص، وفي يوم عيد القديس جون أمام البوابة اللاتينية (٦ـ أيار) ألقى مراسيه في ميناء ليماسول ومعه جميع أسطوله، غير أنه لم ينزل إلى اليابسة.

وعندما علم الملك بالمخاطر التي أحاقت برجال السفن المحطمة، وكيف أنهم سلبوا من مقتنياتهم، وذلك مع جميع ما حدث في تلك الآونة، غضب غضباً شديداً، وبعث في اليوم التالي باثنين من فرسانه إلى الامبراطور يطلب تعويضه بما يرضيه بشكل سلمي، وذلك عن الأذى الذي لقيه وعن المال الذي قام بسلبه [من رجاله]، وكان الامبراطور غاضباً غضباً شديداً تجاه هذه المطالب، ورأى أنه هو الذي لحقه الأذى وأنه هو الإنسان المصاب، ولهذا انفجر يتفوه ويقذف بكلمات شتائم وإساءة قائلاً: «عاهر، مأفون»، وأعلن أنه لا شأن له بالملك، وتبجح

بحمله لقب امبراطور، وأنه يمتلك السلطات الامبراطورية، وأنه واثق من تأييد السماء له، وأنه عمل فقط بما يرضيه.

وعندما عاد الرسولان يحملان هـذا الجواب، انزعج الملك بسبب رعونه الامبراطور، وبسبب جوابه المهين، وكـان فقدانه لـرجاله لـه تأثيره الكبير، ولهذا صرخ بصـوت مرتفـع:«إلى السلاح»، وهـو أمـرٌ أطاعـه رجالـه على الفور، وبعدما سلـح الملك نفسه تماماً، اعتلى ظهر مركـب من النوع الذي يدعى «أفعى»، وكـذلك فعل جنوده، وذلك في محاولة منـه للاستيلاء على الميناء، وكان الامبراطور قـد قام بإغلاق الميناء حتى يمنعـه، فطوقه بجيش كبير، وأغلق المدخل بكل نـوع توفر له من وسائل الحجـز والإعاقة، حيث اقتلع الأبـواب والنوافـذ من البيـوت،وجلب حطـام الأشياء، وركـام كل شيء وجده، والمقاعـد والسلالم مع قطع طويلة مـنَ الخشب، جعلها على شكـل عـوارض مصلبة، وجـاء كـذلـك بـالـدروع والترسة، وبـالمراكـب القـديمة، والأوعيـة المهجورة والتـي كانـت قذرة لإهمالها ورميهـا جانبـاً، وجاء أيضـاً بكل أداة مهما كانت، وبكلمـة موجزة، قام الغـريفون بهدف التصدي للهجوم على الميناء بوضع ركـام كل شيء توفر لهم من خشب أو حجـارة، وأمكـن لهم العثور عليـه في مـدينـة ليماسول، زد على هـذا قـام الامبراطور معه قواته بالزحف صعوداً ونزولاً على طول الشاطىء.

ولكم كـان حشد الامبراطـور مسلحاً بشكـل رائع، فقد حملـوا أسلحة غاليـة الثمن، لا بـل ثمينة جداً، وارتـدوا أردية ذات ألـوان كثيرة، وركبوا خيول حـرب تسابـق الريـح، وعلى بغال جميلـة، وزحفوا إلى الأمـام وإلى الخلـف جاهـزين للقتـال، وكانـت أعـلامهم وراياـتهم التي لا تعـد ولا تحصى ترفـرف بالهواء، وكان لديهم أيضاً بعـض العرادات والقسي وخمسة مـراكب جيـدة التسليـح وقفت مـع الشـاطىء، وكـانـت مملوءة بشبـاب بارعين في القتـال البحري، ولـدى محاولة رجـالنا جـاهديـن الوصـول إلى الشاطىء، حـاول الغريفون قتالهم بصرخـات مرعبة، وكانـوا أشبه بكلاب

تنبح وتزمجر، وشتمـوهم وكأنهم ممن حلت عليهـم اللعنة، وأخبروهم أنهم يسعون وراء ما هو محال انجازه.

وبدت عساكرنا وكأنها أدنى مـن الأعداء، لأنهم كانوا مكشوفين داخل مراكب صغيرة،كما وكـانوا أيضاً منهكين نتيجة متاعـب ركوب البحر لمدة طويلة، فضلاً عـن هذا لقد كانوا رجّالة يحملون أسلحتهـم الفردية فقط، وعلى عكسهم كان السكـان المحليون، فقد كانوا في بلادهـم، وبإمكانهم فعل كل شيء حسبما يـرغبون، ولذلك عنـدما اقترب رجالنا في مـراكبهم، قرروا الاقتراب بقـدر الإمكان ليهـزموا رماة العـرادات والمقاليـع والنشاب الموجوديـن داخل المراكـب، وهكذا تـوجهت رمـايات عـراداتنا ونشـابنا ضدهـم، وبعدمـا فقد الغريفـون كثيراً من رجالهم، تخلـوا عن مـواقفهم، لأنه لم يعد بإمكانهم تحمل ثقل المعركة.

فعندمـا تطايرت الرمـايات بكثافة، قـام في وقت واحد ثلاثـة أو أربعة من الغريفون بالقفز مـن المراكب إلى البحر، وغطسوا تحت البحر، وهلكوا بسبـب اصطـدام أحدهـم بـالاخـر لـدى محاولتهم الحصـول على منجـاة الآن الاستيلاء على المراكب، وبـاتت مراكبنا على الشـاطىء، وتشجع رماتنـا بسبب النجاح الذي تحقـق، فأرسلوا بزخـات من النشاب مثل الأمطار ضد الـذين كانوا يحرسون مكان الرسـو، ولم يستطع الغريفون مواجهـة الحملة، فتراجعـوا من الشـاطىء إلى أرض أكثـر ثباتـاً، وفي أثناء ذلك تـابع رمـاتنا ورماتهم قـذف بعضهم بعضـاً، وهكذا أظلـم الجو من زخات النشـاب، وبدا النهـار وقد تحول إلى ظلام وليـل، وفي هذا الـوقت اكتظت المدينة بـالعساكر، وامتلأت المنـاطق المجاورة بحشود مـن الناس يعدون آلاتهم الحربية ويستخدمونها.

ومضـى وقت طـويل والنصر معلـق بين الطـرفين، فالشـك ظل قـائماً حـول أي الفريقين هـو المنتصر، وأيهما كان المتفـوق، ذلك أن قـواتنا، مـع أنها بذلت غاية جهـدها وقاتلت بكل قواها،لم تحقق تقـدماً يذكر، ولاحظ

الملك أن رجاله لم يكـونوا يمتلكون ما يكفي من جـرأة ليغادروا مراكبهم، وليسيروا نحو السـاحل، ولهذا قفـز أول الناس مـن مركبـه إلى الماء وقاتـل الغريفون بـإقدام، ثم حذا جنـدنا حذوه، وكانـوا متشوقين لإلحاق الهزيمة بالأعداء، فقامـوا بالضغط على قوات العدو، وأرغموهـا على ترك مواقعها والتراجع.

ووقتها كـان بإمكـانك رؤيـة زخات مـن النشاب المتطـاير، وصفـوف الغريفـون وقد تمزقت، وكان بقـدرتك سماع دمدمة القـراع والنزال، وأنين الذين كانوا يموتون، وعويل الـذين كانوا يتراجعون، ثم تحرك رجالنا ككتلة واحـدة، فأرغمـوا الأعـداءعلى الهزيمـة والتخبط بـالفـوضـى، وبعد هـذا ساقوهم أولاً إلى داخل المدينة، ومن هناك إلى السهول الواقعة خارجها.

وضغـط الملـك بشـدة في عمليـة مطاردة لـلامبراطـور، فقـد عثـر على حصان عـادي، فامتطاه بكـل سرعة، واستعان برمـح كان مركـوزاً خلف السرج، وركب مسرعاً مستخدمـاً أربطة عوضاً عن الركـائب، ولم يتوقف عن مطـاردة الامبراطور، ونـادى بأعلى صوتـه: «مولاي الامبراطـور، أدعوك إلى المبارزة الشخصيـة»، لكن الامبراطور، كان أشبـه بالأطرش، فقد تـابع الهزيمة بكل سرعة أوتيها.

وبعدما استـولى الملك على المدينة، جعل الملكتين تهبطـان إلى اليابسة، وتغـادران السفينة، ومـن ثم تقيمان في ليماسـول، فقد حصلتـا بعد تعـب الرحلـة ورعبها على الأمن، وأمضى الملـك الليلة نفسها في سرادقـه، وأمر فأنزلت خيوله إلى اليابسة بوسـاطة عبارات خاصة، بينما تظاهر الامبراطور بعـدم الخوف مـن أي شيء، لـذا أمضى الليـل في معسكـر على مسـافـة مرحلتين.

كيف سلم الامبراطور قبرص

في اليـوم التالي ، وفي حـوالي السـاعة الثـانية ، ركـب الملـك حصانـه واكتشـف وجود بعـض الاغريـق واقفين ليس بعيـداً ، في حقل زيتـون ، ومعهم أعـلامهم المرزولـة ، ولدى مبـادرتهم إلى الفرار ، تـولى مطاردتهم ، لكن بما أن خيـولنا قـد عقرت بسبـب حبسها قـرب البحر لحوالي الشهـر كاملاً ، فقد احتفظ رجالنا بهم ووفـروهـم ، وساروا بخطى وئيدة حتى رأوا جيش الامبراطـور ، الذي أمضـى الليل في واد هناك ، وهنـا توقفـوا عن أعمال المطاردة ،

وبـدأ الاغريـق الذيـن يصرخون ويـولـولون بشكـل مرعـب ، بتوجيـه الاهانات لـرجالنا ، وبسبب الصراخ أفـاق الامبراطور من نومـه ، وامتطى ظهر حصانه ، وزحـف ببطىء مع رجاله نحو رجالنـا حتى وصل إلى رابية قريبة ، حيث تمركز ليقوم بمراقبة الاشتباك .

واستخـدم الاغريـق قسيهم وحـرابهم ، وصرخوا عـاليا بـأن رجالنـا لا يمكن تحريكهـم وزلزلتهم ،ثـم تقدم الى الملك أحـد الكتاب المسلحين ، واسمه هـوغو دي مـارا ، وقال مخاطبـاً إياه :« مـولاي الملك ، يبـدو من الحكمة تبني خطـة تقضي بالتراجع لبعض الـوقت أمام مثل هـذا الحشد الكبير والقوي من النـاس»، ورد عليه الملك قائلاً :«أيها السيـد الكاتـب ، دعنا وما نختص بـه ، والأحسن بالنسبة لك أن تشغل نفسـك بالكتابه ، وتدع الحرب لنـا ، وانتبه واحرص أن تبتعـد عن الحشود ، وحـاول آخرون مثل هذا أن يقنعوا الملك بالاقلاع عـن القتال ضد حشد هائل مثل ذلك الحشد ، وفي الحقيقـة لم يكن إلى جـانبه في ذلك الـوقت أكثـر من خمسين رجـلاً ، غير أن تشجـع من هيجـان الأعـداء ، فـوضـع مهمازين لفـرسـه وانقض بشكل مفاجىء في هجوم ضد الأعداء ، واندفع خارقاً لصفوفهم ،

فمزقهم ، وأخـذ يقاتل الأول فالـذي يليه ، مشدداًضغطه بـدون توقف ، وعندما أدرك جيشهـم أن خصومه كانوا يتجمعـون تلاشت شجاعـة رجاله ، وشرعوا بـالفرار ، ولقد نجـا منهم الذيـن امتلكوا خيولاً سريعـة وصبورة ، لكن الـرجالة والنـاس العاديين ، الذيـن كانـوا أقل قدرة على الفـرار فقد تعرضوا للذبح في جميع الاتجاهات بـدون تفريق ، ولم يعد بإمكانهم الفرار بسبب وصول الملك .

وبينها كان الامبراطور يشجـع رجاله ويحثهم على القتـال ، انقض عليه الملـك بشكل مفـاجـيء وبكل سرعـة ، ورمـاه أرضاً عـن ظهـر حصانـه بضربة من رمحه ، غير أنـه ما لبث أن حصل على حصان آخـر بكل سرعة ونجا وسط الحشد ، علماً بأ ن بعض أتباعه لاقى حتفه .

آه ، كم من الخيول الأصيلة كان بإمكـانك أن ترى قد ذبحت هناك ، وكم من السوابغ ، والبيض والسيوف والـرماح والرايات قد سقطت أرضاً وكم مـن الأجساد الميتة المضرجة بـالدماء كانـت هناك ، وكم من الـذين كانوا يلفظون أنفاسهم !

وعنـد ادراك الامبراطـور لشجاعـة رجـالنـا واقدامهـم ، ولحال قتـال رجـاله ، هـرب بأقصـى سرعة أمكنتـه نحـو الجبال ، ورمـى الملك أرضـاً حامل رايـة الامبراطور ، وأعطى الأوامر أن يحتفظ بالعلـم الرائع والجميل له ، ثـم طارد خيـالتنا الفـارين بقـدر ما استطـاعوا ، أي لحوالي الميلين ، وبعد هذا عادوا يسيرون بخطوات عادية ، ثم وصلوا بكل هدوء .

ثم التفت الناس نحو الغنائم ، فـأخذوا كثيراً من الأسلاب من أسلحة وأثواب ثمينـة مع خيمة الامبراطور ، التـي عثر فيها على آنية مصنعـة من الذهـب والفضة فقـط ، وكذلـك مع جميـع مفروشـات الامبراطور وثيـابه الرائعة ومحتويات البيت ، وذلك بالاضافة الى عدد من السوابغ والبيض ، والسيوف المختارة والخيول والبغال ، وكثيراً مـن الغنائم من أغنام وسائمة

وماعـز ، وخيول أصيلـة وبغال ، وبـط وأوز ودجاج ، كما وجـدوا أنواعـاً منتخبة مـن الخمر والمؤن من جميع الأنـواع ، كما وحملوا معهم حشـداً من الأسرى ، ولقـد كانـت الكميات هـائلـة الى حد أنهم شعـروا بالتخمـة ، وبكلمة موجـزة بات كل فكر مشغـولاً بالغنائم ، وكانـت متراكمة بشكل عظيم ، ولم يبد أحـد منهم اهتماماً بأي شيء ثمين ، حتى عندمـا قدمت هذه الأشياء إليهم .

وبعدمـا صنعت هذه الأشيـاء ، أعلن الملك مـرسومـاًبوساطـة صوت المنادي في أن بإمكان كل واحد من السكان قابل بالسلام ، أن يذهب ويعود حسبما يشاء دون أن يتعرض للأذى من قبـل رجاله ، بل أن يتمتع بحرية كاملة ، لكن كل من عدّ الملك بمثابة عدو له ، عليه الانتباه حتى لا يقـع بيديـه ، وينطبـق هذا على رجـالة الجيـش ، لأن مـن المؤكد أنـه سيعاملهم بمثابة أعداء ، وفقـد الامبراطور بهذه الوسائط عدداً كبيراً جداً من رجاله ، ذلك أنهم تخلوا عنه باستمرار ، وأخيراً عندما وجد الامبراطور نفسه في حالة مـن الفوضى والأسى لأنه أخفق في مقـاصده ، حمل نفسه والتجأ الى حصن قوي اسمه نيقوسيا .

وفي يوم السبت التـالي ظهر بالأفق ثلاث شواني وصعـد الملك ، الذي كان دومـاً متعجلا، إن لم نقل كان مغـامراً ، الى ظهر مركـب صغير، دفع بقوة المجاذيف ، وذهب لملاقاة هذه الشـواني ، ولمعرفة القادمين من هم ، ومن أين جـاءوا ، ولدى اجابتهم له ، قـالوا إن فيها غي لـوزغنان ، وعاد الملك مسرعاً وأمـر بإعداد عشاء فـوري للضيوف القادمين ، وعندمـا نزل الملك غـي إلى اليابسة ، استقبلـه بحفاوة عظيمـة جداً ، وعاملـه بلطف زائد.

وجاء الملك غي إلى عند الملك رتشـارد يسأل نصيحته ، ويطلب عونه ضد ملـك فرنسـا الذي خطـط لجعل مـركيز مـونتفرات ملكـاً للقدس ، وخلع غي ، ورحب الملك رتشارد به بلطـف ، وأكرمه بمنحه هداياه لأنه

كان فقيراً ومحروماً من الامكانيات ، وأعطاه ألفي مارك فضي وعشرين كأساً لها ثمنها ، الذي يعادل مائة وخمسة ماركات ، فقد كان كأسان منهن من الذهب الخالص .

وفي اليوم التالي ، وهو يوم الأحد ، الذي وافق عيد القديس بانكراس Pancras احتفل بشكل مهيب بزواج الملك رتشارد وبيرنغاريا النافارية في ليماسول ، وكانت سيدة على درجة عالية من الحكمة ، والأخلاق المصقولة ، ووقتها توجت ملكة ، وكان من بين الحضور وقت الاحتفال رئيس الأساقفة ، وأسقف أوف إفرو Evreux وأسقف بانيريا Baneriaوعدد كبيرآخر من الرؤساء والنبلاء الآخرين وكان الملك في أروع حالاته في هذه المناسبة السعيدة ، وأظهر نفسه مرحاً ، ودمثاً للغاية واحتفل بعد يوم واحد بالزفاف بشكل مهيب وبطرائق ملكية ، ووصلت الى قبرص جميع الشواني الملكية ، التي انتظروصولها بقلق وكانت مجهزة ومدافع عنها بسلاح رائع وما من واحد رأى سفناً أفضل أو أعظم سلامة ، وضم الملك إليهم الشواني الخمس اللائي أخذهن من الامبراطور وبهذه الصورة امتلك أربعين شينياً مسلحاً وستين سفينة من أنواع أخرى بحالة جيدة .

واقترح الملك أن يطارد مع جيشه الامبراطور حيثما كان ، وأن يأخذه بالقوة ويرغمه على الاستسلام ، لكن بناء على وساطة وطلب مخلص تقدم به مقدمو اسبتارية القدس تقرر وجوب عقد مؤتمر بين الملك والامبراطور ، وندب الامبراطور خسارة رجاله ، وأنه قد أرغم على الفرار مجللاً بالعار الى نيقوسيا ، من وجه الملك ، وخشي من المطاردة ، أكثر بسبب أن السكان المحليين هجروه ، ولم يعد بإمكانه الاعتماد على مساعدتهم .

وبعدما استدعى الملك إليه أكبر عدد ممكن من الناس امتطى فرساًاسبانياً ، عالي الظهر ، عظيم الحجم ، جميل الشكل ، وسار الى

سهل واسـع جداً فيما بين البحر والطريـق العام ، قرب مدينـة ليماسول ، وكان سرج فرسه يتألق بـالذهب ، ووشي ورصع بالأحمر ، وكان على الجزء الخلفي منـه أسديـن صغيرين مـن الذهـب استدارا نحـو بعضهما بأفـواه مفتـوحـة ، وكـان على الجزء الأمامـي أيضـاً اثنين يشيران نحـو بعضهما ، وكأنما أقعيـا للالتهـام ، وزينت قدمـا الملك بمهمازيـن ذهبيين ، وارتدى قميصاً لونه زهر ، طرز بصفوف مـن الأهلة الفضية المصاغة ، وكان يشع مثل أفـلاك الشمس بـأشعة سميكـة ، وهكذا سـار الملك المكسـو هكذا نحو الأمام ، وكان متمنطقاً بسيف مجرب مقبضـه من الذهـب ، والنطاق منسوج بـالذهب ، وكـان فم الغمد مغلفـاً بالفضة ، وارتـدى على رأسه قبعة قـرمزية ، مزينـة بأشكال مختلـف الطيور ، ومخيطة ومطرزة بـالابرة ، وحمل عصـا بيده ، وعبر مظهـره العـام وبرهـن أنه كـان عسكـريا مـن الطراز الأمثل ، ومنح البهجة العظيمة لكل من رآه .

وبعد تقـديم العـديد مـن المقترحات على كـلا الجانبين بين الملكيين ، عرض الامبراطـور أخيراً أن يقسم للملك يمين التبعيـة في كل شيء ، وأن يـرسل قـوة مكونـة من خمسمائة فـارس إلى أرض القدس خـدمة للـرب ، ولتكون تحت تصرف الملـك رتشارد وتطيع أوامـره ، وعرض بالاضـافة إلى جميع هـذه الأشياء (حتى يرضي الملـك تماماً ولا يترك في نفسه أدنـى شك)أن يضع جميع قلاعه وحصونه في أيـدي حراس الملك ، وقدم بالاضافة إلى ذلك ثلاثة آلاف وخمسمائة مارك بمثابة تـرضية وتعويض للذين فقدوا أموالهم ، أو تعرضت للسلب ، وتبعاً لـلاتفاق بينهما ، إذا ما وجد الملك أنه ورجاله قد قاتلوا بإخلاص ، يتـوجب وقتها أن يعيد اليه جميع قلاعه وحصونه ، وأن تبقى الصداقة بينهما نفسها إلى الأبد .

وعندما أحال الملك هذا العرض الى رفاقه للفحص ، أجابوا بأنه محترم جداً ، ويتماشـى مع احترام الملـك ومكانتـه ، وكانـوا راضين تماما بـه ، وعلى الفـور أقسم الامبراطـور أن يحترم جميع الشروط المتقـدم ذكـرها بكـل

اخلاص للملك ، وبعدما تبادلا قبلات السلام أقاما التحالف وفق السمات الموصوفة .

وقام الامبراطور في الليلة التالية ، بناء على مشورة فارس خائن ، بالفرار الى فيها غوستا ،لأن الفارس أخبره أن الملك رتشارد عازم على إلقاء القبض عليه ورميه بالأغلال ، ولدى سماع الملك رتشارد بهذا انطلق يطارده ، متهماً إياه بالتدليس وحنث اليمين .

وعندما وصل الملك الى فيها غوستا ، وجدها مهجورة ، لأن الامبراطور وجد أنه غير مضمون الأمان بالنسبة له أن يتخذ فيها موقف المدافع ، ولهذا أخفى نفسه داخل الأحراش ، حيث الوصول اليه كان صعباً ، وإذا ما غامر رجالنا بالمرور بها ، سيكون بإمكانه مهاجمتهم من خلال الكمائن ، وأعطى الملك الأوامر بوجوب حراسة الموانىء بدقة من قبل شوانيه ، بغية إلقاء القبض على الامبراطور إذا حاول الفرار .

وبعدما مكث هناك لمدة ثلاثة أيام جاء اليه أسقف بوفياس Bea-vais ودروغودي ميرل ، وهو نبيل واسع الشهرة ، جاء ا اليه رسلاً لحثه على عبور البحر بدون تأخير ، وليؤكدا له أن ملك فرنسا لن يقوم بالهجوم على عكا قبل وصوله ، وأضافا الى ذلك كلمة نقد قائلين بأنه أهمل المسائل الضرورية ، وأنه أضاع جهوده في مهام عبثية ، وأنه يتولى بلا توقف تعذيب ومطاردة مسيحيين أبرياء ، في حين هناك آلاف من المسلمين يتوجب عليه حربهم في البلاد المجاورة .

ورد الملك على هذه الرسالة بطريقة غاضبة ، ليس من المناسب ادراجها هنا ، ذلك أنه بدا له من المفيد جداً بالمحصلات اخضاع مثل هذه الجزيرة الضرورية جداً والمفيدة لمملكة القدس ، ثم تحرك الجيش نحو نيقوسيا لانشاب القتال ، لأنهم علموا أن الامبراطور عازم على نصب كمين لهم ، وزحف الملك في الساقة ، للحماية ضد المهاجمين ،

عندما اندفع الامبراطور بشكل مفاجىء من مكان اختبائه وهاجمهم مع حوالي سبعمائة من الغريفون ، وبذل رماة أقواسهم العقارة والعرادات غاية جهدهم ضد طلائع قواتنا ، لكن قواتنا حافظت على التحامها وتماسكها في نظام جيد لذلك لم تعان من التمزق ، وآنذاك زحف الامبراطور على الجناح للاستطلاع ، وانصب بقضه وقضيضه إما بهدف تمزيق صفوفنا ، أو أن يقف على مكان الملك ورميه ، وعندما وجد أن الملك كان في الساقة سدد نحوه بسهمين مسمومين ، مما أشعل غضب الملك عليه ، فلبس مهمازين ، وركب حصانه ، وانقض على الامبراطور بهدف طعنه برمحه ، لكن الامبراطور تجنبه وهرب بالسرعة التي أمكنته ، وهو حانق ومضطرب لأنه لم ينجح في تنفيذ رغباته ، ولم يطارده الملك بعيداً لأنه شك في قدرته على أسره لأنه كان ممتطياً لفرس كميت له سرعة وقدرة على الاستمرار ما من أحد رأى ما يماثلها أبداً .

ثم زحف الملك الى نيقوسيا مع جيشه ، وخرج سكان المدينة كتلة واحدة لتهنئته واستقبلوه ورحبوا به وكأنه سيدهم ، واستقبلهم الملك بسلام وفقط جعلهم يحلقون لحاهم ، وذلك علامة وبرهان على تغييرهم لسادتهم ، وكان الامبراطور عظيم الغضب لدى سماعه بهذا ، وطلب من رجاله إلقاء القبض على كل واحد من رجالنا يستطيعون ، ومن ثم قلع عينيه ،وقطع الأنوف ، وتشويه الأيدي أو الأرجل بغية ارضاء غضبه وانتقامه ، واطفاء حزنه .

وقسم الجيش الى ثلاثة أقسام ، قاد قسم منهاالملك غي لالقاء الحصار على ثلاثة حصون ، وتم الاستيلاء على الأول ، وعثر على ابنة الامبراطور وعلى أمواله ، وعندما سمع الامبراطور بهذه الخسارة استولى عليه اليأس ودفعه الى حد الجنون .

وزحف الملك غي الى حصار الحصن الثاني ، واستمر المحاصرون لأيام عدة يرمون على المهاجمين الحجارة والحراب والنشاب ، حتى تلقوا أمراً

من الامبراطور بالاستسلام والتخلي عن الموقع ، وعندها وضع الملك فيه ابنة الامبراطور حتى يحول دون أسرها ثانية ، ومن هناك عاد الملك غي الى نيقوسيا ، حيث استلقى الملك رتشارد مريضاً ، وما أن عوفي حتى هاجم الحصن الثالث واقتحمه ، وهو حصن عدّ حتى الآن لايرام .

وارتأى الامبراطور بعدما قدر الموقف أن ابنته قد أسرت (ذلك أن حياته تعلقت بها) وأنه ليس هناك من أمل ترك للمقاومة ، بعد هذا قرر التماس السلام والرحمة ، وبناء عليه بعث برسل الى الملك رتشارد يلتمسون المسامحة ، وتبعهم في ثياب حزينة ، وفي حالة يائسة .

وعندما مثل في حضرة الملك رتشارد ، سقط على ركبتيه في حالة تذلل أمامه ، قائلا إنه يضع نفسه كلياً تحت رحمته ، ويرجو ألا يلقيه بالأغلال ، وتحرك الملك عطفاً عليه وأنهضه وأجلسه الى جانبه ، وأمر بإحضار ابنته اليه ، وعندما رآها الامبراطور سرّ سروراً عظيماً ، وعانقها بشكل عاطفي جداً ، وغمرها بقبله ، بينما أخذت الدموع تتساقط من عينيه ، والقى الملك الامبراطور بالأغلال ، لكن ليس بأغلال حديدية بل أغلال فضية .

وهكذا تملك الملك قبرص في مدة خمسة عشر يوماً ، وأعطاها الى رجاله لسكناها ، وعهد بأمر الامبراطور وشؤون اعتقاله الى الملك غي ، وسلم ابنته الصغيرة الى ملكته للعناية بها وتربيتها وتثقيفها .*

ثم أعاد الملك رتشارد جيشه وخدمه مع الأثقال إلى ليماسول، حيث كانت الملكتان، وأعطى الأوامر باعداد الاسطول لجواز مباشر للبحر، وانتشرت في هذه الآونة تقارير أفادت أن عكا باتت على حافة السقوط، وعندما سمع الملك بهذا تنهد بعمق وقال:«بعد ماحوصرت عكا هذه

* تبعاً لمصدر آخر ، رافقت رتشارد في عودته الى نورماندي ، وحاولت بعد وفاته العودة الى قبرص ، غير أنها أوقفت في مرسيليا ، فأرغمت على الزواج من ريموند صاحب طولوز ، ثم كان زوجها الثاني فارس فلمنكي ، حاول عبثاً الادعاء بأحقيته بعرش قبرص من خلالها ، ولكونه زوجها .

المدة الطويلة، علّ الرب يؤجل سقوطها حتى قدومي، فعندها سيكون النصر بعونه أكثر روعة».

وبعدما وضعوا الأثقال على ظهور السفن، أقلع الاسطول من الشاطىء بريح مواتية، والملكتان ذهبتا أيضاً برفقة الملك.

كيف تحاربوا مع سفينة اسلامية كبيرة ووصلوا أخيراً إلى عكا

ومن فيها غوستا أقلع الملك على واحدة من أكبر شوانيه وأسرعها، (وكما كانت عادته) تحرك نحو الأمام بالطليعة، وكان عديم الصبر تجاه التأخير، في حين سارت السفن الأخرى في أعقابه بأقصى ماأوتيت من سرعة، ولم يكن هناك من قوة، لم تكن لتخاف عن حق وترتعب من سرعتهن، وفي الوقت الذي خاضوا فيه غمرات البحر، أخذت ملامح الأرض المقدسة للقدس تظهر عن بعد أمامهم للمرة الأولى، وكان الحصن المسمى المرقب أول بقعة تأتي أمام أنظارهم.

وعندما كانوا على مقربة من بيروت، رأوا عن بعد مركباً مشحوناً بالمسلمين الذين جرى اختيارهم من الدولة الاسلامية، وكان المركب موجهاً من قبل صلاح الدين لنقل المعونات إلى المحاصرين في عكا، ولم يكن بمستطاع الذين على ظهر المركب تأمين مدخل سريع إلى ميناء عكا، خشية من المخاطر التي صدرت عن الجيش المسيحي، وكانوا ينتظرون لحظة مناسبة لدخول الميناء بشكل مفاجىء، وما أن رأى الملك السفينة حتى استدعى بيتردي بار Barres وكان قائداً لإحدى شوانيه، وأمره أن يجدف بسرعة ليعرف ويسأل من كان قائداً للمركب، وعندما أجابوه أنهم يعودون إلى ملك فرنسا، اقترب الملك بلهفة من المركب وبسرعة، لكنه لم يعثر على أية علامة أنه فرنسي، كما أنه لم يحمل أية شارة مسيحية أو راية، وعندما تفحصه الملك عن قرب، بدأت تعلوه الدهشة بسبب حجمه الهائل، وصناعته المحكمة، فقد كان على ظهره ثلاثة سواري(السفن الأوربية امتلكت حتى القرن الثالث عشر سارية واحدة)، وكانت أطرافه معلمة بشرائح حمراء وصفراء، وكان مفروشاً

بشكل جيد وفيه كل مايلزم من عتاد، إلى حد أن مامن سفينة كانت متفوقة عليه، كما كان مشحوناً بوفرة من الامدادات وبجميع أنواع المؤن.

وقال واحد ممن كان على ظهر سفينة الملك، أنه عندما كان في بيروت شاهد هذا المركب محملاً بمائة حمل جمل من السلاح، والرماح، والقسي، والحراب، والنشاب، وكان على ظهره سبعة أمراء وثمانين من نخبة الأتراك، وذلك إلى جانب كميات هائلة لاتدخل تحت الاحصاء من جميع أنواع المؤن، وكان معهم على ظهر المركب كمية كبيرة من النفوط (النار الاغريقية) في قوارير، ومائتين من الأفاعي القاتلة من أجل تدمير المسيحيين.

وجرى بناء عليه ارسال آخرين للحصول على معلومات مؤكدة أكثر، وعندما أعطوا بدلاً من الاجابة المتقدمة، اجابة جديدة، حيث قالوا إنهم جنويين وجهتهم إلى صور، بدأ رجالنا بسماع هذا الجواب المتغير يشكون بصدقهم، وأصر واحد من رجالنا الذين كانوا على ظهر السفينة أنهم كانوا مسلمين، ولدى سؤال الملك له قال: «إنني أسمح لك بقطع رأسي، أو شنقي على شجرة إن لم أبرهن بأن هؤلاء الرجال من المسلمين، دع الشيني يمضي مسرعاً خلفهم، لأنهم يحاولون الابتعاد، ولاتقدموا لهم أية نوع من أنواع التحيات، فبهذه الطريقة سنمتلك برهاناًمؤكداً عن ماهية مقاصدهم، وإلى أي مدى يمكن تصديقهم، ثم انطلق الشيني بناء على أوامر الملك خلفهم بسرعة كاملة، ولدى الاقتراب من مركبهم، والتجديف إلى جانبه بدون تقديم تحية صداقة لهم، بدأ البحارة يرمون الحراب والنشاب نحو رجالنا، وعندما رأى الملك هذا أمر بمهاجمة السفينة على الفور، وبعد تبادل الرشقات من السهام، انخفضت سرعتها، لأن الريح حملتها بسرعة منخفضة.

ومع أن رجال سفينتنا جدفوا مراراً حول السفينة، وتفحصوها بدقه، لم يجدوا نقطة موائمة لمهاجمتها، لأنها بدت صلبة ومحكمة إلى أبعد الحدود،

ومصنعة من مواد قوية، زد على هذا كانت محمية بوساطة حرس من المقاتلين، الذين استمروا في رمي النشاب نحوهم، ولم يستمتع رجالنا أبداً برماية النشاب، ولابالارتفاع العظيم للسفينة، لأنه من الممكن أن تصطرع مع عدو وتقاتل ضده على مستوى واحد، لكن عندما ترمى الرمايات من أعلى دوماً تؤذي الذين هم بالأسفل، لأن رؤوسها الحديدية تسقط نحو الأسفل، وعندما بدأ جهدهم يسترخي، ازداد حماس الملك صعوداً، ورفع صوته يقول متسائلاً:«هل ستدعون السفينة تمضي وتهرب دون أن تلمس أو تصاب بالأذى؟ العار لكم! هل تحولتم إلى جبناء نتيجة تقاعسكم، بعد كثير من الانتصارات؟ العالم أجمع يعرف أنكم مكرسون لخدمة الصليب، ولسوف تعانون من أشد العقوبات وأقساها إذا ماسمحتم للعدو بالنجاة وهو على قيد الحياة، وذلك بعدما ألقي أمامكم على طريقكم».

وبناء عليه أرغمت الحاجة رجالنا، فقفزوا بنشاط نحو الماء، تحت طرف السفينة، وربطوا دفة القيادة ومجدافها بالحبال، لحرف السفينة وإعاقة تقدمها، وأمسك بعضهم بالحبال، فقفزوا على ظهرها، واستقبلهم الأتراك برجولة، ومزقوهم إلى أشلاء عندما وصلوا إلى ظهر السفينة، ورموا برأس هذا، وبذراع ذاك، وبأيدي آخر، وقذفوا بأجسادهم إلى البحر، ولدى رؤية رجالنا هذا التهبوا غضباً، وتجددت شجاعتهم من العطش للانتقام، وعبروا فوق معظم السفينة وقاتلوا الأتراك على شكل كتلة واحدة، وبحدة عظيمة، ومع أن الأتراك تراجعوا قليلاً، غير أنهم قدموا مقاومة عنيدة.

واستمرت المعركة إلى وقت طويل، وسقط عدد كبير من على الجانبين، لكن في النهاية، ضغط الأتراك بشجاعة على رجالنا، وردوهم إلى الخلف (مع أنهم قاوموا بكل طاقاتهم) وأخرجوهم من السفينة، وبناء على هذا تراجع رجالنا إلى شوانيهم، وحاصروا المركب من جميع الجهات، وحاولوا

ايجاد وسيلة أسهل لحربه.

ولاحظ الملك الوضع الخطر الذي كان فيه رجاله، وإذا لم تتعرض السفينة للأذى لن يكون من السهل أخذ الترك مع السلاح والمؤن التي فيها، فأمر كل شيني من شوانيه بوجوب مهاجمة السفينة بوساطة رؤوسها المعدنية التي في مقدمتها، وهكذا أخذت الشواني تتراجع إلى الخلف، ثم تهاجم بسرعة كبيرة بوساطة التجديف أطراف السفينة لخرقها، وبهذه الطريقة تحطمت السفينة بسرعة، وأصبحت مفتوحة أمام الأمواج ومن ثم أخذت تغرق، وعندما رأى الأتراك هذا قفزوا إلى الماء ليموتوا، وقتل بعضهم من قبل رجالنا، وغرق الآخرون، واحتفظ الملك بخمسة وثلاثين منهم أحياء، وهم الأمراء والرجال الذين كانوا بارعين في صنع الآلات، لكن البقية لاقوا حتفهم، وتمّ التخلي عن الأسلحة، وغرقت الأفاعي، وتوزعت بين أمواج البحر.

ولو أن هذه السفينة وصلت سالمة أثناء حصار عكا، لما تمكن المسيحيون مطلقاً من الاستيلاء على المدينة، لكن بوساطة الملك وبعون الرب تحولت إلى دمار الكفار، ولعون المسيحيين، وشهد المسلمون عن بعد ، ومن فوق أماكن شاهقة ما كان يحدث ، وبحزن وأسف حملوا الأخبار الى صلاح الدين ، الذي عندما سمعها أمسك بلحيته وأخذ ينتفها بغضب وحنق ، وانفجر يتمتم بهذه الكلمات : « يا الهي ، هل فقدت عكا ، وخسرت نخبة جندي ، الذين أثق بهم ثقة كبيرة ؟ إنني مقهور ومتألم غاية الألم لهذه الخسارة ».

وعندما حمل الذين شهدوا الواقعة الأخبار الى جيش المسلمين ، علت بين صفوفهم ضجة عظيمة من البكاء والنواح والندب المؤلم لحظهم السيء ، وقطعوا ضفائر شعرهم ، وتخلوا عن ملابسهم ، ولعنوا الساعة التي جاءوا فيها الى سورية ، وشتموا ما قدرته النجوم عليهم ، لأنهم خسروا بخسارة السفينة المذكورة أعلاه جميع نخبة شبابهم ، الذين وثقوا

بهم وعليهم اعتمدوا .

وبعد هـذا النجاح أسرع الملك رتشـارد مسروراً ومبتهجاً ، ومعـه جميع أركانه ، نحو عكا ، الى حيث رغبـاته الجامحة حملته ، وفي الليلة ، وبفضل ريح منـاسب ، رسـا الاسطول قـرب صور ، ورفـع الأسطول في الصبـاح المراسي ، ونشر الأشرعة ، وبعد وقت قصير بات البرج المرتفـع لعكا مرئيا، ثم قليلاً فقليلاً ظهرت بقية دفاعات المدينة .

وأحاط بالمدافعين المحاصرين حشـود لا تعد ولا تحصى ، منتخبة من كل أمة مـن أمم العالم المسيحي تحت قبة السماء ، وكانـوا جميعاً مؤهلين للعمل والتعـب في سبيل الرب ، لأنـه كان قـد مضى وقت طـويل على حصـار المدينـة ، وقد تـأثـرت كثيراًبـالجهـد المتواصـل ، والانهاك بسبـب ضغط الجوع ، وكـل نوع مـن أنواع العدوان ، وكـان من الممكـن أن يرى خلف المحاصريـن ، الجيش التركي وقد غطى الجبال والـوديان ، والتلال والسهـول ، بخيـام عكسـت ألوانها أشعـة الشمـس، ورأوا أيضـاًسرادق صلاح الديـن ، وخيمة أخيه سيف الديـن ، وخيمة تقي الديـن ، الرجل الرئيسي للمسلمين ، فهـو الذي تـولى حراسـة أجزاء البحـر وكان يخطـط للحملات الفعالة والمستمرة على المسيحيين .

وتفحص الملك رتشـارد وقدّر حجم جميع جيشهم ، وعنـدما وصل الى المرسـى ، جاء لاستقبـالـه ملك فـرنسا ، وجيـش كـامل مـن المحليين ، والأمـراء والمقـدمين ، والنبـلاء ، وقـد رحبـوا بـه بسرور وانشراح ، لأنهم كانوا منتظرين ومتشوقين لوصوله .

وفي يـوم السبت ، قبـل عيد الـرسول المبـارك بـرنابـا ، في اسبوع عيـد العنصرة ، نزل الملـك رتشارد الى اليابسـة قرب عكـا مع حاشيتـه كلها ، واهتـزت الأرض مـن صراخ المسيحيين المسروريـن ، وعبر النـاس عـن بهجتهـم بصرخـات الترحيب وبـالنفـخ بـالأبـواق، وأمضوا النهـار كلـه

بالاحتفال ، وسيطر على الجميع سرور عام . وبالمقابل ارتعب الأتراك ، وانكسرت نفوسهم بقدومه ، لأنهم أدركوا أن جميع حركات الذهاب والاياب هي محصلة قدوم حشود الملك ونزولها من السفن .

وسار الملكان مع بعضهما من المرسى ، وقدم كل منهما للآخر العناية الفائقة ، ثم ذهب الملك رتشارد إلى خيمته التي كانت معدة له من قبل ، وشرع مباشرة في الاستعدادات للحصار ذلك أن اهتمامه تركز بشكل رئيسي على ايجاد الوسائل والأدوات والآلات ، التي تمكنهم من الاستيلاء على عكا ، دون خسارة للوقت .

وما من قلم قادر على وصف البهجة بين الناس تلك الليلة ، ليلة وصول الملك ، وما من لسان قادر على وصف ذلك ، فقد نظر الى هدوء الليل على أنه ابتسامة ألقيت عليهم مع هواء عذب ، وصدحت الأبواق، وصوتت الصور ، مع نعيق النفر ، وسمعت الأنغام العميقة للطنبور والمزمار ، وشنفت الآذان ، وسمعت السمفونيات المهدئة وكأنها أصوات عدة مزجت بصوت واحد ، ولم يكن هناك إنسان لم يشارك في البهجة والحمد والشكر ، إما بغناء أغان شعبية للتعبير عن مشاعر السرور في قلبه ، أو ردد أعمال القدماء محركاً بما ضربوه من أمثلة أرواح المعاصرين ، وشرب بعضهم الخمرة بكؤوس ثمينة بصحة المغنيين ، في حين قام آخرون بمزج ذوي المراتب العليا والمراتب الدنيا مع بعضهم ، وأمضوا الليل في رقص متواصل ، وإزدادت بهجتهم بإخضاع الملك رتشارد لجزيرة قبرص، وهو مكان نافع وضروري لهم ، وسيؤدي خدمات جليلة لجيشهم ، وكدليل آخر على بهجة قلوبهم ولاضاءة ظلام الليل أشعلت الشموع والمشاعل فبثت الشعاع حتى بدا الظلام وكأنه أزيل بضياء النهار ، وخيل للترك أن الوادي كله كان يشتعل ، ثم إن البيزيين وقد نال اعجابهم مجد وأبهة الملك رتشارد ، أقبلوا عليه ووقفوا أمامه ، وقدموا له الخضوع ، وحلفوا له يمين الولاء ، وأخضعوا متطوعين

أنفسهم لسلطانه ولخدمته .

وفي اليوم التالي وهو أحد العنصرة ، سمع الملك رتشارد وعرف أن ملك فرنسا ربح إرادة وإيثار الجميع بإعطائه إلى كل جندي ثلاث قطع ذهبية (أوريAaurei) كل شهر ، عندها أعلن الملك رتشارد ، الذي لم يتفوق عليه أحد أو ساواه بالكرم بوساطة المنادي ، أن كل من أراد أن يدخل في خدمته ، بصرف النظر عن الأمة التي ينتمي إليها ، سوف يتلقى أربع قطع ذهبية بالشهر أعطية له ، وبهذه الطريقة تفوق بكرمه على الجميع ، لأنه فاق كل إنسان آخر بمحاسنه وبجوده ، مثلما بزّ الجميع بعطاياه وأبهته ، ولقد كان الناس يتساءلون :« عندما يقع أول قتال ، من الرجل الذيّ توقعناه طويلاً وانتظرناه بقلق وشوق ليباشر ذلك ؟ ، ومن الرجل الأول تفوقا بين الملوك والأعظم براعة في العالم المسيحي بأسره ؟ . لندع الآن إرادة الرب تقرر ذلك ،إن آمال الجميع ألقيت على الملك رتشارد ». لكن بعد مضي عدة أيام أصيب الملك بمرض حاد يدعى أرنولديا Arnoldia ، فهذا ما يطلقه عليه عامة الناس، وهو محصلة تغيير المناخ وآثاره على الجسم (حيث ينجم عنه فقدان أظافر اليدين والقدمين وسقوط الشعر وبعض الآثار على الجسد أيضاً)، وعلى الرغم من هذا أمر بإعداد العرادات والمجانيق ، وببناء الأبراج والقلاع (ميتغريفون) أمام أبواب المدينة ولم يوفر جهداً في تفعيل بناء آلات الحرب والاسراع بها .

كيف هاجم الفرنسيون عكا حينما كان الملك رتشارد مريضاً

ولم يرتح ملك فرنسا للتأخير في الشروع بالقتال ، فبعث كلمة الى الملك رتشارد قال فيها توفرت الآن فرصة مناسبة ، وطلب من الجيش أن يأخذ أهبته للقيام بهجوم ، لكن الملك رتشارد أوضح عدم قدرته على القيام بواجبه ، بسبب عدم قدرته الصحية ، وبسبب أن رجاله لم يصلوا بعد ، وأمل بوصولهم بسفن الأسطول المقبل ، وأنهم سيجلبون معهم مواداً من أجل إنشاء الآت ، ورأى ملك فرنسا أنه من غير اللائق الاقلاع عن خططه وغاياته ، وأمر بالاعلان عن هجوم بوساطة صوت المنادي في أوساط الجيش .

وبناء عليه ، في يوم الاثنين بعد عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان ، عندما أكمل ملك فرنسا إنشاء آلاته ، أصدر أوامره الى رجاله بحمل السلاح ، وكان بإمكانك وقتها أن ترى حشوداً لا تعد ولا تحصى من الرجال المسلحين ، المجهزين بشكل جيد ، وعدداً كبيراً من السوابغ والدروع ، والخوذ اللامعة ، والخيول الأصيلة ، والكثير الكثير من الأعلام والرايات المتعددة الأشكال والصنعة ، وعساكر ذوي جرأة معروفة وشجاعة ، كأنهم لم يروا من قبل ، ومركزوا رجالاً للدفاع عن الخنادق ، ضد هجوم متوقع خطره من قبل صلاح الدين من الخلف ، واقترب الجيش من أسوار المدينة بحملة نشطة جداً بقذف الحراب ، والنشاب والحجارة من العرادات والمجانيق بدون توقف .

وعندما رأى الترك المحصورين داخل المدينة هذا ، أثاروا ضجة هائلة ، وارتفعت أصواتهم الى السماء ، حتى أنها شابهت الصدام في الهواء الناجم عن لقاء الرعد بالبرق ، وكانت مهام بعضهم فقط قرع الطبول والصنوج والكوسات ، وجميع الوسائل الأخرى التي ترسل الشارات إلى

صلاح الدين والجيش في الخارج ، وذلك مـن أجل أن يقدموا لمساعدتهم والتفريج عنهـم حسبما كانوا متفقين ، ولدى سماع الترك هـذا ورؤيتهم له تجمعوا في جسـد واحد ، وجاءوا بكل مادة توفـرت لهم لطم الخندق ، واستهدفوا مـن وراء ذلك الجواز ، والهجوم على رجالنـا ، غير أنهم أخفقوا في أهدافهم .

فقد تمكن غودفري دي لوزغنـان ، وكان محارباً مجرب الشجاعة جداً ، من التصدي لهم ، وطـردهم من المواقع الـدفاعية التي استـولوا عليها ، وقد قتل عشرة منهم ببلطة حملها بيده ، وذلـك بطريقة رائعة جداً ، وما من واحد ضربه نجا من الموت ، وفضـلاً عن هذا أخذ بعضهم أسرى ، ووصلت شجـاعته وفعاليتـه الى حد ، أن ما مـن واحد من الجنـد يمكنه الادعاء بـالتمييز مثله ، منـذ أيام الجند المشهـورين مثل رولانـد وأولفر ، واسترد رجالنـا الدفاعـات لكن بوساطـة جهد كبير وبعد مصـاعب جمة ، لأن الترك تابعـوا تدفقهم ، وجعلوا بمقـاومتهم العنيدة وبـإصرارهم على القتال ، النتيجة مشكـوك فيها لوقت طويل ، ولقـد كان الصراع عنيدا ولا نظير له ، وكـانت الجلبة التي تصـاعدت من الصراع مرعبـة جداً ، الى حد أن الـرجال الذين كـانوا يتولـون الهجوم على المدينة ، وكانـوا عازمين على طم خنـادقها ، أرغموا على التراجـع والتخلي عن المحـاولة ، لأنهم كانوا غير قادرين في الوقت نفسه على الدفاع عن معسكرهم ضد الأتراك دون فقدان الكثيريـن من الفرنسيين بمقتلهـم بالـرمايات التـي صدرت عن الزنبورك والقسي العقارة ومن الحجـارة المقذوفة ، والنفوط المصبوبة عليهم ، وكان هناك الكثير من النواح والندب بين الناس .

كم انتظـرنا بتحـرق وبشوق وصـول الملوك ، وكيـف سقطت آمـالنا ! فلقد جـاءوا وربحنا لا شيء لا بـل عانينـا من خسـائر أكثر مـن المعتاد ، والذين توقعناهم قدموا إلى لا غاية!

ووضع رجـالنا مـن الفرنسيين أسلحتهم جـانباً ، وبـدأ الترك يسخرون

منهم ويعيرونهم ، وقد انتقدوهم في أنهم كانوا غير قادرين على انجاز ما بدأ وا به ، زيادة على هذا عندما ألقوا النفوط على الآلات وعلى بقية الأدوات والوسائل الحربية العائدة لملك فرنسا (التي صنعت بعناية فائقة)دمروها ، وكانت نتائج ذلك استبداد الغضب والحنق بملك فرنسا ، وغرق في حالة من مرض الوهن والأسى ، والاضطراب ، والرعب حتى أنه لم يعد يجرؤ على امتطاء ظهر حصانه.

وانتحب الجيش ، وأصيب بالاحباط نتيجة لمرض الملكين بالتخاذل، لأنه لم يعد لديه مقدم أو قائد يقاتل تحت رايته معارك الرب ، ولكي يضاف الأسى العام مات كونت فلاندرز قبل وقته ، وفقط قدوم رجال رتشارد ، بعد رحلة هادئة ثبتهم الى بعض الحدود .

وتعافى ملك فرنسا أولاً من مرضه ، وركز اهتمامه على بناء الآلات والأبراج ، وعزم على الانصراف الى هذا العمل ليل نهار ، ولقد امتلك آلة متفوقة السمات ، أطلقوا عليها اسم « جار السوء» وامتلك الترك أيضاً آلة مثلها أطلقوا عليها اسم «قريب السوء» وقد استطاعت مراراً بوساطة قذائفها تدمير «جار السوء » الى قطع ، لكن ملك فرنسا أعاد بناءها ، حتى تمكنت برمایاتها المتواصلة من تدمير جزء من السور الرئيسي للمدينة ، وضعضعة البرج الملعون ، ومن جانب آخر ، هوت آلة دوق بيرغندي، وبالمقابل حققت آلة الداوية انجازاً مدمراً ، وفي الوقت نفسه استمرت آلة الاسبتارية في زرع الرعب بين صفوف الترك ، يضاف الى هذا كله كانت هناك آلة أخرى بنيت على حساب الجميع ، واعتادوا على دعوتها باسم « منجنيق الرب»وقد وقف إلى جانبه باستمرار كاهن يتولى الوعظ والتبشير، وكان رجلاً صاحب أمانة عظيمة ، وكان يجمع الأموال لإعادة ترميمه على الحساب العام ، ولإكتراء رجال لجلب الحجارة من أجل الرمي ، وأمكن بوساطة هذا المنجنيق ضعضعة جزء من السور ومن البرج الملعون بما يقارب العمودين منه .

وكان لدى كـونت فلاندرز منجنيق منتخب ومـن أكبرها حجماً ، وقد أضـافه الملـك رتشارد بعـد مـوته الى واحـد مـن المجانيـق الأصغر التـي امتلكهـا الآن ، وكـان هـذا مساويـاً للكبير بـالجودة ، وقـد شرع هـذان المنجنيقان بالـرمي بشكل متواصل على مقـربة من الباب الذي غـالباً ما استخـدمـه الترك ، حتـى أمكـن القـاء جـزءمـن البرج الى الأرض ، وبالإضافـة الى هذين المنجنيقين أنشأ الملك رتشارد اثنين آخـرين بصنعة متميزة وبمـواد منتقاة ، ، وكـان بإمكـانها ضرب أماكـن على مسافـات واسعـة جداً ، كما أنـه أنشـأ آلة قـوية جـداً لها سـلالم للصعود إليهـا ، كـانت تعـرف عادة بـاسم «البرج » وقـد غطاهـا بالجلـود غير المدبوغـة والحبال ، وصنعهـا من شرائح من الخشـب الأكثر قوة ، الـذي لا يمكن تدميره بأية نوع من القذائف ، أو يتأذى بـالنفوط أو بأية مادة محرقة أخرى تصـب عليـه ، وأعـد أيضاً منجنيقين ، كـان أحـدهما يمكـن أن يطلـق قـذائف شـديـدة جـداً ، وسريعـة ، وبعيـدة الى حـد أنها وصلـت الى الصفوف الداخلية من المدينة أي الى الأسواق .

وكانت هـذه الآلات تتولى القذف ليل نهار ، وبات معـروفاً أن احدى الحجارة التـي رمتها قتلت اثنـي عشر رجلاً بـرمية واحدة ، وحملـت هذه الحجرة فيها بعد الى صلاح الدين لتفحصهـا ، وكانت من الحجارة التي جلبها الملـك رتشارد معـه من مسينا ، وكـانت هـذه الصخور الصـوانية والحجارة الناعمة لا يمكن لشيء أن يصمد أمـامها ، حيث كانت إما أن تفتت الى قطع الهدف الذي تصيبه أو تسحقه فتحوله الى طحين .

- ٨٦٥ -

كيف صدّ الأتراك بفعالية رجال الملك رتشارد

ونظراً لموقع عكا الحصين ، ولأنه كان مدافع عنها بقوات تركية منتقاة، فقد بدت صعبة جداً حتى يتم الاستيلاء عليها عنوة ، وعلى هذا بدد الفرنسيون حتى الساعة جهودهم بلا فائدة ، في بنائهم بكل عناية آلات ومعدات لتدمير الأسوار ، فكل ما أقاموه وشيدوه بنفقات عالية جداً ، دمره الترك بالنفوط ، أو بوسيلة محرقة أخرى التهمتها التهاماً ، وكان بين الآلات والمعدات الأخرى آلة بناها ملك فرنسا بعد تعب كبير ، وأعدها لتسلق الأسوار والصعود عليها ، وقد دعوها باسم «السنور» لأنها كانت مثل السنور تزحف وتلتصق بالسور ، وأعد آلة أخرى صنعها من أغصان الأسيجة القوية ، ووضع بشكل محكم تحت غطاء من الجلود ما كانوا يسمونه الحلقات الدائرية ، ولقد اعتاد ملك فرنسا على الجلوس تحتها وشغل نفسه بقذف الرمايات من آلة قاذفة ، فقد كان يترقب ظهور الترك فوق الأسوار الى جانب الشرافات فيرميهم وهم غير منتبهين .

ونشط الفرنسيون في أحد الأيام ، وسعوا وهم يزحفون بإصرار الى الأمام الى وضع سنور على الأسوار ، وعندما لاحظه الترك ألقوا فوقه كومة من الخشب الجاف جداً، وبعدما رموها فوقه وفوق «آلة السياج » التي بناها الفرنسيون بعد تعب كبير جداً ، صبوا عليها كمية من النفوط وعندما التهبا بالنيران وجها منجنيقاً نحوهما فدمراهما إلى قطع.

ونتيجة لهذا غضب ملك فرنسا بلا حدود ، وبدأ يلعن الذين كانوا تحت إمرته ، وعيرهم لأنهم لم ينتقموا بشكل موائم من المسلمين الذين ألحقوا بهم مثل هذا الأذى ، وأصدر وهو في أعلى حالات انفعاله مرسوماً عند اقتراب الصباح ، جرى تعميمه بوساطة صوت المنادي ، قضى أن سيكون هناك هجوم ينبغي القيام به ضد المدينة في اليوم التالي .

وفي الصباح تسلح الجميع ، وجرى اختيار أشجع العساكر من بين الجيشين جميعا، وجرت مركزتهم عند الخنادق ، نحو الخارج ، للتصدي للهجمات المتكررة والمزعجة والمفاجئة للمسلمين ، لأن صلاح الدين تبجح أنه سيعبر في ذلك اليوم الخنادق عنوة فيبرهن عن شجاعته بإذلال الجيش المسيحي والحط من شأنه وإنزاله حتى الرغام ، لكنه لم يحافظ على كلمته مع أن جيشه ، جاء تحت امرة تقي الدين ، كتلة واحدة واقترب من الخنادق وحاول أن يجوزهم ، لكن الفرنسيين لم يكونوا بطيئين بالمقاومة ، وحاولوا قدر طاقتهم ردهم .

وكانت المقتلة على كلا الجانبين عظيمة ، وترجل الترك ، وزحفوا على أقدامهم بانسياب عظيم ، وبعد الالتحام بالمعركة قاتلوا بشجاعة واصرار يداً بيد بالسيوف ، وببلطات حادة ذوات طرفين ، وقاتل بعضهم بهراوات لها أسنان حادة ، وضغط الترك نحو الأمام ، وردهم المسيحيون ولقد كان المسلمون من أعظم الناس اصراراً وصموداً ، وبالمقابل كان المسيحيون من أكثر الناس شجاعة ، وتمكن المسيحيون بعد كثير من المشاق والصعوبات من تحقيق رد الترك ، لأن هؤلاء كانوا أكثر منهم عدداًبشكل واضح جداً.

وحاول الذين وجهوا هجومهم ضد المدينة بكل وسيلة توفرت لهم ، وبذلوا جهد طاقتهم لخرق الأسوار أو لغمها وانزالها ، أو تسلقها بوساطة سلالم التسلق ، وخشي الترك الذين كانوا داخل المدينة من حماسة رجالنا ، لذلك حركوا شارة الى ترك جيش صلاح الدين في الخارج ، ودعوهم إما الى الهجوم بقصد إزاحة الفرنسيين عن الأسوار ، أو تقديم عون مباشر اليهم .

وعندما عرف تقي الدين بهذا ، حملْ الأتراك من الخارج ثانية ، وضغطوا علينا ضغطاً شديداً ، وقد دفعوا برجالنا الى الخلف بعدما بذلوا غاية طاقاتهم ، وتمكنوا بعنف من طم الخندق ، غير أن المسيحيين ، لم يقبلوا بهذا ، وقاوموا حملاتهم وتصدوا لها ، وأمكن بالتالي ردّ العدو .

وفي الوقت نفسه حقق الرجال الذين استخدمهم ملك فرنسا للغم السور ، تقدما ووصلوا حتى اقتلاع أحجار الأساسات ، وملأوا الثغرة المحدثة نتيجة الحفر ، بقطع الأخشاب ، ثم أضرموا فيها النيران ، وتهاوت الأخشاب المعلقة تحت الأساسات تدريجياً ، ومالت بعض الميل ، لكنها لم تسقط كلها كتلة واحدة ، وبادرت كتلة من المسيحيين مسرعة الى هناك للدخول من الثلمة وسوق الجيش التركي إلى الخلف .

ووضع الفرنسيون من الخارج السلالم على السور الذي انهدم جزئياً ، وحاولوا الجواز الى المدينة ، وبالمقابل تسلق الترك أيضاً السلالم للدفاع عن الثلمة التي أحدثت .

ثم وقعت واقعة رائعة ، لا يمكن السكوت عن ذكرها ، فقد رأى رجل واسع الشهرة ، ومجرب الشجاعة ورائعها اسمه ألبيرك كليمنتس Alberic clements ، الفرنسيين يبددون جهودهم مقابل قليل من النتائج ، واستجمع ساعة تعبه الشديد كل قوته وقال :« سأموت هذا اليوم ، أو إنشاء الرب ، سأدخل مدينة عكا» ، وبإكماله لهذه الكلمات تسلق بجرأة السلم ، وما أن وصل الى أعلى السور حتى تساقط عليه الترك من جميع الجهات .

ولحق به الفرنسيون ، لكن السلم تحطم تحت ضغط عددهم ، وأصيب بعضهم اصابات أوصلتهم الى الموت ، وتم سحب آخرين لحقت بهم جراحات بالغة ، وصاح الأتراك لشدة بهجتهم ، وأعلنوا عن سرورهم عندما رأوا الحادث ، لأنه كان حادثاً مريعاً ومصيبة عظيمة .

ثم طوقوا ألبير كليمنتس ، وقهروه ، ذلك أنه ترك وحيداً على رأس السور ، وطعنوه طعنات لا تعد ولا تحصى ، وهكذا تحقق له ما قاله في أن يموت شهيداً إن لم يستطع تقديم العون الى رفاقه بدخول عكا .

وارتعب الفرنسيون كثيراً بسبب خسارته ، وتوقفوا عن التسلق ،

وسلموا أنفسهم للبكاء والنحيب لوفاته ، لأنه كان رجلاً صاحب مرتبة ونفوذ.

وبعد مضي وقت قصير تمكن اللغامون الفرنسيون إثر مثابرتهم في عملهم ، من لغم البرج الملعون ، وعلقوه بجذوع الأشجار من الأسفل ، وكان الترك يحفرون بالاتجاه نفسه ، وقد وصلوا الى الجزء نفسه من الأساسات ، وهنا دخل اللغامون من الجهتين بإتفاق سلام متبادل ، توجب بمقتضاه أن يغادر الترك دون التعرض للأذى ، وتوجب أيضاً اطلاق سراح بعض المسيحيين الذين أسروهم ، ولدى اكتشاف مقدمي الترك هذا كانوا مغمومين جداً وأغلقوا الممرات التي كانت تفضي الى الخارج .

ولم يكن الملك رتشارد قد تعافى بعد من مرضه، ومع ذلك كان متشوقاً للعمل ، وعاقداً العزم على الاستيلاء على المدينة ، لذلك قام باستعدادته لأن يتولى رجاله مهاجمتها ، على أمل أنه ، بعون الحكمة الربانية ، سوف ينجح ، ولهذه الغاية أمر بصنع آلة السياج النقالة التي كانت تعرف باسم سيركليا Circlia وأن توضع مع نسيج متداخل ، صنع بمهارة عالية وطريقة ذكية جداً، وقصد الملك من هذه الآلة لاستخدامها للعبور فوق الخندق خارج المدينة ، ووضعها تحتها أعظم رجاله مهارة وخبرة باستخدام الزنبورك والجروخ والعرادت ، وحمل هو نفسه الى هناك فوق فراش حريري ، ليعلم المسلمين بوجوده ، وليضع العزيمة في قلوب رجاله ، وقد تمكن من داخلها باستخدامه لقوسه العقار الذي كان ماهراً باستعماله من قتل العديد .

وتمكن لغاموه أيضاً من حفر نفق تحت البرج ، وعلقوه بالأخشاب ، وأضرموا النيران فيها ولدى اضافة عدة قذائف من المنجنيق سقط البرج الى الأرض بشكل مفاجىء وأحدث صوتاً عالياً.

وبعدما تـأمل الملك كم كـان تحقيق هذا النجاح صعبـاً، وأدرك أن عليه أن يصطـرع مـع أكثـر الأعـداء شجـاعـة وتصميماً، وأن هنـاك حـاجـة لـلاستعانـة بكـل قواه في القتـال ، أمام هـذا رأى أن خير طـريقة لإثـارة عقـول جنوده الشبـاب بالـوعد بـالجوائز ، وليس بـالتهديـد والتحريـض بالأوامر الشديـدة فمن هو المعصوم من حب المربـح ؟ ولهذا أمر المنادي أن يعلن عـن جائزة قدرها قطعتين ذهبيتين ثـم ثلاث ثم أربع لكـل من يوقـع منجنيقاً مـن على الأسوار ، ووعـد بدفع مكـافأة قـدرها أربـع قطع ذهبية لكل من ينتـزع حجرة من السور ، ثم زحف الشبـاب نحو الأمام ، ونـافسهم الجنـود الشجعان ، وضغطـوا مـن أجل سحـب الحجارة مـن السور وكـانوا متشوقين لنيـل المجد والربـح ولهذا ثابروا في عملهـم وسط نشاب ورمايات العدو .

وأخفـق كثير منهم في القيـام بمهـامهـم ، في حين تم رد الآخـريـن ، فتراجعوا خوفـاً من الموت ، لأن الترك صدوهم بنشاط مـن فوق ولم يكن بمقدرة الترسـة ولا السوابـغ والدروع حمايتهـم ،وكان ارتفـاع الأسوار عظيماً ، وكذلك كـانت سماكتها ، ومع ذلـك استطاع الرجال الشجعـان بعد تغلبهم على جميـع المصاعـب انتزاع عـدد كبير مـن الحجارة وسحبهـا ، وعندمـا انقـض الترك عليهم كتلـة واحدة ، نـاضلوا مـن أجل صـدهم ، ولكـن لأنهم كانوا قد خلفوا أسلحتهم وراءهم ، فقـد تعرضوا وهم أشبه بالعزل لنشاب العدو .

وتفـاخـر واحد مـن الترك فـوق الأسـوار ، وهـو لابس لسـابغـة ودروع وسلاح ألبيرك كليمنتس المتقدم الذكر وكان هـدفه اغضاب رجالنا ، لكن الملك رتشـارد استطاع أن يصيبه اصابـة قاتلة ، خـرقت قلبه بنشابـة من قوسه العقار .

وحـزن الترك لسقوطـه ، وركضـوا جميعاً محتشـديـن لـلانتقام لمقتلـه ، وعرضوا أنفسهـم بدون خوف وبجرأة عظيمـة للنشاب وللحراب ، ووردوا

رجالنا وضغطوا عليهم مثل المجـانين ، ذلك أنه لم يكن هناك مقاتلين أشجع منهم بين أي جنس على الأرض ، وتثير ذكريات أعمالهم على الفور في نفوسنـا الاحترام والاعجاب ، وفي أثناء القتال الحامـي ، لا شيء يمكنه أن يقف في وجه رمايات القوس العقارة أو مقـاومتها سواء أكانت سوابغ مزدوجة ، أم دروع قوية ومحكمة الصنعة ، وعلى الـرغم من كل شيء تابع الترك حفر نفق مـن الداخل ، وبذلـك أرغم رجالنا على التراجـع ، ورفع العدو أصواته عالية وكأنه حقق غايته .

وتهاوى البرج أخيراً بفعـل رمـايـات منجنيقنـــا المتـواصلـة ، ونتيجـة لسحب الأحجار منه بعـدنزعها ، وعندما توقف رجـال الملك رتشارد عن اللغم ، وتم الاقلاع عن الحملات ، هنا قـام المرشحون منا لمرتبة الفروسية (المتشوقين دوماً للاطراء والنصر) بتسليح أنفسهـم ، وكان بينهم حاشية ايرل أوف ليستر، ورجال أندرودي كاين Cayegin وهو غوبرن ، وكان هناك أيضاًرجال أسقف سـالسبري وقد انتظموا بشكل رائع ، وعدد كبير آخر ، وكـان الوقـت حوالي وقـت المغيب ، في سـاعة العشـاء ، عندمـا استعد هـؤلاء الشجعان مع المرشحين الأعظم روعـة للهجوم على البرج ، وتقدموا حتى استطاعوا بكل جرأة صعوده .

وعندما رآهم الخفـراء من الترك صرخوا بصوت مرتفع فـأيقظوا المدينة كلها ، وحمل الرجال السلاح بكل سرعـة ، وبادروا يركضون بأعداد كبيرة ليتولوا الضغط على المهاجمين الذين كانوا يشقون طريقهم برشاقة .

وبينما رجالنـا يحاولون دخـول المدينة سعـى الترك الى ردهم الى الخلـف ، وقد اصطـدموا مـع بعضهم بعضاً وتقـاتلوا يداً بيـد، وواجهت يـداً يمنى ، وقارع سيف سيفـاً آخر ، وأمسك بعضهم ببعضهـم الآخر ، وضرب بعضهم بعضهم الآخر ، وتم رد بعضهم وقتل بعضهـم الآخر ، وكان تعداد رجالنا قليلاً ، غير أن أعـداد الترك كانـت بإزديـاد مستمر ، وبـرميهم للنفـوط ، أرغموا رجالنـا الذين لم يستطيعوا الصمود أمامهـا ، على التقهقر والنزول

من البرج ، وذلـك بعدمـا قتل بعضهـم على أيدي الأعـداء ، ثم أحـرقوا وتحولوا الى رماد بخلطات موادهم المدمـرة، ثم تسلق البيازنة البرج بكل قـوة ، وكانـوا إمـا ظـامئين للثناء أو متعطشين لـلانتقـام ، ومـن جديـد قاتلهـم الترك وكأنهم مجانين ، وصحيـح أن البيزيين قـاوموا بجـرأة ، فقد أرغمـوا على التقهقـر والتخلي عـن البرج ، ولم يـر قـط مـا يشبـه الأتـراك بالكفاءة والمقدرة بالحرب .

ولقـد كـان مـن الممكـن الاستيلاء على المدينـة في ذلـك اليـوم لـو أن المعركة حوربت وفق خطة حكيمة بـوساطة الجيش كله موحداً ، ولكن بما أن الجزء الأعظـم كـان وقتهـا يتنـاول العشاء ، كـانـت المحـاولـة محاولـة احتمالية ولذلك لم تنجح .

كيف أبرم المحاصرون معاهدة مع المسيحيين وكيف تمت استعادة عكا

ماالذي يمكننا قوله حول هذا الجنس من غير المؤمنين الذين دافعوا على هذه الشاكلة عن مدينتهم ؟ إنهم ممن ينبغي الاعجاب بهم ، لشجاعتهم في الحرب ، ولقد مثلوا شرف أمتهم جمعاء ، ولو أنهم اتبعوا الايمان الصحيح ، لما وجدوا من يتفوق عليهم بين رجال العالم أجمع ، ومع ذلك ليس من دون سبب خافوا من رجالنا ، ذلك أنهم رأوا النخبة بين الجنود من بين جميع صفوف المسيحيين جاءوا لتدميرهم ، وأن جزءاً من أسوارهم قد سقط ، وجزءاً قد انشطر ، والجزء الأكبر من جيشهم قد تشوه بفعل الحرب ، وبعضهم قتل ، وآخرون قد أضعفتهم جراحهم .

وكان ما يزال في المدينة ستة آلاف من الترك مع المشطوب وقراقوش المقدمين عليهم ،وكانوا قد يئسوا من النجاح واعتقدوا بأن الجيش المسيحي كان قد وهنت عزيمته كثيراً لمقتل ألبيرك كليمنتس ولمصرع أبناء رجاله وأقربائهم ، الذين سقطوا في المعركة ، ورأوهم أيضاً أنهم كانوا مصرين إما على الموت بشجاعة أو تحقيق الفوز ولهذا فكروا بسلوك طريق شبه مذل ، وفي ظل الظروف ، التمس المحاصرون ، بعد اجتماع عام ، وموافقة جماعية ، الحصول على هدنة بغية إخبار صلاح الدين حول أحوالهم ، وللتأكد إلى أي مدى سوف يمنحهم الأمن ، وفقاً لطبائع الشعوب الهمجية ، إما بأن يرسل اليهم مساعدة عاجلة ، أو أن يسمح لهم بمغادرة المدينة والخروج منها بشرف .

وبغية الحصول على هذا الهدف ، جاء إثنان من أعلى المسلمين والكفار مرتبة وهما : المشطوب وقراقوش ، إلى ملوكنا مع وعد بأنه إذا لم يبعث صلاح الدين لهم بمساعدة عاجلة ، سيتخلون عن المدينة على شرط أن يسمح لجميع الأتراك المحاصرين بالمغادرة أحراراً ، وأعطى

ملك فـرنسا وتقريباً جميع الحضـور من الفرنسيين في المؤتمر ، مـوافقتهم ، لكن الملك رتشارد رفض بإصرار هذا ، وبعدمـا بات معلوماً ما يرضيه ، عاد قراقوش والمشطوب الى المدينة دون الوصول الى ما استهدفاه .

وعندما علـم صلاح الدين بأن رسـلاًقد بعثوا من قبـل المحاصرين ، أمرهم بالحفاظ عن المدينة والدفاع عنهـا بالقدر نفسه من الشجاعة التي أبدوهـا حتى الآن ، ووعـدهم بوفـرة كبيرة من المسـاعدات ستـأتي حالاً إليهم ، ذلـك أنه أعلن للـرسل الذيـن جاءوا من عنـدهم اليه ، أنـه بلا شك سـوف يتابع الصمـود ، وأنه كان يتـوقع وصول كتلـة كبيرة من الجند من مصر ، سوف يصلون بسفـن وشواني ، وأصدر أوامره الى قائده المشطوب أن يبقـى على اتصال به بـدون انقطاع لمدة ثمانية أيـام ، فإذا لم تصل المساعدات حسـب اتفاقهم فقد وعد ووثق وعـده باليمين ، أنه سيحصل للمحاصرين داخل عكا على سلام مشرف ، بقدر ما يستطيع ، من المسيحيين ، وأن يضمن حـريتهم بالخروج ،وعندما سمع الـرسل هذه الأشيـاء ، عادوا إلى عكـا ، وكرروا وعـود صـلاح الديـن ، وأقنعوا رجـال البلدة بالمقـاومة ، وذلك في الوقت الـذي كانوا ينتظرون فيـه بقلق وصول المساعدات الموعودة .

وفي الوقـت نفسه لم يتـوقف منجنيق المسيحيين لا بـالليل ولا بـالنهار ، لضعضعة الأسوار ، وعنـدما رأى الترك هذا ، أصيبوا بـالحيرة والدهشة ، والرعـب والاضطراب ، وألقى كثير منهم لشـدة رعبهم أنفسهم مـن فوق الأسوار خلال الليل ، ولم ينتظروا وصـول المساعدات الموعودة ، والتمسوا بتضرع تعميدهم وعدهم مسيحيين .

وأدرك صلاح الديـن مخاطر التأخير ، ولهذا قرر بعد طـول تفكر أن يقبل بمطـالب المحـاصريـن ويسلم بقـرارهـم ، وقد اقتنـع بـأن يفعل ذلـك بضغط من أمرائه وقادته ، وذوي النفوذ من رجال ادارته .

وبعدما جلب الرسل قرار صلاح الدين الى المحاصرين ، امتلاوا بسرور عظيم ، وتوجه على الفور أعيان المدينة الى الملكين ، وعرضوا من خلال المترجمين تسليم مدينة عكا بدون شروط مع صليب الصلبوت ومائتين وخمسين من أعيان أسرى المسيحيين ، وعندما أدركوا أن هذا العرض لم يرضهما عرضوا تسليم ألفين من نبلاء أسرى المسيحيين ، وخمسمائة من ذوي المراتب الأدنى ، وهؤلاء سوف يتولى صلاح الدين جمعهم من كل أجزاء مملكته ، وذلك إذا ما تركا الترك يغادرون مدينتهم ، بثيابهم التي عليهم فقط ، تاركين وراءهم أسلحتهم وممتلكاتهم ، ولسوف يدفعون فدية عن أنفسهم مائتي ألف دينار إسلامي ، وكضمانة لتنفيذ هذه الشروط عرضوا وضع جميع الأعيان وذوي المراتب الرفيعة من أهل المدينة بمثابة رهائن في أيديهم .

وبعدما تولى الملكان مع أكثر المقدمين حكمة تفحص المسألة ، كان القرار الصادر عن الجميع هو قبول العرض والموافقة على الشروط ، مقابل تأدية الأيمان ، وكتابة شروط السلام ، وإذا ما سلم المحاصرون الرهائن أولاً يمكنهم التخلي عن المدينة ومغادرتها دون أن يحملوا أي شيء معهم .

وبناء عليه ، جرى يوم الجمعة ، بعد انتقال القديس بندكت ، تسليم الأعيان الرئيسيين والأمراء ، وأخذ وا بمثابة رهائن ، وحدد موعد شهر واحد من أجل تسليم الصليب وجمع الأسرى ، وعندما أشيع في الخارج أن المدينة قد تم التخلي عنها ، اشتعل العامة - بحماقتهم - غضباً ، لكن الجزء الأكثر حكمة ابتهجوا ، تجاه هذه الصفقة الرابحة ، بدون مخاطر ، فهذا ما عجزوا عن تحقيقه منذ وقت طويل .وأعلن وقتها بصوت المنادي وجوب ألا يتعرض أي انسان بالإهانة للترك بالقول أو بالعمل ، وألا يثيروهم بالشتائم ، وأن يجري التوقف عن ارسال الرمايات من أجل تدمير الأسوار ، أو نحو الأتراك الذين يمكن رؤيتهم وراء الشرافات

، وعندما جاء اليوم الموعود ، ووقف الأتراك وظهروا فوق الأسوار جاهزين لمغادرة المدينة ، توجه المسيحيون نحو الأمام لينظروا اليهم ، واستبد بهم العجب عندما تذكروا الأفاعيل التي قاموا بها ، ودهشوا أيضاً لرؤية مظاهر البشر على وجوه هؤلاء الذين أخرجوا من مدينتهم وهم أقرب الى الإفلاس المالي ، ولم يتغير سلوكهم بسبب المحنة ، أما أولئك الذين أرغمتهم الضرورات القصوى على عدّ أنفسهم مهزومين ، وأن يلجأوا بأنفسهم الى التضرع لطلب العون ، فلم يحملوا أية علامات على الاهتمام والقلق مطلقاً ، وهم يتقدمون نحو الأمام ، ولم تظهر عليهم أدنى اشارات على الأسى لفقدانهم كل ما ملكوه ، وهكذا بدوا بتماسكهم وجلدهم الذي ظهر في محياهم ، أنهم هم المنتصرون ، وذلك لولا كفرهم وذنوبهم التعيسة التي اقترفوها ، فلطخت أمجادهم العسكرية .

وأخيراً بعد ما غادر جميع الترك ، دخل المسيحيون وعلى رأسهم ملكيهم الى المدينة من خلال الأبواب المفتوحة ، دخلوها وهم يرقصون ويبتهجون ، ويغنون بأصوات عالية تسابيح للرب، مع تقديم الشكر له والحمد ، لأنه أنزل رحمته عليهم ، وزارهم، وخلص شعبه .

ثم رفعت الرايات ومختلف الأعلام العائدة للملكين فوق الأسوار والأبراج ، وقسمت المدينة بالتساوي بينهما ، كما وزعا بينهما بشكل عادل الأسلحة والمؤن التي وجداها ، وجرى احصاء أعداد الأسرى ،ثم وزعوا بالتساوي ، ونال الملك الفرنسي في حصته قراقوش مع عدد كبير آخر ، وكان المشطوب والبقية حصة الملك رتشارد، زد على هذا أخذ ملك فرنسا ضمن حصته قصر الداوية مع كل امتيازاته وجميع ملحقاته ، وأخذ الملك رتشارد القصر الملكي ، واليه أرسل الملكتين مع وصيفاتهن وخدمهن ، وهكذا تملك كل واحد منهما حصته بسلام ، وجرى توزيع الجيش في أرجاء المدينة ، وأعطى أفراده لأنفسهم بعد صراع مرير لحصار طويل الغفران، وجددوا نشاطهم بالراحة التي كانوا بحاجة اليها .

وكانـت المدة التي انقضت فيما بين يـوم استيلاء المسلمين على مـدينة عكا، واليوم الذي أعقب عيد القديـس بندكت، الذي فيه استردت، أربع سنـوات، وكان مـن غير الممكن تفحـص أوضاع الكنـائس دون الاصابـة بالـرعب، ولم نتمكـن من دون الشعور بـالألم حكايـة الأشياء غير الـلائقة التي اقترفـت فيهن، لأنـه من الذي يمكنـه أن يقف بـدون دموع عنـدما ينظر إلى مظهـر التماثيل المقدسـة لصلب ابـن الرب، وصور عـدد كبير من القديسين وقد لطخـت أو شوهت بوسيلـة أو أخرى؟ ومن هو الـذي كان لـن سيرتجف رعباً أمـام المنظـر المخيف للمـذابـح وقـد قلبت، وأشكـال الصلبـان وقد ألقيـت على الأرض وديست احتقـاراً من قبـل تلك الأمـة المهينة وغير التقيـة، أي أمة الترك، وطمســت جميع آثـار خلاص الانســان والمتعلقة بالديـانة المسيحية، وجرى عرض ماتعلق بـالشعائر الاسلامية في الأماكن المقدسة.

وتراجـع صلاح الديـن في الليلة التي أعقبت دخـولنا، لخوفه منـا، من مكانه الذي كان متمركزاً فيه إلى واحد من أبعد الجبال.

حول الخصام بين الملكين

ونشب الآن خصام شديد بين الملكين حول مركيز مونتفرات، الذي آثره ملك فرنسا، والذي إليه قرر أن يمنح الحصة التي وقعت إليه الآن أو في المستقبل، في الأراضي المقدسة، لكن الملك رتشارد الذي شعر بالعطف نحو تعاسة الملك غي، لم يكن ليوافق على هذا العطاء، لأنه رأى أن كل شيء هو عائد إلى الملك غي وملك له.

وعاش الملكان في فراق حول هذه المسألة لبعض الوقت، حتى تصالحا بناء على وساطة المقدمين وقادة الناس، وقضى الصلح أن يعدّ المركيز هو الوريث عن طريق الزواج للعرش، وينبغي أن يعطى حكم صور (أي: صور، وصيدا، وبيروت) مع لقب كونت، وذلك كتعويض له عن المساعدة التي قدمها أثناء الحصار، وتوجب أيضاً أن يكون غودفري دي لوزغنان، لكونه أخي الملك غي، كونت يافا (أي: يافا وعسقلان) وذلك كتعويض على خدماته، وإذا مامات غي قبل المركيز، ينبغي أن يؤول التاج إلى المركيز، مع أنه تزوج من وريثة العرش بشكل غير شرعي، لكن إذا ماحدث وتوفي المركيز وزوجته، أثناء إقامة الملك رتشارد في هذه المناطق، فوقتها يترك إليه التصرف بمنح المملكة حسبما يشاء؛ وعلى أساس هذه الشروط انتهى الخلاف بينهما إلى الأبد.

لقد كانت هكذا الأوضاع عند نهاية شهر تموز، وهو الشهر الذي وعد الترك أنهم سيعيدون خلاله صليب الصلبوت، وبالمقابل يستعيدون الرهائن، وشاعت أخبار بين عناصر الجيش أن ملك فرنسا (الذي رست عليه آمال الناس) عازم على العودة إلى وطنه، وكان يعد اعداداً حثيثاً لرحلته، ولكم كان سيئاً ومهيناً القيام بمثل هذا العمل، وأن تتوفر الرغبة فيه، في حين مازال هناك الكثير من العمل للقيام به، وأن يذهب في حين

أن واجبه كان يقضي عليه أن يتولى حكم هذا الحشد الهائل من الناس، وعندما كان وجوده ضرورياً جداً لتشجيع المسيحيين على متابعة مثل هذا العمل الديني المقدس، وأن يسهم في تقدم مثل هذا الواجب الثقيل، فلماذا جاء عبر هذا الطريق الطويل، وتحمل هذه المشاق، إذا كان قد عزم على العودة مباشرة تقريباً! وهل هو انجاز رائع وتنفيذ لتعهده، بمجرد الدخول إلى الأراضي المقدسة، والنضال ضد الترك، ومن ثم الحصول على مثل هذا النصر الصغير!

وادعى الملك الفرنسي أن سبب عودته هو المرض*، وقال بأن وفى بنذره بقدر ما استطاع، وفي الحقيقة لايجوز أن ننكر أنه بذل كثيراً من الجهد والمال في الأراضي المقدسة، وفي الهجوم على المدينة، وأنه أمن المساعدة لعدد كبير من الناس، وأنه بفضل نفوذه ووجوده تحقق بشكل أسرع تنفيذ الاستيلاء على عكا.

لكن عندما بات قراره الثابت بالعودة معروفاً لدى الجميع، وعندما رفض التراجع أمام عدد كبير من رجاله، ولم يستجب لالتماساتهم بالبقاء، كان الفرنسيون، لو استطاعوا، على استعداد للتخلي عن طاعتهم له، ولاشمأزوا من حكمه، وحدث أن أنزلوا عليه كل أنواع اللعنات، وأماني السوء، والحظ العاثر، وغير ذلك مما يمكن أن ينزل بانسان خلال حياته، ومع ذلك كله، أسرع ملك فرنسا في رحلته، وبالمغادرة كيفما استطاع، وترك عوضاً عنه دوق بيرغندي مع عدد كبير من رجاله، زد على هذا التمس من الملك رتشارد أن يزوده باثنتين من شوانيه، وأعطاه الملك اثنتين من أحسن ماكان لديه، ولكم كان غير وفي وناكر لخدماته هذه، هذا ماسوف يرى فيما بعد.

*— بالاضافة إلى مرضه، شك الملك الفرنسي بالاتصالات التي جرت بين رتشارد وصلاح الدين، كما أنه كان يرغب بالعودة ليستولي على فلاندرز التي توفي كونتها أثناء حصار عكا.

ورأى الملك رتشارد وجوب دخول ملك فرنسا في ميثاق معه من أجل الحفاظ على أمنهما المتبادل، لأنهما مثل آبائهما نظرا إلى بعضهما بعدم ثقة تحت غطاء الصداقة، ولهذا طلب الملك رتشارد من ملك فرنسا أداء يمين له أنه سيبقى وفياً له، ولن يؤذي رجاله أو بلاده عن معرفة أوبقصد، مادام الملك رتشارد باقياً في الأراضي الأجنبية، وأدى له ملك فرنسا اليمين وأعطاه دوق بيرغندي والكونت هنري بمثابة رهينتين وذلك مع خمسة آخرين أو ستة، فقدت أسماؤهم، ومعروف للدنيا كلها كيف حافظ على ميثاقه ويمينه، ذلك أنه ماأن وصل إلى بلاده حتى أهاجها، وسبب الاضطراب لنورماندي.

وودع ملك فرنسا جيشه وتركه في عكا، وتلقى عوضاً عن التبريكات، الأماني بسوء المنقلب واللعنات من الجميع، وبناء عليه صعد ظهر السفينة في يوم عيد القديس بطرس، وأبحر نحو صور، ولكنه ترك الشطر الأعظم من جيشه مع الملك رتشارد، وأخذ معه المركيزات غير المشهورين وقراقوش والرهائن الآخرين الذين كانوا ضمن حصته، وقدر أنه سوف يتسلم مقابل فديتهم مائة ألف قطعة ذهبية أو أكثر، مما سيكفي جيشه والانفاق عليه حتى الفصح.

لكن لدى إيماءته إلى الترك حول التباحث بشأن الفدية، لم يلتفتوا إليه، وكان واضحاً أنهم لم يكونوا على استعداد لدفع بيضة أو ريشة مقابل اطلاق سراحهم، ولهذا مات أكثر الرهائن على هذه الصورة ولم يدفع شيء، ومامن أحد ربح شيء مطلقاً، ولاحتى أية حصة من المؤن التي وجدت في المدينة، واعتاد الفرنسيون دوماً أن يتذكروا أنهم لم يتسلموا من ملك فرنسا زيادة على هذه المكافأة، ولهذا السبب غالباً ماقامت المشاحنات والخصومات فيما بينهم حتى قام الملك رتشارد — بناء على طلب من دوق بيرغندي — فأدانه، زيادة على مالديه من رهائن خمسة آلاف مارك فضي للانفاق على رجاله.

وعنـدما أدرك الملـك رتشـارد أن إكمال الأعمال، وتقـدم الشؤون، مـع الجهـد والانفاق بـات واقعـاً عليه بشكـل رئيسي، قـدم هبات كثيرة مـن الذهب والفضة إلى الفرنسيين وإلى الآخرين مـن كل أمة من الأمم، حتى يجندوا أنفسهم له عن رغبة، ولينقذوا ماتعهدوا القيام بانقاذه.

وإثـر عودة ملـك فرنسـا مسرعاً إلى بـلاده، حول الملـك رتشارد جميع اهتمامه نحـو ترميـم الأسوار، ورفعهـا إلى علو كبير، وجعلهـا أكثر كمالاً مما كانت عليـه من قبل أن يطاح بها،ومشـى هو نفسه حول الأسـوار، وحث العمال والحجـاريـن، وكأن اهتمامـه كلـه هـو النضال مـن أجـل استرداد ميراث الرب.

وبنـاء عليـه انتظـر الموعـد الـذي تـم الاتفـاق عليـه بين الترك وبينـه شخصياً، وصرف انتباهـه نحو اعداد الآلات والمجانيق لشحنهـا، وعندما مضى الـوقت الذي حـدده الترك من أجل رد الصليـب وفدية الـرهائن، انتظر لمدة ثلاثة أسـابيع مراعاة للاتفاق، ليرى فيها إذا كـان صلاح الدين سيحفظ كلمتـه وميثاقـه، ثم إنه لما ظهـر أن صلاح الديـن لم يكن مبـالياً بالموضوع، عدّه الملـك ورآه بمثابة منتهك لمواعيده، ولعل هـذا كان تدبيراً ربانيـاً، حتى يمكـن تحصيل شيء أعظـم فائدة، غير أن المسلمين طلبـوا منحهم وقتاً أطول للوفاء بوعودهم، وليبحثوا عن الصليب.

ثـم كان عليـك أن تستمع إلى المسيحيين وهـم يسألـون عن الأخبـار، ومتى سيـأتي الصليب، وكـان أحدهـم يقول متسـائلاً:«الصليب قـادم»! ويقول آخـر بأنه رأى الصليـب في الجيش الاسـلامي، لكن كـل متحدث كان مخدوعـاً، لأن صلاح الـدين لم يتخـذ أي اجراء لاسترداد الصليـب، لابل أهمل الرهـائن الذين كانـوا محتفظ بهم من أجله، ذلـك أنه أمل أن يحصل بوسـاطته على المزيد من المنـافع والشروط المفيدة، وأرسل بـالوقت نفسـه هدايـا ورسائل متـواصلة إلى الملـك رتشـارد حتى يـربح التـأخير بكلمات مزخرفة ومخادعة.

وأرسلت بالوقت نفسه رسائل إلى صور، لأمر المركيز أن يعود إلى الجيش، وليجلب معه الرهائن التي عهد بها إليه، وذلك من أجل الحصول على فديتهم، ورد المركيز على هذه الرسائل بشكل ساخط، في أنه لايتجرأ على المغامرة ليمثل بحضرة الملك رتشارد، وزيادة على هذا تبجح قائلاً أنه إذا ماجرى استرداد الصليب، يتوجب أن يسلم إليه النصف وهو حصة ملك فرنسا، وأنه مالم يتحقق هذا، هو لن يتخلى عن الرهائن، وسعى الرسل إلى اقناعه بوساطة الوعظ اللطيف، وعرضوا عليه أن يتركوا واحداً منهم بمثابة رهينة، وذلك كضمانة على أمانه أثناء الرحلة، وأن ذلك من قبل الملك رتشارد، لكنهم لم يفلحوا في اقناعه، لابل أكثر من هذا لقد أشفع رده بعدم العودة بيمين، ولهذا عادوا مخفقين، وفارغي الوفاض، وزادوا من تأجيج غضب الملك باخباره بالقصة كلها.

وجرى ارسال دوق بيرغندي، ودروغو دي أمين Amiensوروبرت دي كو نسي Quincey بسفارة ثانية إلى المركيز المذكور، ليأتي معهم إلى الجيش، غير أنه رد عليهم بعجرفة واحتجاج أنه لن يذهب، وسيحافظ على حكمه لمدينته، وعندما ردوا على تأكيداته بحجج مناقضة، أمكن الوصول بالمسألة بعد صعوبات إلى النقطة التالية: يتوجب على الرسل أن يأخذوا معهم الرهائن المسلمين إلى الملك رتشارد، لكنهم لم يستطيعوا بكل وسائل الاقناع التغلب على المركيز حتى يتحول عن نواياه العنيدة.

وعندما بات واضحاً للملك رتشارد، أن مدة أطول مما هو مقرر قد مرت، وأن صلاح الدين ماضي في عناده، ولن يعبأ بفداء الرهائن، عندها دعا إلى اجتماع لأعيان الناس، حيث تقرر بالاجماع وجوب شنق جميع الرهائن باستثناء عدد قليل من النبلاء وأصحاب المراتب العالية، الذين يمكنهم فداء أنفسهم، أو مبادلتهم ببعض الأسرى المسيحيين.

وفي يوم الجمعة بعد عيد صعود مريم العذراء المباركة (١٥ آب)، ألهم

الملك رتشارد بوجوب تدميرأصول وفروع الترك، وإنزال العقاب برعونتهم الداعرة، وكذلك ازالة الشريعة الاسلامية، ونشر الديانة المسيحية، وبناء عليه أمر بسوق ألفين وسبعمائة من الرهائن الأتراك إلى خارج المدينة، وشنقهم، وتقدم جنده بسرور عظيم لتنفيذ أوامره وللانتقام، بموافقة النعمة الربانية، من هؤلاء الذين قتلوا كثيراً جداً من المسيحيين.

وعند حلول المساء تم الاعلان بصوت المنادي بوجوب زحف الجيش في الغد، وعبور نهر عكا باسم الرب، موزع الأشياء الجيدة، وذلك بغية الزحف نحو عسقلان، والاستيلاء على تلك المناطق البحرية، وصدرت الأوامر أيضاً أنه ينبغي على السفن أن تحمل على ظهرها مؤونة عشرة أيام للجيش، من البقسماط ، والوجبات واللحوم، والخمرة، وكل مايرى ضرورياً أيضاً، وقضت الأوامر على بحارة سفن الشحن والنقل التي حملت الميرة وكذلك رجالاً مسلحين، الالتزام بدقة الابحار على محاذاة الشاطىء، وهكذا تقدمت القوات على محورين، واحد في البحر وآخر في البر، لأنه كان من غير الممكن الاحتفاظ بالمنطقة وهي مشغولة تماماً من قبل الترك.

كيف نصب الملك رتشارد خيامه خارج عكا

في خلال الشتائين والصيف الواحد وإلى وسط الخريف عندما جرى شنق الأتراك (لأنهم استحقوا ذلك أمام الرب والبشر، مقابل تدميرهم لكنائسنا وقتلهم لرجالنا) مات كثير من المسيحيين الذين اشتركوا في حصار عكا وضحوا تضحيات عظيمة، وكان الحشد الذي مات من هذا الجيش العملاق أكبر من أن يحصى، ولقد فقدنا في الجيش ستة رؤساء أساقفة وبطارقة، واثني عشر أسقفاً، وأربعين كونتاً، وخمسمائة رجل من طبقة النبلاء، وكذلك عدداً كبيراً جداً من الكهنة ورجال الدين، مع آخرين من غير الممكن تعدادهم بشكل صحيح.

وعوفي الملك رتشارد إثر شنق الأتراك مباشرة، وبناء عليه خرج من المدينة مع حاشيته كلها، وأمر بنصب خيامه في السهل خارج المدينة، وبذلك اتخذ الجيش محلاته فوق السهل، ليكون جاهزاً للزحف، وجرى جذب بعض الفرنسيين بالكلمات الناعمة، وآخرين بالتوسل والرجاء، وكثير منهم بالمال، وذلك لمغادرة أماكنهم، وأرغم الملك بعضهم على الخروج بالقوة.

ولكن وضح أنهم خرجوا متثاقلين ومتذمرين، ولم يزدد تعداد الجيش، بينما كانت المدينة تعج بحشد هائل، وبلغ تعداد الجيش، بما فيهم الذين كانوا بالمدينة، ثلاثمائة ألف رجل.

واعتاد الناس على التراخي والرفاهية، لأن المدينة كانت مليئة بالمسرات حيث توفرت أفضل أنواع الخمور وأجمل الفتيات، وانغمس الناس بمفاسدهم، وهكذا تدنست المدينة بموبقات أبناء الخطيئة، وبينهم سكانها الذين جعلوا وجوه العقلاء تحمّر خجلاً من انعدام حيائهم، ومن أجل التخلص من هذه الموبقات صدرت الأوامر عن

اجتماع المجلس بمنع أي امرأة بالخروج من المدينة أو الذهاب مع الجيش، فيما عدا الغسالات اللائي لن يكن حملاً على أفراد الجيش، ولن يهيئن الفرصة للذنوب.

ثم عين الملك رتشارد عدداً كبيراً من الحرس للإقامة حول سرادقه من أجل حمايته، لأن الترك كانوا يقومون بغارات مستمرة، وقد اعتادوا طوال النهار القدوم والانقضاض عليهم وهم غير متنبهين، وكانت عادة الملك أن يكون الأول في الخروج إلى قتالهم وانزال العقوبة بهم، بقدر ماكانت العناية السماوية تسمح له.

وحدث في أحد الأيام أن وضع معسكرنا في حالة هياج بوساطة الترك، الذين هاجمونا وأحدثوا اضطراباً كبيراً، وهب رجالنا على الفور لحمل السلاح، واندفع الملك وفرسانه نحو الأمام، وكذلك كونت هنغاريا وكثير جداً من الهنغاريين معه، وقد أرغموا الترك على الفرار، وطاردوهم أبعد مما كان ينبغي أن يفعلوا، وأخذ بعض رجالنا أسرى في تلك البقعة وعوملوا معاملة مشينة مع أنهم تصرفوا تصرفات نبيلة جداً.

وأخذ كونت هنغاريا نفسه أسيراً من قبل الترك مع أنه كان رجلاً مجرب الشجاعة وشهيراً، وحمل بعيداً وكذلك رجلاً من بواتو اسمه هيوج، وكان مارشال الملك رتشارد، وقاتل الملك بلا وعي، ودون أن يعبأ بسلامة شخصه، وناضل بكل ماأوتيه من قوة لانقاذ مارشال هيوج، لكنه أسر بسرعة كبيرة جداً وحمل بعيداً، فلكم هو مصير الحرب غير مؤكد، فهؤلاء الذين حتى الآن منتصرين غالباً ماانهزموا ، وترى غداً الذين انهزموا فجأة منتصرين، ولقد كان مقدراً على الذين هزموا العدو أن يسقطوا هم أنفسهم ويموتوا، لأن المطاردين الآن أصبحوا أسرى المطاردين، والذي كان مدوناً لهم مجداً تبرهن الآن أنه حماقتهم، وغدت أفاعيل الشجاعة السبب للمخاطر.

ولم يكن الترك مثقلين بـالسوابـغ والدروع مثـل رجالنـا، وآذونا بمـرونة حركتهم وسهولتهـا بشدة أكثر مما كان متوقعاً، وكان سـلاحهم في الغالب سلاحاً خفيفاً، يحملون فقط قوساً أو دبوساً مسلح رأسه بأسنان حادة، أو بسيف أو برمـح خفيف سنانه من حـديد، ومدية معلقـة بشكل خفيف، وعندمـا يهزمون من قبل قـوة أعظم من قواهـم، كانوا ينهزمـون ويبتعدون على ظهـور خيولهم بـأقصـى سرعة ممكنـة، وليـس هنـاك من يـوازيهم في رشـاقتهم في جميـع أنحاء العـالم، ومن عـادتهم أنهم إذا مارأوا مطـارديهم توقفوا عن المطاردة، الانعطاف والعودة، ومثلهـم في ذلك مثل الذبابة، إذا ماطـردتها تذهب، لكـن عندما تتـوقف سوف تعـود، ومادمت تطـاردها، تـراها تطير، لكنهـا تعاود الظهـور في اللحظة التـي تتوقـف فيها، وهكـذا الأتـراك عندمـا تتوقـف عـن مطاردتهم يطـاردوك، وإذا قاتلتهـم يطيرون بعيداً، وبناء عليه عندما جعلهم الملك يفـرون، هربوا بدون توقف، ولكن عنـدما تـوقف ليعـود، هددوه مـن الخلف، وأحيـاناً ليـس بدون عقـاب، وأحياناً ليس بدون الحاق الأذى برجالنا.

وفي صباح اليـوم الذي كنا سنـزحف فيـه نحو عسقلان، سلـح الجنود أنفسهم، وأصبحوا مستعدين في تعبئة كاملـة، وبقي الملك نفسه في ساقة الجيش لصد الترك الذين هددوا باثارة المتاعب، ومن اللحظة التي شاهد فيها هذا الجنس البعيد عن التقوى، جيشنـا يتحرك، تدفقوا من الجبال في مجموعـات متفرقة، مثـل المياه المندفعـة، ووزعوا أنفسهم في مجمـوعات في كل منها مابين العشرين إلى الثلاثين، بحثـاً عن أفضل الفرص لمضايقتنا، ذلك أنهم كانوا مزعوجين جداً لموت آبائهم وأقربائهم، الذين رأوا جثثهم المقتـولـة مـوزعـة في المنطقـة هنـاك، ولهذا ضغطـوا بشـدة على جيشنـا بـاستمرار، لكـن بفضل العنـاية الـربانيـة لم ينجحوا بقـدر مارغبـوا، لأن جيشنا عبر فوق نهر عكا دونما أذى، ومن جديـد نصب خيامه على الطرف الآخر من النهر حتى يوم الجمعة، (وهو عشيـة يوم عيد القديس بارثلميو)

ففي ذلك اليوم احتشدوا مع بعضهم، ومع يوم الاثنين التالي كان قد مضى عامان منذ أن بدأ المسيحيون بإلقاء الحصار على عكا.

وفي صباح اليوم الذي أعقب عيد القديس بارثلميو، اصطف الجيش ليزحف على طول شاطىء البحر باسم الرب، ولكم كان جيشاً رائعاً بجند ممتازين، فقد كان بإمكانك أن ترى هناك جماعة من نخبة الشباب ذوي الفضائل والشجاعة، كان من الصعب أن تقابل من يوازيهم،أسلحة براقة، وأعلام ذات زخارف مشعة، ورايات ذات أشكال متنوعة، ورماح ذات أسنة لامعة، وخوذ مشرقة، وكذلك الدروع والسوابغ، فلقد كان جيشاً تمت تعبئته بشكل جيد في المعسكر، وكان جيشاً مرعباً للعدو.

كيف زحف الجيش نحو عسقلان

وقاد الملك رتشارد الطليعة، واحتفظ بخيرة الحراس وأعلاهم كفاءة وكانوا من النورمان للدفاع عن الراية، ونحن لانرى هنا خروجاً عن الموضوع الاقدام على وصفها، فقد كانت مكونة من جزع شجرة طويل مثل صاري السفينة، منتخب من أصلب أنواع الخشب، ووضع فوق أربعة دواليب (عجل)، وجرى ربط الجميع بأربطة حديدية، وبذلك بدت أنه لاسيف أو بلطة يمكن أن تقطعها، كما لايمكن للنار أن تؤذيها، وجرت العادة باختيار كوكبة من الجنود وتعيينها لحراستها، خاصة أثناء المعارك في السهول، وذلك خشية أنها إذا ماتعرضت لهجوم معادي أن تحطم أو تلقى أرضاً، لأنه إذا حدث وسقطت لسبب ما، فالجيش كله سيتمزق وتضطرب أحواله، وإذا لم تظهر، يشعرون بالرعب، ويعتقدون أن قائدهم لابد وقد أصيب إصابة أفقدته وعيه، ومامن شعب يمتلك القدرة على مقاومة عدوه إذا كان مقدمه في وضع خطر منذ زمن سقوط الراية، لكن إذا بقيت مرفوعة، لديهم وقتها ملاذ يعودون إليه، فبجانبها يقوى الضعفاء والجنود الجرحى (حتى من أصحاب المراتب والشهرة)، وكذلك الذين يسقطون في المعركة يحملون إلى قربها، وتدعى الراية العظمى، لأنها أعظم شعار وشارة للجيش في أثناء القتال، وموائم كثيراً جرها فوق العجلات، لأنه عندما يتراجع العدو تتقدم، وإذا ماحدث العكس يجري جرها إلى الخلف وفقاً لأوضاع المعركة.

وجاء دوق بيرغندي مع الفرنسيين في الساقة، وسببت حركتهم البطيئة وتأخرهم الطويل، وقوع خسائر كبيرة، وزحف الجيش على محاذاة شاطىء البحر، الذي وقع على يمينه، وراقب الترك تحركاته من أماكن مرتفعة على اليسار، وفجأة أصبحت الغيوم داكنة، واضطربت السماء، وعندما وصل الجيش إلى واحد من الطرق الضيقة، الذي لايمكن عبوره بسبب عربات

المؤن، هنا تخلى الجيش عن نظام تعبئته، بسبب ضيق الطريق، واضطربت أحواله، وبات الزحف في خط طويل، بدون نظام.

وما أن رأى المسلمون هذا، حتى تدفقوا فجأة على دواب الحمولة، وعلى عربات الأثقال، وفي لحظة قتلوا الخيول والرجال، وسلبوا كثيراً من الأثقال، وهاجموا بجرأة الذين تصدوا لهم وشتتوهم بعيداً حتى شاطىء البحر، ثم أعقب هذا نشوب صدام عنيف، قاتل فيه كل انسان في سبيل حياته، ووقتها قطع الترك اليد اليمنى لإفرارد الذي كان من رجال أسقف سالسبري، قطعوها وهو ممسك لسيفه بها، ودون أن يبدل الرجل من تماسكه العام ومظهره شيئاً تناول السيف بشجاعة بيده اليسرى، والتحم بالترك الذين كانوا يضغطون عليه، ودافع عن نفسه بشجاعة ضدهم، وفي هذه الساعة اضطربت الساقة وتشوشت كثيراً، وخشي جون فتزر لوك من تردي الأوضاع، فغمز بمهمازيه حصانه ومضى إلى الملك رتشارد الذي كان جاهلاً بما كان يحدث.

ولدى سماعه بهذا، بادر مسرعاً تمام السرعة، لمساعدتهم، ومزق الترك من على اليمين واليسار، بسيفه مثل البرق، وبسرعة انهزم الترك الآن، مثلما هرب الفلسطينيون في الأيام الخوالي من المكابيين، على هذه الشاكلة فروا من أمام الملك رتشارد، واتجهوا نحو الجبال، لكن بعضهم بقي بيننا بسبب فقدانهم لرؤوسهم.

وحدث في أثناء هذا القتال أن أحد الفرنسيين، واسمه وليم دي بارتي Bartis ، وكان على خلاف مع الملك رتشارد بسبب حسد قديم، قد تصالح معه، ورده الملك إلى حظيرته بفضل حسن تصرفه غير الاعتيادي.

ولم يكن السلطان بعيداً ومعه كل القوة الرئيسية لجيشه، لكن الترك يئسوا من النجاح بسبب هذه الحملة الموفقة، لذلك تمنعوا عن المزيد من قتال رجالنا، مرة ثانية، لكن تابعوا مراقبتهم من المرتفعات، وعندما

انتظم رجالنا مرة ثـانية، تابعوا زحفهم حتى النهر الذي التقـوا به صدفة، ولـوجود صهـاريـج ميـاه جيدة استفـادوا منهـا، نصبـوا خيامهـم هنـاك وارتاحوا ليستفيـدوا من السهل الخصب، ووجدوا أن صلاح الـدين تقدم لـه أن نصب معسكـره هنـاك، وحكموا مـن خـلال الأرض المداسة أنـه امتلك جيشاً كبيراً جداً.

وكان صـلاح الدين وأتراكـه مستنفرين دوماً مستعـدين لإلحاق الأذى بنـا، وقد استـولوا على بعـض الممرات بين الجبـال الوعـرة، وتوجـب على جيشنا أن يتابع زحفـه عبرها، وعزموا على قتلنا أو أسرنا أو تشتيتنـا عندما سنتقدم في صف طويـل، لكن عندما زحف جيشنا مـن النهر بحذر وعلى مهل حتـى حيفا، تمكنـا من نصـب خيمنا هنـاك، وانتظرنـا كتلة الجيـش الكبرى التي كانت تتبعنا.

وتمركـزنا فيما بين حيفـا والبحر، ومكثنـا هناك لمدة يـومين، نعد أنفسنـا ونتفحص الأمور، ونستعـرض أثقالنا، حيث رمينـا مااعتقدنا أننـا نستطيع أن نتخلى عنه، واحتفظنـا فقط بماكـان ضرورياً تماماً، لأن الجنـود الرجـالة زحفوا على أقـدامهم، في حين عانينـا نحن مـن ثقل الأحمال والميرة، ولهذا عانوا في أثناء القتال من كثير من الإنهاك والعطش.

وفي يوم الأربعاء، الذي وافق اليوم الثالـث الذي تلا وقوفنا عند حيفا، تحرك الجيش نحـو الأمام، وقام الـداوية في المقـدمة، وتمركز الاسبتـارية في الساقة، وبرهن فرسان الفئتـان على قدرتهما العظيمة على التحمل وبالتالي على الشجاعة العظيمة.

وزحـف الجيش في ذلـك اليـوم بحذر أكثر من المعتـاد، وتـوقف بعـد مسيرة طويلة، فقد أغـراه مارآه من كثافة الأعشاب وطـولها، التي ضربت وجوه أفـراده، خاصـة وجوه الـرجالـة، وكان في هـذه المناطـق الساحليـة أعداد كبيرة من الحيـوانات البرية (اليرابيع) التي قفـزت فيما بين أقدامهم

من بين الأعشاب الطويلة والكثيفة، وتم امساك كثير منها، ليس عن عمد، بل لأنها جاءت في طريقهم بالصدفة.

وبعدما سار الملك حتى تلحوم (التي هدمها المسلمون تماماً) ترجل وتناول بعض الطعام والجيش واقف ينتظر، ومن أراد منه تناول طعامه، وفور الفراغ تابعوا زحفهم حتى بيت عرف باسم «بيت الطرق الضيقة»، لأن الطريق هنا بات ضيقاً، وقد توقفوا هناك ونصبوا خيامهم.

وكان من عادةالجيش كل ليلة قبل الجلوس للراحة ندب واحد من الناس ليقف في وسط المعسكر وليصرخ بصوت مرتفع «العون، العون، من أجل الضريح المقدس»، وعندما كان بقية الجيش يسمعونه يرددون هذه الكلمات، ويرفعون أيديهم نحو السماء، وسط دموع منهمرة، وكانوا يصلون ويدعون طلباً للرحمة ولعون الرب في هذا المقصد، ثم كان المنادي نفسه يردد الكلمات بصوت مرتفع، ثم يرددها كل انسان وراءه للمرة الثانية، وبعد ذلك كان هذا يتكرر للمرة الثالثة بقلوب نادمة مع كثير من البكاء، فمن الذي كان بإمكانه التمنع عن البكاء في مثل هذه اللحظة؟ وبدا الجيش بعد الصراخ وفق هذه الطريقة وقد استرد نشاطه وارتفعت معنوياته.

وهاجمنا كل ليلة نوع من أنواع الزواحف، تدعى الثعابين، التي كانت تزحف على الأرض، وتلدغ لدغة سامة جداً، وكانت في النهار غير مؤذية، لكن مع حلول الليل، اعتادت أن تلدغ بشكل متواصل، وكان الذين يلدغون يتورمون على الفور بالسم، ويعانون من آلام حادة، واستخدم الذين تعرضوا للدغ من النبلاء والأغنياء نوعاً من مراهم الترياق بوضعه فوق مكان اللدغ، وبرهن الترياق أنه فعال في إزالة الألم، وأدرك أخيراً الأكثر فهماً وملاحظة بيننا أن الثعابين كانت تخاف وتهرب من الأصوات المرتفعة، لذلك أخذوا يصدرون أصواتاً عالية لدى اقترابها منهم، بوساطة الضرب على مقاعدهم، أو أعمدتهم أو الصناديق الخشبية أو

الأباريـق، أو الطسوت، أو الصحـون، أو المراجل، أو أيـة أداة من أدوات المنزل كانت تصـل إلى أيديهم لإحداث صوت كاف بها، وطردوا بـوساطة هذه الأصوات الثعابين.

وبقي الجيـش لمدة يومين في ذلك المنزل المتقـدم الذكر، حيث تـوفرت سـاحة كبيرة للعسكـرة، وانتظروا هنـاك حتى وصـول السفن التـي كانـوا يتـوقعونها، وأعنـي بهذا البـوارج والشـواني المشحونـة بـالميرة التـي كانـوا بحاجة إليها.

ثم تحرك الجيـش، مستخدماً جميع الاحتيـاطات ضد الترك الذيـن بقوا على جناحهـم حتى بلـدة تدعـى الملاحة، حيـث كان الملـك قد أمضـى إحدى الليـالي الماضية، وقـرر هنا أن يتـولى بنفسه قيـادة المقدمـة في اليوم المقبـل، بسبـب العوائق على الطـريـق، ولأن الـداويـة مكثوا في حـراسـة الساقة.

ولبـس الملك في ذلـك اليوم مهمازيـه، وانقض على الترك وهـو حانـق جـداً، وكـان على وشـك قطـف ثمار مجد عظيم لـولا أن أعـاقـه بعضهـم وأخروه، ممـا عرقـل نجاحه، لأنـه بعدما طـارد الملك رتشـارد الأتراك إلى مسافـة، توقف بعض رجـاله فجأة، الأمـر الذي عرضهم للـوم في المساء، ولو أن أصحاب الملـك تبعوه في المطاردة وتابعـوا الجري وراء الترك، لنالوا نصراً مبيناً، لأن الملك دفع الجميع أمامه.

وواجه الملك مصاعب جمة لـدى زحفه على طرف البحر بسبب الحرارة العالية، لأن الـوقت كان ضيقاً، وهـم قد ساروا رحلة يـوم طويل، وأنهك المسير عدداً كبيراً منهـم، فسقطوا موتـى، ودفنوا حيـث ماتوا، وعطفـاً من الملك ورحمة أمر بعدد كبير ممن أنهكهم التعب من المسير أو المرض، أو أي سبـب آخر، أن ينقلـوا بـوسـاطة الشـواني والسفـن إلى غـايتهم، ووصـل الجيش إلى قيسارية.

وكان الترك قبلهم هناك، وكانوا قد دمروا قسماً من الأبراج والأسوار، ودمروا المدينة بالقدر المستطاع، لكن عند وصول جيشنا هربوا، ونصب الجيش هناك خيامه وأمضى الليل على طرف نهر قرب المدينة، كان يعرف باسم نهر التماسيح (نهر الزرقا) لأن التماسيح افترست في احدى المرات اثنين من العساكر وهم يسبحون فيه.

وكان محيط مدينة قيسارية واسع جداً، والأبنية رائعة فخمة وبهية، وغالباً مازارها مخلصنا ومعه حوارييه، وصنع معجزات فيها، إنه هنا كان الملك قد أمر سفنه بمقابلة الجيش، وأمر الملك بالوقت نفسه بالاعلان في مدينة عكا بوساطة صوت المنادي، أن على الذين تخلفوا في المدينة لكسلهم الصعود إلى ظهور السفن التي أرسلت والقدوم إلى الجيش حباً للرب، للمساعدة على انجاح هدف المسيحيين، ولينفذوا عهد حجهم بكمال أعظم، وأطاع العديد منهم أوامره وقدموا إلى قيسارية مع الأسطول، الذي كان مشحوناً بوفرة من الميرة، وهيأ أن تتقدم السفن من ذلك المكان لتبقى على اتصال بالجيش ولتقدم له الخدمات.

وتجمع عدد كبير من السفن معاً، وعندما قسم الملك جيشه إلى فرق، انطلقوا في أحد الأيام في حوالي الساعة التاسعة، بخطوات بطيئة، بسبب أن الترك ضايقوهم عندما غادروا مراكزهم، ثم اقتربوا منهم كثيراً بقدر ماتجرأوا، وأنزلوا بهم مااستطاعوا الأذى والمضايقة.

وقد أزعجونا في هذا اليوم أكثر من المعتاد، لكن بعون الرب نجونا دونما أذى، لأننا تمكنا من قطع رأس واحد من أمرائهم، وكان رجلاً عظيم الشجاعة، ومشهوراً لاقدامه، وكان قوياً جداً إلى حد أن مامن أحد — كما قيل — كان يستطيع أن يرميه من على ظهر حصانه، أو يتجرأ حتى على قتاله، وقد حمل رمحاً كان أثقل بمرتين من رماحنا أطلق عليه اسم «رمح اياز»، وحزن الترك حزناً شديداً لمقتله واستولى عليهم الأسى، إلى حد أنهم قطعوا ذيول خيولهم، ولو سمح لهم لحملوا جثمان

مقدمهم.

ووصل الجيش بعد هذا إلى نهر كان يدعى النهر الميت (نهر المفجر؟) وكان المسلمون قد غطوه من قبل، حتى لايرى، ولكي تتعرض حياة رجالنا إلى الخطر بالسقوط به، لكن بفضل حكمة الرب ونعمته حفظنا من المخاطر، وبعد ماجرى كشف النهر شرب رجالنا منه وأمضوا الليلة هناك.

- ٨٩٤ -

كيف تحارب الجيشان عند أرسوف

تقدم الجيش في اليوم الثالث ببطىء من النهر الميت، ولأن رجالنا كانوا غير قادرين على المسير على طرف البحر، الذي كان مغلقاً بشعراء كثيفة، فقد أرغموا على الزحف خلال منطقة جبلية وعرة جداً، وجرداء تماماً من كل شيء، وحفظ الجيش نفسه أثناء الزحف في مجموعات متراصة أكثر من المعتاد، وتولى الداوية في ذلك اليوم الساقة، وهكذا خسروا عدداً كبيراً من الخيول من حملات الأتراك، حتى أنهم غدوا في حالة يائسة تقريباً، وفقد كونت سينت بول أيضاً كثيراً من الخيول، لأنه تصدى بنفسه للترك بشجاعة عظيمة عندما هاجمونا وحققوا خرقاً بيننا، وبفضل جهوده تمكن الباقون من الجواز بسلام والابتعاد سالمين، وهكذا استحق الشكر والثناء من الجيش كله.

وفي ذلك اليوم جرح الملك في طرفه بنشابة أثناء طرده للترك، وأثاره هذا الجرح الخفيف وحمسه لمقاتلتهم بشجاعة أعظم، ذلك أن ضربة الجرح جعلته متشوقاً إلى الانتقام أكثر، وقاتل خلال النهار كله ضدهم وردهم إلى الخلف.

ومن جانب آخر ثابر الترك على إغاظة رجالنا وارهاقهم، وحافظوا على السير على طرف جيشنا، وألحقوا برجالنا من الجراحات بقدر ما استطاعوا برميهم السهام والنشاب، التي تطايرت مثل زخات المطر، وإنه لمحزن لو علمت كم عدد الخيول التي سقطت نتيجة طعنها وإصابتها بالجروح! وكم عدد التي ماتت فيها بعد، اثر عقرها والجراحة التي نالتها ! فلقد كان هناك سيلاً من النشاب والجروخ إلى حد أنه كان يتعذر عليك أن تجد موضعاً لقدمك على الأرض حيث توجب على الجيش المرور دون الاصابة بها، واستمرت هذه الحالة المحتدمة والمرعبة طوال النهار، حتى

حلول الظلام، فوقتها عاد الترك إلى خيمهم ومساكنهم، ووقف شعبنا عند مايعرف عادة باسم نهر المالح (نهر اسكندرون)، وأمضوا الليل هناك، ووصلوا يوم الثلاثاء بعد عيد القديس جايل، ومكثوا لمدة يومين.

واجتمع هنا حشد كبير بسبب الخيول التي ماتت إثر جراحتها، ذلك أن الناس كانوا راغبين بشراء لحوم الخيول، حتى أنهم لجأوا إلى نفخها، وعندما سمع الملك بهذا، أعلن بوساطة المنادي أنه سوف يعطي حصاناً حياً لكل من سوف يوزع حصانه الميت على أحسن الرجال في خدمته، ممن هم بحاجة إليه، وهكذا أكلوا لحوم الخيول وكأنها لحوم الطرائد والغزلان، وعدّوها لذيذة جداً، لأن الجوع حل الآن محل التوابل.

وفي اليوم الثالث زحف جيشنا في حوالي الساعة التاسعة في تعبئة قتالية، وانطلق من نهر المالح، لأنه كانت هناك اشاعات تحدثت عن أن الترك كانوا قد أعدوا كميناً في شعراء أرسوف وبساتينها، وأنهم كانوا عازمين على اضرام النيران هناك لمنع قواتنا من عبورها، غير أن رجالنا عبروا بنظام، فاجتازوا دون التعرض للأذى في المكان الذي قيل بأن الكمين قد نصب به، وبعدما خرجوا من الشعراء، وجدوا أنفسهم في سهل واسع يحاذيها، وهناك نصبوا قرب نهر يدعى بشكل عام روشتيل Rochetaillie (نهر الفالق)، وأرسلوا من هنا جواسيس للاستطلاع، وقد جلبوا معهم أخباراً بأن الترك ينتظرون وصولهم في أعداد لاتحصى، لأن حشودهم غطت وجه الأرض هناك، وقدّر تعدادهم بثلاثمائة ألف رجل، بينما كان المسيحيون مائة ألف رجل فقط من الأشداء، ووصل الجيش المسيحي إلى نهر روشتيل يوم الخميس قبل عيد ميلاد مريم العذراء المباركة، واستراح هناك حتى اليوم التالي.

وفي الفجر الباكر من يوم السبت صب رجالنا أسلحتهم عليهم بعناية كبيرة لتلقي الترك الذين لايمكن لشيء أن يوقف عجرفتهم سوى القتال، وعبأ العدو نفسه بانتظام، واقترب منا أكثر فأكثر، وكذلك اتخذ

رجالنا غاية الحذر لوضع أنفسهم في نظام جيد بقدر الامكان.

وعبأ الملك رتشارد، الذي كان أكثر الناس خبرة بالشؤون العسكرية، الجيش على شكل كتائب، وأصدر توجيهاته للذين توجب عليهم الزحف في الأمام والذين كانوا في الساقة، وقسم الجيش إلى اثني عشر فوجاً، ثم قسم هؤلاء إلى خمس فرق، تسلسلت قياداتها حسب رتب الرجال تماشياً مع النظام العسكري، وكان من غير الممكن ايجاد جيش أحسن تنظيماً من الناحية العسكرية ولاأكثر قوة لو أن رجاله وضعوا ثقتهم في الرب الذي هو مانح الأشياء الطيبة، وشكل الداوية في ذلك اليوم الصف الأول، وجاء من بعدهم بنظام تام البريتانيون ورجال أنجو، ثم تلاهم الملك غي مع رجال بواتو، وكان في الصف الرابع النورمان والانكليز، الذي عهد اليهم بأمر العناية بالراية الملكية، وزحف بعدهم في الصف الأخير الاسبتارية، وكان صفهم مؤلفاً من نخبة من المحاربين موزعين على شكل مجموعات، وساروا متراصين إلى حد لو أن تفاحة ألقيت عليهم كان من غير الممكن أن تصل إلى الأرض دون أن تلمس رجلاً أو فرساً، وامتد الجيش من حد الجيش الاسلامي إلى طرف البحر.

وكان بإمكانك أن ترى هناك أفضل أشكال التمييز وأنسبها: أعلام وشارات من مختلف النماذج، وجنود أشداء، نشطاء ممتلئين حيوية، ومناسبين تماماً للحرب، وكان هناك ايرل أوف ليستر، وهيوج دي غيرني Gurnay، ووليم دي بورز Borriz وولكن دي فيرار Walkin De Ferrars، وروجر دي توني ، وجيمس دي أفنس، وروبرت كونت أوف درول Druell، وأسقف بوفاي Beauvais ، وأخوه وليم دي بار Barres، ووليم دي غارلاند Garlande، ودروغو دي ميرل Drogo De Mirle، مع كثير من أقربائه، وهنري كونت شامبين، وهو الذي تولى الحراسة على الجانب الأقرب إلى الجبل، مثابراً على النظر على الجناح ومراقباً له، وكان الجنود الرجالة والرماة ورماة الزنبورك والجروخ في

الخارج، وكانت ساقة الجيش ملاصقة لدواب الحمولة والعربات التي حملت الميرة، والأشياء الأخرى، وسارت فيما بين الجيش والبحر لتتجنب الهجوم من العدو.

هكذا كانت تعبئة الجيش ونظامه عندما تقدم بشكل تدريجي لمنع الانقسام (وعزل الأسلحة عن بعضها) ذلك أن فقدان الترابط بين صفوف القتال، يؤثر عليها ويجعلها أضعف في المقاومة، وسار الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع حاشية منتقاة من المقاتلين صعوداً ونزولاً، ليراقبا عن قرب أوضاع وسلوك الترك وسماتهم، ولاصلاح أي شيء في قواتهما إذا رأيا الفرصة المناسبة، لأنهما احتاجا في تلك اللحظة إلى فائق الحذر.

وكان في حوالي الساعة التاسعة عندما ظهرت فرقة كبيرة من الترك فيها عشرة آلاف من الجنود الأشداء، وكان هؤلاء الجنود سائقين نحونا للانقضاض علينا بأقصى سرعة ممكنة، ويرمون نحونا بالجروخ والنشاب بقدر ما استطاعوا من سرعة، وبالوقت نفسه مزجوا أصواتهم بصرخات مرعبة، وأعقب هؤلاء جنس شيطاني جهنمي من البشر، لونهم أسود، ويحملون مظهراً خارجياً مناسباً يعبر عن سوادهم، وكان معهم المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون باسم البدو، وهم عرق متوحش من الرجال أشد سواداً من السخام، وهم ممن يقاتل راجلاً، ويحمل كل منهم قوساً وكنانة ودرقة مستديرة، وهم عرق خفيف وفعال، وقاتل هؤلاء الرجال جيشنا ببسالة وارهاب، وكان من الممكن أن يرى من بعدهم الكتائب الحسنة التنظيم للاتراك، بشارات مثبتة على رماحهم، وأعلامهم وراياتهم لها علامات متميزة وكان جيشهم مقسماً إلى فئات، والفئات إلى جماعات، ويبدو أن تعدادهم جاوز العشرين ألفاً.

وقاتلوا رجالنا بانقضاض لايمكن مقاومته، وكانوا أسرع من النسور، وحين حملوا علينا منقضين كانوا أمضى من البرق، وأثاروا أثناء تقدمهم

سحابة من الغبار، حتى أن السماء أظلمت، وتقدم أمامهم بعض الأمراء، حسب مقتضيات الـواجب، مع بعض الأبواق والنفر، وكـان مع بعضهم شبـور، ومـع آخريـن مـزامير، ودفـوف، وكؤوس، وصنـوج وآلات أخـرى، كـانت تنتـج ضجيجاً مـرعبـاً، وصخباً، إلى حـد أن الأرض ارتجفت مـن الأصوات العـالية والمتداخلـة، حتى أن أصـوات الرعد لايمكـن سماعها وسـط صخـب هـذه الأصـوات، وقـد فعلـوا هـذا لإثـارة أرواحهـم ولتشجيعهـم، فمع ازديـاد العنـف، تكون الأصـوات قـد ارتفعت، وهـم يغدون أكثر جرأة في الانقضاض.

وهكذا هـددنا الترك غير الأتقيـاء من على الجانبين: مـن جهة البحـر، ومـن جهة البر، ولم يكـن مـن الممكن خـلال مساحـة قـدرها ميلين مـن الأرض الاستيـلاء على شبر منها أو رؤيتـه، بسبب المهـاجمين الترك الذيـن غطـوها كلهـا، ولكم ضغطـوا علينا بعنـاد، واستمروا في حملاتهم الجريئـة والعنيدة، ولهذا عـانى رجـالنا مـن خسائر كبيرة وقـاسية في الخيـول، التي قتلت بجروخهـم ونشابهم!

ولكم كان مفيداً لنـا في ذلك رماة الزنبورك منا وكذلك النبـالة، الذين وقفوا إلى جانب صفـوفنا المعرضة للفناء، وبذلوا غايـة جهدهم لرد الترك الأشداء، واندفع العدو منقضاً علينا مثل السيل الجارف، مستهدفاً قتالنا، وهنا لم يستطـع غالبية رمـاة الزنبورك الصمـود أمام ثقل الهجـوم المرعب، وحملتهـم المخيفة، فـرمـوا جـانباً أسلحتهـم، وخشيـة منهـم أن يتعرضـوا للمـوت بالاصـابة بـالـرمايـات، هـربوا والتجـأوا بجمعهم الكبير خلـف الصفوف الكثيفـة للجيش، وفعلوا ذلـك وهـم يولـولون خوفـاً من الموت، وهو أمـر لم يكونوا قـادرين على مواجهتـه، أما المتبقـي من رماة الـزنبورك الـذين منعهـم خوفهـم مـن العار، مـن الهزيمـة، أو لأنهم كانـوا يأملـون بالحصول على تاج الأبدية، لذلـك صمدوا، وتحلوا بشجاعة عظيمة وجرأة فوقفوا ولم يتـزحزحوا وقت الصراع، وقـاتلوا بدون كلل أو ملـل وبشجاعة

وجهاً لـوجه أمـام الترك، وفقط تـراجعوا خطـوة خطوة، وبـذلك ضمنـوا تقهقر رفاقهم.

ولكم كـان المأزق ضيقاً الـذي كنا فيـه ذلك اليـوم! ولكم كـان هائلاً اضطرابنا، عندما تأثر بعضنا بالخوف، ومـامن واحد منا كان لديه الثقة أو الشجاعـة، ولم يرغب في تلك السـاعة في أنه أنهى حجه وعـاد إلى وطنه، عوضاً عن الوقوف بقلب خـافق مضطرب في معركة غير معروف مصيرها، وصدقاً أقول إن شعبنـا الذي كان تعداد رجاله صغيراً، قـد طوق من قبل حشود من المسلمين، ولـذلك لم يمتلك رجاله الـوسائل للنجاة، كما أنهم بـدوا وهم لايمتلكـون مايكفـي من الشجـاعة للصمـود أمام عـدو كبير كهذا، لابل الأمر كان أشد من هذا، لقـد كانوا أشبه بقطيع شياه وقع كل واحد منهـم بين فكي ذئب مـن الذئاب، وليـس هناك سـوى السماء من فوقهم، والعدو جميعه من حولهم.

أي جيش في الوجود تعرض قط لهجـوم مثل هذه القوات الهائلة؟ لقد كان بامكانك أن ترى عساكرنا وقد فقـدوا مطاياهم، وهـم بالتالي يزحفون على أقـدامهم مثلهـم في ذلك مثـل الجنود الـرجـالة، أو يـرمون بـالجروخ ويستخـدمون الـزنبورك، أو السهـام من القسي، ضـد العدو، أو يصـدون حملاته بخير وسيلة وبقدر مـا استطاعوا، وضغط الترك الذين كـانوا بارعين بالرمايـة باستمرار عليهم، وصبت قسيهم زخـات من النبال، وامتلأ الجو بـرشقات النشـاب، وحجـب ضوء الشمـس بوسـاطـة الكميات الهائلـة للنشاب، مثلما تظلم في الشتاء بسقوط البرد والثلج.

وضغط الترك بجـرأة هائلة كادت أن تـؤدي إلى سحق الاسبتاريـة، مما دفعهم إلى إرسال رسالة إلى الملك رتشـارد بأنهم غير قادرين على الصمود أمام حملة العدو الشديدة، مالم يسمح لفرسانهم بالتجمع والاقلاع بحملة تامـة ضده، ومنعهم الملـك من ذلك، ونصحهـم بالبقاء على شكـل كتلة متماسكـة، وبناء عليـه حافظـوا على نظامهـم وبقيوا إلى جـانب بعضهـم

بعضاً، علماً بأنهم كانوا قادرين بكل صعوبة على التنفس بسبب الضغط الشديد، وتمكنوا بهذه الوسيلة من المحافظة على متابعة الزحف على طريقهم، مع أن الحرارة حدث أن كانت عالية جداً في ذلك اليوم، وقد تصبب المسيحيون عرقاً في تلك المحنة، والذي أمكنه أن يراهم في ذلك الممر الضيق والمساحة المغلقة صابرين وهم يعانون من حرارة ومشقة ذلك اليوم مع حملات العدو(الذي شجع بعضه بعضاً على تدمير المسيحيين) لايمكن أن يساوره الشك في نفسه، أن محنتهم ووضعهم الحرج جداً، الذي ازداد سوءاً بحكم كونهم حشداً كبيراً، يومىء بالسوء لنجاحنا.

وقرع العدو على ظهورهم وأرعد وأبرق بمثل المطارق، لذلك لم يجدوا مجالاً لاستخدام قسيهم، فقاتلوا يداً بيد بالسيوف، والحراب، والهراوات، وترددت أصداء ضربات الترك ورماياتهم على الدروع والسوابغ المعدنية، وأعادت الأصوات وكأنها قرعت على سندان.

وكان القتال ثقيلاً جداً وشديداً، على الصف الأقصى من صفوف الاسبتارية، وازداد الوضع سوءاً وشدة، مع ازدياد عدم قدرتهم على المقاومة، ومع ذلك تحركوا نحو الأمام بصبر تحت آلام جروحهم، ولم يصدر عنهم ولاصوت تجاه الضربات التي سقطت عليهم، ثم ضغطوا نحو قلب الجيش الذي كان أمامهم، وذلك بقصد الحصول على السلامة، ولتجنب قسوة العدو الذي ضايقهم من الخلف.

وكانت قوات جميع المسلمين قد احتشدت مع بعضها من دمشق ومن فارس، ومن البحر المتوسط إلى الشرق، ولم يترك السلطان بين جميع الأجناس على الأرض، ولاواحد من الرجال المشهورين أو الأشداء، ولاأمة اتسمت بالشجاعة، ولاواحد من الجنود البواسل، أبداً، لم يترك السلطان أحداً من هؤلاء إلا واستدعاه لعونه، إما بالتوسل، أو بالمال، أو بالسلطة، وذلك بهدف سحق الجنس المسيحي، ذلك أنه كان يأمل أنه سيتمكن أن

-٩٠١-

يزيل الصليبيين مـن على وجه الأرض، لكن آماله تبـددت، لأن أعدادهم كانت كافيـة، بعون الرب، لتحقيق غايتهـم، فلقد اجتمعـت بالفعل زهرة نخبة شباب وجند المسيحية، واحتشدت ومن ثم توحدت في كتلة واحدة مثل سنابل قمـح على سوقها، وجاءوا من مختلف مناطـق الدنيا، ولو أنهم سحقوا تماماً ودمروا، ليـس هناك من شـك أنه لـن يبقى هنـاك ولاواحد يتولى المقاومة.

-٩٠٢-

النصر الرائع للمسيحيين

غطت الهواء سحابة من الغبار أثناء متابعة رجالنا لزحفهم، وعانوا من ضغط من الخلف وذلك بالإضافة إلى الحر الشديد، وكان العدو شرساً، وأنزل بنا ضربات موجعة شيطانية، ومع ذلك ثابر المسيحيون على البرهنة أنهم رجال صالحون، وحافظوا بروحهم التي لاتقهر وضمنوا استمرار التقدم، في حين استمر الترك في تهديدهم بدون توقف من الخلف، غير أن ضرباتهم وقعت عليهم بدون أذى بسبب حمايتهم بوساطة السوابغ والدروع المعدنية، وأدى هذا إلى تراخي الترك في اندفاعهم وحماسهم تجاه اخفاق محاولاتهم، وبدأوا يتذمرون همساً معبرين عن خيبة الأمل، وأخذوا يصرخون بغضب شديد بأن رجال شعبنا كانوا من حديد، وأنهم لن يتخاذلوا أو يتراجعوا أمام أية ضربة.

ثم إن عشرين ألفاً من الترك الأشداء انقضوا مندفعين مجدداً ضد رجالنا، محدثين الفوضى بين صفوفهم حيث اختلط الحابل بالنابل، وأرهقوهم بكل وسيلة ممكنة، وعندما باتوا على حافة الانهيار أمام ضرباتهم العنيفة، صاح الأخ غارنيير دي نيب Napes ، وكان من أفراد الاسبتارية، بصوت مرتفع: « أيها القديس جورج الرائع، إلى متى ستتركنا هكذا في وضعنا المضطرب؟ والمسيحية كلها الآن على حافة الدمار، لأنها تخشى الرد بضربة ضد هذا العرق الفاجر».

وعند هذا ذهب مقدم الاسبتارية إلى الملك وقال له:« مولاي الملك، لقد ضغط العدو علينا ضغطاً شديداً وبعنف، ونحن في وضع نخشى فيه من العار السرمدي، طالما نحن غير متجرأين على رد ضرباته، ها نحن الآن يفقد كل واحد منا حصانه تلو الآخر، فكيف لنا أن نتحمل منهم الأكثر؟ ورد الملك عليه قائلاً: «أيها المقدم الجيد، إنه أنت الذي

ينبغي أن يصمد أمام هجماتهم: ما من واحد يمكنه أن يكون في لحظة واحدة في كل مكان».

وعند عودة المقدم، قام الترك مجدداً بحملة عنيفة عليهم من الخلف، ولم يكن بينهم أمير أو كونت إلا وتلطخ بالعار، وقال كل واحد للآخر: « لماذا لانحمل عليهم بأشد ما نستطيع وبأسرعه؟ ياللأسف، وياللأسف، سوف نستحق بشكل أبدي أن ندعى جبناء، وهو أمر لم يحدث لنا من قبل، لأنه لم يسبق لمثل هذا العيب والعار أن نزل بجيش عظيم مثل هذا الجيش، حتى من قبل غير المؤمنين، وما لم ندافع عن أنفسنا في أن نحمل بالحال وبدون تأخير على العدو، فسوف نجني خزيا وفضيحة أبدية، وسيزداد هذا ويتعاظم كلما تأخرنا في القتال.

وفيما هم يعالجون هذه المسألة، ولدى توصلهم إلى القرار نفسه بشأن القيام بحملة ضد العدو، قام فارسان، لم يعودا يمتلكان الصبر والتأخير، بوضع كل شيء في فوضى واضطراب، وعلى كل حال تقرر باتفاق الجميع أن تقوم ستة أبواق بالصدح بأصواتها في ثلاثة أجزاء مختلفة من الجيش، ويكون ذلك بمثابة شارة للاقلاع بالهجوم، وتفصيل ذلك: بوقان في المقدمة، واثنان في الساقة، واثنان في القلب، وذلك بهدف تمييز أصواتها عن أصوات أبواق المسلمين، ولتحديد المسافة لكل منها، ولو حدث ونقلت هذه الأوامر إلى الترك لأخفقت تماماً، ولقاد تسرع الفارسين المتقدم ذكرهما إلى إحباط نجاح الأمور.

فلقد انطلقا بسرعة تامة وانقضا على الترك، وتمكن كل واحد منهما من القاء خصمه الذي واجهه بطعنة برمحه، وكان أحدهما مارشال الاسبتارية، وكان الآخر بلدوين دي كاريو Carreo ، الذي كان رجلاً جيداً وشجاعاً، ومرافقاً للملك رتشارد، الذي جلبه معه في حاشيته.

وعندما لاحظ المسيحيون الآخرون هذين الفارسين وهما يندفعان نحو

الأمـام، وسمعاهما يـدعوان بصـوت واضـح القديـس جورج ليقـدم لهما العون، هـاجموا الترك وحملوا عليهم حملة رجـل واحد، بكل ما ملكـوه من قوة، ثم جاء دور الاسبتارية، الذين عـانوا طوال النهار من الضغط داخل صفـوفهم ومـن شدة الازدحـام فيها، فقـامـوا باللحـاق بهذين الجنـديين وحملـوا على العدو في صفـوف متلاحقـة، وبذلـك غدت مقـدمة الجيـش ساقته، وأصبح الاسبتارية الذيـن كانوا في الصفوف الأخيرة، أول من تولى الحملة، وانـدفع كـونت شـامبين أيضاً نحـو الأمام مـع جماعته المختـارة، وجيمس دي أفنـس مع أقـربائه، وكـذلك روبـرت كونـت دروDreux ، وأسقف بـوفياس Beauvais، مع أخيـه، وكذلك ايـــرل ليستر، الذي قام بحملة حادة من اليسار نحو البحر.

وتكتل الذين كانوا في الصف الأول من السـاقة، وقاموا بحملة موحدة شديـدة جداً، وجاء بعدهـم رجال بواتـو، ورجال أنجو، ورجال بـريتاني، فقـد أقلع هـؤلاء بـاندفـاع سريـع نحـو الأمام، ثـم أعقبتهـم بقية قطـع الجيـش: وأظهرت كـل فرقـة شجاعتهـا واقـدامها بـالإلتحام مـع الترك، فأطـاحوا بهم حين طعنـوهم بـرماحهـم، ورموهـم أرضاً، وغـدت السماء داكنة بسبب الغبار الذي تصاعـد في مواجهات ذلك المعترك، وكان الترك قد تـرجلوا مـن على ظهور خيـولهم، حتى يتمكنـوا من التسـديد بشكـل أفضل نحو رجـالنا بنشابهم وجروخهم، غير أنهم قتلـوا على جميع الجوانب أثناء تلـك الحملة، فقـد بطحهـم الفـرسان وجاء بعـدهـم الجنـود الرجـالة فأجهزوا عليهم وقطعوا رؤوسهم.

ورأى الملـك رتشـارد، جيشـه وهـو يتحـرك، وقـد شرع بـالعـراك مـع الأتـراك، ولهذا طار مسرعـاً على ظهر حصـانـه، بأقصـى سرعة ممكنـة إلى وسـط الاسبتاريـة الـذين تـولـوا الحملـة، وإليهم جلـب المسـاعدة مـع حاشيتـه، وخرق صفـوف الرجالـة الأتراك، الذيـن تملكتهم الـدهشة تجاه ضرباته وضربـات رجاله، فأفسحـوا له الطريق مـن على اليمين ومن على

الشمال، وكان بإمكانك أن ترى وقتها أعداد كبيرة من الرجال وقد تمددوا على الأرض، وكذلك خيولاً كثيرة جداً بدون ركابها، وأيضاً الجرحى وهم يتحبون ويندبون منيتهم القاسية، وكان هناك بعضهم وهو يلفظ آخر أنفاسه أثناء التمرغ بدمائهم المتخثرة، وكان هناك عدد كبير من الرجال بلا رؤوس، في الوقت الذي ديست فيه أجسادهم التي كانت بلا حياة من قبل أصدقائهم وأعدائهم.

ولكم اختلفت توقعات الذين تأملوا وسط الأرتال شكل مباشرة الحرب الرهيب عن قرب! هناك كان الملك— الملك الحاد، والملك غير الاعتيادي— وقد فلق أجساد الأتراك في كل اتجاه، ولم يكن هناك من يستطيع النجاة من قوة ذراعه، فحيثما التفت، شاهراً سيفه، شق لنفسه ممراً واسعاً، وهو يتقدم نحو الأمام، وكان لايتوقف عن الضرب والطعن بسيفه (لذلك قطعهم مثل حصاد يقطع الزرع بمنجله)، وخاف البقية من مشهد الذين كانوا يموتون وارتعبوا، ولذلك أعطوه المزيد من المساحة، وتراجعوا من أمامه، ذلك أن أجساد القتلى من الترك التي تمددت على وجه الأرض غطت أكثر من نصف ميل.

وتبرهن أن الغبار الذي تصاعد من القتال كان ضاراً جداً بالنسبة لرجالنا، لأنه عندما أصبح رجالنا يشعرون بالتعب من جراء قتلهم لأعداد كبيرة، ولدى تراجعهم لتنفس بعض الهواء النقي، لم يكن وقتها بامكانهم تمييز بعضهم بعضاً، وسددوا ضرباتهم بدون تمييز إلى اليمين وإلى الشمال، غير قادرين على التفريق ما بين العدو والصديق، فقدروا أن بعض رجالهم من رجال العدو، فقتلوهم بلا رحمة.

وهكذا ضغط المسيحيون بكل شدة على الأتراك، ولم يتقهقر هؤلاء أمامهم، وعلى ذلك ظلت نتيجة المعركة لوقت طويل متأرجحة غير محسومة ومشكوك فيها، وتابع الفريقان تبادل الضربات، فكل فريق منهما جاهد في سبيل نيل النصر، وفي تلك الأثناء تراجع بعضهم من على

الجانبين وقد غطتهم الجراح، في حين سقط آخرون على الأرض قتلى.

ولكم كان كثيراً ما يمكن رؤيته من الرايات والأعلام والعذبات، والرنوك الملونة التي كانت ممزقة وملقاة على الأرض، وسيوف الفولاذ المجرب، ورماح الخيزران ذوات الأسنة الفولاذية، والقسي التركية والحراب ذوات الأسنة الحادة، والنشاب والنبال، التي غطت الأرض، كما كان هناك من الجروخ ما يكفي لأن يكون حمولة عشرين عربة أو أكثر، وكانت هناك أجساد الأتراك الذين قتلوا ملقاة ومبعثرة بلا رؤوس، في حين حفظ آخرون شجاعتهم لبعض الوقت حتى ازداد رجالنا بقوتهم، وهنا تخفى بعضهم وأخفوا أنفسهم بين جثث القتلى، بينما تسلق بعضهم الآخر بعض الأشجار، فكشفوا، فكان أن رميوا فسقطوا أرضاً وهم يئنون ألماً ورعباً، وتخلى بعضهم أيضاً عن خيولهم، وسلكوا بعض الممرات المنحدرة والفردية نحو شاطىء البحر، ثم ألقوا بأنفسهم نحو أمواج البحر، من فوق الشعاب العالية، التي بلغ ارتفاع بعضها خمسة أعمدة.

وتم صد بقية الأعداء بطريقة مدهشة حتى بات من غير الممكن رؤية أحد خلال مساحة ميلين غير الفارين، مع أنهم كانوا من قبل من الجرأة والصمود بمكان، وقد امتلأوا بالعزة والفخر، لكن بنعمة الرب وفضله تحول فخرهم إلى ذل، وتابعوا الفرار دون توقف، ذلك أنه عندما توقف رجالنا عن المطاردة، أضاف الخوف وحده أجنحة إلى أقدامهم.

وكان جيشنا حين هاجم الأتراك مؤلفاً من أقسام، كما أن النورمان والانكليز الذين كان معهوداً إليهم أمر العناية بالراية، قدموا ببطىء وساروا نحو القوات التي كانت مشتبكة مع الأتراك، ولأنه كان من الصعب جداً تفريق صفوف الأعداء وتمزيق قواه، فقد وقفوا على مسافة قصيرة بعيدة هناك، لتكون نقطة تجمع للقوات.

ولدى انتهاء المذبحة، توقف رجالنا، وعندما رأى الفارون هذا، وكانوا

نحواً من عشرين ألفاً، استردوا شجاعتهم على الفور، وتسلحوا برماحهم وحرابهم، وحملوا على الفور على الكتلة العظمى للذين كانوا يتراجعون، واستنقذوا من أيدي رجالنا بعض الذين أسروهم آخراً.

ومن غير الممكن وصف الحملة التي تعرض لها رجالنا آنئذ، لقد كانت حقاً مرعبة، لأن النشاب والجروخ التي تساقطت عليهم وهم يتراجعون، حطمت رؤوس دروعهم وخرقت بقية أطراف فرساننا، ولذلك انحنوا، والتصقوا بقرابيس سروج خيولهم، غير أنهم مالبثوا أن استردوا شجاعتهم، واستأنفوا القتال، وكانوا عطاشى للانتقام (مثلهم مثل اللبوة عندما يخطف أشبالها)، وحملوا على الأعداء، وخرقوا صفوفهم وشتتوها.

ثم كان بامكانك رؤية الخيول وقد زالت سروجها عن أماكنها، والأتراك الذين كانوا قد فروا للتو، وعادوا وحملوا على شعبنا بشدة متناهية وبغضب هائل ، ولولا أن رجالنا حافظوا على التقدم ولم يتوقفوا أثناء الالتحام، بل بقيوا كتلة متحركة، لخبرت عنهم كل دفعة من الرمايات التي تلقوها.

وكان قائد الترك أميراً حمل اسم تقي الدين، وكان من أقرباء السلطان، وقد حمل راية ذات شكل مدهش ونموذج فريد: فقد حيك عليها صورة زوج من السراويل القصيرة، وهو رمز كان معروفاً بشكل ممتاز بالنسبة لرجاله، ولقد كان أقسى رجال أعدائنا وأشدهم عنفا والعدو الأعظم تصمياً للصليبيين، وكان تحت امرته سبعمائة من نخبة الأتراك، ومن أعظمهم شجاعة من عساكر بيت صلاح الدين، وقد حمل أتباع كل واحد منهم علماً أصفر، مع عذبات ذوات ألوان مختلفة.

وحمل هؤلاء على رجالنا بسرعة قصوى، محدثين ضجة عظيمة، وكان مظهرهم مظهرا مخيفاً، وقد انقضوا على رجالنا الذين كانوا على نية الانعطاف والعودة نحو الراية العظمى، وشرعوا في تمزيقهم وطعنهم

بشدة متناهيـة، حتى أن أكثر الناس ثبـاتا بين مقدمينا تقلقلـوا تحت ثقل ضرباتهم وضغطهم، ومـع هذا ثابر رجـالنا وتابعوا الاشتبـاك بهم، وكـانوا مرغمين على صد القوة بالقوة، وتعاظـم الالتحام وازداد كثافة، وتضاعفت الضربـات، وغدت المعـركـة أكثـر حدة، وكـانـت الجهـة المهاجمة تسعـى لسحـق أعـدائهـا، في حين سعـى الآخـرون — أي الفـرنجـة — لصـد المهاجمين وردهـم.

وبذل كـلا الطرفان غايـة جهودهما، ومع أن رجـالنا كانوا أدنـى عدداً مـن أعدائهـم، لقـد تمكنوا مـن احـداث فوضـى عظيمـة وسط الأعـداء وأعطوا الانطباع أنهم حشـد عظيم، لكنهم باتـوا في مأزق شديد، وكـانوا غير قادريـن على العودة نحو الـراية العظمى بسهـولة، وبدأوا يتخـاذلون، وشجاعتهـم تتطايـر، وقلة منهـم تجرأت على تجديد الحملـة على الأعداء، وصدقاً أقـول: كان الترك أشداء جداً في حملتهم، وأرعبوا رجـالنا إلى درجة عالية، رجـالنا الذين أخـذت دماؤهم تتدفـق أمامهم وتسيل مثـل جدول صغير، وذلك نتيجة لما تلقوه من ضربات.

وعندما رآهم وليم دي باري— وكـان فارساً واسع الشهرة — ناكصين على أعقـابهم، خـرق صفـوفهـم، ومـن هنـاك حمل على الأتـراك بصحبـة رجاله، وكانـت حملته شديدة إلى حد أن بعضهم سقـط بحد السيف، في حين أنقذ الآخرون أنفسهم بوساطة الفرار السريع.

ثم انعطف الملك باتجاه الجبـال، وكان على ظهر كميت قبرصي لا نظير له، وشتـت الذين واجههم مـن على جميع الجوانب، لأن العدو هـرب من سيفه، وأفسـح أمامـه المجال، وذلـك في وقت تـدحرجـت فيه الخوذ على الأرض أمامه وتصاعـد منها الشررمن الضربات، ولقد كانـت حملته عنيفة جداً، وكانـت ضرباته كثيرة ومميته في ذلـك اليوم أثناء التحامـه مع الترك وصراعه ضـدهم، حتى أن العـدو تشتت في وقت قصير، وذهـب في جميع الاتجاهات، ومن ثم تسنـى لجيشنا متابعة سيره وسمح له بـذلك، وهكذا

بعد ما عانى رجالنا ماعانوه، عادوا أخيراً إلى الراية العظمى، وتابعوا زحفهم حتى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج الأسوار.

وفيها كانوا منشغلين بنصب الخيام، حملت كتلة كبيرة من الأتراك على أقصى صفوف ساقة جيشنا، وما أن سمع الملك رتشارد أصوات المهاجمين حتى تولى تشجيع رجاله وحثهم على القتال، وقام على الفور بالاندفاع بأقصى سرعة نحو الساقة ومعه فقط خمسة عشر واحداً من أتباعه، وانقض على الترك وهو يصرخ بصوت مرتفع وينادي:« أعنا أيها الرب، عونك أيها الضريح المقدس»!، وكرر هذا النداء ثانية، ثم أعاده مرة ثالثة، وعندما سمع رجالنا أصواته، بادروا مسرعين للحاق به، وقاتلوا الترك، وهزموهم، وأجبروهم على الفرار، وطاردوهم حتى أرسوف (التي قدموا بالبداية منها) ومزقوهم وأخضعوهم.

ثم عاد الملك من مطاردة الفارين وقتلهم، إلى معسكره، وفي تلك الليلة نام رجالنا بهدوء بعدما أنهكهم عناء ذلك اليوم.

وعاد كل من كان جشعاً لنيل الربح، ورغب في جمع الأسلاب إلى أرض المعركة، وحمّل نفسه بما أشبع رغبات قلبه، وذكر الذين عادوا من هناك بأنهم أحصوا وجود اثنين وثلاثين مقدماً تركيا قد قتلوا في ذلك اليوم، وقدروا ذلك من خلال سلاحهم الرائع ومظهر ملابسهم الثمينة، وبناء عليه افترضوا أنهم كانوا من ذوي الأهمية الكبيرة والنفوذ العظيم والسلطة، وبحث الترك أيضا عنهم وحملوهم معهم، وكأنهم من أعظم الناس مكانة، وحمل الترك مع هؤلاء جثث سبعة آلاف اختلطوا فيها بينهم، وكان أصحابها من ذوي المراتب التالية، وذلك بالاضافة إلى الجرحى الذين ساروا في مجموعات بطيئة خلف القوات، وعندما فقدوا قواهم سقطوا في أرجاء أرض المعركة وماتوا، وبفضل من الرب لم نفقد العشر من قواتنا، وأقل من واحد على مائة مما فقده الجيش التركي.

ولقد بكينا كثيرا ونـدبنا خسارة جيمس دي أفنس، الـذي قهره الأتراك بفضل تفوقهم العـددي، وقد رمي من على ظهر حصانـه بشكل مأساوي وهو يقـاتل بشجـاعة، وتجمـع الترك من حـوله، وقتلـوه بعد بـذلهم لجهد عظيم، لكنه قتل قبـل موته خمسة عشر رجلاً من الترك، وذلـك تبعاً لرواية الذين أرسلوا لجلب جثته إلى المعسكـر، فقد وجدوا هذا العدد الكبير من الترك وقد ألقوا مـن حوله، ووجدوا هنـاك بين الموتى إلى جانبه ثـلاثة من أقربائه، ممن لم يقدم لهم بعض رجالنا المسـاعدة التي توجبت عليهم، بل (من المعيـب القول): تخلـوا عنهم وهجـروهم أثنـاء صراعهم ضـد حملة الأتراك، ولهذا السبب استحق كونت أوف درو Dreux مع آخرين كانوا حاضرين، العار والازدراء.

وامتلأ السلطان غضباً عندما سمع أن قـواته المنتقاة، التي وثق بها ثقة كبيرة وعليهـا اعتمد، قـد هزمـت على هذه الصـورة من قبـل الصليبيين، وانفعل انفعالاً كبيراً، واستـدعى إليه أمراءه وخـاطبهم بقوله: « هـل هذه هي أفـاعيل عسـاكري الشجعان، الـذين كـانوا يومـا من الأيـام عظيمي الفخار، والـذين أثقلتهم بـالعطايا والهبـات؟ ألا ترون أن الفرنجـة يعيثون فسـاداً بـالديـار حسبما يـرغبـون، لأنـه ليـس هناك مـن يتصـدى لهم»!، وخفض الأمـراء رؤوسهم وطـأطأوهـا نحو الأرض لـدى سماعهم كلماتـه هذه، غير أن واحداً منهـم رد عليه قائلاً:« مولاي السلطـان المبجل، عفواً منك ومعذرة إن هذه التهمة غير عادلة، لأننا قاتلناهم بكل قوانا، وبذلنا غاية جهدنا لتدميرهم، غير أنهم قد ارتـدوا دروعاً وسوابغ لايمكن خرقها بأي سلاح، ولهذا أخفقت جميع ضربـاتنا، لأنها كأنما سقطت على صخرة من صوان، زد على هـذا بين صفوفهم رجل تفوق على كـل رجل رأيناه في حياتنا، وهم يدعـونه الملك رتشارد (رك Ric)، فهذا الملك كما يبدو قد ولد ليتـأمر على جميع الأرض، فما الـذي كان يمكننـا فعله ضد مثـل هذا العدو المرعب»؟

-١١٩١-

واستدعى صلاح الدين وهو في حالة غضب قصوى وانزعاج، إليه أخاه سيف الدين، وخاطبه قائلاً: « إن رغبتي هي أن تحاول معرفة المدى الذي يمكننا الاعتماد به على رجالنا في هذه الضائقة، وكم من الثقة يمكن أن نضعها فيهم: امض بدون تأخير ودمر أسوار عسقلان وغزة، لكن أبق دير البلح في عهدة رجالنا لضمان سلامة الذين يعبرون ذلك الطريق، ودمر أيضاً: النطرون وتل الصافية، ويافا، والجيب الفوقاني، والجيب التحتاني، واللد، والرملة، وكوكب، والشوبك، وقاقون، وقلنوسة، والقيمون، وجميع الحصون الجبلية، ولاتبق مدينة ولا قلعة ولاحصنا، باستثناء القدس، والكرك» .

وأطاع سيف الدين هذه الأوامر، وخرب جميع هذه القلاع والحصون بدون تأخير.

-٩١٢-

كيف كاد الملك رتشارد أن يقع أسيراً بيد الترك

وفي يوم الاثنين، وهـو اليوم التـالي لعيد ميلاد العـذراء المباركـة، واليوم الثـالث الـذي جـاء بعد المعـركـة، زحف الملـك رتشـارد مع جيشـه إلى أرسوف، ووصـل إلى النهر دونها معارضة، وعنـدما وصل الصليبيـون، كان الترك واقفين في كمين قـريـب، لـذلـك رمـوا معظهـم بـالحراب والجروخ والنشـاب، غير أنهم أخفقوا في تحقيـق النجـاح، ولهذا تـراجعوا، وعسكـر رجالنا تلك الليلة عند أرسوف.

وفي الصباح، لم يكن من السهل على قواتنا المحافظة على تعبئتها، ومع ذلك زحفت مع ضبـاط رسميين إلى يافا، التي وجدوها بحـالة دمار، لهذا تعذر على الجيش أن يجد مكـان إقامة فيها، ولهذا عسكـر رجال الجيش في بستان للـزيتون على الجانـب اليساري من البلـدة، وكان ذلـك بعد مضي ثلاثة أسابيع على مغادرة عكا.

ومكث الجيـش خارج أسوار يـافا، وجدد نشـاطه وتمتـع بوفرة الفـواكه هناك مـن تين، وعنب، ورمان، وحمضيـات، وهو مـا كانت المنطقـة هناك تنتجه، وسافرت سفن الاسطول العائد للملـك رتشارد مع مراكب أخرى كانت قد رافقت الجيش، فيما بين يافا وعكـا. وجلبت لنا ما كنا نحتاجه، مما أغضب الترك كثيراً، ذلك أنهم لم يتمكنوا من منعها.

وكان صلاح الدين قد دمر بالـوقت نفسه أسوار عسقلان، وجلب هذه المعلومات واحد من الجنود العاديين، الـذي نجا أثناء تنفيذ العمل، لكن صعب على شعبنا أن يصدق أن هذا كله قـد صنعه صلاح الدين وهو في حالة يأس، وبغيـة التأكد من حقيقة الأمر، بعـث الملك رتشارد، بناء على نصيحة نبـلائه، غيوفري دي لـوزغنان، ووليم دي ستـاغنو مع آخـرين في سفينة حربيـة قوية، للإبحـار إلى عسقلان، ومن ثم العـودة جالبين معهم

بيانا عـن الأوضاع وعن مجريات الأمـور، ونفذوا المهمة بإخـلاص، وذكروا أن ما سمعوه كان صحيحاً.

وبنـاء عليه تنـاقش الملـك رتشارد مـع نبـلائه وتباحـث حول الـذي عليهم القيـام به: هـل يزحفون الى عسقـلان لإنقاذهـا، أم يزحفـون نحو القـدس، وعرضـت آراء كثيرة ومـواقـف عديـدة، وعـرض الملـك موقفـه بحضور دوق بيرغنـدي وآخرين بهذه الكلمات حيـث قال:« يبدو بـالنسبة لي أن خـلافاتنـا بالـرأي، لايمكن أن تكـون بلا فـائدة فقط، بـل خطيرة بالنسبـة للجيش، فالترك الذيـن يتولون تخريب عسقـلان، لايتجرأون على مقابلتنا على ساحة المعركة، وأعتقـد أن علينا بذل الجهد لانقاذ عسقلان، في سبيل حماية الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق».

وعارض الفرنسيـون بعنف هذا الموقف، وأوصوا بوجـوب استرداد يافا، لأنها تؤمـن طريقاً أقصر بالنسبـة للحجاج وأسهل للذهـاب إلى القدس، وهللت الحشود وأيـدت الموقف الفرنسي، وهو رأي أحمق، صـدر عن عناد قاتل لهؤلاء الناس الكسالى، الذين آثـروا الراحة المباشرة والعمل الأسهل، وتجنبوا الجهـد والانفاق، وهـذا ما سـوف يندمـون عليه، لأنهم لـو أنقذوا عسقلان آنـذاك من الترك، لكـان من الممكـن سريعا تنقيـة الأرض كلها منهم، لكـن صراخ الناس هـو الذي سيطر، وجـرى حشد بعـض الناس، حيث شرعوا على الفور في إعادة بناء أبراج يافا، وتعزيل الخندق.

وبقي الجيش هناك مدة طويلة يتمتع بالراحة والرفاه، وازدادات ذنوب رجاله وتراكمت عليهم يومياً، فقـد جاءت النساء من عكا إليهم، لإثارة غزائزهم، ولمضاعفة آثامهم، وفسـد الناس جميعاً، وانطفأت حرارة الحماسة نحو الحج، وأهملت جميع أعمال العبادة والتقوى.

ومع نهاية ايلول، عنـدما اكتمل جزء من إعادة بنـاء يافا، تحرك الجيش من ضواحيهـا وعسكر أمام حصن حبقوق، وكـان جيشاً صغيراً جداً، لأن

من المؤسف أن عـدداً كبيراً منه قد غادروا وعادوا إلى عكـا، حيث أمضوا أوقاتهم في الحانات، وعندما شاهد الملك رتشارد تقاعسهم وانغماسهم في الآثام، أرسل الملـك غي لإعادتهم إلى الجيش في يافـا، غير أن عدداً قليلاً جداً منهم عاد، مما أرغم الملـك رتشارد نفسه على الإبحار إلى عكا، حيث حثهم على تذكر واجباتهم كحجاج، وأقنـع بهذه الوسيلة عدداً كبيراً منهم على العودة إلى يافا، كما أنه اصطحب معه الملكتين، ونسائهما.

ومكثـوا الآن مدة سبعـة أسـابيع في يـافا لـلاحتشـاد، ولتجهيز جيـش وإعداده، وهكذا عندمـا التأم جمعهم شكلوا كتلة أكبر عدداً وأكثـر كفاية من ذي قبل.

وخرج الملك رتشارد في هذه الآونة للصيد، ومعه مرافقة صغيرة، وكان عازمـاً أنه إذا ما رأى مجموعـة صغيرة من الترك أن ينقض عليهـا، ولدى شعوره بـالتعب الشـديد مـن الركـوب ترجـل ونام، وهنـا انقضت عليـه مجموعـة من الترك بشكل مفـاجىء بغيـة أسره، وأفاق الملك لـدى سماعه الأصوات، وما كـاد يمتطي صهوة مهره الكميت القبرصي، ويركـب رفاقه مطـايـاهـم، حتـى وصل الترك، غير أن الملـك امتشـق سيفـه، وانـدفـع نحوهـم، فتظاهروا بـالفرار، وجعلوه يسعـى خلفهم إلى مكان كمنـت فيه مجمـوعـة أخرى مـن الترك، وخـرج هـؤلاء مسرعين من الكمين وطـوقـوا الملك لأخذه أسيراً.

ودافع الملـك عن نفسه بشجـاعة، وتراجـع الأعداء، علما أنه كـان من الممكن وقـوعه بـالأسر لو أن الترك عرفـوا من كان هـو، ففي أثنـاء العراك صرخ واحـد من رفـاق الملك واسمـه وليـم دي بريتـلPratelles بلغة المسلمين، يعرفهـم أنه هو «الملك»، وصـدق الترك ما قاله، فسـاقوه أسيراً إلى جيشهم.

وقتل في هـذه المناوشة رنيير دي مـاروم، وكان فـارساً شجاعـاً، غير أنه

كان تقريباً أعزل من السلاح، وكذلك ابن أخيه وولتر مع ألان، ولوقا دي ستيبل، ولدى وصول أخبار هذه الواقعة إلى جيشنا استنفر، وحمل السلاح، وجاء مسرعاً جداً ليجد الملك، وعندما رأته عناصر الجيش عائداً، والتقى بهم، قاموا معاً بمطاردة الترك، غير أنهم لم يستطيعوا اللحاق بالفارين، وتم حفظ الملك رتشارد بيد الرب لأشياء أعظم، وقد عاد إلى المعسكر وسط بهجة عامة من قبل عساكره، الذين حمدوا الرب وشكروه على حفظه له، لكنهم حزنوا من أجل وليم دي بريتل، الذي أنقذ باخلاص الملك مقابل حريته الشخصية.

ووجه بعض رفاق الملك النقد الآن إليه، وحذروه من التجول خارج المعسكر لوحده، ومن تعريض نفسه للأسر بوساطة كمائن الترك، الذين كانوا متشوقين لأسره، وأن عليه أن يصطحب معه في جميع المناسبات بعض الجنود الشجعان، وألا يعتمد فقط على قوته للتصدي لمثل هذه الأعداد، لكن الملك لم يأخذ بنصائح أحسن رفاقه ولم يتمسك بها، فقد كانت طبيعة تدفعه للتحرر، وعدم التقيد، فهو قد كان في جميع الحملات الأول حملة والأخير تراجعاً،ولم يخذل قط سواء من قبل شجاعته، أو من العون الرباني، في العودة ومعه عدد من الأسرى، أو إذا قاوموا، جعلهم طعماً لسيفه.

ووضح أن العساكر قد ارتاحت الآن، واستردت شجاعتها، فصدرت الأوامر الملكية إليها لإعادة بناء قلعة الجيب الفوقاني، التي كانت ضرورية لسلامة الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق، وبناء عليه ترك الملك حامية في يافا، مع أوامر في أن لايغادر أحد منهم المدينة وذلك باستثناء التجار الذين يتولون جلب الميرة، وعهد بأمر المدينة إلى أسقف افرو Evreux، مع كونت أوف شالون Chalons ، وهيوج ريبول Ri-boleوآخرين .

وكان اليوم التالي هو ليلة عيد جميع القديسين، وبعد ما زحف الملك

لمسافة قصيرة عسكر فيها بين الجيب الفوقاني والجيب التحتاني، وكان الجيش التركي آنذاك في الرملة التي اعتاد أن يقلع منها بحملات ضدنا.

وفي يوم الأربعاء، وهو يوم عيد جميع القديسين، كان الملك رتشارد راكباً في سهول الرملة، ورأى صدفة بعض الكشافة الترك، فهاجمهم بشجاعة، وألحق بهم الهزيمة، وذلك بعد ما قتل بعضهم، وقطع رأس واحداً من أعيان أمراء الترك، وانهزم الباقون.

ومكث الجيش خمسة عشر يوماً حيث كان، وأعاد الداوية بناء حصن الجيب الفوقاني، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه حملات الأتراك، الذين حملوا عليهم في أحد الأيام بحشد كبير من الرجالة وألف من الخيالة، لكن الملك امتطى حصانه بسرعة، ونهض الجيش كله، وهرب الترك بعدما فقدوا عشرين رجلاً قتلوا، وستة عشر أسروا، وباءت بالاخفاق إثر هذا جميع محاولات الملك لأسر البقية وقتلهم، وتابع مطاردته حتى بات على مرأى من الرملة، ثم قاد قواته عائداً إلى المعسكر.

وفي اليوم السادس بعد عيد جميع القديسين خرج جميع السادة ورجال السلاح للبحث عن الطعام والأعلاف لخيولهم ولحيوانات التحميل، وتولى الداوية حراسة السادة حينما تفرقوا بحثا عن أعشاب غضة، وهو واجب كلفهم أحياناً غالياً إذا ما تصرفوا بدون حذر شديد، وفيما الداوية منشغلون بهذا الواجب، اندفع نحوهم حوالي الأربعة آلاف من الترك في أربع مجموعات، وبدون تأخير كان الداوية مطوقين من قبل حشود متزايدة من الترك.

وترجل الداوية وسند أحدهم ظهره إلى الآخر، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وفي لحظة واحدة قتل ثلاثة منهم، وأعقب ذلك صراع حاد، لأن الترك حملوا عليهم بشدة متناهية وبحدة وحاولوا أخذهم أسرى، وعندما حملت أخبار ما يحدث إلى المعسكر، بادر أندرو دي شافني -Cha

vigny مسرعاً نحوهم لانقاذهم ومعه خمسة عشر فارساً، وتمكن من انقاذ الداوية من وضعهم الخطر، غير أن الترك كانوا يتسلمون النجدات باستمرار، وقاموا أحياناً بالهجوم وأحياناً بالتراجع، واستمرت المعركة مستعرة حتى سمع الملك رتشارد— الذي كان مشغولاً في اعادة بناء الجيب التحتاني — بالصخب، فبعث بكونت دي سينت بول وبإيرل ليستر لمساعدة الداوية، وذهب معهم وليم دي كين Cagen، وأوثو دي برانسنغ Pransinges ،وسمعت الجماعة بالحال صرخات الرجال المسلحين للنجدة، ثم حث الملك الكونتين ليتجهزا، وليحملا أسلحتهما وليلحقا بهم بأقصى سرعة ممكنة.

وبينما كان الكونتان مسرعان نحو الأمام ظهر أمامهما أربعة آلاف من الترك بشكل مفاجيء، وكانوا في أربع مجموعات، وجاء ظهورهم من واحد من الأنهار المجاورة، وهاجم نصفهم الداوية في حين حمل البقية على الكونتين، وهنا قدم كونت سينت بول اقتراحاً لم يكن مجدياً، إلى ايرل ليستر، وكان اقتراحه أن يتولى واحد منهم الاشتباك مع العدو، في حين يقف الآخر ليقدم العون عندما يتضح أن ذلك بات ضرورياً، واختار ايرل ليستر أن يتولى قتال العدو، ولم يرغب بالوقوف دون أن يعمل شيئاً، وهجم على الفور على الأعداء واستنقذ من أيديهم اثنين من رجالنا كانوا قد أسروهم، وأضاف بهذا الانجاز الذي حققه في ذلك اليوم كثيراً إلى سمعته العالية من قبل.

وكان الاشتباك يدور بشكل عنيف جداً، وذلك عندما وصل الملك، وكانت حاشيته صغيرة جداً، فقال له بعض رجاله:« لانرى يامولانا من الحكمة أو من الممكن، بعددنا الصغير، أن نقاوم هذا الحشد الهائل، كـ أننا لن نستطيع انقاذ رجالنا الذين يقاتلون الأتراك، ومن الأفضل أن ندعهم يموتون على أن نعرض شخصك وجميع المسيحيين لخطر مؤكد وذلك في الوقت الذي نمتلك فيه القدرة على النجاة».

وتغير لون الملك لسخطه تجاه سماع هـذه الكلمات وقال:« ماذا، إذا ما أهملت أنـا تقديم العـون للرجال الـذين أنا بعثـت بهم أمامي، مـع وعد باللحاق بهم، إنني لن أستحق ثانيـة أن أدعى ملكاً، ولم يزد على هذا بل غمز حصانه، وانـدفع نحو وسط الأتراك، فقهرهـم مـن على جانبيه، وكان شاهراً سيفه يضرب بـه حيث شق طريقه نحو الأمـام ونحو الخلف وسط الصفـوف الكثيفة، فقتـل وأصاب بشكـل قـاتل كـل واحد اقترب منـه، وكـان فيمن قتلهـم، واحداً مـن الأمـراء الأتراك، رمـاه حظه وقـدره على طريقه.

وصار العـدو إما طعمة للسيـف، أو منشغلاً بالفـرار، وعاد رجالنـا مع عدد من الأسرى إلى المعسكـر، وتم الحصول على هذا النصر دون نيـل أية مساعـدة من الفرنسيين، وتخلى في ذلك اليـوم نفسه ثلاثة مـن الأتراك— ربما لخوفهم مـن الموت — عن أوهـامهم، واعتنقـوا المسيحية، وخضعـوا للملك رتشارد.

وكان الآن قـد تمت اعادة بنـاء جزء مـن القلعتين، وإدراكاً مـن الملك رتشارد أن قواتـه لاتكره الأتراك فقط، بـل إنها لم تعد تخشاهم كما كـانت مـن قبـل، ذلك أن هـذه القـوات تمكنـت دومـاً — بعون الـرب— مـن هزيمتهـم، ولهذا قام الآن بـارسال سفارة متميـزة إلى صلاح الـدين وإلى أخيه سيـف الدين، يطلب استسـلام مملكة سوريـة، مع كل ما هـو عائد إليها، حسبما كانت أيـام الملك المجذوم، وطالب أيضاً بتسلـم الجزية من مصر، مثلما كان الملـوك — من أسـلافه — يفعلـون مع جميـع الامتيازات والحقوق التي توفرت في يوم من الأيام وعادت إلى مملكة القدس.

وكشـف السفراء عـن محتوى رسـالتهم أمـام صلاح الـدين، الـذي لم يستجب أبـداً للمطالب، ورد عليهم قـائلاً:« ادعى ملككم مطـالب غير معقـولة، ونحـن لانستطيع، رعـاية لايماننـا واسـلامنا أن نـوافق عليهـا، لكنني سـوف أمنح ملككـم من خـلال أخي سيـف الديـن جميع أراضي

القدس من الأردن إلى البحر، بدون جزية أو معيق، على شرط أن لا يعاد بناء مدينة عسقلان لا من قبل المسيحيين ولا المسلمين».

وعندما جاء سيف الدين حاملاً هذه الرسالة إلى الملك، كان الملك رتشارد قد فرغ لتوه من الفصد، لذلك لم يكن قادراً على التباحث معه في ذلك اليوم، لكن ستيفن دي تورنهام، أكرمه — بناء على أمر الملك — بكل أنواع الطيبات حيث وضعها أمامه على المائدة، واستضافه ولاطفه في الوادي فيما بين قلعتي الداوية ويهوشفاط، وبعث سيف الدين في اليوم التالي بهدية مكونة من سبعة جمال، وخيمة ثمينة، وجاء للمثول بحضرة الملك، حيث قدم رسالة صلاح الدين، ورأى رتشارد أن الفوضى وعدم معرفة نتائج الحرب والتأكد منها، تحتاج إلى الصبر والانتظار الطويل، ولذلك الأفضل الاتفاق حول المستقبل، لكن، من المؤسف أظهر قليلاً جداً من الحكمة والإدراك، ولم يكتشف الخداع الذي تعرض له حتى يمر الوقت فتكون المدن والقلاع والحصون في تلك المنطقة قد دمرت كلها.

وكان سيف الدين قد خدع ببراعة الملك الساذج جداً، إلى حد تكوين انطباع أن اتفاقاً قد عقد بتبادل المصالح الأسرية والتفاهم المشترك، ذلك أن الملك تسلم يومياً هدايا سيف الدين، وكانت الرسائل تمر يومياً مع الهدايا للملك، الأمر الذي أزعج أصدقاءه وأغضبهم لإقامته عقداً للصداقة مع المسلمين، لكن سيف الدين أصر أن ما يريده هو إقامة سلام بين الملك وبين صلاح الدين، واعتقد الملك أنه كان متبنياً سياسة حكيمة، يمكن بوساطتها توسيع حدود الصليبيين، ومن ثم ابرام سلام معتمد وموثق، وخاصة أنه منذ أن غادر الملك الفرنسي، بات يخشى من عمل خياني من قبله لأنه وجد أن صداقته دائماً جوفاء ومخادعة، وعلى كل حال عندما اكتشف الملك أن وعود سيف الدين كانت مجرد كلمات، ولايمكن منها الوصول إلى أية محصلة، لاسيما فيما

يتعلق بحصن الشوبك ، أوقف على الفور المناقشات، والذي فهم من الشروط أن الملك طالب بهدم هذا الحصن، لكن الترك رفضوا الاستجابة لهذا المطلب.

وعندما بات خبر اخفاق المعاهدة معروفاً، ظهر العدو من جديد، وبات يرى على أجنحة قواتنا، ونزل الملك رتشارد من جديد إلى ساحة المعترك للتصدي له، وأزاح بهذه الوسيلة التهم المتقدمة التي وجهت إليه وأثيرت ضده، وجلب معه في كل يوم عدداً من رؤوس الأتراك، ليبرهن أن غيرته لم تخف ولم تضعف تجاه القضية الصليبية.

- ٩٢١ -

حول المعاناة المزعجة من الأمطار ومن الأعداء

عندما اكتمل ترميم الحصنين وشحنا بـالجند، حرك رتشارد جيشه نحو الرملة، الأمر الذي جعـل صلاح الدين يأمر بإزالة أسـوارها، لأنه لم يتجرأ على اللقاء مـع الملك في ساحـة القتال، ثم انسحب مـع قواته نحـو دير البلح، لأنه وثق وثوقاً عظيماً بالمناطق الجبلية.

وعندها عسكـرت قواتنا فيما بين اللد والرملـة، وهناك مكثنا لمدة اثنين وعشريـن يـوما ننتظـر النجـدات والمؤن، ومـالبثت الهجمات العنيفـة مـن العدو، والأمطـار الغزيـرة أن أرغمت ملـك القدس وشعبنـا على الانتقال إلى هـذه الأمـاكن، بينما ذهـب كـونـت أوف سينـت بول إلى قلعـة بيـت (نوبة)، وتوقفنا بالرملـة لمدة سبعة أسابيع، لكن في وضع صعب، ،غير أن البدايـة الصعبة تحسنت فيما بعـد وتغيرت الأوضاع نحو الأفضـل لبعض الوقت فقـط، لأن الترك ماكانوا ليسمحـوا لنا ولابقليل من الاستقـرار، بل هاجمونا باستمرار بجروخهـم ونشابهم.

وفي أمسية عيد القديس توما، زحـف الملك رتشارد مع حاشية صغيرة نحو قلعة تدعى تل الصافية، للقيـام بمغامرة ما ضد الترك، غير أنه شعر بوجـود غلط ما (بإلهام كما يعتقـد من السماء) فعاد إلى المعسكر، وتنـامى إليه في السـاعة نفسها أن صلاح الـدين بعث قبـل قليل قوة مكونـة من ثـلاثمائة من نخبـة قـواتـه إلى تل الصـافيـة، أي إلى حيـث كان رتشـارد متوجهـاً، وفي اليوم نفسـه ذهب الملـك غي إلى عكـا، إلى حيث تبعـه في اليوم التالي ستيفن دي تورنهام.

وفي منتصف ليلة عيد الأبريـاء المقدسين (٢٨ — كانون الأول) غادر الداوية والاسبتـارية المعسكر، وعادوا في الصباح مـع مائتي ثور، سـاقوها من المنطقة الجبلية قرب القدس.

وفي الـوقت نفسـه بات معـروفـاً إلى صلاح الـديـن أن رجالنـا كانـوا يستعدون لمهاجمة القدس، وأنهم باتوا على مسـافة ميلين منه، ولم ير صلاح الدين مأمونا أن يتحارب مع الصليبين، لـذلك أصدر أوامره بتخريب دير البلح، خـاصة أسوارهـا وأبراجها، وتراجـع هو نفسه إلى القـدس، وغادر الترك السهول وانسحبوا نحو الجبال.

ونتيجة لهذا صدر الأمر إلى رجالنا بصـوت المنادي بالتحرك نحو سفوح الجبال، وعنـدما اكتملـت جميع الاستعـدادات، زحفوا نحـو قلعة اسمهـا بيت نـوبة، ثـم بدأت الأمطـار وكذلـك البَرَد يتساقطـون عليهـم، فقتلـت كثيراً من حيـوانات التحميـل، وكانت العـاصفة شـديدة وعنيفـة إلى حد أنها دمرت أوتاد الخيم، وأغرقـت الخيول، وأتلفت البقسماط ولحم الخنزير، وصـدأت الدروع والسـوابـغ إلى حد كبير حتـى أنها احتـاجت إلى عمـل عظيم لإعادتها إلى لمعـانها السالف، وتلفت مـلابسهم من البلل، وعـانى الرجال أنفسهم من شدة البرد والمناخ القاسي الذي لم يعتادوا عليه.

وفي ظـل هذه المعـاناة، وجـدوا أن مخرجهـم الوحيـد كامـن في غيرتهم وحماسهم لخدمة الـرب، ولهذا رغبوا في انهاء حجهم، ففي ذلـك راحتهم، ولتحقيق هذا الهدف والوصول إلى هذه الغايـة، قدم كل واحد حصته من المؤن من أجل الحصـار، واجتمعوا جميعاً مسرورين واستعـدوا لكل شيء، حتى الذين كانوا مرضى في الفراش في يافا تم حملهم على المحفات، فقد كانـت رغبتهم عـارمة جـداً لرؤيـة القدس، وتـأثر عـدد كبير جداً منهـم بـالرغبـة لرؤيـة ضريح ربنـا، وكان هـذا أملهم الـوحيد في ظـل المعانـاة الهائلة،لكن الترك لم يقيمـوا وزناً أو تقديراً للـذين كانوا يـرافقون المرضى، ووقفـوا في مكامنهـم ينتظـرونهم وقتلوهـم معـا: الحامـل والمحمول، فقـد عدّوهم كلهم ونظروا إليهم على أنهم أعـداء، ومن المؤكد أن هؤلاء سوف يعـدّون شهداء، وهنـا تتوفـر الراحـة والمواساة بـالنسبة لهم، وصحيـح أن الترك قتلوهـم بنوايـا شريرة، ومع ذلـك لقد عانـوا فقط للحظـة واحدة،

ونالوا جزاء عبادة مديدة وخدمة طويلة.

وسر الجيش الآن سروراً عظيماً، اعتقاداً منه أنه سوف يلقي بالحال نظرة على ضريح مولانا، وبدأ الجميع يعملون على تلميع دروعهم وخوذهم وسيوفهم، حتى لاتبقى ولانقطة تفسد لمعانها، وباختصار كان الجميع متشوقاً لخوض غمار هذه المغامرة، وتبجحوا أن جميع قوى الاسلام أو الحملات المعادية للمسلمين لن تمنعهم من تنفيذ تعهدهم الصعب.

غير أن العقلاء بينهم لم يوافقوا على هذه الآراء ولم يرتضوها، وأقنع الداوية والاسبتارية والبلديون (البوليانز) الملك رتشارد بالاقلاع عن الزحف حاليا نحو القدس، ذلك أنهم امتلكوا بصيرة أمضى حول أوضاع البلاد ومستقبلها، وكانوا يخشون أن يتعرضوا وهم يحاصرون صلاح الدين لهجوم الجيش التركي الذي كان بين الجبال، فهذا الجيش قد يفاجىء رجالنا، وبذلك يصبحون بين قوتين: تقاتلهم شحنة القدس من الداخل والجيش التركي من الخارج، لابل أكثر من هذا حتى وإن استولوا على القدس، سيكون من الضروري شحنها بقوة من أشجع العساكر، وهذا سيكون من الصعب جداً تحقيقه، لأن الناس أصابهم الانهاك، وكانوا يعانون من قلة الميرة والعتاد، وكلهم متشوق لاكمال حجه والعودة إلى وطنه،ولهذه الاسباب نصحوا بتأجيل الحصار إلى وقت آخر، وإبقاء الجيش مجتمعاً، فهذا يتحقق طالما أن نذر عناصره لم يتم الوفاء بها، لأنه ما أن يقوموا بالوفاء بتعهداتهم حتى ينفرط عقد الجيش، لكن نصيحة الداوية لم يصغ إليها أيضاً.

وكانت الآن بداية السنة (سنة ١١٩٢) وكانت سنة كبيسة، وفي اليوم الثالث التي جاء بعد ختان ربنا، كان الجيش على نية التحرك، فهاجمه حشد من الترك كانوا قد أقاموا كمائن في الليلة السالفة قرب قلعة الجيب التحتاني، أقاموها بين الأحراش التي حاذت ذلك الطريق، وعلى الفور تمت إبادة مجموعتين من رجالنا كانتا في الطليعة، واطلع

الملك رتشارد على خبر الكمين، فزحف بكل سرعة في الصباح، آملاً أنه سيتمكن من انقاذ قوات المقدمة، لكن الترك، وكان عددهم حوالي المائة، وهم الذين شكلوا الطليعة (اليزك) لاحظوا راية الملك، فهربوا، وأصيب سبعة منهم: بعضهم قتل، وبعضهم الآخر وقع بأسر الملك وهو يقوم بالمطاردة.

وبعد عدة أيام من عيد الغطاس، اجتمع رجال المجلس الاستشاري للجيش ثانية، ومعهم بعضاً من أكثر البلديين حكمة، للبحث في مسألة الزحف إلى القدس، ومن جديد ألح الاسبتارية والداوية مع البلديين (البوليانز) كما فعلوا من قبل على وجوب إعادة بناء مدينة عسقلان، لقطع المواصلات والمراسلات بين القاهرة والقدس.

وعلى هذا وافقت أكثرية المجلس، وعندما غدا هذا معروفاً، كان الجيش منزعجاً جداً، حيث تصور أن آماله في رؤية ضريح الرب ستعاق كلية، واختفت الحماسة السالفة لعناصره، وخلفها اليأس وحل محلها، في حين صبوا لعناتهم على أصحاب هذا القرار على أساس أنهم دمروا أثمن أمانيهم وأغلاها.

ولو أنهم عرفوا ما كان يعاني منه الذين سكنوا القدس من مصاعب ومشاق لحصلوا على بعض السلوان والمواساة من اضطرابات العدو وآلامه، ذلك أن الترك في القدس كانوا يعانون كثيراً، ويواجهون أثقل المشاق من البَرَد والثلج، الذي كان يذوب في الجبال، مسبباً فيضانات من المياه كانت تنحدر نحو المدينة وتتدفق عليها، مسببة إما اغراق مواشيهم، أو قاتلة إياهم أنفسهم فيما بعد نتيجة للبرد، فلقد كان عناءهم من حالة المناخ قد بلغ حداً عظيماً، إلى حد لو أن الصليبيين عرفوا بذلك لكان من المؤكد تمكنهم من الاستيلاء على المدينة، مع انه كان مقدراً عدم استطاعتهم الاحتفاظ بها لوقت طويل، لأن الناس كانوا بعد وفائهم بنذرهم المتعلقة بالحج سيعودون إلى أوطانهم، وكانوا

لن يجدوا ما يكفي من القوات لشحنها بها والدفاع عنها.

واقترب موعد حلول عيد القديس هيلاري، وكان الأسف والانزعاج في الجيش كبيراً، دفع الكثيرين إلى التخلي عن حجهم، ولعنهم اليوم الذي ولدوا فيه حتى يعانوا من مثل هذا الاحباط، وكان بعضهم قد وصل حالة حد الإعياء بسبب الارهاق والانهاك والفقر، حتى أنهم كانوا بصعوبة بالغة يمكنهم التحمل والمقاومة، وتأثرت خيولهم وحيوانات الحمولة لديهم بالبرد والمطر،وباتت لاتستطيع المتابعة خلال الطين والأوحال، بل سقطت ونفقت جوعاً، ووقعت تحت أثقال حمولتها، وفي حرقة وآلام في النفس رفع سواقها أيديهم نحو السماء وتفوهوا بكلمات مقذعة وصلت حتى حد الكفر.

ومن غير الممكن تصور حالة العذاب والشقاء، حتى أسوأ الجرائم وأقساها، كانت أدنى مما عاناه رجالنا الآن، فلقد اختفت الآن شجاعتهم وأفاعيلهم الجريئة وبسالتهم في الحرب، وحل محلها الحزن واليأس والقنوط في الروح، وذلك بالإضافة إلى المعاناة الجسدية، وبينما كان الجميع في هذه الحالة، كان من الممكن أن يتعرض المرضى والضعفاء لخطر الهلاك لولا عناية الملك رتشارد بهم ورعايته لهم، فقد بعث بالرسل إلى جميع الجهات ليجمعهم مع بعضهم ولجلبهم إلى الرملة، حيث عاود الجيش اجتماعه هناك بكل سرعة، وحصل هذا بعد وقت قصير من مغادرتهم لها.

وحينما كان جيشنا باقيا في الرملة تخلى عدد كبير من أفراده عنه وهجروه، إما حتى يتجنبوا آلام الزحف، أو سخطاً منهم وعناداً، وهكذا نقص تعداده نقصاً هائلاً، وغادر جلّ الفرنسيون لشعورهم بالسخط، وذهب بعضهم للتمتع بالراحة في يافا، وتراجع بعضهم الآخر إلى عكا، حيث توفرت كميات كبيرة من المؤن، والتحق بعضهم بالمركيز في صور، حيث غالباً ما حثهم على فعل ذلك، وتحول آخرون مع دوق بيرغندي إلى

حصـن الجيب التحتـاني واعتزلـوا هنـاك، ومكثوا لمدة ثمانيـة أيام، وكـان الملك رتشارد غاضبـاً من هذه الحالة التي تجددت، فذهـب مع ابن أخته هنري كونـت أوف شامبين، والجيش الذي نقـص تعداده كثيراً، إلى يبنى، ووجـدوا هنـاك من الضروري التـوقـف، حتـى ينـال الجيش قسطـاً مـن الـراحـة، لأن الطـريق كـان مـوحـلاً، وكـانـت تعاسـة عنـاصره العقليـة والجسمية هائلة إلى حـد أن ما من قلم يستطيع أن يكتب عنهـا ،وما من لسان يمكنه أن يعبر عنها.

وجـرى في فجـر النهار إرسـال رجـال مـع خيـم للتقدم نحـو الأمـام، وتبعتهـم بقية الجيش، وكـان عذاب اليوم السالف وآلامه لاشيء بـالمقارنة مـع العــذاب والألم الـذي تحملــوه الآن مـن الانهاك، والبَرَد والأمطــار والفيضان، وبـدا وكأن السموات كلهـا قد تـآمرت على تدميرنـا، وغدت الأرض موحلـة جداً، ونـاعمة تحت أقـدام العساكـر، إلى حد أن كـل من الرجـال والخيول وجـدوا صعوبة عظيمـة في تثبيت أقـدامهم ومنعهـا من الانزلاق، وغرق بعضهم في الأوحال ولم يقم مرة ثانية.

من الـذي يمكنه الحديث عـن مصائب ذلـك اليوم؟ وكانـت آلامهم عظيمة إلى حـد، وقاسية إلى درجة أن أشجـع الجند سكبوا دموعهـم مثل المطـر وكـانــوا قلقين على وجـودهـم الـذاتي، وعنــدمـا سقطـت دواب التحميل، تلفـت المؤن التي كانت تحملهـا بالأوحال، أو ذابـت وتبعثرت في المياه، إنـه في ظل هذه الأحـوال من التعاسـة، لعنوا اليوم الـذي ولدوا فيـه، وتـابعـوا ضرب صـدورهـم بـأيـديهم حتـى وصلـوا إلى عسقـلان، فوجـدوها مـدمرة من قبـل المسلمين إلى درجة وجـدوا فيها مـن الصعب جداً المرور من خلال الأبواب بسبب أكوام الحجارة.

وكان ذلـك اليوم هـو العشرين من كـانون الثـاني، وعسكر كـل انسان تلك الليلة وأمضاها حسبما استطاع وتدبر الأمر.

كيف أعادوا بناء عسقلان

عسقلان قائمة على الساحل ، ولو أنها امتلكت مرسى جيداً ،لكان من الصعب أن يكون لها نظير،لموقعهاولخصب المناطق المجاورة لها،وفي الحقيقة امتلكت ميناء، لكنه من الصعب الوصول إليه كثيراً ،حتى أنه بسبب الطقس العاصف الذي استمر لمدة ثمانية أيام،بعد وصول الجيش،لم تستطع سفينة الدخول إليه،ونتيجة لهذا ،كانت عساكرنا مع خيولها بحاجة ماسة للمؤن،لكنها لم تستطع الحصول على شيء لمدة ثمانية أيام،وذلك باستثناء ما جلبوه معهم، ولم يكن من الممكن البحث عن الأعلاف في المناطق المجاورة،بسبب وجود الأتراك.

وعندما تحسن الطقس أخيراً ،دخلت بعض السفن الى الميناء ،لكن العواصف جاءت ثانية، ومن جديد بدأ الجيش يعاني من الحاجة، وتم فقدان بعض البوارج والشواني المحملة بالميرة، وكان بعضها قد فقد مع ملاحيه كلهم أثناء الرحلة،وتعرضت عدة سفن للغرق،وكان بعضها من سفن الملك،ذلك أنها تحطمت بالعاصفة .

وعندما سمع صلاح الدين أن عساكرنا قد توزعت على الساحل، وبعضها قد تمزق وتعطل، أعطى دستوراً لعساكره بالعودة إلى مواطنها، وبذلك كان من الممكن لها الاشراف على أمورها الداخلية ومعالجتها، وأصدر أوامر لجنده بالتجمع ثانية في شهر أيار، وعاد الترك، الذين مضى على وجودهم يعملون بمشقة داخل جيش السلطان منذ أربع سنوات، مسرورين إلى زوجاتهم وأسرهم، وحكى مقدموهم وأمراؤهم من ذوي الشهرة باختصار أخبار مغامراتهم والحملات المأساوية التي رأوها، فلقد كانوا في الحروب المتقدمة هم المنتصرين، وحصلوا على وفرة من الأسلاب، لكنهم عانوا الآن من فقدان الممتلكات والمقتنيات، ومن

موت أقربـائهم ومقتلهم في المعارك، وتـأسوا بشكل خاص وحـزنوا لموت الأمراء والمقدمين والآخرين الذين قتلهـم الملك رتشارد قرب عكا، عندما أخفـق صلاح الـديـن في تحقيق وعـوده بانقـاذهـم، ولهذا السبب تملكـوا مشاعر غضب عارمة ضد صلاح الدين.

وانتهـى الآن شهر كـانون الثـاني، وبـاتت السماء مشرقـة أكثر مـن ذي قبـل، وغضب الملـك لانتشـار الجيـش وتوزعـه، فبعـث بـرسائل لإقنـاع الفرنسيين بالعودة ومن ثم تقوية الجيـش، وبذلك يكونوا في وضع أفضل للقيـام بالمزيـد مـن الأعمال المقررة، وقـال:«مـن المرغـوب فيه أن يكـون الجيـش مـع بعضـه مجتمعـاً أثنـاء العمـل، لأن التمـزق سـوف يضعفنـا ويعرضنـا لحملات أعـدائنا» وبناء على هـذه الحجج استـدرج الفرنسيين للـوعـد أنهم سيلتحقـون بـالجيـش حتـى الفصـح، على شرط، أنهم إذا مـارغبوا وقتهـا بالمغـادرة يمكنهم ذلـك بكـل أمان، وشعـوراً من الملـك بضرورة تحمل ذلك، وافـق على هذه الشروط، وبذلك عـاود الجيش لحمة اتحاده ثانية.

وكـان هناك الآن اتفـاق عـام على اعادة بنـاء عسقـلان، لكن الأمـراء والنبلاء كـانوا في حالة إعيـاء، ولذلك وجـدوا أن امكاناتهم وماتـوفر لهم لايكفي لـذلك الغـرض، ومع ذلـك شرعوا بـالعمل بقـدر مااستطـاعوا، ووزعـوه فيما بينهـم، وأخـذوا يحفـرون الأسـاسـات لـواحـد مـن الأبـواب الرئيسيـة حتى وصلوا إلى الصخر الأصـم، وأزالوا جميع الـردم والفضلات الموجودة في الأعلى، وتـولى كل واحد تنفيذ حصتـه من العمل، وكـان من الممكن رؤيـة الأمراء والنبـلاء والفرسـان والسادة، ورجـال الحاشية، كـل منهم ينقل حجـرة من يد إلى يد، ولم يكـن هناك من تمييز بين رجـل دين وعلماني، ونبيل وانسان عادي، وأمراء وحواشيهـم وخدمهم، فالكل عملوا مثل بعضهـم، ودهشـوا هم أنفسهم لنتيجة التقدم الذي حققـوه، وعندما تـم جلـب الحجارة والبنـائين، تقـدم العمـل بنشاط مـزدوج، وارتفعـت

الأسوار بسرعة.

وكان الملك، مثلما هو في بقية المسائل، قد ضرب المثل الأعلى في دفع العمل نحو الأمام، وذلك عن طريق المشاركة بيديه، وبتشجيع الرجال، وبتوزيع الحصص والواجبات على كل واحد منهم، وبذلك قدم خدمات عظيمة، وبناء على حثه وتشجيعه تولى كل واحد العمل في سبيل إكمال حصته المحددة له بوسائطه الخاصة، وإذا ماتمنع أحدهم بسبب الحاجة إلى المال، تولى الملك اعطاءه من جيبه الخاص، ذلك أنه كان أكبر قلباً مما أبداه من تكبر، وهكذا جاءت براهين التشجيع، وبراهين اليقظة، والانفاق، ولذلك قيل اكتمل اعادة بناء ثلاثة أرباع المدينة بهذه الوسائل.

وبالوقت نفسه رتب صلاح الدين لارسال اثني عشر ألفاً من أسرى المسيحيين الفرنسيين والبلديين من سكان الأراضي المقدسة إلى القاهرة، وجلبهم خدمه حتى دير البلح، وعندما كانوا يمضون الليل هناك مع نية الانطلاق في رحلتهم في اليوم التالي، حدث بقدر من السماء أن قام الملك رتشارد بانقاذهم.

فقد حدث في أحد الأيام أن كان الملك يقوم مع كتلة من نخبة عساكره بأعمال استطلاع لحصن دير البلح، ليدرس كيف يمكنه أن يستولي عليه، لأنه كان يسهل كثيراً مرور الأتراك وهم يجلبون المؤن من القاهرة إلى القدس، ولاحظ الترك الذين وصلوا إلى هناك قبل غياب الشمس قدوم الملك من رايته، فخافوا على حياتهم، واهتموا بسلامتهم، فاعتصموا بسرعة في برج الحصن وتركوا الأسرى في الخارج، وعندما رأى هؤلاء ذلك، التجأوا مسرعين جداً إلى احدى الكنائس المجاورة، ولدى وصول الملك، تولى اطلاق سراحهم دون أن يفقد دقيقة واحدة، وتركهم يذهبون دون أن يصابوا بأذى، وفي الوقت نفسه تولى مع رجاله قتل عدد من الترك صدفوهم على الطريق، واستولى الملك أيضاً على كثير من

الخيـول الثمينة، وأسر عشريـن من زعماء الأتـراك وهم أحيـاء. من الـذي يشكـك أن قدوم الملـك، الذي كـان مفيـداً جداً لهؤلاء الأسرى، لم يكـن مقدراً من الرب؟ فلـو أنه لم يقدم لانقاذهم لاشك أنهم كـانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالعبودية الدائمة.

وبعدمـا أنجز الملـك هذه الأعمال النـاجحة، بعـث برسـل إلى مركيـز مـونتفـرات، وذلـك مثلما فعـل كثيراً مـن قبـل، طـالبـاً منـه القـدوم إلى عسقلان، والالتحاق بالحملة لصالح المملكـة التي تشوق لقيامها، وطلب منه القيـام بذلـك بموجب اليمين الـذي أقسمه لملك فـرنسا، الـذي هو تعهد بـالتبعية الاقطـاعية لـه، لكن المركيـز المنحط أجـاب بتحفظ دنيء، وقال إنـه لن يتحرك مـالم يجتمع أولاً بالملـك رتشارد، ثم بعـد ذلك يجري عقد مؤتمر في مكان محدد هو حصن يحمور (قرب عكا) Ymbric.

وفيما الملك وجيشه منشغلين تماماً في أعمال اعـادة بناء أسوار عسقلان، نشـب خلاف بين الملـك رتشارد، ودوق بيرغنـدي، فقد كـانت المؤن قـد نفـدت واستهلكـت، وبـات كـل انسان لايمتلـك شيئـاً تقـريبـاً، وبـدأ الفرنسيـون يلحون على دوق بيرغندي من أجـل الدفع، أي أن يـدفع لهم ماهو مـدان به، وذكروا أنهم إذا لم يدفع لهم، لايمكنهم متـابعة الخدمة في المعسكر، ووجـد الدوق نفسه غير قادر على تلبيـة طلباتهم الملحة، لـذلك رأى أن من الأفضل أن يسأل الملك رتشـارد تزويده بمبلغ كبير من المال، وفي مناسبة مـاضية كان الملك قـد أقرض الفرنسيين، بناء على طلـب من الدوق، مبلغـاً كبيراً من المال، كان مـن المفترض تسديـده من مال فـدية الأسرى، وبما أن الأسرى لم يدفعـوا فديـة سوى رؤوسهـم، لذلـك ذهبت الوعـود سدى، ولـذلك رفض الملـك في هذه المناسبـة الاستجابـة لطلبه، ولهذا السبب ولأسبـاب أخرى من عـدم الاتفاق، غادر الـدوق عسقلان، مع بعض الفـرنسيين، الذين لم يستطع أن يـدفع لهم، لهذا بادروا مسرعين بالعودة معه إلى عكا.

ولـدى وصـولهم إلى هنـاك وجـدوا نشـوب صراع مـرير بين البيـازنـة والجنويين، لأن البيـازنة كانوا محظيين مـن قبل الملك غـي، في حين وقف الجنويون إلى جـانب المركيز، والسبب الرئيسي لـذلك هو أنه كان مـربوطاً بيمين ولاء لملك فـرنسا، وتصـاعد الخلاف وانتهى بسفـك الدمـاء وقتال متبادل، وباتت المدينة كلها في حالة فوضى.

ومع اقتراب الفـرنسيين من المدينـة سمعوا أصـوات صخب شـديدة، وصراخ الناس يحثـون بعضهم بعضاً على القتـال، ونتيجة لهذا، أسرع دوق بيرغندي الـذي كان مسلحـاً تماماً، ليقدم مـع رجالـه الضمان للجنويين، وكانـوا في وضع محرج تمامـاً عند وصـولهم، ولهذا انزعـج البيزيـون عندمـا رأوهــم قـادمين، وخــرجـوا بجــرأة للتصـدي لهم، وانقضــوا على دوق بيرغندي، الـذي بدا أنه قـائدهـم، وطوقـوه وعندما طعنـوا فرسه بحـربة، ألقوه أرضاً، ثـم تراجعوا إلى المدينة، وأغلقوا الأبواب، وأقفلـوها، كاحتراز احتياطـي ضد أي حادث غير مرئي قـد يقع، لأنهم سمعوا بـأن الجنويين بعثوا إلى المركيز يطلبـون منه القدوم بأقصى سرعة ممكنـة حتى يستولي على عكا، وقد وعدوه بتسليمه إياها، ولهذا اتخذ البيـزيزن كل الاحتياطات ضد هذا العمل، ولضمان سلامتهم وسلامة المدينة.

ولم يضع المركيـز ولادقيقة واحـدة، بل جاء مسرعـاً إلى عكا في شـوانيه مع عدد كبير من الرجـال المسلحين، آملاً بالاستيلاء على المدينة على حين غفلة، ولدى وصولهم قـاتلهم البيزيون برجولة بـالعرادات والمجانيق، وبما أنهم كـانوا واثقين مـن عدالـة قضيتهـم فقد قـاتلـوا بشجاعـة، وقاومـوا خصومهـم لمدة ثلاثـة أيام، وبعثوا بـرسالة إلى الملـك رتشارد الـذي كان آنـذاك في قيساريـة في طريقـه لحضـور المؤتمر، وأخبروه بصورة الأوضـاع، وطلبوا منه القدوم بكل سرعة ممكنة.

وعندما سمع المركيـز بأن الملك رتشارد بات قريبـاً منه، عاد مسرعاً إلى صور، وكأنه كـان يشعر بقرارة نفسه أن قدوم الملك نذير سـوء بالنسبة له،

لكن على الرغم مما بذله من سرعة وصل دوق بيرغندي مع الفرنسيين أولاً إلى صور، وعندما وصل الملك رتشارد إلى عكا، أخذ على عاتقه ترتيب كل شيء، فصالح البيزيين مع الجنويين، وجعلهم يتوحدون في وئام ووفاق، وأعاد إقامة تفاهمهم الجيد المسبق.

وبعدما أكمل الملك رتشارد تهدئة الأوضاع والناس وفق هذه الطريقة، أرسل رسولاً إلى المركيز يخبره في أن يعود إلى يحمور، ليرى إذا كان من الممكن التوصل إلى تفاهم تصالح وصداقة، وبناء عليه إلتقيا، وعقدا مؤتمراً طويلاً، لكن بلا محصلة، وتصوروا الآن أن دوق بيرغندي، والمركيز وكذلك الفرنسيين اختاروا التغيب عن الجيش، وأسف الملك رتشارد بقرارة نفسه أسفاً كبيراً على شروط السلام التي تم الاتفاق عليها، وتردد لوقت طويل حول ماهو الأفضل للقيام به، وتشاور مع القادة وأكثر الرجال حكمة وتجربة في الجيش، وقرروا أن المركيز قد خسر دعواه للملكية التي كان قد وعد بها، ونتيجة لسلوكه المريب، ينبغي حرمانه من جميع موارده، ونتيجة لهذا نشب خلاف كبير بين النبلاء الفرنسيين وبين الملك رتشارد، وبشكل خاص بينه وبين المركيز.

وفي يوم أحد السعف، قلد الملك رتشارد، وسط مظاهر أبهة عظيمة، حزام الفروسية إلى ابن سيف الدين الذي بعث إليه لهذا الغرض.

كيف تراجع الفرنسيون إلى عكا وكيف جرى اغتيال مركيز مونتفرات

في يوم الثلاثاء المتقدم وعلى عيد الفصح، عاد الملك رتشارد إلى الجيش في عسقلان، وكان حزيناً جداً، على درجة كبيرة من الانزعاج، وفي اليوم التالي طلب المتبقي من الفرنسيين من الملك أن يزودهم بحراسة وبجواز أمان، ووافق الملك، وعين لهم الداوية ليتولوا مرافقتهم في رحلتهم، وعين كذلك معهم الاسبتارية، كما ورافقهم الكونت هنري أوف شامبين ومعه عدد كبير آخر، ورافقهم وهو على طريقهم شخصياً (لحرصه على أن لايدع نقطة موائمة للعناية)، وفعل ذلك وهو يحاول أن يبقيهم مدة أطول، غير أنهم رفضوا رفضاً قاطعاً، لذلك تركهم يذهبون وعاد إلى عسقلان، ومن هناك بعث برسل مسرعين جداً إلى عكا، لتوجيه الأمر إلى الحامية هناك بعدم السماح للفرنسيين بدخول المدينة، وألا يتعرضوا لهم بأية اهانة أو ازعاج، يمكن أن يتخذ حجة عدوانية ويؤدي إلى الخلاف، وبناء عليه عندما وصل الفرنسيون مركزوا أنفسهم خارج المدينة.

وانخفضت معنويات الجيش كثيراً في يوم عشاء ربنا، بسبب مغادرة الفرنسيين، لأنه خسر بذلك جزءاً كبيراً من قوته، لقد فقد سبعمائة فارس (من الرجال المجربي الشجاعة وذوي الفعالية الكبيرة)، فلقد غادر هؤلاء، ونتيجة لهذا اضطرب الناس وانزعجوا كثيراً.

وسر الترك سروراً عظيماً لدى سماعهم بما حدث، وعندما أخبر صلاح الدين بذلك، بعث بالرسل إلى جميع الأمراء والناس في ممالكه يأمرهم بمرسوم صادر عنه أن يدعوا جانباً مشاغلهم وأن يقدموا إلى أراضي القدس بكل سرعة ممكنة، وقال لهم:«إن الفرنسيين، لسوء معاملتهم، غادروا، وتركوا البلاد تقريباً بلا مدافعين عنها، وتدنت كثيراً طاقة الحرب

لدى جيش الفرنجة وتداعت قدرته، ولهذا نأمل بكل ثقة أن نتمكن في وقت قصير من الاستيلاء على عكا وصور اللتان هما المدينتان الرئيسيتان في هذه البلاد»، وعاد الترك وانضموا تحت لواء السلطان، لكن باستعداد أقل، وبأعداد أدنى من قبل، لأنهم لم ينسوا الماضي، وبالمقارنة مع عددنا المتدني، لقد تفوقوا علينا كثيراً في قوتهم.

واحتفل الملك رتشارد في عسقلان بعيد الفصح، الذي جاء في الخامس من نيسان، بأبهة عظيمة، وزود الناس بكل ما احتاجوه مع كميات وافرة من اللحم والشراب، وأمر بنصب سرادقه على المروج خارج المدينة، وقدم إلى شعبه كثيراً من الضروريات التي احتاجوها للاحتفال بهذه المناسبة بأبهة وروعة.

وعاد يوم اثنين الفصح متيقظاً نشطاً لمتابعة العمل الذي كان قد بدأه وتابع بكل غيرة وحماسة إعادة بناء أسوار المدينة، وكما هي عادته حث الناس وحرضهم على إكمال ما تبقى، ونتيجة لحرصه وعنايته وتعاونه اكتمل كل شيء على حسابه الخاص وبدون مساهمة الفرنسيين وذهب الملك مع عدد قليل من أتباعه، يوم ثلاثاء الفصح، في عملية استكشافية نحو غزة، وانطلق في يوم الأربعاء ليقوم بتفحص قريب لدير البلح (الداروم)، محاولاً التأكد من النقطة الموائمة للهجوم عليها، لكن الترك اتخذوا موقف الدفاع في البلدة، ورموا بكثير من النشاب من القسي وأيضاً بجروخ كثيرة، مع شتائم وإهانات للملك ولرجاله، وكأن المكان لايرام، وعندما استكمل الملك تفحصه لها، عاد إلى عسقلان.

وبعدما غادر الفرنسيون، عاد الذين عهد إليهم من قبل الملك بمرافقتهم تأمين وصولهم حتى عكا، عادوا إلى المعسكر في عسقلان، وما أن وصل الفرنسيون إلى صور حتى أطلقوا لأنفسهم العنان للانغماس بكافة المسرات، الأمر الذي نرى من المفيد التوقف قليلاً لذكره.

لقد غـادر الآن المعسكر، الـرجال أنفسهـم الذيـن يفترض أنهم جاءوا بـوجههـم تـدينهـم وغيرتهم لانقاذ الأرض المقـدسـة، وتخلـوا عـن هـذا، وسلمـوا أنفسهـم للغانيـات ولـلأغـاني المبهجة وللمتـع الجنسيـة، لأنهم ابتهجوا (حسبما جاء على لسـان الذين رأوهم) بالرقـص مع النساء، وعبر مظهـرهم الخارجـي عـن خلاعتهـم وتبـذلهم، فقـد ربطت أكمام أثـوابهم بسلاسـل ذهبية، وأظهروا عن عمـد أوساطهم، وحزمـوها بأحزمـة مطرزة، وبقيت أرديتهم مكشـوفة مع أذرعتهم وكانـت مربوطة لتمنـع رؤية طرف من أثوابهم، والذي افترض لتغطية ظهورهـم، أرغم الآن على خدمة أجزاء أخـرى من الجسـد، لأن بطونهم، وليـس ظهورهـم غطيت بهم، ووضعـوا حـول أعنـاقهم أطـواق كـانـت تشـع بـالجواهر، وعلى رؤوسهـم قبعـات نسجـت بكـل شكـل مـن أشكال الـورود، وحملـوا في أيـديهم الكـؤوس والدنـان وليس السيـوف، وكانـوا بعد أن يمضـوا الليالي كلهـا في الشرب والعربـدة، يذهبـون إلى بيوت العـاهرات، وإذا صـدف وكن مشغـولات، والأبواب مغلقـة في وجوههم، كانـوا يخلعونها، وهم يتلفظـون بلغة وأيمان ترعب الذين يسمعونهم.

وبكلمة واحدة بـرهنت أحوالهم الخارجية على تردي أخـلاقهم، والعار للفرنسيين لانغماسهم في مثـل هذه التجاوزات، ولايمكننا أن نـؤكد أنهم جميعـاً كانـوا مجرمين بهذا أو حمقـى، لأنه كـان هنـاك عـدد كبير ممن كـان مزعوجاً جداً تجاه هذا المسلك المتحلـل، وآسفين لعدم توافقهم مع الملك رتشارد.

وبعد انقضـاء عيد الفصح بعـدما بـات موسم الجواز البحـري ممكناً، وصل رئيس رهبان دير هيرفورد Hereford ، وهو دير انكليزي، حاملاً رسالة إلى الملك رتشارد، جعلت الجيـش كله يضطرب، لقد جلب رئيس رهبان الدير رسـائل من وليم، أسقف ايلاي، الذي كـان مستشار الملك، يخبره أنه والذيـن أنابهم الملك ليتولوا حكـم البلاد أثناء غيابـه، قد طردوا

بصفاقة وعدوانية من حصون المملكة، وقتل بعض رجالاتهم أثناء أعمال الصخب، وبوساطة نيابة أخيه للملك، أعني الايرل جون، جرى طرد المستشار من انكلترا، ولم يعد هناك المزيد من المال في الخزانة أو في أي مكان آخر، ماعدا القليل الذي أخفي بكل صعوبة في الكنائس.

وبالاضافة إلى هذا، قال رئيس رهبان الدير: «لقد طرد المستشار نفسه، والكاهن والأسقف مرغمين إلى نورماندي، وذلك بعد ازعاجات كثيرة وسوء معاملة، وأن الايرل جون استخرج بالعنف من الايرلات والنبلاء في البلاد يمين الولاء والطاعة، والتبعية من حفظة القلاع وشحنها، كما أنه صادر بدون حق الدخل السنوي للملك واستولى عليه، والمقصود بهذا الخزينة الملكية، وأضاف رئيس الدير يَقول:إذا لم تتخذ جلالتك قراراً سريعاً حول هذه المسائل، وتعود إلى الوطن بكل سرعة ممكنة، وتنتقم لما لحقنا من اعتداءات العصاة، ستزداد الأمور سوءاً، ولن تستطيع استرداد مملكتك بدون التعرض لمخاطر الحرب».

واستولت الدهشة تماماً على الملك لدى سماعه مانقل إليه، وقلب الأمور في ذهنه طويلاً ولم يقل إلا قليلاً، لأنه اعتقد أن الأمر لايصدق، وأن المسألة قطعة من الشرور تتجاوز المعقول.

ذلك أن الخلاف بين الأمراء نادراً مايمكن تجنبه واضعافه، لكن إذا ماأرغم الملك رتشارد على العودة إلى الوطن، ربما مامن انسان سوف يبقى في الأرض المقدسة، لأن هناك نزاعاً وصراعاً بين الناس في صور وبين شعب عسقلان، ومما لاشك فيه سوف يستولي الترك على البلاد كلها بشكل أبدي.

ودعا الملك في اليوم التالي إلى الاجتماع قادة الجيش، ووضع أمامهم كل ماسمعه، وشرح شرحاً وافياً كلمات رئيس الرهبان، وأعلن بالوقت نفسه أنه لابد بحكم الضرورة من عودته إلى الوطن مباشرة، لكن وعد

بتزويـد الحملة في الأراضي المقـدسة بثـلاثمائة فارس وألفين مـن عساكـر الرجالة المنتخبين، على حسابه، ثم سـأل بعد هذا: من الذي سيعود معه، ومن الـذي سيبقى بعـده وأعلن أنـه لن يجبر أحـداً على هذا أو ذاك، بـل ترك الخيار المطلق لكل واحد حسبما يريد.

وبعدمـا عرض هـذه النقطة، أجـابوه كما يلي: بما أن البـلاد تعاني مـن التمـزق وصراع بعض الفئـات، ومادامـت نتـائج الأمور غير واضحـة — لاسيما وأن الملك غـي لم يصل إلى مبتغاه في استرداد المملكـة — رأوا من الضروري جـداً تعيين ملك جـديد، يقـدمـون له جميعـاً الولاء، وبحفظـه يمكـن أن تترك البـلاد وبعنايتـه، ويمكـن أن يقـاتـل معركـة الشعـب، وينبغـي أن يكون رفيعـاً، يتبعـه الجيش ويطيعـه، وإذا لم يقـرر هذا بحـل مناسب قبل مغادرة الملك، فـإنهم جميعاً، فرادى وجماعات سوف يغادرون البلاد، لأنه لن يكون بإمكانهم القيام بحراستها ضد الأعداء.

وعندما سألهم الملك السـؤال التالي: أي واحد من الاثنين تفضلون أن يكون الملك: الملـك غي أو المركيز؟ جثا الجيـش كله من صغير وكبير على الركب، والتمسوا وجوب ترقيـة المركيز إلى الملكية، لأنه أفضل قدرة بكثير في الدفـاع عن البلاد مـن الآخر إذاما وقـع الاختيار عليه، وأصغـى الملك إلى التماسهم، وأنبهـم بكلمات لطيفة على سـذاجتهم وانخـداعهم، لأنهم كما حدث في الغـالب مـن قبل انحرفـوا عن الأخـلاق الحميدة والسمات الحسنة للمركيز.

وباعطـاء الملك موافقتـه، صدر قرار بـالاجماع يتعلق بانتخـاب المركيز، وجرى ارسـال بعض الـرجال من ذوي المنـاصب العاليـة بالبحـر ومعهم حاشيـة لنقل الأخبـار الطيبة إلى المركيز في صـور، وشرح له السفـراء كيف أنه انتخب ملكاً بالاجماع من قبل الجيـش كله، مع موافقة الملك رتشارد، وأن تاج المملكة قـد منح له، إذا ما رغـب بالقدوم مع الجيـش، وممارسة واجباته هنـاك بنشاط وشجاعة ضد الترك، ومباشرة حكـم مملكة القدس

بنفسه في جميع المسائل، كما لو أنها تخصه، ولقد قيل عندما سمع المركيز هذا الكلام، بسط ذراعيه، وهو في غاية السرور في قلبه، ومدهما نحو السماء، وشرع يدعو كما يلي: «مولاي الرب، يامن خلقتني، ووضعت الروح في جسدي، يامن أنت ملك عادل ورحيم، أدعوك يامولاي إذا كنت تراني أستحق حكم مملكتك، أعطني الفرصة لأرى نفسي متوجاً، لكن إذا حكمت بعكس ذلك، لاتوافق على ترقيتي».

وعندما بات معروفاً في أرجاء مدينة صور بأن المركيز سوف يتوج ملكاً، كان السرور عارماً بين الناس، وأخذوا يعدون كل ما توجب، واستخدموا كل طاقاتهم للإعداد من أجل الاحتفال بتتويجه، فاقترضوا المال لشراء الملابس والدروع، لأنهم رغبوا في ابداء أروع المظاهر الممكنة في خدمة مثل هذا الانسان الرائع، الذي رقيّ إلى أعلى مراتب المجد، وبات بالامكان رؤية الناس الآن وقد انشغلوا في تنظيف دروعهم وسوابغهم، وتلميع أسلحتهم، وشحذ سيوفهم، ومسح رماحهم، واشترك الجنود والأطفال في معارك صورية، وحافظوا تماما على مظهر صراع حقيقي ومبارزات جدية، ولقد تبجحوا في الوقت نفسه بأنهم في المستقبل سوف يدمرون الترك.

وفي أحد الأيام كان المركيز عائداً من استقبال أقامه له أسقف بوفياس Beauvais وكان به هو الضيف، وكان مسروراً جداً، ونفسه مشرقة مبتهجة، وعند وصوله إلى بيت التعشير، قفز عليه فجأة شابان بلا أردية — من الحشيشية — واندفعا نحوه، وبأيديهما خناجر كانت مخفية، وطعنوه حتى قلبه، ثم انعطفا هاربين بسرعة قصوى.

وسقط المركيز على الفور من على ظهر حصانه، وتقلب على الأرض وهو يموت، وتم على الفور قتل أحد القاتلين، لكن الآخر اختبأ في الكنيسة، وعلى الرغم من حرمة المكان، فقد ألقي القبض عليه، وحكم عليه بالسحل في أرجاء المدينة حتى يموت، وقبل تنفيذ العقوبة به، استجوب

بدقة لمعرفة الذي حرضه ولاكتشاف الأسباب الدافعة لذلك، ولماذا اقترفا هذه الفعلة، وقد اعترف بأنهما أرسلا منذ زمن طويل مضى، وأن ذلك كان بأمر رئيسهم، الذي توجبت طاعته.

وقد تبين أن هذا كان صحيحاً، لأن هذين الشابين كانا منذ أمد في خدمة المركيز، ينتظران الفرصة المناسبة لتنفيذ فعلتهما، فقد تقدم لشيخ الجبل، صاحب مصياف ارسالهما لاغتيال المركيز في مدة من الزمن محددة، هذا وكل واحد قضى شيخ الجبل أنه يستحق الموت، عمل على اغتياله بالطريقة نفسها.

وجلب شيخ الجبل صاحب مصياف، تبعاً لعادة متوارثة عدداً كبيراً من الأطفال النبلاء إلى قصره، وجعلهم يتعلمون كل نوع من أنواع المعرفة والتدريبات، ووجههم لتعلم كل نوع من أنواع اللغات إلى حد تمكنهم من الحديث بها بدون مساعدة مترجم في أي بلد من بلدان العالم المعروف، وتضمن ذلك أيضاً وحشية وقسوة إلى أعظم الدرجات وسرية عميقة جداً، وجرى تدريب الطلاب وتعويدهم على المتابعة والتمسك بذلك برغبة وعناية كبيرة، وكانوا عندما يصلون إلى سن البلوغ، يدعوهم الشيخ إليه، ويؤكد لهم براءتهم من كل ذنب في قتلهم لبعض أعيان الناس، الذين يذكرهم بالاسم، ولهذه الغاية كان يعطي كل واحد منهم خنجراً بطول مرعب وحاد جداً، وانطلاقا من طاعتهم الإيمانية، لم يعرفوا التردد قط في الانطلاق وتنفيذ ما أمروا به، وما كانوا يقفون حتى يصلوا الأمير أو الطاغية الذي عين لهم، ويبقون في خدمته حتى يجدوا الفرصة المناسبة لتنفيذ أغراضهم، معتقدين أنهم بفعلهم ذلك يحصلون على الدخول في الجنة.

والآن فيما المركيز كان يتنفس أنفاسه الأخيرة، حمله مرافقوه الذين كانوا من حوله على أذرعتهم إلى القصر وهم يندبونه ويبكون عليه بتفجع، لاسيما لأن سرورهم قبل قليل كان عظيماً جداً، وأوصى زوجته بالاهتمام

بكـل عنايـة بـالحفـاظ على مدينـة صـور، وألا تسلمهـا لأحد غير الملـك رتشارد، أو إلى الشخص الـذي تؤول إليه المملكة بحق الوراثـة، وما لبث أن مات ودفن في مقر الاسبتارية وسط حزن عظيم وأسى كبير.

وفي وسـط الفـوضـى التـي سـادت بين النـاس، تهامـس بعـض مـن الفرنسيين (الذين ابتغوا تغطية شرورهـم بنوع من الأكاذيب، وأدخلوا في عقول الناس جميعاً) بـأن الملك سبب بشكل شرير مقتل المركيـز، وأنه هو الذي استـأجر هؤلاء الرجـال من الحشيشية لهذا الغـرض، ولم يقنعوا بهذه التهـم التـي ألصقوهـا بـالملـك رتشـارد وأساءوا بها إلى سمعتـه في هـذه المناطـق، بل أرسلـوا تحذيرات إلى ملك فـرنسا حتـى يحترز ضد مبعـوثي شيخ الجبـل صاحـب مصياف، وقدمـوا له تفاصيـل كيفية مـوت المركيز، وذكروا أن الملك رتشارد قـد وجه أربعة من هؤلاء الرجـال للقيام باغتيال الملك فيليب.

– ٩٤١ –

كيف جرى اختيار الكونت هنري ليكون ملكاً لصور

بعد دفن المركيز اجتمع الفرنسيون، الذي بلغ تعدادهم حوالي العشرة آلاف، وكانوا يعيشون في خيم خارج المدينة، والتقوا للتداول فيما بينهم، وبعد نقاش طويل بعثوا بأوامر إلى زوجة المركيز (*) يأمرونها أن تضع المدينة في عهدتهم بدون تأخير أو معارضة، من أجل خدمة ملك فرنسا، لكن الملكة أجابتهم: عندما يأتي الملك رتشارد ليراها سوف تعطيه المدينة، ولن تعطيها لأحد سواه، لأن هذه كانت أوامر المركيز المتوفى، ذلك أنه لايوجد أحد عمل مثله كثيراً لإنقاذ الأراضي المقدسة من الترك، وإعادتها إلى حريتها المتقدمة، وبناء عليه ينبغي اعطاء المملكة إلى أشجع الرجال، ليرتب أمورها كما يراه مناسباً.

وغضب الفرنسيون وسخطوا سخطاً عظيماً تجاه هذا الجواب، وفيما هم يبذلون الجهد لامتلاك المدينة، جاء الكونت هنري بشكل غير متوقع إلى المدينة، وذلك بعد ما اندهش لدى سماعه بما حدث. وعندما رآه الناس قائماً بينهم اختاروه على الفور أميراً لهم، وكأنه أرسل من قبل الرب، وبدأوا بمحاولة إقناعه ليتقبل تاج المملكة، بدون اعتذار أو

*— من المفيد مراجعة ما ورد في المجلد السالف مع ما جاء لدى صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري (الجزء الثامن). والملكة هنا هي ايزابيلا أخت سيبيلا (التي توفيت في سنة ١١٩٠، وبذلك غدت ايزابيلا وريثتها)، وعندما توفيت أختها الكبرى كانت ايزابيلا متزوجة من هنفري الرابع صاحب تيرون، الذي كان مكروهاً من قبل النبلاء، ولهذا أقنعوها لتتطلق منه، على أساس أنها خطبت إليه بدون موافقتها، ثم زوجوها المركيز كونراد أوف مونتفرات الذي كان أثيراً لديهم، وبذلك أعطوه حق المطالبة بعرش المملكة ضد غي أرمل سيبيلا، وتزوجت ايزابيلا مرتين أخرتين بعد مقتل المركيز، أولاهما من هنري أوف شامبين، ثم بعد موته من عموري الثاني صاحب قبرص.

تـردد، وأن يتزوج أرملـة المركيز، لأن المملكـة مملكتها بحـق الوراثـة، ورد على هذا كلـه أنه سوف يتصرف وفقاً لنصيحة خاله الملك رتشارد، محترما الحل الـذي يقرره الـرب لكل المسـائل ويـدعوه إليـه، وعلى الفور جـرى ارسال مبعوثين إلى الملـك رتشارد ليعلنوا له الانتخاب الذي جـرى باقرار الناس في تمليك الكونت هنري وليحدثوه عن الاغتيال الرهيب للمركيز.

وفي الوقت نفسه، قبل أن يصـل الرسل المرسلين إلى الملك رتشارد إلى غايتهـم، بدأ الفصل الدافىء بعـد أشهر برد الشتاء، وشرع الملـك رتشارد في مهاجمة الترك بهمـة لاتعرف التعب، مثلما كـان يفعل من قبـل، لأنه لم يكن هنـاك انسان مثلـه، ولا من خـافه الترك مثلما خـافوه، فما مـن واحد آذاهم من قبل مثلما فعـل، فقد كان ينقض، وهو فارغ اليديـن تقريباً، ثم يعود جالباً معـه رؤوس الأعداء، أحيانا عشرة في يوم واحد، وأحيـانا اثني عشر، أو عشرين أو ثلاثين، حسبما يحدث ويصدفهم في طريقه.

وبالإضـافة إلى هـذا كله كـان يجلب معـه إلى المعسكر كـل يوم عـدداً كبيراً من الأسرى، والحق يقال لم يوجد في عصور المسيحية رجلاً مثله دمر أعداداً كبيرة من المسلمين بيديه وحده.

وفي يوم الأربعاء الذي تقدم على عيد القديـس مرقص الرسول، انطلق الملك وجيشه نحو الجديدة لحمايـة المدينة، غير أنه لم يجد أحداً هناك، وفي طريـق العودة قاتـل الملك خنـزيراً بريـا متوحشاً، كـان قد سمـع صوت العساكر وهـم يمرون، فخرج ليقف على الطريـق، وتصاعد الزبـد من فم الحيوان الشريـر، لشدة غضبـه، ووقف شعـر جسده وكـذلك أذنـاه، وبدا وكأنه يستجمـع كل قواه وحنقه إمـا ليتلقى هجوما أو ليقـوم بالهجوم، ولم يتحرك من مكانـه عندما صرخ الملك، وعندما دار الملك حـوله، لدهشته استدار هو حول نفسه، وظل واقفاً في المكان نفسه.

واستخـدم الملـك الآن رمحه بمثابـة رمـح صيـد، وحـركه ليطعنـه بـه،

وانحرف الخنزير قليلاً إلى أحد الجوانب واستعد للقائه، وكان حجم الحيوان حجماً هائلاً، ومنظره مرعباً، وانقصف الرمح الذي خرق صدره العريض بكل جرأة إلى قسمين، وسبب انكساره أنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليتحمل ضعطهما وهما يقتربان من بعضهما، وصار الخنزير غاضباً الآن كثيراً بسبب جرحه، فاندفع بكل ما أوتيه من قوة نحو الملك، الذي لم يمتلك أية مسافة، أو وقتا للانعطاف أو الابتعاد، لذلك غمز فرسه وشدد عليه، فتمكن من القفز فوق الحيوان دون الاصابة بجراحه، علما بأن الخنزير قد مزق تجافيف حصانه، غير أن فعالية الحصان ونشاطه أعاقت الضربة، وحالت قطعة الرمح المغروسة في صدر الحيوان بينه وبين الاقتراب، ثم قام الخنزير سريعاً وكأنه يريد الاقتراب من الملك، لكن الملك كان قد استل سيفه، فطعنه به وهو عابر، وصعقه بالضربة، ثم استدار حول حصانه، وقطع عروق الخنزير، ثم عهد به إلى رجال صيده.

وبينما كان الملك يمضي الليلة التي حلت بعد يوم الرسول المبارك القديس فيليب والقديس جيمس، ومعه عدد قليل من الأتباع، في مجدل يابا Furbia، انقض الترك عليهم في الصباح الباكر، بشكل مفاجىء، وفي نيتهم إما أسرهم أو تدميرهم، غير أن الملك كان أول من قفز من فراشه، وأمسك فقط بترسه وسيفه، فأسر سبعة من الترك، وقتل أربعة، وهرب البقية من أمامه، ثم بعث إثر ذلك الداوية والتوركبلي حتى حصن دير البلح (الداروم) لاستكشاف المنطقة، فصدفوا عشرين مسلما كانوا قد خرجوا من الحصن، يحصدون شعيراً، وأسروا هؤلاء وأرسلوهم إلى عسقلان.

وفي هذه الأيام، عندما كان الملك رتشارد مشغولاً في سهول الرملة بأعمال مطاردة الترك، وصل الرسل الذين بعثوا من صور، ومثلوا أمامه وأخبروه بصورة أحوال الأوضاع هناك، وأن الكونت هنري لن يغامر بقبول المملكة إلا بموافقة الملك ونصيحته، ولدى سماع الملك بوفاة

المركيز، مكث وقتاً طويلاً صامتاً وقد اعترته الدهشة تجاه هذه النهاية العنيفة التي جاءت بغير وقتها، لكن لمعرفته أن شعبه خاصة رغب بذلك رغبة كبيرة، سرّ سروراً عظيماً وابتهج لانتخاب ابن أخته، ولذلك أضفيت عليه بوقار علامات التشريف الملكية.

كيف جرى اختيار هنري ملكاً لصور

وقال الملك: « وبناء عليه بما أن المركيز، توقف بحكم قرار موت الذي لايرد، عن الوجود، ليس من المفيد أن ننغمس بالأسى، فالبكاء لن يفيد شيئاً بالنسبة لروح الفقيد، إنني اقدم التهنئة إليكم لانتخابكم الكونت هنري، وإنني راغب تمام الرغبة— إذا شاء الرب — في أن يضفى عليه جميع أمور حكم المملكة في اللحظة التي يجري فيها امتلاك جميع الأراضي المقدسة، وفيما يتعلق بزواجه من أرملة المركيز، ليس لدي من رأي أقدمه، لأن المركيز استحوذ عليها بشكل غير قانوني، بينما كان زوجها مايزال حياً، واقترف الزنا بمضاجعته لها، دعوا الكونت هنري يستحوذ على مملكة مدينة عكا وكل متعلقاتها، وأعني بذلك صور ويافا، وجميع الأرض — إذا رغب الرب — بشكل أبدي، وأخبروه باسمي أيضاً أن يقلع بحملته بأقصى سرعة ممكنة، وأن يجلب الفرنسيين معه، لأنني أنوي الاستيلاء على دير البلح (الداروم) على الرغم من معارضة الترك».

وبعدما تلقى الرسل تعليمات الملك رتشارد عادوا إلى صور، إلى الكونت ، ملكهم المستقبلي، ونقلوا إليه الرسالة التي عهد بها إليهم، ثم عم السرور والفرح بين الجميع وانتعشوا مجدداً، وأقنع أعيان الرجال الكونت حتى يتزوج أرملة المركيز ووريثة المملكة، لكنه رفض خشية اغضاب الملك رتشارد، وبناء عليه، حثه الفرنسيون ونبلاء المملكة على القيام بذلك، لأن الولاء له مع مركزه سوف يقوى بهذا الاجراء، وبوساطة نفوذهم جاءت السيدة عن طواعية وقدمت له مفاتيح المدينة.

ولم يكن من المفترض أن يواجه الذين أقنعوا الكونت لاتخاذ هذه الخطوة كثيرا من المصاعب، لأنه كان من السهل اقناع رجل راغب، واحتفل بالكنيسة بالزواج بشكل مهيب وذلك بحضور رجال الدين

والعلمانيين، وسط أبهة ملكية، وابتهج الجميع لدى انجاز العمل، وكان الفرنسيون والنورمان بالقدر نفسه مسرورين، لأن الكونت كان بالوقت نفسه ابن أخت كل من ملكي فرنسا وانكلترا، وبهذا الاتحاد بات الأمل بأوقات سعيدة ستأتي، وأن يعود أولئك الذين اختلفوا إلى السلام والوئام.

ولدى اكمال الكونت الاحتفال بزواجه أرسل على الفور أشخاصاً ليباشروا الحكم في عكا باسمه، وكذلك في يافا والمدن الأخرى والحصون، وليستحوذوا على جميع الممتلكات التي توجب استملاكها في ظل سيادته وباسمه كمولى لهم، ثم أصدر مرسوماً، دعا فيه الجميع ليكونوا جاهزين للحملة ضد دير البلح.

وبعد ما ترك الكونت هنري أشخاصاً مناسبين لحماية مدينة صور وبقية البلاد، قام وبصحبته دوق بيرغندي بتحريك جيشه نحو عكا حتى يسرّع الحملة، وجلب أيضاً معه زوجته، لأنه كان لايصبر على البقاء بدونها.

وعندما عرف شعب عكا أنباء قدوم الكونت، خرجوا وهم يرقصون لاستقباله، وهتفوا بحياة السيد الجديد، واحتشدوا من حوله، ورافقوه في دخوله إلى المدينة، التي كانت مزينة من كل جانب مثل معبد من المعابد، فلقد زينت بالستائر والأقمشة الحريرية ، وملأت روائح البخور المحترق كل مكان، وانتقل شذى الروائح الطيبة من طريق إلى طريق، ومن شارع إلى آخر، وقامت النسوة بالرقص ببهجة ونشوة، وتقدم حشد هائل من الناس، بلغ تعداده ستين ألفاً، بكامل السلاح، نحو الأمام لاستقبال الكونت ، وللتعبير عن سرورهم وتقديرهم له. وقاده رجال الدين بيده إلى داخل الكنيسة، إلى أمام المذبح، ومنحوه الصليب المقدس، وآثاراً مقدسة أخرى، ليقبلها، وقدم الكونت نفسه، ومعه عدد كبير من الآخرين، هبات ثمينة هناك، واقتيد بعد هذا إلى القصر الملكي، حيث أمر باعداد وليمة، وبذل كل واحد — حسب رتبته وقدراته—

جهده لتقديم التشريفات للسيد الجديد.

وبما أن صعود رجل جديد كان معناه دوما سقوط آخر، وعليه إن خسارة واحد هي لصالح ومنفعة آخر، فالآن حرم الملك غي من المملكة التي قاتل في سبيلها عدداً كبيراً من المعارك، وأقام الآن هناك مثله مثل انسان عادي، ليس لأنه غير جدير (لأنه لم يكن هناك ملك آخر مثله بالعادات الملكية والطباع ولا أحسن منه)، بل لسبب واحد، هو أنه كان ساذجاً، ولايعرف حرفة التآمر السياسي، وعوضاً عن أن يقدر كثيراً لامتلاكه هذه الصفات — فهذا هو المتوجب — عد ضعيفاً لاتجوز طاعته.

ولقد كان عسكريا صاحب شجاعة كبيرة، وتولى ادارة حصار عكا، عندما كانت محتلة من قبل الترك، بنشاط عظيم وبتصميم ومثابرة، لكن نظراً لازدياد أعداد الأعداء على الجانب المصاقب للبحر، لم يستطع اقتحام المدينة، الأمر الذي سعى من أجله بعده ملكان وقد لاقيا صعوبات جمة حتى استوليا عليها، فهل يصح بعد هذا أن تؤذيه بساطة أخلاقه، وتحرمه من الحصول على حقوقه؟ هكذا هي متناقضات العصر، فالذي عرف بأنه أبعد الناس عن الانسانية في أخلاقه وأعماله عدّ أهلاً لعظيم الشرف والمجد، وهكذا بما أن المهارة هي الفضيلة المتحكمة في العصر الحالي، حصل الدهاء على الاحترام، في حين غرقت التقوى في عدم الاحترام.

وهكذا بات، آنئذ غي ملكاً بدون مملكة، حتى أشفق الملك رتشارد عليه، وهو المعروف بعطفه وشفقته، فأعطاه بدون شروط ملكية جزيرة قبرص، ومع أن الداوية كانوا قد اشتروا الجزيرة منه من قبل، وضعت شروط الشراء جانبا، وصار غي امبراطوراً لقبرص.

وفي الوقت الذي اغتيل فيه المركيز في صور، وصل عدد كبير من

الرسـل من انكلترا يحثـون الملكَ على العـودة، وقال بعضهـم إن كل شيء سليم، وقال آخـرون إن انكلترا على وشك أن تؤخذ منه، وتـرجاه بعضهم للعـودة إلى الوطـن في حين بذل آخـرون كـل جهودهـم لاقناعـه لاكمال حجه، وهكذا شـوشت تأكيداتهم المتباينة فكـره، وجعلته لايهتدي إلى أي جانب سـوف يميل، لكنه قدر نفسيـة الملك الفرنسي انطلاقـاً من تجربته الماضية، لأنه كما يقول المثل :« الذي لديه جار سوء لاشك أنه سيجد في الصباح شيئاً ما سيئاً».

كيف استولى الملك رتشارد على حصن دير البلح عنوة

في الوقت الذي كان فيه الكونت هنري مع الفرنسيين في عكا يسيرون نحو حصار حصن دير البلح، شرع الملك رتشارد الذي كان يكره التأخير مع رجاله بالانطلاق من عسقلان، وأرسل بوساطة البحر مجانيقه، التي وضعت قطعة قطعة على ظهر السفن، وخلّف رجالاً لحراسة المدينة، كما إكترى آخرين بأجور مغرية ليتولوا بالنهار مراقبة الحصون العدوة المجاورة، وليقيموا حراسة ليلية دقيقة ليمنعوا الأتراك من حمل الميرة— كما كانوا يفعلون من قبل— إلى دير البلح، حيث خططوا مراراً وتكراراً لإقامة كمائن ضد رجالنا، ثم انطلق الملك مع عساكره خاصة نحو حصن دير البلح، ووصل إلى هناك يوم الأحد، ونصب خيمته وخيام أتباعه على مسافة قصيرة منها.

وبالنظر لقلة عدد رجالنا كان هناك شكوك حول أي أجزاء الحصن ينبغي مهاجمته، بحكم أنهم كانوا غير قادرين على الاحاطة به بشكل كامل، فإذا ما جرى تفريق أعدادنا الصغيرة لن يكون بالامكان اقتحام البرج، أو الصمود في وجه حملة الأتراك، ولهذا تراجعوا كتلة واحدة نحو قرية كانت قائمة في السهل، وهناك شكلوا أنفسهم وعبأوا قواهم، ولدى رؤية الترك هذا الجيش الصغير خرجوا من الحصن وتقدموا نحو الأمام، وكأنهم يريدون اثارته وتحديه للدخول في معركة، ثم تراجعوا ثانية وأغلقوا الأبواب بإحكام وقوة، واستعدوا للدفاع عن أنفسهم.

وإثر هذا مباشرة وصلت مجانيق الملك في سفنه، وكانت هذه المجانيق مفككة إلى قطع متعددة، وحمل الملك مع أمرائه ونبلائه قطع المجانيق على أكتافهم من الشاطىء (ليس بدون تصببهم بالعرق) إلى مسافة تقارب الميل، وأخيراً عندما جرى تركيب الآلات وتجميعها، واستعد

الـرجال للعمـل بها، تعهـد الملك بنفسـه القيـام بتشغيـل واحدة منهـن، واستهدف أن يهاجـم بها البرج الرئيسي في الحصـن، وتولى النـورمانـديون تشغيل الآلة الثانية، ورجال بواتو الآلـة الثالثة، ووضعت كل آلة وجهزت لتقوم بـأعمال التدمير، وجعـل الملك رتشـارد آلاته تعمـل ليل نهار، ولهذا السبب جهدوا في سبيل حماية أنفسهم برجولة، وهنا رأى الترك أن الدمار الكامل بات وشيكاً.

وامتلك حصـن دير البلح سبعـة عشر برجاً قويـاً ومتيناً، وكان أحـدها أعلى من البقية وأقوى، وكانت الأبـراج مع الأسوار محاطة بخندق عميق مغطى مـن أحد الجوانب بصفائح مـن الحجارة، بينما كان الجانـب الثاني بطبيعته من الصخور، واستولى الآن الرعب المخيف على المسلمين، خشية أن لايتمكنـوا من الـدفـاع عن أنفسهـم بشكـل فعـال، أو حتى النجـاة بأرواحهـم، وأمر الملك النقابون في اليـوم التالي بالشروع في حفر أنفاق بكل عنـايـة تحت الأرض، مـن أجـل اقتلاع الأحجـار وفتـح ثلمـة في السـور، وتمكنت آلات الرمي بـوساطة العمل الجماعي والرمي المتـواصل من تدمير واحد مـن مجانيق العدو، الـذي أقيم على البرج الرئيسي، وأدخـل تحطيمه إلى قطع الرعب كثيراً إلى قلوب العدو.

وفي البـدايـة رد الترك رجالنـا إلى الخلـف بـالحجارة والنشـاب الـذي تساقط بكثافة مثل زخات المطر، مـن عراداتهم وأقواسهـم، ووجه العاملون في عراداتنا رماياتهم نحو أي انسان شـاهدوه فوق الشرافات، وهكذا قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً منهـم، لذلك نادراً ما تجرأ العدو على التحـرك،وباتت أحوالهم الآن بعيـدة عن أن يحسدوا عليها، عنـدما انهار واحد مـن أبواب الحصـن، بسبب النيران، ثـم دمّر تـدميراً كامـلاً بـوساطـة رمايـات آلات الملـك، وارتعـب الترك كثيراً نتيجـة لما حـدث، وللـرمـايـات المتـواصلـة والحملات المستمرة، وباتوا غير قادريـن على الاستمرار بالدفاع، لأن عدداً كبيراً منهم قد قتل، وتمدد الآخرون جرحى على الأرض.

وبات الآن واضحاً أن الملك رتشارد كان دوماً من المتعذر قهره في كل عملية شرع بها، وأنه بات واثقاً من النجاح بفعل لغمه للأبراج واستمرار آلات رميه بالقذف، وبناء عليه خرج ثلاثة من المسلمين من الحصن وتقدموا نحو الملك رتشارد والتمسوا السلام، وعرضوا عليه تسليم الحصن وكل شيء عائد إليه شرط أن يسمح لهم بالمغادرة آمنين على حياتهم، لكن الملك رفض وأخبرهم أن يدافعوا عن أنفسهم بقدر ما يستطيعون.

ولهذا عادوا إلى الحصن، واستمرت آلات الملك تعمل بلا توقف، وبعد هذا مباشرة تهاوى أحد الأبراج بعدما أُلحق به الضعف نتيجة حفر نفق تحته من قبل النقابين التابعين للملك، وجاء انهياره إثر تلقيه رمايات متواصلة، وعندما انهار أحدث دوياً هائلاً، واختلط الترك أثناء محاولتهم النجاة من وسط الخرائب برجالنا، الذين لاحقوهم وهم يقتلونهم حتى قاموا بعقر خيولهم، وهو عمل مرعب فعلوه ليحولوا دون وقوعها بيد الفرنجة ومن ثم استخدامها، وإثر هذا التجأوا إلى البرج الرئيسي.

وهرب الترك الآن، واقترب رجالنا بجرأة من الحصن، وكان أول الداخلين إليه هو سيغوين بورت Seguin Borret ، ومعه حامل دروعه واسمه أوسبيارد Ospiard وكان الثالث بيتر أوف غسكوني، وتلاهم عدد كبير آخر، نُسيت أسماؤهم، وكانت راية ستيفن دي لونغشامب الأولى التي رفعت فوق الأسوار، وكانت الثانية راية ايرل أوف ليستر، وكانت الثالثة راية أندرودي كافني Chavigny ، وكانت الرابعة راية (بوهيموند الثالث) ابن الأمير ريموند (صاحب أنطاكية)، ثم رفع الجنويون والبيازنة أعلامهم على الأسوار، وكانت ذات أشكال متنوعة، وفي الوقت نفسه رميت أرضاً رايات الترك.

وكان من الممكن الآن رؤية الترك وهم يفرون نحو البرج أو يسقطون أرضاً بعد اصابتهم بضربات السيوف، أو ارتموا بلا حراك إثر اصابتهم

بـالنشاب، وذلـك قبل أن يتمكنـوا من الـوصـول إليه، وكـل من وجـده رجالنا مـا يزال صامداً في مكانه فـوق الشرافات، رموه إلى الأرض دونهم، ولقد تم قتل ستين من الترك في مختلف أجزاء الحصن.

وعنـدما رأى الـذين التجـأوا إلى البرج مقتـل عساكـرهم، وأن المكـان الـذي اعتصموا فيـه سـوف يجري تدميره (لأن رجـال الملـك كانـوا على الفور بنـاء على توجيه الملـك قد شرعوا بـالعمل لتدميره) أدركـوا أنهم لن يستطيعوا التمتـع بالأمان طـويلاً في التصـدي للملك، لذلـك استسلموا يـوم الجمعـة قبـل عيـد الحصاد، ووضعـوا أنفسهـم تحت الـرحمة الملكيـة ليكونـوا عبيداً دومـاً إلى الأبد، وتمتن هـذا القرار أكثر بـوساطـة حقيقة أن أميرهـم القوي جداً، واسمه قيصر Caisac ، الذي كان معهوداً إليه أمر قيادتهم وحمايتهم، قد أخفق بوعـوده في تأمين الأمان لهم، وبعد الاستيلاء على حصن دير البلح، وجدوا فيه نحـواً من أربعين أسيراً فرنجياً، كانوا في الأغلال، وباتوا الآن يعيشون أحراراً.

وجعل الملك رتشارد رجـاله ليلة الجمعة التالية يقـومون بحراسة الترك الذين ظلوا على قيد الحياة، حتى الصباح، ومع أوائل الفجر طلب منهم النـزول، وقـد ربطت أيـديهم خلـف ظهـورهـم بحبـال، ولذلـك غـدت أطـرافهم متيبسـة، وكان تعـدادهم قـد وصـل إلى ثلاثمائة بـالإضافـة إلى الأطفال والنساء.

وهكذا تملـك الملك رتشارد حصن ديـر البلح، بفخر كبير، وذلـك بعد أربعة أيـام من هجـومه عليـه وكان رجـالنا راغبين تمامـاً في انجاز هـذا العمل بدون الفرنسيين، حتى ينالوا مجداً أعظم.

وهكذا جرى الاستيـلاء على دير البلح، وفي الوقت نفسه كـان الكونت هنري مـع الفرنسيين ودوق بيرغندي، قـادمين بسرعة كبيرة، حتى يكـونوا حضـوراً أثنـاء الاستيلاء على الحصـن، لكنهـم وصلـوا متأخـريـن كثيراً،

واستقبل الملك الكونت لدى وصوله بحفاوة خاصة وبسرور عارم، وأخذه معه إلى الحصن وأعطاه إياه بحضور الجميع، وذلك بمثابة القطاف الأول للكيته، ولمملكته التي سيستحوذ عليها، وبقي الجميع في حصن دير البلح حيث أمضوا يوم عيد الحصاد العظيم، وفي يوم الاثنين التالي، وضعوا بعض رجال الكونت بمثابة حرس في الحصن، وانطلقوا نحو عسقلان، ومروا في وسط غزة حتى وصلوا إلى مجدل يابا، فهناك بقي الملك لمدة ثلاثة أيام، لكن البقية ذهبوا إلى عسقلان، حيث احتفل الفرنسيون بوقار بعيد الحصاد.

وعندما كان رتشارد في ذلك الموضع هناك وصل رسول من انكترا، وكان رجل دين اسمه جون دي ألنكون Alencon ، ليخبر الملك عن الأوضاع المضطربة في انكلترا، ومرد ذلك إلى تصرفات أخيه الإيرل جون، الذي كان يرفض الاصغاء إلى حجج أمه الملكة، أو إلى أي شخص آخر، بل اتبع هواه والدسائس المتوالية لملك فرنسا، وأكد جون دي ألنكون للملك أنه ما لم يوضع حد للخيانة غير المشهورة، وتوقف بوسيلة أو أخرى، انكلترا واقعة في خطر حرمان الملك رتشارد من ملكيتها.

وانزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار، وفكر مليا حول أي السبل عليه أن يتبع، واعترف أخيراً أن عليه العودة إلى الوطن، إذ لم يرغب في أن تنتزع منه بلاده ومملكة آبائه، وفي الوقت الذي لم يكن قد أعلن فيه عن نوايا الملك ومقاصده، قال بعض الناس إنه ذاهب، وقال بعضهم الآخر: إنه لن يدع تقارير غير مؤكدة تبعده عن إتمام واجبه الديني، فمثل هذا العمل لن يساعد على استرداد الأرض المقدسة، ولن يضاعف أمجاده.

وفيما الناس على خلاف بالرأي حول مغادرة الملك رتشارد، اجتمع معا جميع قادة الجيش وضباطه من: فرنسيين وانكليز، ونورمانديين، ورجال بواتو، ومين وأنجو، واتفقوا أنه سواء أعاد الملك رتشارد أم لم

يعد، سوف يـزحفون لحصار القدس، وما من شيء ينبغـي أن يمنعهم من القيام بذلـك، وعندما بات هـذا معروفاً بين صفوف الجيـش امتلأ الناس بسرور عـارم، وابتهج الجميـع مع بعضهـم بشكل علنـي من غنـي وفقير، وعالي ومنخفض، ولم يكـن هناك رجلاً واحداً في الجيـش إلا وشعر بالشيء نفسه، وبناء عليه أقاموا إضاءة هائلة، ورقصوا وغنوا طوال الليل تقريباً.

وكان الملـك وحده الذي اضطرب لـدى سماعه بذلك، وجلـس يفكر واستغرق بـالتفكير حتى قهره ثقـل ذلك، فألقى بنفسـه فوق فراشـه، وهو غاضب جداً.

وكان الـوقت الآن بداية حـزيران، وانتعش النـاس بالرغبة بـالانطلاق نحو القدس، وانطلق الملـك مع الجيش من تل الصافيـة، وتابعوا زحفهم خلال السهول إلى يبنى العائدة للاسبتاريـة، ثم إلى بيت جبرين فالخليل، قرب الوادي الذي قيـل بأن حنة أم مريم العذراء قد ولـدت فيه، وتوقفوا هناك حيـث هاجمتهـم حشود مـن الحشرات الصغيرة، التي طـارت هناك مثل شرر النار، وأطلق عليها اسم « بعوض Cincenelles » ، وامتلأت المنطقـة كلها مـن حولهم بهذه الحشرات، وقـد أزعجـت الحجاج بشكـل مرعب بلسعـاتها الحادة في الأيدي والرقبة، والعنق، والجبهـة، والوجه، وفي كل مكـان صدف وكـان مجرداً، وكان يتبـع اللسعات حـرقة وتـورم، وبدا الذين تعـرضوا للسع مثل المصـابين بالجذام، وبصعوبة استطـاعوا تجنب الهجمات المزعجة بوساطـة أغطية ألقيت فوق الوجه والرقبـة، لكنهم كانوا جميعـاً في معنويـات عاليـة، واعتقـدوا أن عليهم تحمـل هذه المنغصـات بصبر، لأنهم جميعاً أقسموا على الزحف من أجل حصار القدس.

ورأى في أحـد الأيـام شماس مـن بـواتو، اسمـه وليـم، الملـك، وهـو جالس لوحده في الخيمة، وعيناه مثبتتـان نحو الأرض، وهو في حالة تأمل، فشعر بالانزعـاج من أجله، لأنه عرف أنه كان منزعجـاً جداً وقلقاً بسبب الأخبار الـواصلة من انكلترا، غير أنه لم يتجـرأ على المغامرة على الـدخول

على الملك ليخفف عنه وليلطف من ضيقه الذي أثقل كاهلـه، ونظر إليه نظرة احترام وانهمرت الدموع من عينيه، دون التفوه بكلمة واحدة.

وعندما رآه الملك أنه راغب في مخاطبته استـدعاه وأدناه منه وقال له ما يلي: « أيها السيد الشماس، أرجوك أن تخبرني، بحـق الولاء الذي تديـن به إليّ، ما هو السبـب الذي جعلك تبكي، وهـل لمناسبة انزعـاجك وأساك أية علاقة بي؟».

ورد عليه الشماس بصـوت متواضـع قائلاً: « إنني لن أتكلـم قبل أن أعلم أن معاليـك لن تغضب من الـذي سوف أقوله» : وأقسـم له الملك أنه سيعطيه الحرية في أن يقول ما يشاء، وبناء عليه بدأ الشماس يقول:

« مولاي الملك، إنني أبكي بسبب الوضع الحرج الـذي أراك فيه قائماً مع الجيـش، ذلك أنك تنـوي العودة إلى الوطـن، لعل الرب يمنعـك عن الابتعاد عن استرداد هذه الأرض المسكينة بسبـب أخبار مشكوك فيها، أو غير مؤكدة، لأننا نعتقـد أن تخليك سيسبب عاراً أبدياً لـك، فالجميع هنا على اتفاق أنك الأب، والبطل، والمدافع عـن المسيحية، وإذا ما هجرتهم كأني بك وقد ألقيت بهم للدمار بوساطة العدو».

وأصغى الملـك إلى كلمات الشماس، وتفكر بها في قـرارة نفسه بصمـت لبعـض الوقـت، وتبـدل موقفـه وتغيرت نوايـاه بهذا الخطـاب، وتأكـدت عزيمتـه حول السبيل الـذي سوف يتبعـه، ولهذا رجع مع جيشـه في اليوم التالي إلى عسقلان، وتـوقف في البساتين الموجودة خـارج المدينة، وافترض كل واحد أنه بـات على نية العودة إلى الوطن، وأنه يسرّع عـودته، لكن بما ألهمه الرب إيـاه من خلال الشماس، أخذ الملك يغير نيتـه، وأخبر الكونت هنـري ودوق بيرغندي وبقيـة النبـلاءأنه لـن يترك الأراضي المقـدسة قبـل الفصح، بسبب تلقية أية رسالة أو أي تقرير أو شكاية مهما كان نوعها.

وبنـاء عليه، استـدعى في الـرابع مـن حـزيران، في اسبـوع الثالـوث

المقدس، فيليب، منـاديه وأمره أن يعلن في جميـع صفوف الجيش إن على الجميـع إعداد أنفسهـم وفقاً لامكـانياتهم، والاستعـداد لحصار القـدس، وعندمـا سمع الجيش كلمات المنادي ابتهـج مثل طير عند حلـول الفجر، وعلى الفور أعد الجميع أنفسهم وقالـوا: « أيها الرب، إننا نعبدك ونشكرك لأنك سـوف تجعلنا عما قريب نـرى مدينة القدس، التـي استقر بها الترك مدة طـويلة وأكثـر مما ينبغي، أيها الـرب بارك تـوقعاتنا بعـد هذا التـأخر الطويـل، فلم عـانينا وتعـذبنا وتـألم كل منـا، إن شوقنـا الطويـل لرؤيـة مدينتـك سوف يعـوضنا عـن كل شيء»، وهذا الـدعاء ومثلـه قدمـه كل واحـد، وبـات همهـم الـوحيد وشغلهـم الشـاغـل الآن هـو الشروع بهذا الزحـف، زد على هذا كـانت حشود النـاس من الطبقات الـدنيا متشـوقة جداً للزحف نحـو القدس، وباتوا نشيطين جداً بأملهـم، حتى أنهم حملوا حقـائب المؤن على أكتافهـم، وأكـدوا أنهم قـادرون تماماً، أن يحملـوا ميرة شهر، فلا شيء لايمكـن التغلب عليه في ذهن انسـان ملك الإرادة، فقط إذا امتلك الـرغبة والحماسة في خـدمة الرب، فهـذا يخفف من شقـاء تعبه ويلطفه.

وفيما كل واحد كـان مشغولاً بالاستعداد للحملة، بـدا أن كل شيء قد حدث متوائم مع نواياهم، وبعـد ما استعد الملك والجيش تمام الاستعداد من أجـل الزحف، انطلقـوا من عسقلان في فجـر يوم الأحد، الـذي وافق اليوم الثـامن بعد عيـد الثالوث المقدس، وسـاروا يريدون القـدس، وكان الذيـن تقدموا في الأمام نخبـة الناس، وقد اصطفوا بشكـل رائع، وزحفوا ببطـيء بسبـب الحرارة، وزود الذيـن انتمـوا إلى الطبقـات العليا الـذيـن انتمـوا إلى الطبقات الـدنيـا بما أرادوه بكرم، وكـان هـؤلاء فقراء الحجـاج الـذيـن سـاروا على أقـدامهـم، ولقـد زودهـم الأغنيـاء بجميـع وسـائل التسهيلات من خيـول وكل نوع من دواب الحمولة لحملهـم، وفي الوقت نفسـه سـار في الخلـف الـذين حملـوا أسلحـة خفيفـة، والجنـود الشبـاب

الأقوياء.

وكان بإمكانـك وقتها أن ترى عدداً من الأعلام والعـذبات من مختلف الأشكال وهي تخفـق في الهواء، وكذلك أناساً من مختلـف الأمم، وأسلحة متنـوعـة الأوصـاف، وخـوذاً لها أعـراف وكـانـت تلمع بالجواهر ، ودروع مشرقة ، وتـرسة مزينـة بصور أسود أو تنينات طـائرة وكلها من الـذهب، وبغال وخيـول متشوقة للتحـرك بسرعة كـاملة ، ويتحرقـون سخطاً لأنهم أعيقـوا ببعض المعيقـات ، وكانـت هنـاك رماح كثيرة بـأسنة حـادة ذات لمعان ، وكـان الجو مليئاً بأشعة السيـوف المتلألئة ، كما وكان هنـاك عدد كبير من الجنود ، من خيرة الرجال ، رجال صدق وجودة .

وتقدموا مسرعين وبنجـاح ، وبعد عبورهـم لنهـر عذب الماء وصلوا الى تل الصافيـة ، ونصبوا خيامهم بـالسهل بالخارج ، وأمضوا الليـل هناك ، وفي أثناء الليل مات عسكري مع حامـل سلاحه لأنهما لدغا من ثعبانين في منطقة صغيرة هنـاك ، أرجو أن يمنحهما الـرب الذي كـانا يعمـلان في خدمته الغفران لروحهما ، ومكث الجيش في ذلك المكان لمدة يومين .

ووصـل الجيش في اليـوم الثـالـث ، وهو التـاسـع مـن حزيـران ، الى النطـرون ، وذلك بـدون عوائق أو منغصـات ، وأسر رجالنـا الليلة أربعـة عشر بدوياً هبطـوا من الجبال للنهب ، وفي اليوم التـالي تحرك الجيش بعد الغداء نحـو الأمام ، وسـار الملك في الطليعـة ومعه خـاصة جنـده حتى قلعة قلونيـة ، حيث أمر بنصب خيمته على الجانـب الأيمن ، والأعلى من القلعـة ، ووصل الفـرنسيون في اليـوم التالي ، وانطلـق الجيش كلـه الى بيت نـوبة حيـث مكث بعـض الوقت يتـوقع وصـول الكونـت هنري ، الـذي بعثه الملـك رتشارد الى عكـا لجلب بعـض النـاس الذيـن كانـوا يعيشـون هناك بـاسترخاء وكسـل ، ولذلـك كان مـن الضروري بالنسبـة للجيش أن يبقـى هناك الشهـر كله أو أكثر ، وأن يقيـم عند سفـح الجبل الـذي تـوجب على الحجـاج عبـوره لـدى ذهـابهم الى المدينة المقـدسـة والعودة عنها .

- ٩٥٨ -

لماذا لم يزحفوا الى القدس

وفيما نحن في الوادي ، رأينا أشياء كثيرة تحدث ، الأمر الذي نعتقد أننا لا يجوز أن نمرّ به صامتين ، ففي اليوم الذي أعقب عيد القديس برنابا ، وكان يوم جمعة ، أخبر جاسوس الملك أن الترك موجودين فوق الجبل ، في كمين للذين توجب عليهم الجواز ، ولهذا انطلق في الصباح الباكر عند الفجر للبحث عنهم ، وفاجأهم على حين غرة عند نبع عمواس ، فقتل عشرين منهم ، وجعل البقية يفرون ، وأسر منادي صلاح الدين ، الذي اعتاد أن يعلن مراسيمه ، وكان هذا الرجل هو الرجل الوحيد الذي أبقاه الملك رتشارد حياً، واستولى أيضا على ثلاثة جمال ، وخيول وبغال ، وثلاثة أكاديش وبغلين محملين بأغطية حريرية ثمينة وأنواع مختلفة من توابل الصبر، وأشياء أخرى ، وطارد بقية المسلمين عبر الجبال ، ملحقاً بهم الهزيمة ومقتلاً لهم ، حتى وصل الى وادي ، فهناك بعدما طعن واحداً من الأعداء ورماه أرضاً يموت ، نظر نحو الأعلى فرأى عن بعد مدينة القدس .

وعندما وصلت أخبار اقتراب الملك رتشارد الى الترك الذين يسكنون في القدس ، بوساطة الفارين ، أصيب هؤلاء بالهلع ، وليس هناك من شك لو أن الملك ورجال جيشه تقدموا نحو الأمام في تلك اللحظة من رعبهم ، لتخلي الترك عن القدس ، ولتركوا الفرنجة يستولون عليها بدون منازع ، فقد هرب المسلمون منها أفراداً و جماعات ، ولم يغامر أحد على البقاء بالمدينة ، وما من أحد ارتدع بتهديدات السلطان ، أو انجذب بأمل الحصول على جائزة ، ولهذا كان كل ما طلبه السلطان نفسه هو تزويده بأسرع فرس لديه حتى يمكنه الفرار من وجه الملك رتشارد الذي لم يتجرأ على الانتظار حتى وصوله .

وفي اليوم السابع عشر من حزيران ، وهو يوم عيد القديس بوتولف Boitolph كانت قافلتنا في طريقها من يافا إلى الجيش مع الميرة وبقية الأشياء الضرورية ، وسارت غالبية طلائع رجالنا بسرعة نحو الأمام ، لكن الذين كانوا في الساقة تبعوهم ببطء وبخطا متثاقلة، وعندما كانوا غير بعيدين عن الرملة، انبعث خيالة ترك من كمين، واندفعوا نحو الذين في الساقة، وحاولوا أن يغدوا أمامهم، حيث مروا مباشرة من خلال ساقة القافلة، وأسقط هناك بلدوين دي كارون Carron من على ظهر فرسه، غير أنه امتشق حسامه وأخذ يضرب به في جميع الاتجاهات، فبرهن أن متمنع على العدو، ويتعذر عليهم الوصول إليه.

وألقي أثناء ذلك القتال برتشارد توركي Torquesوثيودورك من على ظهري فرسيهما ، لكن بلدوين قاتل حتى جلب له رجاله فرساً آخر ، وساعدوه على امتطائه ، وكان هناك صراع حاد ومشرف لكلا الجانبين ، وكانت السيوف تسطع ، وجانب يهاجم والآخرون يدافعون عن نفوسهم بشجاعة قصوى ، وكانت هناك خيول تجول تائهة بدون ركاب ، وكان الترك يحملون ورجالنا يقاتلون بثبات.

وكان ما أن يوقع الترك بعض رجالنا الى الأرض ، كما حدث مراراً ، كان رجالنا يصطفون من حوله بإحكام ، ويقيمونه ، ويساعدونه على امتطاء فرسه ، فقد كان كل واحد يساعد الآخر ، لكن رجالنا قاتلوا في وضع محرج جداً ، فقد كانوا قلة قليلة ، فقد كان كل واحد يصارع عدوه وهو مغطى ـ كما حدث فعلاً ــ بحشد من أعدائه عندما كان أي واحد من رجالنا يحرم من حصانه ، كان مصيره الغلبة من قبل الأعداء ، وقد عقرت الخيول ، وأضعفت كثيراً بزخات النشاب التي رميت عليها .

وألقي بلدوين أرضاً للمرة الثانية وما أن رمي من على ظهر حصانه حتى بادر على الفور فأمر واحداً من رجاله المسلحين بأن يترجل ، وركب

هو عوضاً عنه ، وبعد قليل قطع رأس هذا الرجل الذي تصرف ببسالة .

واتخذ رجالنا الآن موقف الدفاع ، وجرى أسر فيليب رفيق بلدوين ، ومعه أسر الترك رجلاً آخر من الأتباع المسلحين ، وكان شجاعاً جداً ، كما قتل آخر رتشارد توركوي ، وللمرة الثالثة حرم بلدوين من حصانه ، وضرب بالهراوات حتى أصبح بلا حراك وكاد أن يموت ، وتدفق الدم مثل النهر من أنفه ومن أذنيه ، بينما انثلم سيفه من كثرة الاستعمال وانكسر رأسه ، وبات غير صالح للاستعمال ، ثم جرى تطويق بلدوين بمجموعة كثيفة من الترك ، وهنا صرخ لـ « مانسييردي ليسلي» nan-nassier de lisle ، وكان فارساً عظيم القوة ، سحق كل من واجهه ، وقال : « مانسيير هل تخليت إذن عني » ؟

وبناء عليه امتطى مانسيير فرسه وبادر بكل سرعة لانقاذه ، لكن العدو كان كثيراً جداً ، وشجاعاً ويقاتل بعزيمة وثبات ، لهذا لم يستطع هذان الرجلان فعل شيء ضد رجال العدو ، فقد حرم مانسيير من فرسه ، وعندما بات على الأرض ضربوه بوحشية بأعمدة حديدية ، ذوات رؤوس خشنة ولها أسنان ، وكان واقفاً على الأرض ، فأنهكوه حتى سقط لما به وكسروا ساقيه وعظامه ، وكل ما في جسده هتكوه ، وهكذا تم تدمير كل من بلدوين ومانسيير من قبل العدو ، بينما لم يعلم رجالهما شيئاً عن مصيرهما .

وأرسل الرب في هذه اللحظة ايرل سالسبري الشجاع لانقاذهما وحمايتهما ، واندفع الايرل نحو العدو وألقى بأول رجل اصطدم به من على ظهر حصانه ، فعجل بناء عليه أو سكون Auscun ، وكان رفيقاً لستيفن دي لونغشامب ، فقطع رأسه ، ورماه إلى مسافة بعيدة ، وتصرف ستيفن أيضاً برجوله ، وازداد رجالنا بالعدد ، وانزلت الهزيمة بالعدو ، وهرب بسرعة الى الجبال ، اللهم باستثناء الذين ألقى رجالنا القبض عليهم ، أما الذين جرحوا من رجالنا فوضعوا بعناية على

ظهور الخيول وحملوا الى الجيش .

وجلب رجل سرياني ، هو أسقف القديس جورج (اللد) قطعة من صليب الصلبوت الى الملك هنري ، وكان هذا الأسقف شخصياً مع رعيته ممن يدفع الجزية لصلاح الدين ، منذ أن دخل المسلمون القدس للمرة الأولى ، وكان عندما جاء ، جاء مصحوباً بعدد كبير من الرجال والنساء ممن ينتمون الى شعبه ، وأعطى الملك قطعة الصليب .

وحدث أيضاً ، في اليوم الثالث ، قبل عيد القديس يوحنا المعمدان ، بينما كان الجيش في بيت نوبة ، أنه قلق كثيراً تجاه أخبار جلبت الى الملك ، جلبها رجل تقي هو راعي دير القديس إيليا ، الذي عبر مظهره الخارجي ، ولحيته الطويلة ، والرأس الأبيض ، عن القداسة ، وأخبر الملك أنه منذ زمن بعيد مضى خبأ قطعة من صليب الصلبوت ، احتفظ بها لتبقى حتى يتم انقاذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، وما أن سمع الملك بهذا حتى بعث على الفور مع الراعي عدداً كبيراً من الناس الى المكان الذي تحدث عنه الراعي ، وبعدما حملوا قطعة صليب الصلبوت بتذلل وتبجيل ، عادوا معاً الى الجيش ، وقبلوا مع الناس قطعة الصليب بكثير من التقوى والاستغفار .

وبعدما تعبد الجيش الصليب لوقت طويل بسرور عظيم زائد ، تشكى الناس من الطبقة الأدنى ومن العامة وقالوا : « أيها الرب ، ماالذي سنفعله ؟ هل سنتابع الزحف الى القدس ؟ ثم بماذا سنقوم أيضاً ؟ هل سنستطيع الصبر حتى ننجز حجنا » ؟ هكذا تعالت التمتمات والشكاوى بين الناس .

وبناء عليه اجتمع الملك مع قادة الجيش للبحث هل من المفيد المتابعة حتى حصار القدس أم لا ، ووافق الفرنسيون على الزحف بحرارة ، لا بل حثوا الملك على متابعة الزحف والحصار ، وقد رد عليهم

بأن هذا لا يمكن القيام به ، وقال الملك :« إنكم لن تروني أعمل بمثابة دليل وقائد للناس في هذه المسألة ، لأن من الممكن أن نكسب بذلك العار ، لأنه من غير المعقول كثيراً أن نمضي في هذه المغامرة ، وإذا كان يرضيكم متابعة الزحف الى القدس ، لن أتخلى عنكم ، غير أنني سأكون رفيقكم ولن أكون قائدكم ، وإنني سأتبعكم ، لكن لن أقودكم .»

«ألا يعلم صلاح الدين كل ما يجري في معسكرنا ، وهل تظنون أن أوضاعنا الضعيفة غابت عن ملاحظته؟.

إنه يعرف تماماً كم هي قوانا،وأننا بعيدين عن شاطىء البحر، وعندها سينحدر العدو بقواته من الجبال الى سهول الرملة ليراقب الطرقات،وليقطع الممرات على الذين يجلبون لنا المؤن، وهنا ستكون المحصلة مأساوية جداً بالنسبة للمُحاصِرين،وعندها سنندم ولات حين مندم،وسندفع عقوبة مغامرتنا الحمقاء ،وثمن عنادنا» .

«زد على هذا إن أسوار القدس التي نقترح حصارها،هي كما سمعنا-عظيمة جداً باستدارتها،وأن نقوم بمضايقتها بقواتنا-التي هي قليلة كما ترون الآن-إن عددها لن يكون كافياً لمتابعة الحصار ،أو القيام يه، أو حماية الذين يجلبون الميرة،من الحملات التي سيشنها الترك،ومن المؤكد أنهم سوف يتعرضون للدمار أفراداً أو جماعات،إذا لم يكن هناك من يتولى انقاذهم».

«وإذا ماقمت بهذه المغامرة الخطيرة ،ونزلت نازلة سوء وأنا المتولي للقيادة (لاسمح الرب) إنني وحدي الذي ينبغي أن يلام لعدم تبصري ،وسأكون وحدي المسؤول عن المخاطر،وليس هناك من شك ،وأنا على يقين من ذلك،أن هناك أشخاص هنا في الوقت الحاضر،كما هناك أشخاص في فرنسا،قد رغبوا منذ وقت طويل، ويتمنون كثيراً أن أبذل غاية جهدي في هذا الصدد،من دون اتخاذ احتياط موائم،وتيقظ مناسب،وأن علي انجاز أعمال

جريئة ،ستكون بحق موضع تساؤل وستجلب العار لاسمي النقي حتى الآن من أية شائبة، وبناء عليه إنها عملية خطيرة جداً ،ولها نتائج مشكوك بها وغير محققة على الاطلاق، وأرى إنه خطأ أن نبادرفنندفع نحو الأمام بدون احتياطات عظيمة»

«زيادة على ماتقدم،نحن ،وشعبنا نجهل طبيعة هذه المنطقة،ولانعرف الطرقات ولاالتشعبات والعقبات،ولو أننا كنا أفضل معرفة بهم،لأمكننا الزحف بسلامة أكبر،ومع هذا أرى إن أفضل سبيل نتبعه هو أن نسأل السكان المحليين من أبناء الأرض،ونطلب نصيحتهم،وهم مشتاقون الى استعادة أراضيهم والعودة الى أوضاعهم الماضية، وينبغي أن نجهد لنتأكد منهم ماالذي يرونه الأفضل للقيام به، وأرى أيضا إنه ينبغي علينا استشارة الداوية والاسبتارية، ونقف على حكمهم وموقفهم حول :هل علينا الزحف أولاً لحصار القاهرة،أو لحصار بيروت،أو لحصار دمشق،وبهذه الصورة لن يستطيع جيشنا الاستمرار،كما هو الآن، في أن يتوزع الى فئات بسبب الآراء المتباينة».

وبناء عليه،تم الاتفاق ،استناداً لتوصية الجميع وموافقتهم،وجوب اختيار عشرين رجلاً موثوقاً بهم،وأن يقسم هؤلاء على اتخاذ قرار حول ماهم بصدده، وأن على الجميع الأخذ بقرارهم دون مزيد من المعارضة،وبالفعل جرى اختيار خمسة من الداوية،وخمسة من النبلاءالفرنسيين، وخمسة من الاسبتارية، وخمسة من البلديين السوريين، واجتمع هؤلاء العشرين مع بعضهم،وبعد التداول لبعض الوقت،حول المسألةالمطروحة من قبل،عرضوا موقفهم المقرر وهو إن أفضل خطة على الاطلاق هي الزحف مباشرة لحصار القاهرة،ولدى سماع هذا عارضه الفرنسيون بكل شدة، واحتجوا وقالوا إنهم سوف لن يزحفوا الى أي مكان إلا الى حصار القدس.وعندما سمع الملك بعناد الفرنسيين وتخليهم عن موافقاتهم بالالتزام،اضطرب وانزعج وعلق قائلاً :«إذا كان

الفرنسيون ليسوا على استعـداد للالتزام بخطتنا، ولن يوافقـوا على الزحف لحصار القـاهرة، تماشيـاً مع ما أقسمـوا على طاعتـه،إنني سـوف أعطيهم اسطـولي الراسي في عكـا،وهو مجهـز تماماً ،وذلـك لكي يحمـل مؤنهم ومـا يحتـاجـون إليه،ووقتهـا يمكـن للجيـش أن يـزحـف على طول السـاحـل وهـومطمئـن،كما أننـي سـأبعـث الى هنـاك معهـم،على حسـابي الخاص، سبعمائة فارس، وألفين مـن أتباعهـم، وذلك بـاسم الـرب، وإذا كان أي واحد يحتاج الى المساعـدة من مالي أوبما هو متوفر لدي،ليكـن متأكدا أنه سـوف يزود بكـل مايطلبـه، وإذا كان أي واحـد يشك في أننـي سأفعـل ذلك،فأنا سوف أزحف مع جنودي فقط، وبدون عون الآخرين».

ثم أمر بـالتقصي والبحث في داخل خيم الاسبتارية التـي كانت مجاورة لخيامه، ومعرفة ماالذي يمكن تزويـدهم به من أجل القيام بالحصار ،وكم عدد الرجال الـذين يمكنهم تقديمهم وتسليحهم ،وجـاء المقدمون أيضاً الى هنـاك،ووافقوا على تقـديم وفـرة مـن الاسهامـات فيما يتعلق بنفقـات الحصار،مـع أنهم كانـوا يمتلكون القليـل جداً في جيـوبهم،لكن في تلـك اللحظـة الحرجـة والحاسمـة ظهـروا وهـم متشـوقين جـداً للقيـام بتلـك المخاطـرة المريبة النتائج كثيرا ،حتـى باحتياطات أقـل مما تصوروهـا لدى الشروع بالتفكير بحصار القدس، التي حللتهم الأيمان من القيام به.

الاستيلاء على القافلة الكبيرة

وبناء عليه،بينما كان الاسبتارية يبحثون بقلق ماالذي ينبغي أن يقدمه واحد تجاه نفقات الحصار،وصل برنارد،وهو جاسوس للملك رتشارد،ومعه اثنين آخرين جاء كل واحد منهما من جوار تخوم مصر،وكانا من السكان المحليين للمنطقة،وقد لبسا ملابس تركية ولم يختلفا في شيء عن المسلمين، وكانت وظيفتهما أن يرويا للملك رتشارد تقارير عن أوضاع العدو ومامن أحد تكلم اللغة التركية بيسر أكثر منهما،وأعطى الملك رتشارد لكل واحد منهما ثلاثمائةمارك فضي مقابل خدماته.

وبينا للملك أن عليه أن يستعد مع رجاله بكل سرعة ممكنة، لاعتراض طريق قافلة كانت قادمة من مصر،ووعداه أن يقوداه نحوها،وابتهج الملك لدى سماعه ماحكياه وطلب من دوق بيرغندي أن ينضم اليه على الفورللقيام بهذه المغامرة،وليجلب الفرنسيين للمساعدة،ووافق الفرنسيون على القيام بهذا شرط أن يتسلموا ثلث الغنائم،ووافق الملك على هذا المطلب،وهكذا حضر من الفرنسيين على الفور خمسمائة جندي مسلحين بشكل جيد جاهزين للانطلاق ،وأخذ الملك معه ألف رجل ممن كان يخدمه بالأجرة.

وشرعوا بالزحف عند المساء،وتقدم الملك أمامهم،وساروا طوال الليل في ظل ضوء القمر الرائع،ووصلوا الى تل الصافية،واستراحوا هناك قليلاً، وبعثوا الى عسقلان من يجلب اليهم المؤن، وأعدوا بالوقت نفسه بكل عناية أسلحتهم حتى وصول الخدم الذين أرسلوهم لجلب المؤن.

لكن ماأن زحفت قواتنا للهجوم على القافلة حتى أخبر جاسوس صلاح الدين في القدس بأنه رأى الملك رتشارد ينطلق مع حشد كبير من شعبه لاعتراض القوافل،وبذلك انكشف سر حملتنا،فأرسل صلاح

الدين مسرعاً خمسمائة من خيرة الترك،الذين شكلوا عندما التحقوا بالذين كـان موكـلاً إليهم حـراسـة القوافـل، قوة مكـونـة من ألفـي فارس ،وذلـك بالاضافة الى جماعة كبيرةمن الرجالة.

وعنـدما كـان الملك رتشـارد وأتباعـه يرتـاحون في تـل الصافيـة،أخبر جاسوس الملـك بأن واحد ة من القوافـل المتقدمة الذكرتعبر بـالقرب من صهـريـج مستديـر(الخويلفـة)، وأشـار عليـه بالمضي مبـاشرة والاستيـلاء عليهـا،وأوصـاه بإبقـاء قـواتـه في الخلـف،وقال:«لأن مـن سيستـولي على القافلـة، سوف يحصل على غنـائم هائلـة»لكن بما أن الجاسوس كـان من أبناء المنطقة ،لم يـر الملك وجوب الوثـوق به تماماً،والاعتماد على تأكيـداته لوحده، ولهذا بادر الملك الى ارسال بـدوي مع اثنين من الخدم التيركوبلية اليقظين،للتأكـد من صحة المسألـة،بعد البحث والتقصي حـولها،وجعلهم يلبسون لباس البدو،حتى يظهروا مثلهم مثل المسلمين.

وانطلق الـرجال الثلاثـة ليلاً عبر الهضاب ،التي كـانـت مغطاة بـأبراج مـراقبة، وانعطفـوا نازلين الى الـوادي، وسـاروا حتى رأوا بعـض المسلمين فوق بقعة مرتفعة،وكان هؤلاء أنفسهـم جالسين ينتظرون الذين يمكن أن يعبروا الجبال،وعنـدما اقترب بـدوينا منهم لاكتشـافهم بخطـوات خفية، سـألهم المسلمون مـن هم، ومـن أيـن جاءوا،والى أيـن وجهتهم ،وطلـب البدوي مـن الآخرين التزام الصمـت،خشية أن يكتشفهم المسلمـون من كلامهم،وأجابهم بـأنهم كانوا عائدين من المنطقـة المجاورة لعسقلان،الى حيـث ذهبوا للنهـب،لكـن واحـداً من المسلمين قـال لـه:«لقـد قدمـت للبحث عنا،وأنت من أتباع ملك انكلترا»وأجابه البدوي بأنه يكذب ،ثم تجاوزه وتقـدم مسرعاً بـاتجاه القافلـة ، ولحق بـه بعض المسلمين لبعـض الـوقت ، وهـم يحملون قسيهـم ورماحهـم ، وظلوا يفعلـون ذلك حتـى توقفوا عن المطاردة بسبب تعبهم » .

والآن وقد تأكد جـواسيسنا من حقيقة القافلة ، عـادوا بأقصى سرعة

الى الملك وأخبروه أن بـإمكانه الاستيلاء بسهـولة على القافلة إذا مـا بادر مسرعاً ، وعندمـا سمع الملك بهذا ، وبعدمـا كان قد أراح خيولـه وعلف عليها ، انطلـق مع رجالـه ، وساروا طوال الليلـة التالية حتـى وصلوا الى المكان حيث كانت القافلة ، فـأعدوا أسلحتهم ، وعبأوا أنفسهـم ، وسار الملـك في الصف الأول ، ومشـى الفـرنسيون في السـاقـة ، وحظر الملـك بصوت المنـادي على أي واحد الالتفات نحو النهـب ، وأمرهـم أن يبـذلوا ما في وسعهم لخرق الصفوف التركية وتدميرها .

ومع اقتراب الصبـاح ، وعندمـا كانوا مشغـولين في تنظيم صفـوفهـم ، وصل جاسوس آخـر مسرع جداً ، وأخبر الملك بأن القافلة كـانت تستعد مسرعة للتحرك منذ الفجر لأن نية الملك بمهـاجمتها باتت معروفة من قبل حراسها ، ولـدى سماع الملك بذلك ، تقدم نحو الأمـام مع نبالته ورماة الزنبـورك ، ، ليعطل القافلة وحراسها ، ولإثـارة الحراس للدخول في معركة أبقـاهم تحت رقابته حتـى يتمكن هو وعساكـره من الانقضاض عليهـم ، وبهذه الطريقـة شعـر الترك بـالخطر وتـأخـروا ، في حين اقترب منهم جنودنا مصطفين في أرتال قتالية جاهزة لانشاب المعركة .

ومـا أن رآهـم الترك حتـى شرعـوا على الفـور بـالصعـود الى أحـد الجبال ، من أجل أن المنطقة المرتفعـة يمكن أن تمنحهم وضعاً أثبت ، ودلل مظهرهـم العام على أنهم أقل ثقة بـأنفسهم من المعتاد ، ثـم أقلع الترك بحملة حـادة ، وأرسلوا بجروخهـم ونشابهم مثـل زخات البرد على صفوفنا ، في حين بقيت القافلة واقفة دونما حراك .

وكان الملـك رتشارد قد قسم جيشـه الى قسمين ، وبناء عليه هـاجم الترك بشكـل مفاجـىء وتمكن مـع أتباعـه من خـرق صفوفهـم الأولى وهـزموهـا ، وكـانـت حملته مـن الشـدة بمكـان جعلتهم يسقطـون الى الأرض من دون ضربة تقـريباً ، وضغط هو بحـدة وشدة على المنهزمين ، إلى حد أنـه لم يبق هناك من لـديه مقاومة ، بـاستثناء عدد من الـذين

فروا ، وكانوا يلتفتون نحو الخلف ، ويرمون بالنشاب خلفهم ، وهكذا هرب الجميع ، مثل الأرانب البرية أمام كلاب الصيد ، وطوردوا في كل اتجاه ،في حين وقفت القافلة تحت رحمة المطُارِدين الذين قتلوا كل من اصطدموا به ، وهكذا تكومت جثث قتلى العدو فوق الرمل ، فالذين حرموا من خيولهم بوساطة فرساننا ، أجهز عليهم سيرجنديتنا ، وكان من الممكن أن تشاهد هناك خيول وقد انقلبت سرجها ، فالذين هزموا تمّ تدميرهم بشكل تعيس ، وقاتل رجال الملك ببسالة ، وقاتل الفرنسيون أيضاً بمعنويات عالية ، مثلهم مثل رجال اعتادوا على القتال.

وكان الملك متفوقاً على البقية بتفوقه الملكي عليهم جميعاً ، فقد أمتطى فرساً طويلاً ، وانقض على العدو بمفرده ، وفي أثناء القتال انقصفت قناة رمحه ، بسبب الطعن به مراراً ، وباتت قطعاً متناثرة ، فامتشق سيفه على الفور ، وأخذ يضرب به ، فضغط بشدة على الفارين وكومهم على الأرض ، وأزال الذين كانوا بالخلف من الوجود ، وأخضع الذين كانوا أمام الجميع ، ولقد كان مثل الصاعقة ، قطع ومزق كل من صدفه ، فما من درع كان يمكنه الصمود أمام ضرباته، فبحد سيفه قطع الرؤوس من الأعلى حتى الأسنان ، وبضربه بسيفه يمنه ويسرة أرعب الترك وجعلهم يفرون مثل الشياه لدى مطاردتها من قبل الذئب .

وفيما الملك يتولى على هذه الصورة الفارين ، قام بعض هؤلاء وهم في حالة يأس ، فتخلوا عن طريقهم ، وعادوا نحو مخيمنا الذي كان شبه مهجور، آملين بعمل شيء ما ضد الحرس في أثناء غياب الملك ، فعندما كانوا أمامه تخلت شجاعتهم عنهم ولم يكن هذا بلا سبب لأن حياة الأعداء أو موتهم كانت دوماً بين يديه .

وبناء عليه جاء حوالي الثلاثين من الفارين عبر طريق دائري ، وانقضوا على رجالنا ، وقاموا بحملة عنيفة على روجردي توني Toony، الذي قتلوا حصانه من تحته ، وكاد أن يقع في أسرهم عندما جرى

انقاذه من بين أيديهم بوساطة واحد من رفاقه .

وجاء في الوقت نفسه رجالنا المسلحين مع ايرل ليستر، وهاجموهم من على اليمين واليسار، ثم تجددت المذبحة ، ولمعت السيوف بالهواء ، وتغطت الأرض بالدماء ، وتلاقت الأذرعة واصطدمت مع بعضها ، ومزقت الأجساد ، وقطعت الأطراف ، والرؤوس والأذرعة والأقدام ، والأيدي ، والأطراف الأخرى كانت موزعة هنا وهناك ، واعترض طريق رجالنا أثناء سيرهم أجساد الأعداء التي كانت ملقاة على أرض المعركة بأعداد كبيرة ، وجعلتهم يتعثرون في كل خطوة ، وكانت مقتلة الترك أعظم مما رآه أجدادنا قط ، وكان اضطرابهم وهلعهم أثناء القتال قد بلغ حدا ، أن طفلاً واحداً كان بإمكانه أن يقتل عشرة منهم أو بالحقيقة ، أكبر عدد منهم بقدر من كان يصطدم بهم .

وبهذه الهزيمة ألقي بكبرياء الترك الى الرغام تماماً ، ومحقت شجاعتهم بالفعل كلية ، في حين غدت القافلة ، بكل ما فيها من ثروات غنيمة للمنتصر ، فقد سلم حراسها بأنفسهم الى رجالنا الأثقال ، وخيول النقل ، ومدوا أيديهم نحو الأمام استسلاماً ، والتمسوا الرحمة ، على شرط واحد هو أن تصان حياتهم .

وقادوا حيوانات الجر والجمال ، بشكالها ، وسلموها الى رجالنا ، وجلبوا البغال وهي محملة بالتوابل من مختلف الأنواع ، والأثمان العالية ، مع الذهب والفضة ، وأردية الحرير الأرجوانية، والثياب الحمراء ، والملابس المطرزة بأشكال متنوعة ، بالاضافة الى الدروع والأسلحة من جميع الأشكال ، والسوابغ ، والأرائك الثمينة ، والسرادقات والخيم ، والبقسماط، والخبز ، والشعير والقمح ،والأطعمة وكميات هائلة من الأطعمة المحفوظة والأدوية ، والطشوت والقرب والصناديق ، والصحون الفضية ، وحوامل الشموع ، والفلفل والقرفة ، والسكر ، والشمع ، وأشياء أخرى ثمينة مختارة من مختلف الأنواع ، وكمية هائلة

من المال ، وكميات لا يمكن عدها من البضائع ، لم يؤخذ مثلها من قبل في وقت واحد في أي مما تقدم من معارك .

وبعدما توقفت مقتلة المسلمين ، وتمّ الاستيلاء على القافلة ، تعرض جيشنا الى أمر مزعج ومتعب تمثل في جمع الجمال والنوق ، التي كانت تسبب الفوضى والاضطراب للجيش كله ، لأنهم تجنبوا مطاردتهم من قبل خيولنا بقدرة عظيمة بحيث أنه ليس هناك نوع آخر من الحيوانات يمكن أن تكون مثلهم بالفعالية والسرعة الطبيعية ، فكانوا يبدون متماهلين وبطيئين حتى يغدوا المطارد على مسافة ضئيلة منهم ، وعندها يتحركون بسرعة كاملة .

وتم أخيراً بوسيلة أو أخرى جمع أربعة آلاف وسبعمائة جمل وناقة مع بعضها بعضًا، علماً بأن هذا الرقم ليس مؤكداً ، وأخذوا كثيراً من البغال من الجنسين ، وحمير تحميل من غير الممكن عدها لكثرتها ، لأنها بدت أكثرعدداً مما كان من الممكن أن يتطلبه تعداد الرجال ، فضلاً عن هذا كله تجاوز عدد الفرسان الأتراك الذين قتلوا في ذلك اليوم الألف وسبعمائة، الى جانب عدد كبير من الجنود الرجالة الذين ديسوا أثناء المعمعة حتى الموت .

كيف عاد الجيش الى عكا

وعندما أكمل الملك جميع هذه الأشياء ، وأعدّ أثقاله للعودة ، انطلق عائداً مع جيشه مثقلاً بالأسلاب ، وسار الجميع بخطا وئيدة ، حتى وصلوا الى بيت عفة التي ابتعدت مسافة أربعة أميال عن يافا، فهناك توزعوا الغنائم فيما بينهم ، ثم تابعوا سيرهم في اليوم التالي الى الرملة .

والى هناك جاء الكونت هنري مع العساكر والناس الذين جلبهم معه من عكا ، ومن هناك توجهوا جميعاً إلى بيت نوبة ، وهو المكان الذي كانوا انطلقوا منه ، وتجددت هنا الأفراح العامة، وتقاطر الجميع واجتمعوا مندهشين تجاه عدد حيوانات التحميل التي سيرافقها الجيش .

ولدى الوصول ، وزع الملك النبيل الجمال ،التي كانت أكبر حجماً من أي نوع رؤي هناك من قبل ، وأعطاها إلى الجنود الذين مكثوا لحماية المعسكر ، والى الذين انضموا الى الحملة على شكل حصص متساوية، وحذا في هذا المقام حذو ذلك المحارب الشهير ، وأعني به الملك داود الذي أعطى حصصاً متساوية من الأسلاب الى الجنود الذين ذهبوا الى المعركة والى الذين مكثوا في المعسكر، ووزع أيضاً الحمير بين الرجال الذين يخدمونه ، وزود الجيش بهذه الوسيلة بعدد كبير جداً من الجمال وحيوانات الحمولة الأخرى ، ولقد كان من الصعب جداً حفظها مع بعضها ، وحشوا لحوم الجمال الشابة بشحوم الخنازير وشووها للأكل ، فوجدوها بيضاء كثيراً ، وسائغة طيبة المذاق.

وبعد وقت قصير من توزيع الأسلاب ، شرع الناس يتشكون من أن حيوانات التحميل قد أكلت كثيراً من الشعير والأعلاف ، ولهذا ارتفعت أسعار الحبوب كثيراً ، وبالاضافة الى هذا توفر المزيد من الشكوى

والأسف بين الناس،لأنه ارتؤي أنه من غير المناسب الزحف نحو حصار القدس، حسبما رغبوا، وذلك بسبب معارضة العشرين مستشاراً.

فلقد رأوا أنها مغامرة صعبة ،لابل مستحيلة،بسبب الحاجة الى الماء، الذي لن يستطيع الناس والمواشي العيش من دونه،لاسيما وأن عيد القديس يوحنا بات على الأبواب ،وهو زمان تزداد به حرارة الصيف،وبسببها يغدو كل شيء جافا بشكل طبيعي،خاصة حول القدس، القائمة في الجبال،زد على هذا أغلق الترك جميع صهاريج الماء،لذلك بات من غير الممكن ايجاد نقطة من الماء الصالح للشرب على طول مسافة ميلين من المدينة، ومن غير المأمون الذهاب للبحث عن الماءالى مسافات بعيدة ،عندما يكون الحصار قد بدأ، ولن يكون نبع سلوان الصغير الذي يجري عند سفح جبل الزيتون كافياً للجيش.

ولقد كانت هذه هي الأسباب التي جعلت المستشارين يقنعون الملك رتشارد بالاقلاع عن حصار القدس في ذلك الوقت،وعندما بات معروفاً في أوساط الجيش أنهم لن يذهبوا الى هناك،بل كانوا على وشك الابتعاد عن تلك المدينة،لعنوا ذلك التأخير وأكدوا أنهم يرغبون فقط بالبقاء أحياء حتى تغدوالقدس والأراضي المقدسة والصليب مرة أخرى في حوذة المسيحيين وحدهم.

وعلينا أن لا نعجب أن الحجاج الذين تعذبوا هكذا بدون الوصول الى نتيجة طيبة، أسفوا وحزنوا لاخفاق رغباتهم،في حين تطور الخلاف فيما بينهم الى انشقاق،ولما ظهرت هنا سمات التردد لدى الفرنسيين،التي ميزتهم عن بقية الشعوب،حدث في إحدى الأمسيات عندما كان الجيش يتقدم في زحفه، قام الفرنسيون بعزل أنفسهم عن البقية واتخذوا موقفاً متميزاً،وكأنهم يزدرون الجماعة،ولم يكتفوا بالرضا بالانفصال فقط بل انخرطوا بالشجار فيما بينهم أنفسهم،وتلفظوا بألفاظ قاسية بشعة،ولغة قبيحة، وتبجح كل منهم ببسالته،وبعدم الاكتراث أو التقدير

للآخرين،وفوق الجسيع نظم هنري دوق بيرغندي أغنية ،نشرها بين الناس، وهي أغنية (لو امتلك أدنى إحساس بالخجل)لما سمح بنشرها، ولم يغنها الرجال فقط بل النساء غير الوضيعات أيضاً ،مظهرين أخلاق هؤلاء الذين تورطوا في مثل هذه الحماقة القذرة.

وعندما انتشرت الأغنية بين الجنود وتداولها الناس،غضب رتشارد غضباً عظيماً ،وارتأى أن القيام بعمل مماثل سيكون وسيلة للانتقام لنفسه من الناظم، وكانت هنالك وفرة بالمادة،ولذلك لم يجد صعوبة في نظم أغنية معاكسة،وهاجمه منافسه، الذي لم يكن موازياً له، بشتائم قاسية وقبيحة بلا مسوغ.

وبقي الجيش على هذه الشاكلة لعدة أيام بعد الاستيلاء على القافلة،وكان أفراده حزينين جداً ويائسين نتيجة الحظر الذي وضع على متابعة الجيش زحفه حتى يزور الضريح المقدس في القدس ،الذي كانوا على مسافة أربعة أميال منه،ولم يكن الشعور بالاحباط الذي سببته عودتهم له مايوازيه مطلقاً لدى أناس شجعان مثلهم.

وعندما تحرك رجالنا تعرضوا للهجوم من قبل الترك من الجبال،وصدهم فرساننا الأقوياء ولكن بعض أتباع معسكرنا قتلوا لأنهم لم يمتلكواخيولاً جيدة،ووصل الجيش بعد هذا الى مكان قام فيما بين القديس جرجس والرملة،وهناك أمضى الليلة،وقد عسكر الفرنسيون على الجهة اليسرى،وعسكر الملك ورجاله على الجهة اليمنى.

وساروا في اليوم التالي وتابعوا زحفهم في أقسام منفصلة،ووصلوا الى قلعة قامت في منتصف الطريق،وكان هذا في اليوم السادس من تموز، وتخلى هنا بعضهم عن الجيش وهجروه وهم في حالة اشمئزاز،بسبب حالة الانهاك والإرهاق التي تعرضوا لها أثناء الحملة،وذهبوا الى يافا.

وعندما علم صلاح الدين بحالة الصليبيين ونواياهم،انتعشت

آمـاله،وكـان سروره بـلا حدود،وبعـث على الفور بـرسـل يحملون رسـائل مختومة بخاتمه الى الأمراء والمقدمين،والقـادة والحكام في ممالكه يخبرهم فيها بـالتمـزق الـداخلي الـذي تفجـر داخـل جيـش الفـرنجـة،وأرغمـه على التراجع،وأن كـل من يريـد أن يدخل في خدمتـه مأجور عليـه القدوم الى القـدس ،وكان الحشـد الذي تـدفق الى هنـاك عظيماً ، ونتيجة لهذا بـات عـدد الخيالـة يقـدر بعشريـن ألفاً مـن الأشـداء،الى جـانب جموع لاتعـد ولاتحصى من الجنود الـرجالة .وأدرك بالوقت نفسه الملـك عجزه عن منع الناس، وايقـافهم عن التخلي عـن الجيش ، بسبـب تباين المواقـف التي سادت ،فرأى أن خير خط سياسي يمكنه اتخاذه هـو مراسلة صلاح الدين في هـذه الساعـة،والموافقة على الهدنـة(التي عـرضت مـن قبل في سهـول الرملة)لمدة محدودة،مـن أجل أن يمتلك الوقت حتى يستطيـع العودة من بلاده،غير أن صلاح الـدين الذي عرف تمام المعرفة أوضـاع جيشنا، وأنه كان يـزداد ضعفاً كل يـوم،رفض رفضاً قاطعـاً، ما لم يتم تـدمير عسقلان وإنزالها إلى الأرض واجتثاثهـا، وما أن علم الملك بجواب صـلاح الدين، لم يظهر أبداً الانـزعاج،بل أمر على الفور الـداوية والاسبتارية مـع آخرين، وصل عـددهم الى الثلاثمائة، أن يمتطـوا خيولهم، ويسيروا لتـدمير حصن دير البلح وبعث برجال لحراسة ومراقبة حصن عسقلان بالشدة الممكنة.

وبادر هؤلاء لتنفيذ أوامـر الملك، فدمروا دير البلح وسـووها بالأرض،ثم عاد الجيـش في حالة اشمئزاز وقنـوط حتى يافـا،حيث بقي هناك العـديد بسبب سـوء الصحة والضعف، وفي الوقـت نفسه سار الملك مسرعـاً كلياً الى عكا.

كيف هاجم صلاح الدين يافا

وعندما سمع صلاح الدين أن رجال يافا كانوا محرومين من وجود رتشارد لحمايتهم، أمر جيشه بالزحف الى هناك، وهو يأمل بالاستيلاء على المدينة بسهولة خلال غياب الملك ، وأخذ معه عشرين ألف فارس، وأمير البيرة(؟)Bulaلقوي، وابن(مقدم)الحشيشية،مع مائة وستة أمراء،وحشد هائل من الرجالة من الجبال،الذين غطوا وجه الأرض مثل الجراد،وغادر الجيش القدس،ونزل الى سهول الرملة،واندفع الجند على شكل أرتال وفرق،كلهم كان متحمساً ومتشوقاً لتدمير الفرنجة تدميراً كاملاً.

وكان يوم الأحد الذي أعقب أحد الزحف هو عيد القديس بطرس في الأغلال [٢٦-تموز](وهو الموافق لليوم الذي جاء فيه الملك رتشارد مع جيشه الى عكا) ففي هذا اليوم زحف صلاح الدين مع عساكره للهجوم على يافا، وشرعوا في يوم الاثنين التالي بمهاجمة القلعة،لكن سكان المدينةخرجوا الى الأرباض، وقاوموهم طوال النهار،ومنعوهم من الاقتراب من المدينة، ومر يوما الثلاثاء والاربعاء على الشاكلة نفسها،ولم يكن حتى يوم الخميس حين شعر الترك بالخجل بأنهم صدوا من قبل عدد بهذه الضآلة،فقاموا بجهد عظيم وطوقوا المدينة على الفور،وبأمر من صلاح الدين أقيم أربعة منجنيقات قوية مع منجنيقين بكفاءة عظيمة في رمي المقذوفات.

وكان عدد المحاصرين داخل يافا حوالي خمسة آلاف، وبدأواالآن يتأثرون بسوء أحوالهم،ولذلك شرعوا يدعون للرب لانقاذهم، وحولوا أنظارهم نحو ملك انكلترا، وتمنوا لو أنه لم يذهب الى عكا،تاركاً إياهم هناك عرضة للدمار،وشدد الترك في الوقت نفسه الحصار، وكان الوضع

المتردي لسكان المدينة يبكي أي انسان يرى ذلك،ومع ذلك قاوموا بشجاعة كبيرة،علماً بأنهم أنهكوا بوضع ألف رجل على الفور للدفاع عن مدينتهم،في حين لم تتوقف العرادات والمجانيق عن القذف.

وتم أخيراً بفضل حملات الترك وضغطهم تدمير البوابة التي تقود إلى القدس، وفتحت يوم الجمعة نتيجة الضربات المتوالية للمنجنيق،كما أن السور القائم على جهة اليمين انشطر بمقدارعمودين بالعرض،وكان الالتحام وقتها حاداً جداً ،وبينما قاوم المحاصرون دخول الترك،تلقى هؤلاء نجدات، لذلك دفعوا بأعدادهم الفرنجة الى الخلف حتى أوصلوهم الى قلعة المدينة ، ولكم كانت المذبحة التي وقعت مرعبة، وبطش الترك بأعدائهم وقتلوهم بدون رحمة، وفتكوا بكل من وجدوهم في البيوت مرضى ومستلقين بفرشهم، وهرب بعض رجالنا ونزلوا نحو شاطىء البحر ونجوا،في حين انشغل العدو في نهب كل شيء، وكسروا رؤوس جميع دنان الخمرة التي وجدوها في البيوت، وجعلوا الخمور تجري في الشوارع ، وهاجم بعضهم البرج الرئيسي في القلعة،وطارد آخرون الذين انحدروا فارين نحو شاطىء البحر ،وتم تمزيق عدد من المتخلفين، وهرب ألبيرك Alberic أوف رايمز ،وكانت وظيفته حماية البلدة،لقد نجا على ظهر سفينة خشية أن يتعرض للقتل،لكن أتباعه ورفاقه انتقدوه لجبنه، ودعوه لأن يشعر بواجبه وأرغموه بالقوة على الدخول إلي أحد الأبراج، وحين لم ير هناك سوى المخاطر التى تحيط به من كل جانب،تمتم قائلاً:«هنا سوف نكرس حياتنا لخدمة الرب»لأن ذلك الشيء الوحيد الذي بقي له ليصنعه .

وهاجم الترك الآن البرج ، وحجبت زخات نشابهم نور الشمس ، ولم يعرف المحاصرون أي جانب عليهم الدفاع عنه أولاً ، واستمر القتال طوال النهار ، وكان من المؤكد أن يلجأ الفرنجة أخيراً إلى الاستسلام أمام عنف القتال ، لولا بفضل الرب كان البطريرك المنتخب حديثاً موجوداً،

فقد برهـن في تلك الساعة أنه كان رجـلاً لا يخاف الموت ، وما من شيء كان يرعبه.

واضطـر هذا الـرجل بحكـم الضرورات أن يقترح على صـلاح الديـن وأخيه منحهم بـرهة من الوقت يتـوقف خلالها القتال حتـى اليوم التالي ، بشرط إذا لم يتسلموا مساعدة حتـى ماقبل الساعة الثالثـة، على كل رجل داخل القلعة أن يدفـع إلى صلاح الدين عشر قطع ذهبية، وعـن كل امرأة خمس قطع ،وعن الطفل ثلاث قطع مقابـل الهدنة التي منحهم إياها،وأن البطريرك مـع النبلاء الآخرين سوف يسلمون أنفسهـم رهائن الى صلاح الدين، وأن يبقوا في الأغلال حتى حلول الساعة المتفق عليها.

ووافق صـلاح الديـن، وعندما اكتملـت الضمانات مـن أجل مـراعاة شروط الهدنـــة،جـرى تقـــديـم الـــرهـــائن التـــاليـــة الى صـــلاح الديـن:البطريـرك،ألبيرك أوف رايمز، وثيـوبولـد أوف تريـف، وأوغسطين أوف لنـدن، وأوسبيرت والـدنosbertwaldin ،وهنـري دي سينـــت جـون،الى جانـب آخريـن،لانتذكـر أسماءهم،فهـم جميعاً حملـوا أسرى الى دمشق.

وفي الـوقـت نفسـه كـان الملك رتشـارد مشغـولاً جـداً في الاستعـداد لمغادرة عكـا عائداً الى بـلاده،وكانت سفنـه كلها جاهـزة تماماً،وكـان قد حصل أيضاً على مـوافقة من الداوية والاسبتـارية ومباركة، وبعـث أمامه بسبع من شوانيه مشحونة بـالقوات لاخراج العدو من بيروت ،التي سيمر بها،ونجحت هذه الحملة ،وفر العدو مرعوباً.

وكان الملك في خيمته يتحدث مع ضباطه حول اقلاعهم في الغد نحو أوطانهم،عندما وصـل رسل من يافا،ودخلوا ممزقـة ثيابهم ، فأخبروا الملك كيف أن العـدو استولى على يافـا كلها، باستثنـاء القلعة التي مكـث فيها البقية تحت الحصار ،ومالم يقدم لهم المساعـدة بكل سرعة سيواجه الجميع

مصيراً واحـداً ،واستمع الملك لأخبـار المخاطر التـي كان المحاصرون يتعرضـون لها، فأثار وضعهم عـاطفته،فقـاطع الرسل قائلاً:«مـادام الرب حياً،سأكون معهم،وسأقدم لهم المساعدة بقدر ما أملك من قوة» .

وما أن أكمـل تلفظ كلماتـه حتى كانت الأوامـر قد أعلنت بـوجوب استعـداد الجيش ،غير أن الفـرنسيين ماكـانـوا ليوافقـوا على الاستجابـة حتى اكرامـاً للملك، وتبجحوا معلنين أنهم لن يزحفـوا مطلقاً مرة ثـانية تحت لوائه، وبـالفعل هم في هذا المجال لم يخفقـوا،لأنهم هلكوا في مدة وجيزة بشكل تعيس،ولم يزحفوا ثانية تحت لواء أي انسان.

وفي الـوقت نفسـه تهيأ لـلانطـلاق مع الملك، الجنـود من مختلف الأمم،الذين لامـس الرب شغاف قلـوبهم،والذين أثـارتهم معانـاة أ بناء جلدتهم،واستدرت عواطفهم، وأعني بهـؤلاء: الداويةوالاسبتارية ،وفرسان شجعان آخرين ،زحفوا جميعاً بـراً الى قيسارية،لكن الملك النبيل الذي عهـد بسلامتـه إلى شجاعتـه،ركب ظهر احـدى شواني اسطـوله الـذي اصطحبه معه،وكانت شوانيه مجهزة بكل شيء يمكن أن يكون ضرورياً ، وكـان معه ايـرل أوف ليستـر، وأندرودي شـافني chavigny ،وروجردي سيثيـا Satheya، وجـوردان دي هـــومـــز Humez ، ورالف دي موليون Mauleon ،وآخوس دي في Achus de Fay ،وفرسـان بريتل Pratells،ومـــرافقي الملك مـع آخـــرين كثـــر من ذوي الأسمـــاء اللامعة،الى جانب الجنويين والبيازنة.

وتوقف الـذين ذهبوا الى قيسـارية هناك لبعض الـوقت خشية الـوقوع في كمين ،حيث سمعوا أن صـلاح الدين قد نصب واحـداً ضد كل من يحاول المـرور في هذا الطريق ،ولم يكن هناك طـريقاً أفضل ، لأن ابن مقدم الحشيشية تولى حـراسة المنطقة الساحلية القائمـة مابين قيسارية وأرسوف.

يضاف الى هـذا ،ثارت ريح مضادة،حجـزت شواني الملك لمدة ثـلاثة أيام في حيفا ،حيث توجب عليهم التسليـم بذلك ،واشتعل الملك غضباً تجاه هذا التـأخير، فرفع صوتـه بالشكاية عـالياً وهو يقول:«مـولاي،يارب لماذا حبستنا هنا؟ أرجـوك، المسألة مستعجلة جداً ،والتقـوى هي رغبتنا». ومأأن أكمـل دعاءه هذا ،حتـى سبب الرب هبـوب ريح مواتيـه ،نقلت هذا الاسطـول ووضعته داخـل ميناء يـافا في منتصـف ليلة الجمعـة التي تقدمـت مباشرة على يوم السبت الـذي اتفقوا على الاستسلام فيه،عنـدما كانوا جميعا على وشك الحمل نحو التدمير.

أسفي من كفـر ذلك العرق الشرير ،ففـي الصباح الباكر لـذلك النهار (يوم القديس بطرس في الأغلال) تعجـل الترك فطالبوا المحاصرين بتنفيذ شروط الهدنة، وبناء عليه بـدأوا في الساعة التاسعة بدفـع جزء من القطع الـذهبية التـي وعـدوا بها،ووقتهـا تصرف الترك الأشرار بوحشيـة أكبر مـن الحيوانـات، ولم تتوفر نحـوهم أدنى مشاعـر انسانية ،حيـث قطعوا رؤوس الذين دفعوا المال،وهكذا هلك سبعة منهم، ورموا برؤوسهم الى الخندق.

ولدى اكتشـاف الذيـن كانـوا على قيد الحيـاة في البلدة لهذه الخيـانة ، أصيبوا بالـرعب، وبدأوا يرسلون صرخات النـدب والأسى،فقد رأوا الموت واقفاً أمـامهم،لهذا ركـع كل واحـد منهم أمـام الآخر،واعترف كـل منهم بذنـوبه لـلآخر،وماعـادوا يفكرون بحيـاتهم،بل بأرواحهـم،ولكي يـؤجلوا مـوتهم لبعـض اللحظات ــ ذلـك مـن هـو الذي كـان هنـاك ولم يخش الموت؟ــ هربوا صعوداً نحوالقلعة،بقدر مـا استطاعوا من سرعة ،وانتظروا هناك ضربة الشهـادة،وكانوا يريقـون الدموع،ويستمدون الـرحمة من المولى القـديـر،الـذي رضي أخيراً،وقـرر الاصغـاء لالتماسـاتهم،فقـد وصـل منقذهم،وكـان اسطوله يسير في المرفأ،وجنوده متشوقين للنـزول الى اليابسة لانقاذهم.

واكتشف الترك وصول اسطـول الملك،فانحدروا مسرعين نحـو شاطىء

البحـر يحملــون سيـوفهـم وتــرستهـم،وأرسلــوا أمــامهـم زخــات مـن النشاب،وكان الشاطىء قد امتلا بشكـل كثيف بحشودهم حتى بات من الصعب إيجاد موطىء قدم على الأرض،ولم يقتصر عملهـم على الدفاع،بل همز فـرسـانهم خيولهم لخوض البحـر ولمنـع رجـال الملك مـن النـزول الى اليابسـة،وعندما كان الملـك يجمع سفن اسطـوله مع بعضها ،تشـاور مع ضباطه حول أفضل خطوة يمكن اتخاذها.

وقال:«هل سنندفع ضد حشود الـرعاع هذه التي احتلت الشاطىء،أو هل سنقـدر قيمة حياتنـا أكثر من حياةأولئـك المساكين المعرضين للـدمار والمحتاجين لمساعدتنا»؟

وأجابـه بعضهم بـأن محاولات أخرى سـوف تكون عقيمـة، لأنه ليـس هناك مـايؤكـد أن أيامنهـم حياً لانقـاذهم،ثـم كيف يمكنهـم النزول الى اليابسة في وجه مثل هذا الحشد الهائل؟.

ونظر الملك من حـوله مدققاً، ورأى في تلك اللحظة كـاهنا يغطس في الماء ويسبـح نحـو الشيني الملكـي، وعنـدمـا استقبله على ظهـر السفينـة خـاطب الملـك بقلب متلهـف وبروح كـادت تتلاشـى منه وقـال: « أيها الملك الأعظم نبـلاً، المتبقي من شعبنا ينتظـرون وصولك، وهـم معـرضون للذبح مثل الشياه، ما لم تجلبك النعمة الإلهية لانقاذهم».

وسأله الملك قـائلاً: « إذاً، هل ما يزال أحد منهم حيـاً، وإذا كذلك، أين هـم؟» وقـال الراهب:« مازال هناك بعضهـم حيـاً في الطرف الأقصى لهذا البرج المقـابل»، ورد عليـه الملك قـائلاً:« مـن فضلك يـارب، يامـن جئنـا بتوجيهـه وقيادتـه، سوف نمـوت مع أخـوتنا الشجعـان بالسـلاح، ولتنصب اللعنة على الذي يتردد».

ولم يكد يفـرغ من كلامـه، حتى كانت الشـواني قد دفعت نحـو طرف اليابسـه، واندفـع الملك نحـو الأمام وسـط الأمواج، وأطـرافه غير مغطـاة

بسابغتـه، وخاض بـا لماء حتى وسطـه، وبسرعة حصـل على موطـىء قدم ثابت فـوق الشريط الجاف، وجاء خلفه يتبعه غيوفـري دي بويز Bois ، وبيتر دي بريتل Pratelles وجاء في المؤخـرة جميع الآخريـن مندفعين وسط الأمواج.

ووقف الترك للـدفاع عـن الشاطـىء، الذي غطتـه أعداد هـائلة مـن العساكر، واستطاع الملك بوساطـة القوس العقار الذي حمله أن يردهم إلى الخلف يمنـة ويسرة، وضغط رفـاقه على العـدو المتراجع، الـذي تلاشـت شجـاعتـه عندمـا رأى أفـراده أن الـذي يهاجمهـم هو الملـك، ولم يعـودوا يتجرأون على مقابلتـه، وامتشق الملك سيفه الحاد، الذي لم يعطهـم فرصة للمقاومة، فتقهقروا أمام الضربات المميتـة الصادرة عنه، وانزاحوا بشكل فوضوي بوساطة رجال الملك حتى بات الشاطىء نظيفاً منهم.

ثم جلب الفـرنجة بعض جذوع الأشجار والأعمدة وقطـع الخشب من سفن قديمـة وشواني، لإقامة حاجـز، ومركز هناك بعـض الفرسان والخدم والعرادات للحراسـة ولطرد الترك واقتلاعهم، وعنـدمـا رأى هؤلاء أنهم لن يستطيعوا متابعة التصدي لعساكرنا، فرقوا أنفسهم على الشاطىء بوساطة الصراخ، والعويـل، وهم منهزمون جميعـاً، ثم انعطف الملك وسـار بشكل مستقيم، ولاحـظ أن بيت الداوية هـو المدخل إلى البلدة، حيث وجـد ما يـزيـد على ثلاثـة آلاف مـن الترك ينهبـون كل شيء وجـدوه في البيـوت، ويحملونه معهم بمثابة أسلاب.

وما لبث الملـك الشجاع أن دخل البلدة، وما أن فعل ذلـك حتى أمر بهز رايته مـن فوق مكان مـرتفع حتـى يمكن رؤيتها مـن قبل المسيحيين الذيـن كانـوا في القلعة، وقد تشجـع هؤلاء لـدى رؤيتهم لها، وانـدفعوا وهم يحملون أسلحتهم من داخل القلعـة لمقابلة الملك، ولدى انتشار خبر ذلك اضطرب وضع الترك في البلدة، ودبت الفوضى بين صفوفهم،

وفي الوقت نفسه طارد الملك أفراد العدو، وقتل الذين انحصروا فيما بين الكتلتين المسيحيتين وملأ الطرقات بجثث قتلاهم، فهل أحتاج إلى قول المزيد؟ لقد قتلوا جميعا، باستثناء الذين امتلكوا الفرصة ففروا بالوقت المناسب، وهكذا حدث أن الذين كانوا منتصرين من قبل، باتوا الآن منهزمين وتلقوا عقوبة استحقوها، لأن الملك لم يظهر أدنى رحمة نحو أعداء صليب المسيح، الذين وضعهم الرب بين يديه، لأنه لايوجد على وجه الأرض انسان مثله مقت الجبن.

وإذا ما تفحصنا أعمال القدماء، وجميع المدونات التي تركها لنا المؤرخون المتقدمون، سنجد أنه لم يكن هناك مطلقاً رجلاً ميز نفسه في المعركة مثلما فعل الملك رتشارد هذا اليوم، وعندما كان الترك يغادرون البلدة رأوا أعلامه تخفق في الهواء، وارتفعت صرخة عالية من على اليمين واليسار عندما انقض عليهم، ولم تكن عاصفة من البرد أو المطر الشديد بالكثافة تساوي النشاب الذي تطاير من الترك فغطى وجه السماء وحجب ضوء الشمس.

وأحدث الترك الذين فوجئوا بيافا مذبحة هائلة بين الذين كانوا ضعفاء جداً وغير قادرين على المقاومة، وقتلوا عدداً كبيراً من الخنازير، وفي الحقيقة لقد قتلوا كل ما وجدوه منها، لأنهم عدّوها نجسه، وكان محرم أكلها في شريعة المسلمين، ولإزعاج الفرنجة جمعوا في كتلة واحدة أجساد الخنازير مع أجساد الفرنجة الذين قتلوهم، وجرى الآن دفن أجساد الفرنجة بسلام، في حين ألقيت أجساد الترك لتتعفن مع أجساد تلك الخنازير.

وسمع صلاح الدين بوصول الملك وبحربه الرائعة مع الترك، فاستولى عليه لهذا خوف مفاجيء، وكان مثله مثل الأرنب، الحيوان الجبان، غمز حصانه وفرّ من أمام وجهه، وتابع الملك مع رجاله أعمال المطاردة: يقتلون ويحطمون، بينما أحدث قوسه العقار فوضى عظيمة بين الخيول:

حتى أن آثار فرارهم كان يمكن رؤيتها لمسافة ميلين، ونصب الآن خيمته في المكان نفسه الذي كانت فيه خيم صلاح الدين منصوبة، وهكذا كان بفضل الرب استطاعت فئة صغيرة من الرجال الحاق الهزيمة بهذا الجيش التركي العظيم.

واستدعى صلاح الدين أمراءه إليه وخاطبهم قائلاً:« هل هزمنا جميعا؟ هل عاد جيش الفرنجة من عكا ليقتلنا وليهزمنا على هذه الصورة؟ بأي وسيلة متفوقة أمكنهم انجاز هذا؟ فمن المقرر أن جيشنا كان متفوقاً برجالته وكذلك بفرسانه»!.

ورد على هذه الكلمات واحد من المُوَبخين، كان موجوداً، وكان مدركاً لأوضاع جيشنا قائلاً:« مولاي ليس الأمر كما تظن، ليس لدى الفرنجة خيول ولاحيوانات تحميل من أي نوع، باستثناء ثلاثة خيول فقط، كان ملكهم الرائع قد وجدهم في يافا، وعلى كل حال أعتقد أن الملك نفسه يمكن مفاجأته بسهولة، لأنه مستلق لوحده في خيمته، ومنهك تماماً بسبب تعبه، ومن يلقي القبض عليه سوف يضع على الفور حداً لمتاعبنا، وللحملة كلها».

ثم راح بعد هذا في أوساط الترك ما وجه إليهم من لوم، وتوبيخ دائم وعار مستمر، حيث أن جيشاً بمثل هذا الحجم، ومثل هذه الآلاف المؤلفة من الترك، يُهزم من قبل جيش صغير جداً، وأن يافا قد استردت منهم بقوة السلاح، وبهذه الطريقة تمتم كل واحد منهم إلى الآخر، فاضطربوا اضطراباً عظيماً.

كيف حاول الغلمان والأكراد مفاجأة الملك رتشارد في خيمته

وكان اليوم التالي هو يوم أحد، انطلق فيه الملك بنشاط في العمل على ترميم أسوار يافا، وتابع جهوده في يومي الاثنين والثلاثاء، حتى يمكن تأمين بعض الوقاية لهم، ولهذا تمت أعمال الترميم بدون استخدام للكلس أو الملاط، وكانت هناك مجموعة فاسدة من الرجال بين المسلمين اسمها غلمان Menelones حلب، وأكراد Cordivi ، وهم عرق فعال، وقد التقى هؤلاء مع بعضهم للتشاور حول ما ينبغي عمله في حالة الأوضاع القائمة، وتحدثوا عن العار الذي لحقهم حيث تمكن جيش صغير جداً من طردهم من يافا، ولاموا أنفسهم بتهمة الجبن، وبالتقاعس المخجل، وتبجحوا في اقامة حلف فيما بينهم، من أنهم سوف يلقون القبض على الملك رتشارد وهو في خيمته، ويجلبونه إلى أمام صلاح الدين، حيث سيتسلمون منه جائزة فخمة جداً.

ووصل في الوقت نفسه الكونت هنري مع أتباعه من قيسارية على ظهر شيني، فهناك كان المتبقي من جيشنا معوقاً بسبب كمائن الترك على جميع الطرق،والجسور، والآبار، وبناء عليه لم يكن بإمكان الملك في هذا الوضع الاضطراري حشد أكثر من خمسة وخمسين فارساً من جيشه كله، وكتلة قوية من الرجّالة، ورماة الزنبورك، والحاشية مع ألفين من الجنويين والبيازنة وسواهم، ولم يكن لديه من الخيول أكثر من خمسة عشر رأساً، سواء من النوع الجيد أو الرديء.

وعندما أعدّ الغلمان والأكراد أنفسهم في منتصف الليل لمفاجأة الملك، تقدموا نحو الأمام بوساطة ضوء القمر، يتحدث أحدهم مع الآخر حول الهدف الذين هم بصدد الوصول إليه، لقد عزم هؤلاء الجنس المكروه من غير المؤمنين، وكانوا متشوقين لأسر جندي المسيح المقدام، فيما

هو نائم بدون سلاح ولايشعر بوجود أي خطر.

وعندما باتوا غير بعيدين عن خيمته، وأخذوا يستعدون لإلقاء القبض عليه، عندها تدخلت رحمة الرب، فأرسلت روح الخلاف إلى صفوفهم، حيث قال الأكراد:« عليكم المضي على أقدامكم لأسر الملك وأتباعه، في حين سوف نبقى نحن على ظهور خيولنا لنحول دون نجاتهم إلى القلعة»، لكن الغلمان ردوا عليهم قائلين:« لا، إن واجبكم يقضي عليكم المضي على الأقدام، لأن مرتبتنا أعلى من مرتبتكم، ونحن نرتضي فقط بالقيام بالخدمات التي هي وظيفتنا، وإن وظيفة الخدمة على الأقدام هي وظيفتكم وليست وظيفتنا».

وفيما هذين الفريقين يتجادلان حول من منهما الأعلى والأعظم، سبب خلافهما كثيراً من التأخير، وعندما توصلا أخيراً حول كيف يمكن تنفيذ المحاولة الشريرة وتحقيق الغاية منها، كان الفجر قد اقترب، ففي تلك اللحظة دفعت ارادة سماوية واحداً من الجنويين للخروج مبكراً نحو الحقول، حيث ارتعب لسماعه أصوات الرجال والخيول المتقدمة، فعاد مسرعاً نحو المعسكر، ورأى في الوقت المناسب الخوذ وهي تعكس الضوء الذي نزل عليها، ودخل مندفعاً إلى المعسكر، وهو يصرخ « إلى السلاح، إلى السلاح».

واستيقظ الملك بفعل الصوت والضجة، وقفز مندهشاً من فراشه، فلبس لأمته، واستدعى رجاله للانقاذ.

بحق فضائل الرب كلها، هل هناك انسان حي ما كان ليرتجف بمثل هذا الانذار المفاجيء؟ واندفع العدو بدون مبالاة، فرجال مسلحون انقضوا على غير مسلحين، وأكثرية أخذت تقاتل أقلية، لأن رجالنا لم يكن لديهم الوقت الكافي للتسلح، أو حتى لارتداء الملابس،وبناء عليه تقدم الملك مع كثيرين آخرين — بحكم طوارىء تلك اللحظة —

بدون دروعهـم وواقيات أطـرافهم، تقـدموا للقتـال، وكان بعضهـم حتى بدون كزاغنداتهم.

وبينها تمكـن رجـالنـا مـن تسليـح أنفسهـم مسرعين، وبـأفضـل مـا استطاعـوه وقتها، ازداد اقتراب الترك، وكان الملك قـد امتطى فرسـه، مع عشرة فـرسان آخـرين فقـط هم: الكـونت هنـري ايرل أوف ليستر، وبـار ثلميو دي مورتمير، ورالف دي موليـون، وأندرو دي ثشافين، وجيرالد دي فينفـال، وروجـر دي ساسي، ووليـم دي لى ايتـانـغ de L' ETang ، وهيوج دي فيلينـوف Villeneuve وكـانوا مـرافقين شجعان، ومعهـم هنري لى تـايوس Tyois ، حامـل راية الملك، فهـؤلاء وحدهم الـذين كـان لديهم خيـول، وكـان حتـى بعض هـؤلاء منحطين وضعفـاء، وغير معتادين على استخدام السلاح.

وببراعة اصطف الناس العاديون في صفـوف وأرتال كل منهم مع قائد يقودهـم، وتمركز الفرسان على مقـربة من البحـر، وكانت كنيسة القـديس نيقـولا على يسارهـم، لأن الترك وجهوا حملتهـم الـرئيسية في هـذا الاتجاه، ووقف الجنـويون والبيازنـة خلف حدائق الـربض، وقد اختلطـت بعض العساكر بهم.

من الذي يمكنـه أن يصف حملات الكفار المخيفة؟ فقـد انقض الترك أولاً وهم يـزعقون زعقات مـرعبة، ويرمـون بحرابهم، ويطلقون سهـامهم، وأعدّ رجالنـا أنفسهم بأفضل ما استطـاعوا لتلقي حملتهم الشـديدة، فقد كـان كل واحـد منهم قـد ثبت ركبتـه اليمنى على الأرض، فبـذلك كـان يمكنهم التماسك والصمـود معا بشكل أفضل، والحفـاظ على أوضاعهم، وحنوا أرجلهم اليسرى، وحملت أيديهم اليسرى تـرستهم أودرقهم، ومدوها أمامهم، وأمسكوا بأيديهم اليمنـى رماحهم حيث ثبتوا أزجتها في الأرض، وسلطـوا أسنتها الحديـدية نحـو العـدو، مهددة لـه، ووضع الملـك الخبير بشـؤون الحرب، بين كـل رجلين، كانـا مغطيين بترسيهما، رامـي زنبـورك،

وخلفه واحد آخر ليشد الزنبورك بـأقصى سرعة ممكنة، فما أن يطلق الرجل الواقـف في الأمام رميته حتـى يكون الآخـر قد هيأ رميـة أخرى، وتبين أن هذا فيه فائدة عظمى لرجالنا، وسبب ضرراً بالغاً للأعداء.

وهكـذا جرى إعـداد كل شيء بشكـل جيد وبقـدر ما سمـح الوقـت الضيـق بـه، واصطـف جيشنـا الصغير بصـورة نظـاميــة، وسـار الملـك واستعرض جميع الصفوف، وحث كل رجـل ليكون صامداً، وأن لايتزلزل، وقال: « الشجـاعة، يارجـالي البواسل، ولاتتركـوا حملة الأعداء تـزعجكم، تحملوا تقلبـات الحظ، ولسوف تنتصرون عليهم، كـل شيء يمكن للـرجل الشجـاع تحمله، المصـاعب تلقـي الضوء على فضـائل بني البشر، ومثـل ذلك مـن المؤكد أن اليسر يلقي الظلال عليهـا، ليس هناك مكـان للفرار إليه، لأن العـدو محيط بنـا، وفي كل محاولـة للفرار استـدعاء لموت مـؤكد، وبناء عليه كونوا شجعاناً، ودعوا حـالة الطوراىء هذه تشحذ شجاعتكم وتشد من عزيمتكم، أيها الرجـال الشجعان عليكم إما الانتصار بنبل، أو الموت بمجد، الشهادة منحة علينا استقبالها طائعين راغبين، لكن قبل أن نموت، دعونا مادمنا على قيد الحيـاة، أن نفعل ما يمكن أن يكون انتقاماً لموتنـا، وأن نقدم الشكـر للرب في أن كـان نصيبنـا الموت شهداء، هكـذا ستكون خاتمة تعبنا ونهاية حياتنا، وآخر معاركنا».

ومـا كـاد يكمـل التفوه بهذه الكلمات حتـى انقـض الجيـش المعـادي عليهم بحدة وشدة، وكان مقسماً إلى سبعة أفـواج في كل منها حوالي ألف فـارس، واستقبل رجـالنـا حملتهم وأقـدامهم اليمنـى مغـروسة بثبـات في الرمل، وظلوا لايمكن زلزلتهم، وشكلـت رماحهم سوراً ضد العدو، وكان مـن المؤكد أنـه سيخرق الصفـوف ويمر بين رجـالنا، لـو أنهم تخلوا عـن مواقفهم درجة واحدة.

وأدرك رجال الصف الأول مـن الترك، وهـم يتقدمون، أن رجـالنا وقفوا صامـدين، لذلـك تراجعوا قليلاً، ذلـك أن رماتنا أمطـروهم بزخـات من

النشاب، قتلت عدداً كبيراً من النـاس، وعقرت خيـولاً كثيرة، وتقدم على الفـور صف آخـر من الترك، وفـق الطريقـة نفسهـا، ومرة جـديدة جـرى صده، ورده إلى الخلف، وجاء الترك على هذه الشـاكلة يشبهون الصاعقة، مرة تلـو أخرى، متظاهـرين بالحملـة حتى يضغطـوا على رجالنا للتـزحزح والتراجع، لكن عندما باتـوا على مقربة منهم، وعلى وشك الالتحام بهم، عطفوا أعنة خيولهم وابتعدوا في اتجاه آخر.

ولـدى ادراك الملك وفـرسانـه الـذين معـه لهذا الحال، غمزوا خيـولهم وحملوا على وسط الأعداء، وفـرقوهـم يمنة ويسرة، وطعنوا برمـاحهم أجساد عدد كبير منهـم، ثم أخيراً شدوا خيـولهم وأوقفوها لأنهم وجـدوا أنفسهم توغلـوا كثيراً خلال صفوف الترك، والتفـت الملك مـن حوله، فـرأى ايرل ليستر النبيل قـد سقط مـن على ظهر حصانـه، وهو يقـاتل بشجـاعة على قدميه، وما أن رأى هـذا حتى اندفع لانقاذه، وانتزعـه من أيدي الأعداء، ووضعه مكانه على حصانه.

ونشبت إثر هذا معركة مخيفـة، وزحفت حشود الترك، واستخدمت كل جهد لتدمير جيشنا الصغير، وأثار نجاحنا حفيظتهـم، فاندفعوا نحو الراية الملكية الحاملـة لصورة الأسـد، ذلك أنهم كـانوا يـؤثرون قتـل الملك على قتل ألـف رجل آخـر، وفي وسط المعمعة رأى الملـك رالف دي مـوليون، وقد أمسكـه الترك وجروه أسيراً، فغمـز حصانه نحـوهم وخلصـه من بين أيـديهم في لحظة واحـدة، وأعاده إلى الجيـش، وكان الملـك عملاقـاً كبيراً أثناء القتـال، وكان مـوجوداً في كـل مكان على أرض المعـركة، الآن هنـا، والآن هناك، حيثما احتـدم القتال مـع الترك أكثر، ولقـد قاتـل بشجاعـة بلغت حداً، أن ما مـن انسان مهما كان شجاعاً، إلاّ كان سيرضـخ له عن جدارة، ويعترف بتقدمه وتفوقه.

فقد قام في ذلـك اليوم بأعظم الأفـاعيل الشجاعة، ضـد جيش الترك المخيف، وقتل بسيفه عدداً منهم، وكـان سيفه يلمع مثل البرق، فقد فلق

بعضهم إلى قسمين من خوذهم إلى أسنانهم، بينما فقد بعضهم الآخر رؤوسهم، وأذرعتهم، وأطرافهم، التي بترت بضربة واحدة.

وفيما الملك يعمل هكذا بنشاط لايصدق في القتال، زحف تركي نحوه، وكان يمتطي مهراً كميتاً، وقد بعثه سيف الدين صاحب « الكرك Archadia » ، وكان رجلاً واسع الكرم، لولا أنه رفض تبني الايمان المسيحي، وبعث هذا الرجل الآن إلى الملك، هدية منه تشريفاً له، عبارة عن فرسين أصيلين، ورجاه بحرارة قبولهما وأن يستخدمهما، وإذا ما عاد سالماً ومعافى من تلك المعركة يتذكر الهدية ويعوض عنها وفق الطريقة التي يراها، وتسلم الملك الهدية، وبعد ذلك عوض بنبل المهدي، فهكذا هي الشجاعة يصدر تقديرها حتى عن عدو، حيث جاء هذا الاكرام من تركي هو أشد أعدائنا، اعترافا منه بشجاعة الملك وتقديراً لبسالته المتميزة، وكان الملك في تلك اللحظة بحاجة ماسة لهذه الهدية ، ومع ذلك اعتذر عن قبولها وقال إنه لن يأخذ أي عدد من الخيول مثلها بالجودة من أي انسان، فكيف من عدو مثل سيف الدين، مع أنه بحاجة ماسة إليها في تلك اللحظة.

واستعر القتال الآن واحتدم، لأن عدداً كبيراً هاجم عدداً صغيراً جداً، وغطت وجه الأرض كميات هائلة من الحراب والنشاب التي أطلقها المسلمون، فقد رموا كمية متنوعة في وقت واحد ضد رجالنا، الذين جرح كثير منهم، وبذلك ازداد ثقل القتال أكثر من ذي قبل، وانسحب رجال الشواني في الشواني التي جلبتهم، وهكذا في قلقهم على سلامتهم ضحوا بسمات شجاعتهم، وتعالى بالوقت نفسه الصراخ بين الترك، وهم يناضلون في سبيل من سيحتل البلدة أولاً آملين بقتل الذين سيجدونهم من رجالنا في داخلها.

وسمع الملك الصراخ، فاصطحب معه فارسين فقط، واثنين من حملة الأقواس العقارة، وتصدى هناك للترك، وتمركز بنبل في واحد من الشوارع

الرئيسيـة، وانقض بشجـاعة عليهم، فقتـل الخيالة وفـق طريقتـه الملكية، وغنم فـرسين، وأرغم بقيـة الترك الذيـن وجدوا في البلـدة على الفرار على الرغـم من مقـاومتهم، وتفرقـوا في اتجاهات مختلفـة، واستهدفـوا أن تكون نجـاتهم عبر طرق فـرعيـة وليـس عبر الطرق العـاديـة، وأمـر الملك أيضـاً باصلاح الجزء الذي تهدم من الأسوار وإحسان الإفادة منه، ووضع خفراء للمراقبة والحراسة خشية أن تتعرض البلدة مرة ثانية للهجوم.

ومـا أن انتهت هـذه الأمـور بالحل المنـاسب حتـى نـزل الملك بـاتجاه الشـاطيء، حيـث التجأ عـدد كبير من رجـالنا إلى ظهـور السفن، وحـث الملك هـؤلاء بأدلة مقنعة على العـودة إلى القتال والمشاركة مـع البقية في كل ما قد ينـزل عليهم، وترك خمسة رجال على ظهر كـل شيني للحراسة، وقـاد البقية لمسـاعدة جيشـه المضغوط عليـه بشدة، ومـا أن وصل حتـى انقـض بكل عنـف على أكثف صفـوف العـدو، ورد الأعداء إلى الخلـف وهزمهـم، حتى الـذين كانـوا بعيدين ولم يلمسهـم غلبتهم حشـود الجنود وهم يتراجعون.

ولم تكن هنـاك حملة قط مثـل هذه الحملة قـام بها فرد لوحـده، حيث خرق صفوف العدو وتوغل إلى وسط الجيش المعادي، وقام بأعمال مقاتل شجاع ومتميـز، وطوقـه الترك على الفور وحـاولوا التغلـب عليه،وكـان في الوقـت نفسه أن فقد رجـالنا الملك ولم يعودوا يـروه، وخافوا أن يكـون قد قتل، وعنـدما اقترح واحد منهم وجـوب التقدم نحو الأمام للعثـور عليه، بات من الصعـب ضبط صفوفنا والحفـاظ عليها، ولوحدث واختـل نظام عساكرنا، لتعرضوا بدون شك إلى الدمار.

غير أن الملـك رتشـارد الـذي اعتـاد على القتال منـذ نعـومـة أظفـاره، والذي لايمكـن عدّ رولانـد الشهير مساويـاً له، بقـي غير مرئي حتـى في وسـط الأعداء، وكـان جسـده، كأنـه صنع مـن نحـاس أصفر، لايمكـن التأثير عليـه بأي نوع مـن أنواع السلاح، وكان حـاملاً بيده اليمنـى سيفه

يقارع به، فقد حمل حملة سريعة حطم بها الصفوف على الجانبين، فهكذا كانت أفاعيله وسط حشد الترك، لم يكن يخشى شيئاً، بل دمر كل الذين كانوا من حوله، يجرف الرجال أمامه بسيفه، وكأنه حصّاد يحصد القمح بمنجله.

من الذي يستطيع أن يصف هذه الأفاعيل؟ فكل من تلقى ضربة واحدة منه لم يحتج إلى ضربة ثانية، وهكذا كانت فعالية شجاعته التي لاشك أنها ابتهجت لأنها وجدت فرصة للتعبير عن نفسها، وقطع السيف الذي ضرب به الرجال والخيول سواء، وفلقهم إلى منتصفهم، وكان كلما وجد نفسه قد ابتعد أكثر عن رجاله، كلما استهدف الأعداء التغلب عليه، وهناك كانت شجاعته تزداد اشراقاً ووضوحاً.

فبين الأعمال الشجاعة التي قام بها في تلك المناسبة، أنه قتل بضربة واحدة رائعة واحداً من أشهر أمراء الأعداء وأعلاهم مكانة وأكثرهم ثراء، وبدا هذا الرجل من خلال حركاته وكأنه يقول: إنه ذاهب ليفعل شيئاً رائعاً، وبينما كان يوبخ البقية لجبنهم، غمز حصانه، وحمل حملة عنيفة على الملك، الذي لوح بسيفه عندما رآه قادماً، وبضربة واحدة لم يقطع رأسه فقط بل كتفه وذراعه الأيمن، واصطك الترك بالرعب أمام هذا المشهد وأفسحوا الطريق على جميع الجوانب، ولم يتجرأوا برميه بسهامهم حتى من مسافة بعيدة، وعاد الملك الآن سالما دون أن يصاب بأذى، عاد إلى رفاقه وشجعهم أكثر من ذي قبل وأعطاهم الأمل بالنصر.

وكان شخص الملك مغروساً كله بالنشاب، مثل غزال طعن من قبل الصيادين، وكانت تجافيف فرسه مغطاة بالسهام بكثافة، وعاد من الصراع كرجل شجاع، وكان صراعاً مريراً، لأنه امتد من الصباح حتى غياب الشمس.

وبفضل الرب نجا رجالنا من الدمار، وعاد الجيش التركي إلى صلاح

الدين الـذي هزأ برجالـه سائلاً باستخفاف: «أيـن الملك رتشاردRic »؟ ذلك أنهم وعدوه بحملـه إليه أسيراً، وتابع يقول: « مـن منكم الذي أسره أولاً، وأيـن هـو، لماذا لم تجلبـوه وتحضروه أمـامـي»؟ ورد عليـه واحـد مـن الأتراك الذي جـاء من أقصى بقاع الأرض بقوله: « في الحقيقـة يامولاي، إن الملك رتشارد الذي تسـأل عنه ليس موجوداً هنا، فنحـن لم نسمع قط منـذ بدايـة الخلـق أنـه وجد فـارس قـط مثلـه، في شجاعتـه وخبرتـه في السلاح، فهو المتفـوق بأفاعيله، وهو لانظير لـه، فهو الأول زحفاً، والأخير تراجعاً، لقد بـذلنا غاية جهودنا لأسره، لكن عبثاً كـان، لأن ما من واحد يمكنه أن ينجـو من سيفـه، فقتاله مميـت، وأن تشتبك معـه معناه الموت، فأفاعيله فوق طبيعة البشر».

كيف أقام الملك رتشارد هدنة مع صلاح الدين

ومن جراء التعب والجهد الكبير الذي بذل في المعركة، سقط الملك رتشارد مريضاً ومثله سقط عدد آخر ممن أنهكوا أنفسهم في القتال، ولم يكن هذا بسبب القتال فقط، لكن من الروائح التي انبعثت من أجساد الموتى التي تفسخت، فأفسدت المناطق المجاورة، وكادت أن تسبب الموت للأحياء.

وبعد تقليب طويل للأمور، وكان وقتها الملك قلقاً حول صحته، بعث إلى قريبه الكونت هنري مع الداوية والاسبتارية، وإلى هؤلاء وصف حالة الضعف التي حلت بجسده، واشتكى أنه في ظل الأجواء الفاسدة، والوضع السيء للدفاعات، لابدله من مغادرة المكان بالحال ودونما تأخير، ثم عين بعضهم للذهاب ولتسلم المسؤولية عن عسقلان، في حين يبقى بعضهم لحراسة يافا، لأنه هو نفسه سوف يذهب إلى عكا ليشفى، فهذا ضروري جد الآن، واعترض الجميع على هذه الشكوى بقلب واحد وصوت واحد، قائلين إنهم لن يستطيعوا حماية يافا أو أي حصن آخر بعدما يذهب، ولدى اصراراه على الرفض، اعتزلوه ولم يعودوا يعملون بالتوافق مع الملك.

وغضب الملك رتشارد وتضايق من هذا المسلك، وتألم بحرقة أن ما من واحد تعاطف مع نواياه أو رغباته، وعندها بدأ يبحث عما ينبغي أن يفعله، غير أنه وصل من خلال مناقشاته كلها إلى المحصلة نفسها، وهي أنه ليس هناك واحداً بينهم متعاطف مع سوء حظه، وعندما رأى أن الجميع تخلى عنه، وأن ما من واحد بات يهتم أدنى اهتمام بالقضية العامة، أمر أن يعلن أن على الذين يودون تسلم العطاء من الملك القدوم إليه، جميعا لتقديم عونهم له، وجاء على الفور ألفين من الرجالة، وخمسين

من الفـرسان، لكـن صحة الملك بـدأت تزداد سوءاً حتـى أنه قنـط من التعافي، وبناء عليـه، وهو قلق على كل من الآخـرين وعلى نفسه، رأى أن أفضل (الخطـط التي اقترحـت عليه) هي أن يطلـب عقد هـدنة، ولا أن يترك البـلاد فريسـة للفـوضـى المدمرة، مثلما فعـل آخـرون كثـر بالابحـار عائدين إلى بلادهم.

واحتار الملـك، وتردد حول أفضـل ما يمكنـه القيام به، فطلـب سيف الديـن، أخي صـلاح الدين ليتـوسط بينهما للحصـول على أحسن شروط هدنـة في إمكانـه الحصول عليها، وكـان سيف الديـن رجلاً كـريماً جداً، قدم في كثير مـن المناسبـات احتراما كبيرا وتشريفاً للملـك لما تمتع بـه من فضائل شخصية، وقام الآن بحماس عظيم بـالعمل للحصول على أفضل هـدنة للملـك رتشارد، وفـق الشروط التاليـة: بالنسبـة لعسقلان، التـي كـانت دومـاً سبباً لازعـاج حكومـة صلاح الـدين، ينبغـي هدمهـا، وأن لاتعاد عمارتها خـلال ثلاث سنوات، تبدأ مـن عيد الفصح المقبـل، لكن عند انتهـاء هذه المدة، يمكن لمن يستحـوذ عليها أن يعيـد تحصينها، وأن يسمـح للفرنجـة بسكنى يـافا بـدون مقابـل أو ازعاج مـع جميع المنطقـة الملاصقة لها على شاطـىء البحر وفي الجبال، وينبغي مراعاة السـلام بدقة بين الفـرنجـة والمسلمين، وكـل واحـد مـن الفـريقين يمتلـك الحريـة في الذهـاب والمجيء إلى حيث يـريد؛ وأن ينال الحجـاج حرية الـوصول إلى الضريح المقدس بدون أي دفع أو تحصيل أي مـال منهم مهما كان نوعه؛ وأن يسمـح بحمـل التجـارات للبيع في جميـع أنحـاء البـلاد، وبممارسـة التجارة ومتابعتها بدون اعتراض.

وعرضت هذه المعـاهدة وهي مكتوبة على الملك رتشـارد، الذي أعطى مـوافقته عليهـا، ذلك أنـه رأى أنه في وضعـه الضعيف، مـع القليل مـن العساكـر من حـوله(وأيضـاً على بعد ميلين عـن العدو) ليـس في قدرتـه تأمين شروط موائمة أفضل.

وعنـدما أقـر الملك الأمـور وفق مـا وصفـت، بعث بـرسل إلى صـلاح الديـن، ليعلموه بحضور عـدد كبير من المقدمين لـديه، أنه طلـب الهدنة لمدة ثلاث سنـوات، بقصد العودة لـزيارة بـلاده وجمع المزيد من الـرجال والمال، ليعود بعد ذلـك لانقاذ جميع أراضي القدس وانتزاعهـا من دولته، إذا امتلـك وقتها صـلاح الديـن الشجـاعة لمواجهتـه على أرض المعركـة، وعلى هـذا رد صلاح الـدين قـائلاً لتشهـد عليّ شريعتي المقـدسة، واللـه القادر، أنـه يكبر هذا الموقف العظيـم من الملـك رتشارد، وأنه يقـدّر نبله، وجودته بشكل عام، حتى أنه افترض دومـا لو أنه أرغم على فقدان ممالكه كلها، لآثر أن يفقدها لصالحه وليس لصالح أي ملك آخر رآه قط.

وبعدما كتبت شروط الهدنة وتـأكدت بالأيمان من على الجانبين،ذهب الملك إلى حيفا، وهو في أحسن حال حيـث كان يمكنه تناول الدواء حتى يبرأ.

وفي الوقـت نفسه، شرع الفرنسيون الـذين كانـوا يتمتعون بالراحـة منذ زمـن طـويـل في عكـا، بالاستعـداد للعـودة إلى وطنهـم، لكـن مـع أنهم عارضوا الهدنة بمرارة، رغبوا الآن قبـل مغادرة البلاد إكمال حجهم بزيارة ضريح ربنا.

وتذكر الملك تقـاعسهم عن تقديم المساعدة له في يـافا، وفي مناسبات كثيرة أخرى، فبعـث برسـل يطلبون أن لايسمح صـلاح الديـن أو سيف الـدين لأي واحـد بزيـارة الضريح المقـدس إذا لم يجلب جـواز سفر منـه شخصيـاً أو من الكـونت هنـري، وغضب الفـرنسيون لهذا غضبـاً عظيماً، وأخفقـوا في تحقيـق هدفهـم، ومـالبثـوا أن عـادوا إثـر هذا إلى بـلادهـم، لايحملون شيئاً معهم غير الملامة والعار.

وعندما رأى الملك أن الشطر الأعظم من الفـرنسيين، الذين بذلوا غاية جهدهـم للتشهير به، قد عـادوا إلى وطنهم، وأن أفـواه شتائمه ونقـده قد

أغلقت، أمر أن يعلن أن كل من يرغب يمكنه زيارة ضريح ربنا، وأن يجلب تقدماته للمساعدة على ترميم أسوار يافا.

وانتظم الناس الآن في ثلاث مجموعات لزيارة القدس، ووضعت كل مجموعة تحت قيادة قائد منفصل، وقاد المجموعة الأولى أندرو دي كافني، وقاد الثانية رالف تيسن Teissunوقاد هيوبرت أسقف سالسبري المجموعة الثالثة، وتقدمت المجموعة الأولى نحو القدس تحمل رسائل من الملك، لكن نظراً لذنوبهم، لقد وقعوا في مكيدة وهم في طريقهم، لأنهم عندما وصلوا إلى سهل الرملة، بعثوا برسل ليخبروا صلاح الدين حتى يعطيهم الأمان في ذهابهم وايابهم، وأنهم يحملون رسائل من الملك رتشارد، وكان الرسل رجالاً نبلاء، ويتسمون بالنشاط، لكن في هذه المناسبة، كانوا متقاعسين، وأهملوا القيام بواجبهم، وكانت أسماء هؤلاء: وليم دي روك Roches ، وجيرارد دي تورنفال Tour-neval ، وبيتر دي براتل Pratelles .

وعندما وصلوا إلى «برج الجنود»، توقفوا هناك للحصول على التصريح من سيف الدين من أجل متابعة سيرهم والتقدم نحو الأمام، غير أنهم ناموا، وظلوا نائمين حتى غياب الشمس، ووجدوا عندما أفاقوا أن جميع الحجاج، الذين جاءوا لصالحهم، قد مروا، وجازوا أمامهم.

وعندما اجتاز أفراد الجمع كله السهول وكانوا يقتربون من الهضاب، نظر أندرو دي كافني والبقية إلى الخلف، فرأوا رسلهم قادمين بعدهم بأقصى سرعة ممكنة لهم، وعندما رأوا هذا توقفوا وهم مضطربين، مقدرين أنهم كانوا في خطر عظيم، وأنهم عرضة للقتل، لأن جيش الترك لم يكن قد غادر بعد، ورسلهم الذين توجب عليهم جلب الأمان لهم من عند المسلمين كانوا الآن خلفهم، ولهذا عندما وصل هؤلاء، لامهم الآخرون لإهمالهم، وطلبوا منهم الاسراع بالسير أمامهم، وقد فعلوا حسبما أمروا.

وذهب الرسل بسرعة كبيرة نحو القدس، ووجدوا حوالي الألفين من الترك معسكرين خارج المدينة، وسألوا عن سيف الدين وبحثوا عنه، وعندما وجدوه شرحوا له ما حدث، وقد وبخهم بلطف، وقال لهم: من الواضح أنهم لم يقدروا قيمة حياتهم حماقة منهم، لأنهم جاءوا إلى وسط جيش معادي بدون جواز سفر أو أمان من أي نوع.

وكان الوقت وقت مغيب الشمس، ووصل بقية الحجاج، دون أن يعرفوا ما ينبغي فعله، ولم يكن لديهم سلاح لحماية أنفسهم، وكشر الترك وقطبوا نحوهم وهم يمرون، وكان واضحاً من نظراتهم كمية الحقد المخزنة في قلوبهم نحوهم، لأن الوجه يعكس دوماً ما في العقل، وشعر رجالنا في تلك اللحظة بالقلق والاضطراب، وودوا أنفسهم لو عادوا ثانية إلى صور أو حتى إلى عكا، التي تركوها للتو، وهكذا أمضوا الليل قرب أحد الجبال في حالة رعب عظيم.

ومثل في اليوم التالي بعض الترك أمام صلاح الدين، وسألوه بالحاح أن يسمح لهم بالانتقام من الفرنجة (لمقتل رفاقهم، وآبائهم، واخوانهم، وأولادهم، وأقربائهم الذين قتلوا قرب عكا وفي أماكن أخرى) الذين هم الآن في متناول أيديهم، وقالوا إنهم لن يجدوا مرة أخرى فرصة أحسن من هذه.

وبعث صلاح الدين وراء مقدمي الترك للتشاور معهم حول هذا الطلب، وعلى الفور كان المشطوب وسيف الدين وبدرالدين دلدرم في حضرته، وعندما عرض الموضوع عليهم، كان رأيهم بالإجماع وجوب ترك الفرنجة يأتون ويذهبون من دون أذى أو اعاقة ، وقالوا لصلاح الدين : « ستكون وصمة عار كبيرة لسمعتنا، إذا ما تدخلنا في المعاهدة التي أبرمت فيما بينك وبين ملك انكلترا، أو خرقناها، فوقتها ستظل مصداقية المسلمين محط شك وتساؤل» .

ونتيجة لسماع هـذه الآراء والملاحظات، أعطـى صلاح الـدين الأوامـر على الفوز بـوجوب العنـاية بـالفرنجـة ومرافقتهـم في الذهـاب إلى المدينة ولـدى عـودتهم دونما ازعـاج أو مضـايقة، وبنـاء على طلـب مـن سيـف الدين، أوكـل إليه القيام بهذه المهمة، وامتلك الحجاج تحت حمايتـه حرية الـوصول إلى الضريـح المقـدس، وعوملـوا بكـرم زائد، وعـادوا بعد هـذا مبتهجين إلى عكا.

كيف رأى الحجاج القدس وكيف عاد الملك رتشارد إلى وطنه

ولدى عودتهم كانت المجموعة الثانية متوقفة فيما بين قلعة النطرون والرملة، فانطلقت يقودها رالف تيسون، وكان الآن صلاح الدين كما ذكرنا من قبل ، قد مركز رجاله ليحرسوا الطرقات بيقظة، وللانتباه إلى أن الحجاج هم في طريقهم إلى القدس ، ونتيجة لهذه التدبيرات ارتحلنا بكل حرية ودون التعرض للمضايقة، وعبرنا المناطق الهضبية ووصلنا إلى جبل صموئيل، فمن هناك رأينا مدينة القدس عن بعد، فجثينا على ركبنا وقدمنا الشكر للرب، كما هي عادة الحجاج، ورأينا من البقعة نفسها جبل الزيتون.

وتقدمنا بعد هذا ونحن مبتهجين، والذين امتلكوا خيولاً تقدموا أمامنا مسرعين حتى يمكنهم تحقيق رغبتهم بالتسليم على الضريح المقدس، زيادة على هذا، أخبرنا هؤلاء الخيالة الذين تقدموا أمامنا، بأن صلاح الدين سمح لهم برؤية صليب الصلبوت الحقيقي وبتقبيله، وهو الذي كان قد حمل من قبل إلى المعركة.

لكن نحن الذين كنا على الأقدام، ووصلنا بالأخير، رأينا ما استطعنا رؤيته، وكان أول ما رأيناه مكان قيامة ربنا، حيث تقدم منح الغفران، لكن بما أن المسلمين كانوا يأخذون هذه التقدمات، لم نقدم إلاّ القليل، وأعطينا شطراً إلى الأرقاء الفرنجة والسريان، الذين رأيناهم في عبوديتهم يقومون بتنفيذ الواجبات المعينة لهم، وتابعنا من هناك إلى جبل أكرا Cal-vary (الجمجمة) حيث صلب ربنا ، وحيث يوجد هناك حجرة أثبت بوساطتها ربنا في الجلجلة.

وبعـدمـا قبلنا هـذا بتبجيـل، تـابعنـا نحـو الكنيسة المبنيـة على جبـل صهيون، فعلى الجانـب الأيسر كان المكـان الذي انتقلـت فيه مـريم، الأم المقـدسة للـرب، مـن هذا العـالم إلى الـرب، وحيينا هـذا المكـان بدمـوع منهمرة على خدودنا، ثـم سارعنا لنرى المائدة المقدسة التـي تنازل المسيح فوقف ليأكـل خبزاً، وقبلنا هذه أيضاً بحرقة، ثـم غادرنا معا مستعجلين، لأنه لم يكـن آمنا بالنسبة لنـا الذهاب إلى أي مكان، فيما عـدا على شكل كتلة واحـدة، خشية مـن غدر غير المؤمنين لأن الترك خنقـوا بشكل سري ثلاثة رجال أو أربعة في الممرات الملتوية.

وبادرنا من هناك مسرعين إلى ضريح مـريم المباركة — أم الرب— في وسـط وادي يهو شـافاط، قـرب سلـوان، وقبلنـاه بتعبـد، وقلب خـافـق، ودخلنا بعد هذا، بفكـر ليس متحرراً من الاضطراب، إلى غرفـة القبو التي سجـن فيها ربنـا ومخلصنـا في الليلة التـي كـان سيصلـب في صباحهـا، وحيينا هذه الغرفـة بتضرع، بينما انهمرت دموعنا على خدودنا، ثـم غادرنا مسرعين، في الـوقت الـذي لم يبتعد فيـه الترك ولـو قليلاً، وحـزنا للقـذارة التـي تلوثـت بها الأماكـن المقـدسة بـوسـاطة خيـول غير المؤمنين الذيـن استخدمـوا هذه الأماكن كـاصطبلات، وودعنا القدس الآن، وعـدنا إلى عكا.

ولم تكن المجمـوعة الثالثـة التي قـادها أسقف سـالسبري، بعيدة الآن عـن القدس، وأرسـل صلاح الـديـن شعبه لاستقبـال الأسقف بحفـاوة، وأخذه إلى حيثما شاء وإلى أي مكـان أراد أن يزوره من الأماكـن المقدسة، زد على هذا، تقديرا منه لحكمته، ولأخـلاقه الحميدة، ولفضائله الأخرى (التي كـانت معروفـة منذ زمن طويـل من قبل صـلاح الدين) طُلـب منه الإقـامـة في قصر السلطـان، واستضيـف وأنفق عليـه مـن قبلـه، ورفـض الأسقف أن يقـول:« بدون أي كلفـة، لأننا فقـط حجاج»، ووجـه صلاح الدين خدامه نحو اظهار كل عنايـة بالأسقف وبرجاله، وأرسل إليه بهدايا

كثيرة، وسمح له بعد هذا برؤية صليب الصلبوت، ودعاه إلى لقاء معه، حتى يمكنه أن يعبر عن نفسه قبل المغادرة، وقد جلسا وتحادثا معا لوقت طويل.

وسأله صلاح الدين عن ملك انكلترا، وعن الذي يقوله الفرنجة عن مسلميه، وأجابه الأسقف: « صدقاً، فيما يتعلق بمولاي الملك سأقول ما تتطلبه العدالة: إنه لانظير له بين جميع فرسان العالم سواء بالنسبة للشجاعة أو كرم الاعطاء،ذلك أنه متميز في كل شيء فيما يتعلق بكل صفة رفيعة، وبإيجاز، إن مولاي، برأيي المتواضع، لو أراد أي إنسان — وأنا لا أرى لديك ذنوب — أن يقرن ما بين سجاياك وسجايا الملك رتشارد، ويمزج فيما بينهما، لن يجد رجلين آخرين في العالم يمكن مقارنتهما بكما».

وأصغى صلاح الدين بأناة إلى الأسقف ورد عليه بقوله:« إنني أعرف منذ زمن طويل أن ملككم رجل له مكانة عالية، وشجاع، لكنه غير حكيم، إن لم نقل أحمق، في رميه نفسه مراراً في المخاطر، وإظهاره عدم اهتمام كبير بحياته، وبالنسبة لي ، مهما كانت ممتلكاتي واسعة، أوثر أن يكون لدي ثروات واسعة، وحكمة، ومرونة، بدلاً من أن أظهر شجاعة متطرفة، وتهوراً».

ثم تحول الحديث نحو أمور عادية بينهما، وأخبر صلاح الدين الأسقف أن بامكانه أن يطلب أي شيء يوده، فذلك سيعطى له، ورد عليه الأسقف بأن سأله إذا كان بإمكانه الحصول على مهلة حتى اليوم التالي لكي يرى ما ينبغي أن يسأله، وأجيب إلى طلبه هذا، ثم سأل إذا كان من الممكن استبدال الطريقة البدائية للقداسات التي يقدمها السريان، وهي لاتعدو أنصاف قداسات تنفذ أمام ضريح ربنا، وذلك في أن يتم وضع اثنين من الكهنة اللاتين مع شماسين أيضاً لاتين (يعيشون من تقدمات المؤمنين) وأن يسمح لهؤلاء بتقديم القداسات بالتعاون

المتساوي مع السريان، وطلب أيضاً أن يكون هناك عدداً متساوياً في بيت لحم وفي الناصرة، وكان هذا الالتماس عظيم الأهمية، ومرضياً للرب كما نعتقد، ووافق السلطان على الطلب، وعين الأسقف اثنين من الكهنة في الأماكن السالفة الذكر مع اثنين من الشمامسة، يقدمون القداسات للرب، حيث لم يكن هناك من أحد قبلهم، وإثر هذا حصل الحجاج على إذن المغادرة من السلطان، وعادوا من القدس إلى عكا.

أما وقد أكمل الناس الآن حجهم الذي نذروا أنفسهم له، وقد أكملوا اعداد اسطولهم للعودة إلى الوطن، نشروا أشرعتهم للريح، وعهدوا بأنفسهم إلى سفنهم، وأقلعت السفن مسرعة، وتفرقت السفن باتجاهات مختلفة وفقاً لتنوع الرياح.

وتقاذفتهم الأمواج لوقت طويل، ووصل بعضهم إلى موانىء مختلفة سالمين، وساقت بعضهم إلى المخاطر فتحطمت سفنهم، ومرة ثانية مات آخرون أثناء سفرهم، ووجدوا قبورهم في أعماق المحيط، وأصيب بعضهم الآخر بأمراض غير قابلة للشفاء ولم يبرأوا ولم يعودا إلى أوطانهم، زد على هذا ، تحمل آخرون بسلام حتى النهاية، وعانوا من خلال فقدان آبائهم، وأخوانهم وأقربائهم، وأصدقائهم، الذين هلكوا من المرض أو من السيف، وذاقوا نكهة الشهادة، وخرقت آلام متنوعة صدورهم كما لو أن ذلك جاء بفعل السيف.

لقد عانى كل واحد بطريقته الخاصة من نوع من أنواع الشهادة، وباختصار عرض كل واحد حمل قلباً ساذجاً ونفسا مؤمنة نفسه لهذا الحج الطويل حباً بالرب، واعتاد بعضهم ممن يحبون الهذر وكثرة الكلام على الشكوى أن الحجاج قدموا قليلاً من المنفعة لأراضي القدس، لأنهم لم يحرروا المدينة لكنهم لم يكونوا يعرفون مايقولون، لأنهم كانوا يبحثون في أشياء ليس لديهم معرفة شخصية بها ولاخبرة، وعلى كل حال، نحن الذين عرفنا كل شيء ورأيناه بأم أعيننا، ينبغي أن نمنح الثقة والتصديق

لرواياتنا حول المتاعب والشقاء الذي تحمله هؤلاء الرجال.

ونصرح بثقة، على مسمع من الذين كانوا أيضاً حضوراً، أن مائة ألف من الفرنجة قد هلكوا في ذلك الحج، وذلك لسبب واحد ومقصد هو الأمل بالحصول على الثواب الرباني، فلهذا السبب فصلوا أنفسهم عن النساء، ورأوا أن من الشرور التضحية بطهارتهم للحصول على الصحة البدنية، ونعلم بشكل أكيد أنه نتيجة لاجتماع الأمراض والمجاعة مات أكثر من ثلاثمائة ألف اثناء حصار عكا وبعد ذلك، ومن ذا الذي يشك — على كل حال — في خلاص أرواح مثل هؤلاء الرجال النبلاء والرائعين، الذين سمعوا يوميا القداسات من شفاه قساوستهم، ومن المؤكد أن نفترض أن هؤلاء قد ذهبوا إلى الجنة.

وغدت سفينة الملك رتشارد جاهزة، وقد زودت بكل الضروريات من سلاح ومؤن، وأعدّ ذلك من أجل الرحلة، ثم قام الملك بدافع من كرمه الخالص،وبرأي من عقله النبيل لوحده، أقدم على تخليص وليم دي بريتل (الذي عرض نفسه للأسر حتى ينقذ الملك) بمبادلته بأكثر من عشرة من النبلاء الترك، مع أن هؤلاء كانوا على استعداد لأن يدفعوا وهم مسرورين مبلغاً كبيراً من المال لفداء أنفسهم، لكن كرم الملك ما كان ليتوقف بأي حال أمام أي معيق.

وبات الآن كل شيء جاهزاً، والملك على وشك الاقلاع، هنا (قرر قبل أن يذهب أن لا يترك أي شيء خلفه يمكن أن يؤثر على سمعته) أمر بأن يعلن للجميع أن كل من له ادعاء نحوه ينبغي أن يتقدم به، وأن جميع ديونه سوف تدفع بالكامل، لابل أكثر من الكامل، لتجنب أي معيق أو شكوى فيما بعد.

ولكم كانت التنهدات والدموع كثيرة هناك عندما رفع الاسطول الملكي مراسيه، ودعي للملك بكثيرمن التبريكات لأعماله المثيرة النافعة،

ولفضائله الظاهرة، ولكرمه الكبير، وللمحاسن الكثيرة التي اجتمعت في شخص واحد، وارتفعت أصوات العويل، وردد الجميع وهم يبكون: « ياقدس، حرمت الآن من كل أمان، كيف فقدت المحامي عنك، من الذي سوف يحميك لو أن الهدنة خرقت، طالما أن الملك رتشارد قد غادر»؟ هذه كانت كلمات كل واحد، عندما صعد الملك ظهر السفينة وأقلع، ذلك أن صحته لم تكن عادت كما ينبغي، لذلك كان موضوع قلقهم جميعاً.

وسارت السفينة طوال الليل مهتدية بنور النجوم، وعندما جاء فجر النهار، نظر الملك نحو الخلف، بأعين نحو البلاد التي غادرها، وبعد تأمل طويل وتفكير عميق، رفع صوته بالدعاء وسمعه عدد من الناس يقول: « أدعك أيتها الأرض المقدسة للرب، وإذا ما منحتني العناية السماوية الحياة، لعلي أتمكن برضا الرب أن أقدم لك العون، وأن أكون في أحد الأيام ، كما أنوي، المدافع عنك والمحامي».

وبمثل هذه الكلمات حث الملاحين على نشر أشرعتهم للريح، جاهلاً لما هو بانتظاره من مشاق وأحزان، وغير عارف بالمآسي التي سيعاني منها بسبب الخيانة، التي حيكت لإلقائه بالسجن من قبل ليوبولد صاحب النمسا(*)، فقد استولى أخوه الايرل جون على ميراثه، وجرى بظلم اغتصاب قلاعه في نورماندي، واعتدى خصومه بوحشية على حقوقه، ولم ينج من أسره إلا بدفع فدية.

(*) — بالاضافة إلى ما تقدمت روايته عن أسباب اعتقال ليوبولد صاحب النمسا لرتشارد، في المجلد المتقدم، وكذلك في المجلد الثامن الحاوي لذيل ناريخ وليم الصوري، يقال إن قرابة قامت ما بين اسحق صاحب قبرص وزوجته من جهة وليوبولد من جهة أخرى، وذلك بالاضافة الى مشكلة اغتيال كونرادمركيز صور، وكانت سفينة رتشارد قد أعاقتها العواصف، لذلك حاول إكمال سفره متخفيا براً، لكنه كشف وألقي القبض عليه في فينا، حسبما تقدم بالتفصيل.

-١٠٠٥-

واسترد أخيراً أراضيه ومملكة آبائه، وأعادها إلى الهدوء والاستقرار، ثم عبر إلى نورماندي لينتقم لنفسه من اعتداءات ملك فرنسا، الذي كان خصمه، وبعد ما هزمه مراراً، استرد بالقوة والسيف والرمح حقوقه المسلوبة، لابل زادها.

انتهى هنا كتاب حملة الملك رتشارد إلى الأراضي المقدسة التابعة للقدس.

رحلة حج سيولف الى القدس
(١١٠٢-١١٠٣م)

مدخل

المخطوطة الوحيدة المعروفة من رحلة حج سيولف Saewulf هي التي أنقذها ماثيوباركر رئيس أساقفة كانتربري ،من التهديم العام لمكتبات الديرة خلال حكم هنري الثالث ،وأدوارد الخامس،ومنحها الى مكتبه كلية المسيح في كمبردج،حيث حملت الرقم ١١١،وقد قام السيد.ت.رايت بنسخ نسخة عنها،وترجمها،وترجمته لها موجودة في مكتبه بوهن،ونشرت للمرة الأولى من قبل م.دي أفيزاك في «مجموع الرحلات والمذكرات للجمعية الجغرافية»الجزء الرابع،باريس ١٨٣٩،وبما أن هذه الطبعة غير متوفرة ،تطلبت الحاجة اعادة نشر الأصل بعناية اعتماداً على مخطوطة كمبرج، وتولى هذا العمل السيدأ.روجر،وتحتوي المخطوطة نفسها على سبع قطع من مخطوطات قديمة ،وفي الحقيقة رواية سيولف نفسها قطعة،فقدت شطراً كبيراً من مطلعها، وخاتمتها أيضاً مفقودة. وكاتبهاسيولف غير معروف تاريخياً ،لكن م.دي أفيزاك قد استخرج عدداً من الأدلة،أمكن بوساطتها تحديد تاريخ الحج بشكل مؤكد، فإيتانها على ذكر كل من الملك بلدوين، وريموند صاحب طولوز على أنهما كانا معاً في الأرض المقدسة،يعيد تاريخها الى السنوات الأولى من القرن الثاني عشر،لأن بلدوين جرى تتويجه في ٢٥-كانون الأول سنة ١١٠٠،وتوفي ريموند في ٢٨ شباط سنة ١١٠٥.

وذكر سيولف أماكن على الساحل كانت ماتزال في أيدي المسلمين،وبين ما كان بأيدي الفرنجة مدينة طرطوس التي استولى عليها ريموند، وكانت عكا التي سماها عكرون-ماتزال بأيدي المسلمين، ومعروف أن ريموند قد استولى على طرطوس في آذار سنة ١١٠٢ ،في حين لم يتم الاستيلاء

على عكا حتى ١٥-أيار ١١٠٤ ،ومرة أخرى لقد بدأ سيولف رحلة عودته في يوم عيد الحصاد، وجاء عيد الحصادلعام ١١٠٤ في الخامس من حزيران،أي بعد الاستيلاء على عكا، وحل عيد الحصادلعام ١١٠٢ يوم ٢٦-أيار،بعد أكثر من شهرين من الاستيلاء على طرطوس،ولابد على هذا أن تاريخ عودته قد وقع فيها بين ١١٠٢أو ١١٠٣،وكان قد بدأ من ايطاليا في يوم أحد ،الذي كان عيد القديسة ميلدرد mildred في ١٣ تموز،وحل ١٣ تموز يوم أحد في سنة ١١٠٢، وعيد الحصادالتالي في سنة ١١٠٣ حل في ١٧ -أيار،ووصل م.دي أفيزاك الى هذه المحصلة دون تحديد التاريخ تماماً ،الأمر الذي يعطينا إياه الذي استنسخ نسخة عن المخطوطة،فقد قرأ السيد رايت عبارة Tertio idus jutكما يلي Tertio uero milliarii،وكان لحسن الحظ بالنسبة له أن البولاندستBollandists قد وضعوا عيد القديسة ميلدرد يوم ١٣-تموز، حسبما هو ظاهر على تقويم وستمنستر ميسال Missal ،فهذا مااستخرجته منذ زمن وجيز« جمعية هنري برادشو»وليس يوم ١٤ من الشهر نفسه حسبما أعطاه تقويم انكليزي قديم نشر من قبل السيد ماسكل « Monumenta rituolia » ج٣ص ٢٠١، أو في عشرين شباط، وهو التاريخ الذي أعطاه ألبان بتلر،فهذا التاريخ الأخير هو يوم تسلم آثارها في بلجيكا،لأنها كانت قد حملت بعيداً من ديرها في ثانت ThaneT التي نهبها الدانيون، وبتبني تاريخ ١٣-تموز،نكون قد حددنا تاريخ سيولف بدون أي شك.

وذهب م.دي أفيزاك الى الاعتقاد أن سيولف هو فقط«a nom de guerre»وأنه ناله بسبب سفراته المتواليه مثل«كلب البحر»لدينا، لكن«ولف»وجد بالأسماءالانكليزية كثيراً ،مما يجعل هذا الافتراض غير صحيح.

واستخدم سيولف اصطلاحات مثل:«dies egyptiaca و hora

egyptiaca»،ونعلم من دو كـانج أن هذه الأيام والساعـات قد وضعت في بعـض التقاويـم القـديمة لـلاشارة الى انهم تـواريـخ نحس ،وأطلـق عليهـم«مصريـات»لأنهم نقلـوا مـن كتـاب فلـك مصري ،وقـد قـال المصريون إن الحظ سيكون حظاً عاثراً إذا مـا فصد الانسان أو تولى القيام بـأي عمـل هام في هـذه الأيـام،وأدان القـانـون الكنسي الأخذ بمـراعـاة الأوهـام بقولـه:«ينبغي عليـك عدم مـراعاة الأيـام التي تـدعى الأيـام المصرية»الـخ(Decret 26.Q.caus.7.c.16)،وبناء عليـه قال وليـم أوف نيوبرا:«رسـم رتشارد الأول في لندن من قبـل بلدوين رئيس أسـاقفة كـانتربري ،في الثـالث مـن أيلول ،الـذي هـو قد عـرف من المعتقـدات القديمـة الكافـرة بأنـه يوم نحـس-Malus vel aegptiacus »الخ، ووردت الإشارة الى هـذه«الأيام المصرية »في التقـاويم المسيحية القـديمة المعروفة بـ Almonac،أي التقاويم التي نشرت في حوالي سنة ٣٣٦م ثم أعيـد نشرهـا في سنـة٣٥٤م مـن قبـل فـوريـوس دايـونيسيـوس فيلوكالوس Furius Dionysius Filocalus،واستخرج م.دي أفيزاك من واحد من هـذه التقاويم أن ١٣ و٢٢ تموز كانا من أيـام النحس هذه وهذيـن كانا اليـومين اللذيـن أقلع فيهما سيولـف من مونـوبولي ثـم أقلع ثانية في البحر من برنديزي.

وفيما يلي التواريخ التي ورد ذكرها في رحلة حجنا:

١١٠٢, ١٣-تموز،أقلع من مونوبولي قرب باري.

١١٠٢, ٢٢-تموز،بدأ ثانيه من برنديزي.

١١٠٢, ١-آب ،وصل الى جزيرة سيفالونياcephalonia.

١١٠٢, ٩-آب ،وصل الى كورنيثا.

١١٠٢, ٢٣آب وصل الى نيغروبونتNegropont

١١٠٢, ١٢-تشرين أول،نزل في يافا

١١٠٣, ١٧ -أيار،عاود الاقلاع من يافا

١١٠٣, ٢٣-حزيران،وصل الى رودس

١١٠٣, ٣٠-حزيران،وصل الى رودستو في الطريق الى القسطنطينية.

وليس من المؤكد فيما إذا كان سيولف رجل دين أوعلماني،ومن الواضح أنه كان رجلاً تقياً جداً،ومشتاقاً لرؤية الأماكن التي سمع عنها وقرأ حولها في الأناجيل،ولم يخطر على باله مناقشة الأشياء التي أخبره بها المسيحيين السوريين أو الشك بها،لكنه قدم رواية صحيحة بقدر امكانه حول الأماكن والأشياء التي رآها.

-١٠١٢-

رواية عن

حج سيولف الى القدس والى الأرض المقدسة

في سنتي ١١٠٢و١١٠٣ لتجسيد ربنا

هنا بداية الرواية المؤكدة عن وضع القدس

كنت أنا سيولف المذنب الحقير فعلا، على طريقي الى القدس من أجل الصلاة عند ضريح ربنا،ومع أنني ذهبت على الطريق المباشر مع آخرين كانوا ذاهبين الى هناك،لم أستطع عبور البحر المفتوح وذلك إما بسبب أنني كنت مثقلاً بذنوبي، أو لأن السفينة كانت بدائية ،ولهذا قررت أن أدون فقط أسماء الجزر التي مررت بها.

وقد نزل بعضهم في فاروم(١) Varum ،وبعضهم الآخر في بارلوم Barlum(٢)،وبعضهم في سيبونتوم(٣)Sipontum ،أوفي ترانوم(٤)Tranoom،ونزل بعضهم حتى في أوترنت(٥)otrente،وفي ميناء أبوليا الجنوبي الأقصى،ولقد صعدنا الى ظهر السفينة في مونوبولي،التي هي على مسافة يوم من باروم(٦) Barum ،يوم الأحد١٣-تموز، وهو يوم عيد القديسة ميلرد العذراء(٧)،ولم يكن وقتاً سعيداً،حسبما تبرهن فيها بعد لنا،ولولا أن رحمة الرب لم تحمنا،لكنا غرقنا،ففي اليوم نفسه، عندما كنّا على وجه البحر،بعيداً عن الميناء،عانينا من تحطم السفينة بسبب عنف الأمواج،لكن بفضل عناية الرب عدنا سالمين الى الشاطىء.

وعندها ذهبنا الى براندك(٨) Brandic ،ومجددا صعدنا في يوم بؤس ظهر السفينة نفسها،لكن أمكن ترميم بعضها ،ونزلنا على جزيرة إغريقية،حملت المدينة فيها مع الجزيرة نفسها اسم كورفي(٩)curphi،ليلةماقبل عيد القديس جيمس الرسول(١٠)،ووصلنا من هناك الى الجزيرة التي تدعى كافالانيا(١١)caphalania،حيث

جـرفتنـا عــاصفــة كبيرة،يـوم الأول مــن آب،فهنــاك مـات روبــرت غــويسكــارد(١٢)،ومــات هنــاك أيضـاً مــرافقـونــا،مما سبـب لنــا حـزناكبيرا،وأقلعنـا بعـد ذلك مـن هنـاك،وأبحرنـا حتـى وصلنا الى بـولي بــولـــس(١٣) Polipolisثـــم وصلنــــا الى جـــزيـــــــرة بتراس(١٤)patrasالجميلة،ودخلنا الى مـدينتها من أجل الـدعاء لأندرو الـرسـول المبـارك الـذي عـاني هنــاك ودفـن،لكـن نقـل بعـد ذلـك الى القسطنطينية ،ووصلنـا من بتراس عشية عيـد القديس لـورانس (١٥)الى كورنثيـا،فهناك كان الـرسول بولص المبـارك قد بشر بكلمة الـرب ،وكتب رسالة الى بعض (المؤمنيين بـه)، وعانينا هناك من متاعب عـديدة،وجزنا مـن هنـاك الى مرسـى هـوستـا(١٦) Hosta ،وذهبنا إثر ذلك، بعضنا على قدميه وبعضنا الآخر على ظهـور الحمير في رحلة يومين الى طيبة ،التي هـي مدينـة تدعـى بشكل عـام ستين stinae ،ووصلنا في اليوم التالي الى نغروبـونت عشيـة عيد القـديس بـارثلميو الـرسول،واستـأجرنـا هناك سفينة أخرى ،وتبعد أثينـا ،التي بشربها بولص الرسول،مسـافة يومين عن أحواز كـورنيثيا،فهنـاك ولد ديـونيسوس Dionysius وتعلم،وآمن بعد ذلـك بالـرب بوسـاطـة بولـص المبـارك(١٧)،ويوجـد هناك في كنيسـة العـــذراء مريم المباركة،زيت في مصباح يشتعل بشكل دائم،دون أن ينقص مطلقاً .

ووصلنا بعـد ذلك الى جـزيرة تـدعى بيتـاليون (١٨)petalion،ومن هنـاك الى أنـــدريـا(١٩)Andria حيث يصنعون ذهبا ثمينا وفضة منظومـة في خيط أو أشكال مغلفـة،وملابس مطرزة بـالحرير،وقدمنـا من هنــاك الى تينـــوس tinos ،ثــم الى سيراSyraوبعـــدهـــــــــا الى ميكونيام Miconyam،ومن هناك الى نكسيا naxia ،التي الى جانبها جزيرة كريت صاحبة الذكـرى والشهرة ،وجزنا من هناك الى كاريا -car eaوأومرغـونomargon،وسامـوس،وسكيو scyo وميتيلينا -met

elina،ووصلنا بعد هذا الى باتموس patmos،التي نفي إليها يوحنا الرسول الانجيلي من قبل دومشيان Domition ،وحيث كتب سفر الرؤيا،وإفسوس واقعة على أحد الجوانب قرب سميرنا، التي هي على مسافة يوم واحد ، والتي إليها ذهب الانجيلي نفسه،ودخل حياً الى ضريحه،وكتب الرسول بولص أيضاًرسالة الى أهالي إفسوس ،ثم وصلنا الى جزيرتي ليروس Leros،وكاليمنو Calimno ، ثم الى آخوس ،حيث ولد جالينوس أعظم الأطباء مكانة بين الاغريق،وعبرنا من هناك بوساطة ميناء مدينة ليدو lydo المهدمة،حيث بشر تيتوس تلميذ القديس بولص الرسول،وقدمنا من هذه الى أسيوم Asum التي تدعى أرجنتيا(٢٠)Argentea.

ثم وصلنا بعد هذا الى رودس،التي قيل عنها بأنها إحدى عجائب الدنيا السبعة وهي:الكولوسوس Colossus ،وهوصنم ارتفاعه مائة وخمسة وعشرين قدماً ، هدمه الفرس مع جميع المقاطعة الرومانية تقريباً ،عندما كانوا في طريقهم الى إسبانيا،والى الكولوسيين كتب الرسول بولص المبارك رسالة (٢١)،وأوصلنا من هناك سفر يوم الى باتارا Pa-tara ،وهي مدينة ولد فيها المبارك رئيس الأساقفة نيقولا، ومن هناك ساقتنا في المساء المتأخر عاصفة قوية، وأطلقنا الأشرعة في الصباح التالي ،ووصلنا الى مدينة كلها خرائب تدعى سينت ماري موغر ونيسي،Mogronissi ،ومعنى هذا:الجزيرة الطويلة(٢٢)،واعتاد هنا أن يعيش النصارى الذين أخرجهم الترك من الاسكندرية(٢٣)،وهذا ظاهر من الكنائس والأبنية الأخرى،وقدمنا من هناك الى مدينة مايرا Myra ،حيث حكم القديس نيقولا بمثابة رئيس للأساقفة(٢٤)، وما يرا هي ميناء البحر الأدرياتيكي(المتوسط)مثلما القسطنطينية هي ميناء البحر الايجي،وبعدما تعبدنا عند مقام الضريح المقدس للقديس المذكور،وصلنا بريح طيبة الى

الجزيـرة التـي اسمها اكسنـداكـوبـوXindacopo التـي معناهـــــا باللاتينية «الأشرعـة الستة»بنسبب قوة البحر(٢٥)،وعلى مقربـة منها الميناء الذي يدعـى مع المنطقة المحيطة به بـاسم فينيكا Finica ،وبعد ثلاثة أيام من السفر عبر الجزء الأعرض من البحـر الأدرياتيكي،وصلنا من ذلك المكان الى مدينـة بافوس Paphos ،وهي جزء من جـــزيرة قبرص،فهنا اجتمع الـرسل بعـد صعود ربنـا،وعقدوا مـؤتمراً حول الأشيـاء المتوجـب اقرارها،،والى هاهنا أرسلوا القديس برنـابا الرسول للتبشير،وبعد وفاته جاء الى هاهنا القديس بطرس من يافا،وهناك تفرقت بذور كلمة الرب،قبل أن يعتلي الكرسي الرسولي في انطاكية.(٢٦)

ومن جـزيرة قبرص،رفعنا مـراسينا،وظلت عاصفـة بحرية تتقـاذفنا لمدة سبعـة أيام ،قبـل أن نتمكـن مـن الوصـول الى مرسـى،وفي إحدى الليـالي كانـت الرياح عنيفة جـداً، الى درجة أنها أعادتنا الى قبرص ،لكـن بفضل من رحمة الرب-التـي هي قريبة جداً مـن كل من يدعوه بصـدق- جدفنا بدون كثير من المصاعب،وعدنا ثانيـة الى مسارنا المرغوب،ثم استبدت بنا عـاصفـة هـائلة لمدة سبـع ليـالي ،ولشـدة خـوفنـا كدنـا جميعـاً أن نفقـد الأمـل،ومهما يكن الحال،عنـدما أشرقـت الشمس في الصبـاح ظهر أمـام أعيننا شاطىء مينـاء يافا،وكما ألقت بنا متاعبنـا الكبيرة ومخاطرنا في وضع بائس كذلك فعل الأمر غير متوقـع وغير المؤمل،فكان أن ضاعفت بهجتنا سرورنا مائة ضعـف، وبناء عليه بعد مـرور ثلاثة عشر اسبوعـاً،كما كنا قد أقلعنا يوم أحدمـن مونوبولي،وكنا دوماًإمـا فوق أمواج البحر أو على الجزر في الأكواخ،وفي الزرائب الشـاغرة،لأن الاغريق ليسوامضيافين،هكـذا نزلنا في يوم أحد وسط سرور عظيم وحمد وشكر الى ميناء يافا.

أسألكم الآن وأرجـوكم جميعاً ،أيها الأصدقاء الأحبـاء،أن تمدوا أيديكم وترفعـوهم عـالياً ،وتصفقوا بهم،وتغنـوا ببهجة تامـة للرب بصـوت واحد معي،وارفعـوا أصواتكم معي في شكـره،لأنه وهو القادر بسـط رحمته عليّ

خلال الـرحلةكلهـا،تبارك اسمـه من الآن فصـاعداً ،ودائماً أبـداً،أعيروني آذانكـم أيها الأصدقـاء الأعـزاء ،واستمعـوا الى خبر الرحمة التـي أظهـرتها العنايـة الربانية نحـوي ولي،ومع أنني أقل عبيـده شأناً ،ففي اليـوم نفسه الذي رسونا فيـه قال لي أحد الناس،بدافع رباني كما أعتقـد:«ياسيد،انزل الى الشـاطـيء هذا اليـوم،خشيـة ربما ستـأتي عـاصفة هـذه الليلـة أو في الصباح البـاكر،ووقتها لـن يكون باستطاعتـك النزول الى اليابسـة»،وما أن سمعـــت هـــذا حتـــى تملكتنـــي على الفـــور رغبـــة بـــالنـــزول الى الشـاطـىء،فـاستأجرت قارباً ،ونزلت الى اليابسة مع كل أغراضي ،وعندما بـدأت بالنـزول الى اليابسـة بـدأ البحر يضطـرب ،وازداد الهيجان،وثـارت عاصفـة عنيفة، لكن بفضـل عناية الـرب وصلت دونما أذى،ثم مـاالذي حدث بعد؟ ذهبنا الى داخل المدينة نطلب مكـاناً للإقامة،وكنا متعبين قد أنهكتنا المشاق الكثيرة،وتنـاولنا بعض المنشطات وارتحنـا،وحدث على كل حال في الصبـاح الباكـر ،أننا عنـدما كنـا خارجين مـن الكنيسة سمعنـا ضجيـج البحر وأصـواته، وصراخ النـاس ،وكـان الجميع يـركضون،وهـم منـدهشين تجاه أشياء لم يسمعـوها مـن قبـل، وركضنا وكلنـا خوف، مـع الآخريـن،ووصلنا الى الشاطـىء،وعندما وصلنـا الى هناك ،رأينا العـاصفة تسوق أمواجـاً عالية مثل الجبال،وقـد غمرت أجساد رجال ونسـاء فاقت التعداد،وقـد غرقوا وألقـي بهم بشكل تعيـس على الشاطىء،ورأينـا أيضاً سفناً وقد تصادمت مع بعضهـا وتحطمت الى قطع صغيرة، من الذي كان بإمكانه الإصغاء الى شيء سوى زئير البحر ،مع تصادم السفن وتحطمها ؟ وكـــانــت الأصـــوات أعلى مـن صراخ النـــاس ،ومـــن صرخـات جميـــع الملاحين،وبما أن سفينتنـا كـانـت كبيرة جداً ،وبنيـت بشكـل متين،فقـد حافظـت حتى الآن على تـوازنها وذلك مع عـدد آخر مـن السفن كـانت محملـة بـالحبـوب وبـأنـواع البضـائع التجـاريـة والحجـاج القـادمين أو العـائدين،وحـافظـت حتى الآن على تـوازنها وسـط البحر الهائج بفضـل مـراسيهـــاولكـونها ربطـت بـالحبـــال،ويـالهول الـرعـب الشريـــر الـذي

واجهوه،وكيـف ألقي ببضائعهـم وقذفـت بعيداً ،ولاشك أن العيـون التي رأت ذلك كلـه قدت من صخر ،إذا كـانت تمنعت عن البكـاء ،ولم يكن قد مضى وقت طويل ونحن نحدق بـالذي أمامنا،عندما اقتلعت الأمواج العاتيـة والتيار الرهيب المراسي، وقطعـت الحبال ،وصارت السفن فـريسة بأيـدي الأمواج الهائلـة، فتبددت جميع الآمـال بالنجـاة، تراهـم الآن قد رفعوا عالياً،ثم مالبثوا أن نـزلوا نحو الأعماق ،وبسرعة جرى لفظهم خارج الأعماق ورميهم فـوق الرمال أو فوق الصخـور، وتبعثروا بشكل بـائس من جانـب الى جانب، وبـالتدريج تحطمـوا الى قطع بقوة التيـار ، ولم تسمح لهم قـوة العـاصفـة بـالعـودة سـالمين الى البحـر،ولم يسمـح لهم انحـدار الشاطـىء بالوصـول الى البر بسلام،وكيف يتسنـى لنا الحديث عـن أسى الملاحين والحجاج عنـدما تبددت جميع آمـالهم،فقد ظل بعضهـم محصوراً بالسفن،وتعلق بعضهـم بالسواري،وبعضهم أمسك بشيء مـن البقايا،أو تعلق بقطع من الخشب،وماذا يمكننـي أن أقول أكثر؟ وغرق بعضهم من الذين استبد بهم الـرعب،وحدث لبعض الذين كـانوا متعلقين أن قطعت رؤوسهم بوساطـة أخشاب سفنهم،وقد يبدو هذا أمـراً لايصدق لكثير من النـاس ،ومع ذلـك أنـا رأيت مـاحدث،وجـرف بعضهـم من على ظهـر سفنهم،فحملـوا مجدداً الى الأعماق،وألقى بعض الـذين يحسنون السبـاحة أنفسهم عن طـواعية بين الأمواج،وبهذا غرق كثير منهم،وقليـل جداً ،ممن كـان واثقاً بقـوتـه،وصلوا سـالمين الى الشاطـىء،وهكـذا من بين ثـلاثين سفينـة كبيرة،ممـن كـان بعضه يعرف بـاسـم دور منـديDormundi أو غولافري Gulafri،أو كاتي(٢٧)Catti،وجميعها كانت محملة بالحجاج أو بـالبضائع التجـارية ،بـالكـاد بقي سبـع سفـن لم تغرق عنـدما غـادرت الشـاطـىء ،وهلـك في ذلـك اليـوم أكثر مـن ألـف انســان مـن كـلا الجنسين،وهي أعظم كارثة أمكن لعين انسـان ان تراها في يوم واحد،ومن جميع هذه المخاطر أنقذني الرب بفضلـه،له الشرف والمجد ،وعالم بلا نهاية .آمين.

ومضينـا من يـافـا الى مدينـة القـدس ،وهي رحلـة يـومين،عبر طريـق جبلي،وصخـري،وخطر جـداً ،لأن المسلمين كـانـوا يقيمون الكمائن دومـاً لاصطياد الفـرنجة،فقد كـانوا يختبئون في الأمـاكن المجوفـة في الجبال،وفي الكهـوف الصخريـة،يـراقبون الأوضـاع ليل نهار،وينتظـرون دومـاً الذيـن يمكنهم مهاجمتهم بحكم صغر تعداد المجموعة المسافرة أو مهاجمة الذين تخلفوا وراء مجموعتهم بسبب الارهاق ،ففـي لحظة واحدة يمكن أن تراهم حـولك في مكـان ما،ثـم مايلبثـون أن يختفوا كليـاً، (٢٨) ويمكن لكـل واحد يقـوم بهذه الرحلة أن يرى هـذا ،آه،كم كان عدد الأجسـاد البشرية الملقـاة على الطـريـق أو على أطـرافـه،وقد مـزقـت مـن قبـل الحيـوانـات الضـارية،وربما يتسـاءل بعضهم لماذا تـوجـب أن تبقى أجسـاد الفرنجـة هكـذا دونما دفـن،لكن هـذا لايجوز أن يكـون مـوضع تسـاؤل،لأن هنـاك مساحة صغيرة من الأرض،وليس من السهـل الحفر بالصخور،ويضاف الى هـذا،لـو افترضنـا وجـود أرض،من هـوالأحمق الـذي يقـوم بـالتخلي عـن جماعتـه،وينشغل لـوحده في حفـر قبر لمرافقه؟إنـه إذا مافعـل ذلك يكـون بالـواقع قد تـولى حفر قبر لنفسه وليس لمرافقـه،وعلى ذلك الطريـق ،ليس الفقير والضعيف من كان عرضة للخطر،بـل حتى الغني والقوي تعرضوا للمخاطر،وقتل المسلمون أعـداداً كبيرة لكن الحرّ والعطش قتل أكثر،فكثير هلكوا لقلة الماء ،وهلك الأكثر لأنهم شربـوا كثيراً ،وعلى كل حال وصلنا نحن مع جماعتنا كلها دونما أذى،الى هدفنا المنتظـر منذ وقت طويل،الحمد للرب،لأنه لم يهمل صلواتي،ولم ينأى برحمته عني.آمين.

وقام مدخل مدينة القـدس في الجهة الغربية،تحت برج الملك داود،عبر البـاب الـذي يعـرف ببـاب داود(٢٩)،وكنيسـة الضريـح المقـدس التـي تدعـى«كنيسة الشهادة»هـي أول بقعة توجبـت زيارتهاوليس هـذا بسبب اتجاه الشوارع،بل لأنها كانت أعظم شهـرة من بقية الكنائس،وهي والحق يقال جديـرة بكل ماقيل عنهـا من قبل الأنبياء المقـدسين،في جميع أنحاء

العـالم،لأن كـل مـا تعلـق بمخلصنـا يسـوع المسيـح أنجـز هنـاك بالفعل،وبنيت الكنيسة نفسها،عندما عثر على صليب ربنا،من قبل رئيس الأسـاقفـة مكسيمـوس،بمسـاعـدة الامبراطـور قسطنطين وأمـه هيلانـه(حنة)،وجـاء البناء ملكيـاً رائعاً،وفي وسـط هذه الكنيسـة ضريح ربنـا(٣٠)،محاط بسـور قوي ، ومغطـى جميعـه،خشيـة الـدمار،وتتسـاقـط الأمطـار فوق الضريـح المقـدس،لأن الكنيسة فـوقـه بـدون سقف،وهـذه الكنيسـة قائمـة على سفـوح جبـل صهيون ،مثلهـا بـذلـك مثل المدينـة نفسها،وبعد هذا قـام الامبراطوران الرومانيان تيتوس وفسبسيـان بتدميرها انتقـاماً مـن الرب ولكـي تتحقق النبـوءة الالهية،آنـذاك اقترب الرب مـن اورشليم وحين رأى المدينة بكى عليها وقال:

«لأنه لـو عرفت أنـت: إن الأيام ستـأتي عليك وسيحيط الأعـداء بك وبـأسـوارك ويتـزاحموا عليـك من كـل مكـان وسيرمـون بـك الى الأرض وبأبنائك الذين يعيشون فيك، ولن يتركوا فيك حجراً على حجر»الخ

ونحن نعرف أن خارج الباب خطوة يكون الرب.

ولكـن الامبراطور هـادريـان أعـاد بناء مـدينـة اورشليـم،التي دعيـت هلياس (إيليا)،وكـذلك هيكل الرب ووسع المدينة حتـى برج داود، الذي كان قبـل ذلك قد بعـد كثيراً عن المدينة،وكل مـن يريد يستطيـع أن يراه من جبل الزيتون،حيـث كانت تقوم الأسوار الغربية النهائيـة للمدينة قبل ذلـك،والى أي حـد توسعـت بعـدهـا، وأعـاد الامبراطور تسميـة المدينـة بـاسمه:«إيليـا»والذي فُسِّر على أنـه بيـت الاله.ولكـن بعضهم يقـول إن المدينة قد أعيد بنـاؤها من قبل الامبراطور جستنيان وكـذلك هيكل الرب بصـورة مشـابهة مثـل مـاهـو عليـه اليـوم،ولكـن يقـولـون إن ذاك روايـة أخرى،وليـس حقيقة أخرى،لأن السريـان،الذيـن كان آباؤهـم يقطنون في تلك البلاد منذ الاضطهـاد الأول،يقولون إن المدينة كانت للمـرة السابعة قـد احتلت ودمـرت بعد آلام الـرب،وصعوده الى السماء ولكنهـا لم تندثـر

بصورة كاملة.وفي باحة كنيسة الرب يمكن رؤية أماكن القبور المقدسة، مثلما أيضاً السجن،حيث كان سجن ربنا يسوع المسيح بعد تسليمه،وذلك حسب الروايات السريانية،وبعدها بقليل الى الأعلى يظهر المكان الذي وجد فيه الصليب المقدس مع الصلبان الأخرى حيث بني بعد ذلك تكريماً من الملكة هيلانه كنيسة عظيمة، ولكنها بعد ذلك دمرت تدميراً كاملاً على أيدي الكفار،والى الداخل ليس بعيداً عن السجن يمكن رؤية الأعمدة المرمرية التي كان قد ربط اليها ربنا يسوع المسيح في قصر الحاكم،وعذب بأقسى أنواع السياط،وبالقرب منها يوجد المكان حيث جرد ربنا من ثيابه من قبل الجنود ،ثم يأتي المكان حيث ألبسه الجند رداء أرجوانيا،وتوجوه بتاج من شوك،واقتسموا ملابسه حسب القرعة ،وبعد ذلك إقتيد الى جبل الجمجمة حيث أراد الأب الأكبر إبراهيم قبلها أن يضحي بابنه على مذبح صنعه بناء على أمر الله. وفي المكان ذاته تم بعد ذلك تقديم ابن الاله، الذي جسده بنفسه، ضحية للاله الأب من أجل افتداء العالم،لكن صخرة الجبل ذاته هي شاهد الآلام الربانية. والى جانب الحفرة التي ثبت فيها صليب الرب،كثيراً من الشظايا، لأنه بدون شظايا لايمكن تحمل موت الخالق، مثلما نقرأ في سيرة الآلام:«كذلك الصخور تفتتت»

وفي الأسفل يوجد المكان المدعو الجلجلة حيث يقال إن آدم، من جريان الدم الالهي المتساقط عليه،قد نهض من بين الموتى مثلما نقرأ في سيرة الآلام:«وكذلك ستبعث كثيراً من أجساد القديسين الذين يرقدون»،هذا ونقرأ في روايات القديس أوغسطين أن قبره في الخليل حيث يوجد إثر ذلك أيضاً ثلاثةدفنوا مع زوجاتهم : ابراهيم مع سارة ، واسحق مع رفقه ، ويعقوب مع ليا ، وعظام يوسف مع أبناء اسرائيل جلبت معهم من مصر. وإلى جانب مكان الصلب كنيسة مريم المقدسة ، في المكان الذي أخذ فيه جسد ربنا من الصليب ، فدهن قبل

دفنه بالـدهون ذوات الروائح الطيبة ، ولف بقطـع من قماش الكتان ، أو برباطات طويلة .

وعند رأس كنيسـة الضريح المقـدس بقعة تدعـى «البوصلـة» ، فهي قد عينها ربنا يسوع المسيح نفســه بيده على أنها وسط العالم (٣١) ، وهذا ما أكـدته المزامير بقـوله : « والله ملكي منـذ القدم فـاعل الخلاص في وسط الأرض » ويقـول بعضهـم إنه في هذا المكـان حسبما قالوا ظهـر ربنا يسوع المسيـح للمرة الأولى لمريـم المجدلية ، عنـدما كـانت تبحـث عنه وهي باكية ، واعتقد أنه البستان حسبما روى أصحاب الأناجيل (٣٢) .

بيعة الضريح المقدس حسبما رؤيت من قبل سيولف ودانيال

الرسم التوضيحي رقم ١

١-أ.ب.جـ:الأبواب الثلاثة

-د:الحجر الذي جلس عليه الملاك.

-هـ:المقعد الذي مدد عليه جسد المسيح.

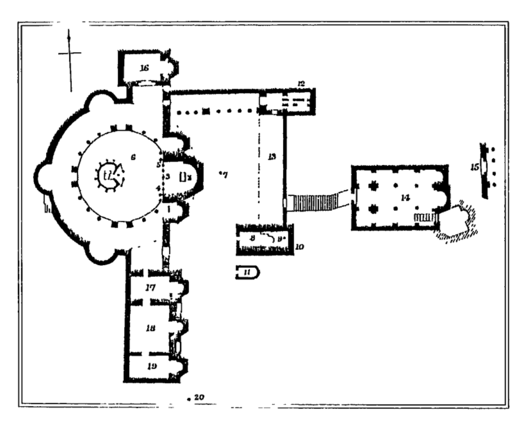
وأعظم هـذه البيع قـداسة مـوجودة في ردهـة ضريـح ربنـا في الجانب الشرقـي ، وعلى جـانبـي الكنيسـة نفسهـا هنـاك البيعتـان المشهـورتـان المغلقتـان ، كـل واحـدة على جـانــب أي المقـامتـان على شرف مـريـم المقدسـة، والقديـس يوحنـا لأنهما نفسيهما شاركـا في الآم ربنا، ووقفـا الى جانبـه ، أحدهما على يمينـه والآخر على يسـاره ، ومن الممكـن أن نرى على جدار البيعة نفسهـا المكرسة لمريم المقدسة صـورة لأم الرب نفسها ،

رسمت على الجانب الخارجي ، مع مواساة رائعة لمريم المصرية ، منذ زمن طويل ،وقد امتلأ قلبها بالندامة ، وهي ترجو بإخلاص مساعدة أم الرب ، وهي تتحدث إليها في الصورة المرسومة بوساطة روح القدس ، حسبما نقرأ في سيرة حياتها (٣٣) ، وعلى الجانب الآخرمن بيعة القديس يوحنا ، يقوم الدير الجميل جداً المعروف باسم دير الثالوث المقدس ، حيث يوجد مكان للتعميد ، ارتبطت به بيعة القديس جيمس الرسول ، الذي نال أول كرسي أسقفي في القدس ، وجميع هذه الأماكن منظمة ومرتبة بشكل يمكن به لأي إنسان يقف في نهاية الكنيسة أن يرى بوضوح الكنائس الخمسة من باب الى باب (٣٤).

وفي خارج باب كنيسة الضريح المقدس ، نحو الجنوب ، تقوم كنيسة مريم المقدسة ، التي تدعى باسم الكنيسة اللاتينية ، لأن القداسات يتم تقديمها للرب فيها باللاتينية ، ويقول السريان إن أم الرب المقدسة نفسها،وقفت وقت صلب ابنها،على البقعة نفسها حيث يقوم مذبح الكنيسة،ومرتبط بهذه الكنيسة كنيسة أخرى مكرسة لمريم المقدسة،وهي تدعى بارفاParva ،وعليها يتردد بعض الراهبات حيث يتولين خدمتها وخدمة ابنها بتقوى عظيمة،وبقربها المشفى حيث الدير المشهور المقام على شرف القديس يوحنا المعمدان.(٣٥)

وتنزل في (الشارع)من ضريح ربنا، بقدر رميتى سهم، الى هيكل الرب،الواقع على الجانب الشرقي من الضريح المقدس ،وصحنه طويل جداً وعريض،وله أبواب كثيرة،لكن الباب الرئيسي الذي يواجه الهيكل،ويدعى الباب الجميل بسبب سمات العمل الحرفي فيه ولتعدده بالألوان،فهناك أبرأ بطرس المقعد،عندما ذهب ويوحنا الى الهيكل في الساعة التاسعة،وهي ساعة الصلاة حسبما نقرأ في أعمال الرسل(٣٦)،ويدعى المكان الذي بنى فيه سليمان قديما هيكل الرب بيت إيلBethelوالى هناك ذهب يعقوب في رحلته -ربما بناء على أوامر

الـرب ـ واستراح هنـاك ، ورأى في المكان نفسـه السلم الـذي يلامـس رأسه السمـوات ، ورأى الملائكة ينـزلون عليـه ويصعدون ، وقـال كما نقرأ في سفر التكوين : « حقاً إن الـرب في هذا المكان وأنا لم أعلم » ، وهناك أقام الحجـر دليلاً ، وبنى مذبحاً ، وصب الـزيت عليه (٣٧) ، وفي هـذا المكـان نفسـه ، بنـي فيها بعدسليمان بـوحـي ربـاني الهيكـل ، وكرسه للرب ، وكـان بناءً رائعاً ولا يوجد مثيل لـه ، وقد زينه بشكل بهي بجميع أنواع التزيينات وذلك حسبما نقرأ في سفـر الملوك ، وبدا بإرتفاعه وهو يساوي جميـع التلال من حوله ، وتفـوق على جميع الجدران أو الأبنية في لمعانه وعظمتـه ، ويرى في وسط ذلك الهيكل صخرة عـالية وواسعة ، ومجوفة مـن أسفلها ، وعليها كـان قدس الأقداس ، وهنـاك وضع سليمان تـابوت العهـد الـذي كـان فيه المن وعصـا هـارون التـي زرعت هنـاك وأخضرت وأزهرت وأعطت بعض اللوز.



الرسم التوضيحي رقم ٢

كنيسة القيامة

١-القبر
٢-المذبح العالي في الجهة الشرقية
٣-مكان وقوف الكهنة اللاتين
أثناء نزول النور المقدس
٤-موقع الملك بلدوين
٥-مكان رحالتنا
٦-مكان الكهنة الأرثوذكس
٧-وسط الأرض
٨-مزار أكرا (الجمجمة)
٩-الجلجلة-مكان الصلب
١٠-مذبح ابراهيم
١١-مكان النزول
١٢-سجن المسيح
١٣-المكان الذي وضعت فيه الملابس،
وأدوات السخرية،والطعن،والتاج،الخ
١٤-كنيسة صغيرة تتعلق باكتشاف الصليب
١٥-الباب الذي دخلت منه مريم المصرية
١٦-مزار القديسة مريم
١٧-مزار القديس يوحنا
١٨-مزار الثالوث المقدس
١٩-مزار القديس جيمس
٢٠-المكان الذي وقفت عليه العذراء أثناء الصلب.

وأيضاً لوحي الوصايا ، وهنا اعتاد مولانا يسوع المسيح ، أن يستريح بعدما يكون قد أنهكه النقاش مع اليهود ، وهنا مكان الاعتراف ، حيث اعترف حواريوه به (أنه المسيح) (٣٩) وهنا ظهر الملاك جبريل للكاهن زكريا قائلاً له : « سيلد لك ولد في عمرك المتقدم» (٤٠)، وابن زكريا بن براخيا هذا نفسه قد ذبح فيما بين الهيكل والمذبح ، وهناك ختن الطفل يسوع في يومه الثامن ، وسمي يسوع الذي معناه المخلص ، وهنا جرى تكريس الرب يسوع من قبل والديه مع العذراء مريم ، أمه ، في يوم الطهارة ، ووضعه بين ذراعيه الرجل الشيخ سمعان (٤١) ، وهناك أيضاً، وجد يسوع عندما كان في الثانية عشرة من عمره جالساًوسط المعلمين يسمع منهم ويسألهم أسئلة ، وذلك حسبما نقرأ في الإنجيل (٤٢) ، ومن هناك رمى فيما بعد ، وأخرج من الهيكل الثيران والأغنام والحمام قائلاً : « مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى» (٤٣) وقال هناك لليهود : « انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه»(٤٤) ، وما يزال مرئياً في الصخرة آثار قدم ربنا ، عندما أخفى نفسه ، ومضى إلى خارج الهيكل ، حسبما نقرأ في الانجيل ، حتى لا يرمي اليهود الحجارة نحوه ، الحجارة التي حملوها (ليرموه بها) (٤٥) ، وهناك أحضرت المرأة ، التي أمسكها اليهود وهي تزني ، الى أمام يسوع ، حتى يجدوا شيئاً يحتجون به ليتهموه ويشتكون عليه (٤٦) ، وهناك باب المدينة في الجهة الشرقية من الهيكل الذي يدعى الباب الذهبي ، ففي هذا المكان التقى يواكيم ، والد مريم المقدسة ، بأمر من الملاك ، بزوجته حنة، (٤٧)ومن خلال الباب نفسه ، دخل الرب يسوع الى المدينة ، أثناء قدومه من بيت عنيا يوم أحد سعف النخيل ، وحين دخل كان راكباً ظهر أتان ، والأطفال يغنون «أوصنا لابن داود»(٤٨) ومن خلال الباب نفسه عاد الامبراطور هرقل منتصراً من بلاد فارس ومعه صليب الرب، لكن في البداية تساقطت الأحجار ضد بعضها وأغلقت الباب ، وصار الباب منطقة لتجمع أكوام من الفضلات ، حتى

تواضع الامبراطور نفسه ، بعد ما تلقى لوماً من الملاك، وترجل من على ظهر حصانه ،ونظف المدخل لأجله ، وفي صحن هيكل الرب ، في الجنوب، هناك هيكل سليمان ، بحجم رائع وفي جهته الشرقية هناك مكان مهبط الوحي ، ويحتوي على غرفة ليسوع المسيح وحمامه ، وفراش أمه المباركة ، وذلك حسب روايات السريان .

وتذهب من هيكل الرب نحو الشمال، إلى كنيسة القديسة حنة، أم مريم المباركة، فهناك عاشت مع زوجها، وهناك ولدت ابنتها مريم التي هي أم أعظم الناس محبة، مخلص جميع المؤمنين، وعلى مقربة من هناك بركة الإبراء، التي اسمها بالعبرانية بيت حسدا، وكان لها خمسة أروقة، فعنها نقرأ في الإنجيل، فأعلى منها بقليل كان المكان الذي شفيت فيه المرأة من قبل مولانا بلمسها طرف ثوبه، عندما كان مطوقاً بحشد كبير من الناس، وكانت المرأة تعاني من صدور الدم منها منذ اثنتي عشرة سنة، ولم تحصل على الشفاء بوساطة الأطباء(٤٩).

وتذهب من كنيسة القديسة حنة خلال الباب الذي يؤدي إلى وادي يهوشافاط (جهنم) فإلى كنيسة مريم المباركة في الوادي نفسه، إلى حيث حملت بعد موتها بتشريف عظيم من قبل الرسل حتى تدفن، وضريحها والحق يقال جدير بالتبجيل والتشريف العظيم من قبل المؤمنين.

ويتولى الرهبان هناك خدمة مولانا يسوع المسيح وأمه ليلاً ونهاراً، وهناك بركة قدرون، وكان أيضاً جيسماني، إلى حيث ذهب مولانا مع حوارييه قبل الساعة التي تعرض فيها للخيانة، ذهب من جبل صهيون عبر بركة قدرون، وهناك موقع نوع من أنواع الوحي في البقعة التي ترك فيها بطرس وجيمس ويوحنا حيث قال: « امكثوا ها هنا واسهروا معي»، وتابع تقدمه نحو الأمام، وسجد وصلى، وجاء إلى حوارييه فوجدهم نائمين(٥٠)، وهناك مايزال من الممكن رؤية الأماكن التي نام فيها الحواريون، وكل مكان منفرد بنفسه، فجيسماني عند سفح جبل الزيتون ،

وبركة قدرون دونها بين جبل صهيون وجبل الزيتون ، وكأنه يفرق بين الجبلين، لكن البقعة المستوية بين الجبلين تدعى وادي يهوشافاط، وإلى الأعلى قليلاً فوق جبل الزيتون هناك مكان وحي، في موقع صلى فيه ربنا، وذلك حسبما نقرأ في الآلام : « وانفصل عنهم نحو رمية حجر. وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض»(٥١) ثم يمكنك أن (ترى) أكلداماك، وهو الحقل الذي شري بثمن الرب، وهو أيضاً قائم عند سفح جبل الزيتون، ملاصق للوادي، على بعد ثلاث أو أربع رميات قوس من جيسماني باتجاه الجنوب، وهناك عدد لايحصى من الأوابد الجديرة بالزيارة.

وهذا الحقل قائم على مقربة من قبري الأبين المقدسين: سمعان العدل، ويوسف جدّ ربنا، وجرى بناء هذين القبرين منذ زمن قديم على شكل برجين منقورين بالصخر من جذر الجبل نفسه، وتمضي بعد هذا مروراً بأكلداماك إلى النبع الذي يعرف باسم بركة سلوان، حيث قام رجل أعمى بناء على أمر من ربنا، فغسل عينيه، وكان ربنا قد صنع طينا بوساطة بصاقه ثم دهن له عينيه(٥٢).

وتذهب من كنيسة مريم المقدسة المذكورة أعلاه بوساطة طريق منحدر إلى أعلى نقطة تقريباً من جبل الزيتون، نحو الشرق، إلى المكان الذي صعد فيه ربنا إلى السماء على مشهد من حوارييه.

والبقعة محاطة ببرج صغير، وبعناية كبيرة مقام هناك مذبح فوق البقعة، وهي أيضاً محاطة بسور من جميع الجوانب، ويوجد في المكان الذي وقف فيه الرسل مع مريم المباركة— أمه— وهم يعجبون من عروجه، مذبح كنيسة القديسة مريم، ووقف إلى جانبهم رجلان بلباس أبيض فقالا:« أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء» (٥٣) الخ، وقرب ذلك على رمية حجر كتب ربنا الدعاء الرباني باصبعه شخصياً على الرخام بالعبرية، فهذا ماذكره السريان، وبني هناك كنيسة

جميلة جـداً، غير أنها دمـرت فيها بعـد كلياً مـن قبـل الكفـار، لأن جميـع الكنائس كانت خارج الأسوار.

وكنيسـة روح القـدس مـوجودة على جبـل صهيـون خـارج السـور إلى الجنوب بقدر رميـة سهم، فهناك تلقى الرسـل وعد الأب، أي روح قدس الفـارقليـط، في يـوم عيـد الحصـاد، وهنـاك صنفـوا الشريعـة، وفي تلـك الكنيسة مقـام فيه توفـت مريم المباركـة، وفي الجانب الآخر مـن الكنيسة هنـاك مشهد قـائم على البقعة التـي ظهر فيهـا ربنا يسـوع المسيح، بعـد قيامته، إلى الرسل، وتدعى الجليلية، وقـال هو نفسه للرسل:« بعد أن أقوم ثـانيـة، سأذهـب قبلكـم إلى الجليليـة»، وحمل هذا المكـان اسـم الجليلي، بسبـب أن الرسـل الـذيـن عرفـوا بـاسم الجليليين، غـالبـاً مـا ارتـاحـوا هناك(٥٤).

والجليـل مدينـة كبيرة قـرب جبل الطـور، على مسيرة ثـلاثـة أيام مـن القدس، ويقـوم على الجانب الآخـر من جبـل الطور المدينـة التي تـدعى طبرية، وتـأتي بعد هذا إلى كفـر ناحوم والنـاصرة قرب بحر الجليـل وبحر طبريـة، إلى حيث عـاد بطـرس والـرسل الآخـرون، بعـد قيـامة ربنـا، إلى صيدهـم، وحيـث أظهر ربنا نفسه لهم على بحر طبريـة(٥٥)، وإلى جانب مـدينة طبريـة السهـل الذي بـارك فيـه الرب يسـوع الخمسـة أرغفة مـع السمكتين، وأطعم بهم بعد ذلك أربعـة آلاف رجل، وذلك حسبما نقرأ في الانجيل(٥٦)، لكن دعوني أعود إلى مابدأت به.

وفي جليليـة جبل صهيـون حيـث اختبأ الـرسل واجتمعـوا خـوفاً مـن اليهود، وكـانت الأبواب مغلقة، وقـف يسوع بينهم في وسطهـم وقال: « سلام لكـم» .(٥٧) وأظهر لهم نفسـه مرة ثانيـة هناك عندمـا وضع تـوما اصبعه في جنبه وفي مكـان المسامير(٥٨)، وهناك تعشى مع حـوارييه قبل آلامه، وغسـل أقدامهم، ومـاتزال هنـاك المائدة التي أكل عليهـا العشاء، وهناك أيضاً آثـار القديس ستيفن، ونيكوداميوس، وجماليـل، وعبيدو، وقد

وضعوا هناك بتشريف من قبل البطريرك القـديس يوحنا بعدما تم العثور عليهم (٥٩)، وأحجـار القديـس ستيفن موجـودة خارج السـور على بعد رميتـي سهم أو ثـلاث رميـات، وهناك كنيسـة جميلـة بنيت على الجانـب الشمالي، وقد هدمت هذه الكنيسة تمامـاً من قبل الكفار(٦٠)، ومثل هذا كنيسة الصليب المقدس، التي تبعد حـوالي الميل من القدس على الجانب الغربي، في مكـان قطع منه الصليب المقـدس، وهي مبجلة جـداً، وجميلة جداً، لكنهـا تعرضـت للافسـاد من قبـل الكفار، علما أنـه لم يهدم سوى القليل منهـا، باستثناء الأبنية والخلـوات من حولها، وتحت سـور المدينة في الخارج، على منحدرات جبل صهيون، توجد كنيسـة القديس بطرس التي تدعى جاليكانتوس Gallicantus (أو عرف الديك)، حيث أخفى نفسه في كهـف عميق جـداً، مايـزاك من الممكـن رؤيته، وذلـك بعد مـا أنكر ربنا، وبكى هناك لما اقترفه من جريمة بكاءً مريراً جداً.

وعلى الجانب الغربي لكنيسة الصليب المقـدس، وعلى مسافة ما يقارب الثـلاثـة أميـال، هنـاك دير جميـل جـداً وواسـع كثيراً مكـرس على شرف القـديـس سـابـا، الذي كـان واحـداً مـن الاثنين وسبعين حـواريـا، أي حواريـي ربنا يسوع المسيح، ويعيـش الآن هناك أكثر من ثـلاثمائة راهب ارثـوذكسي على شكـل جماعة، ويعبـدون ربنـا والقـديس، وجـرى تمزيـق القسم الأعظم من الرهبان مـن قبل المسلمين، لكن بعضهم مازال يعيش داخـل أسـوار المدينـة، قـرب بـرج داود في ديـر آخـر مكـرس للقـديـس نفسه(٦١)، وتعرض الدير الآخر للهدم كلياً.

وتبعد مدينة بيت لحم، في اليهودية، مسافة ستة أميال عن القدس، في الجهة الجنوبيـة، ولم يبق هناك شيئاً قـابلاً للسكنى بوسـاطة المسلمين، بل كـل شيء قد عيـث به، مثلما حـدث للأمـاكـن المقدسـة الأخرى خـارج أسوار مدينة القـدس، باستثناء دير العذراء مريم المقـدسة، أم الرب، وهو ديـر عظيم ومشهـور، وفي تلك الكنيسـة نفسها هنـاك مغارة تحت مكـان

جوقة المرتلين، وفي وسطه يمكن أن ترى البقعة التي ولد فيها ربنا، وهي قائمة بعض الشيء إلى اليسار، وأسفل قليلاً هناك على اليمين، قرب مكان ولادة ربنا المعلف الذي وقف أمامه الثور والأتان، وذلك عندما وضع ربنا الرضيع أمامهما في المزود، والحجرة التي استراح عليها رأس مخلصنا في الضريح جلبت إلى هنا من القدس من قبل القديس الراهب جيرومي، وغالباً ما يمكن رؤيتها في المزود، والقديس جيرومي نفسه مدفون تحت المذبح في الشمال من الكنيسة نفسها، والأبرياء الذين قتلهم هيرود وهم رضع عوضاً عن المسيح الرضيع، مدفنهم في الجانب الجنوبي من الكنيسة تحت مذبح، ومدفون أيضاً هناك سيدتان مقدستان جداً هما: باولا وابنتها العذراء يوستوخيوم Eustochiom ، وهناك مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مريم المباركة مع الحكماء (المجوس) الثلاثة عندما قدموا لها هداياهم، وهناك بئر في الكنيسة، ملاصق إلى مغارة ولادة ربنا، وقد قيل سقط فيه نجم(٦٢)، وقيل أيضاً هناك حمّام العذراء مريم المباركة.

وبيت عنيا هو المكان الذي أقيم فيه لازاروس من قبل ربنا بعدما كان ميتاً، وهذا المكان واقع على مسافة تقارب الميلين من المدينة نحو الشرق، على الجانب الآخر من جبل الزيتون، وهناك تقوم كنيسة القديس لازاروس، التي من الممكن أن نرى فيها ضريح عدد كبير من أساقفة القدس، وتحت المذبح المكان الذي غسلت فيه مريم المجدليه قدمي ربنا يسوع بدموعها، ومسحتهما بشعرها، وقبلت قدميه، ودهنتهما بالدهون.

وبيت فاجي هو المكان الذي أرسل منه ربنا حوارييه أمامه إلى المدينة، وهو قائم على جبل الزيتون، لكن نادرا ما يمكن رؤيته بشكل مطلق.

وأريحا هي المكان الذي خرج منه إبراهيم(٦٣)، وهي على مسافة حوالي العشرة مراحل من القدس، والمنطقة خصبة جداً بالأشجار،

وبجميع أنواع النخيل وكل أنواع الفواكه، وهناك بئر النبي الياس He-lisseus الذي كان مالح الماء كثيراً، ولذلك كان غير قابل للشرب، والمنطقة حوله جرداء وبلا مزروعات، لكنه تحول إلى الحلاوة (٦٤)، بعد ما باركه ووضع ملحاً فيه.

وتمضي من هناك صعوداً إلى جبل مرتفع حيث صام ربنا لمدة أربعين يوماً، وهناك على بعد ثلاثة أميال حيث حاول الشيطان فيها بعد إغواءه.

ويقع نهر الأردن على مسافة تقارب الأربع مراحل إلى الشرق من أريحا، ومن ذلك الجزء من الأردن وصولاً حتى البحر الأدرياتيكي (المتوسط)، أي إلى الميناء الذي يدعى يافا، تقع المنطقة التي تدعى يهودا، ويقوم على الجانب الآخر من الأردن العربية Arabia ، وهي منطقة معادية جداً للمسيحيين (الفرنجة)، وليست صديقة لكل من يعبد الرب، ويقع هناك الجبل الذي ذهب منه إيليا Helias إلى السماء في عربة من نار. ومن الأردن مسيرة ثمانية عشر يوماً إلى جبل سيناء، حيث تجلى الرب لموسى في نار العليقة المشتعلة، ثم صعده بعد ذلك، بناء على أوامر الرب، وصام أربعين يوماً والعدد نفسه من الليالي، وتسلم من الرب اللوحين من الحجارة، وقد كتبا باصبع الرب ليعلم بني ا سرائيل الشريعة والوصايا الموجودة في هذين اللوحين.

والخليل هي المدينة التي دفن فيها البطارقة المقدسين: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، وكل واحد منهم معه زوجته، وآدم الانسان المخلوق الأول، دفن هناك، وقبره قائم على مسافة أربع مراحل من بيت لحم نحو الجنوب، وهناك حكم الملك داود لمدة سبع سنوات قبل أن يستحوذ على مدينة القدس من أسرة الملك شاؤول، وكانت مدينة الخليل عظيمة جداً وجميلة للغاية، لكنها الآن مهدمة بوساطة المسلمين، وفي الجزء الشرقي منها آبدة البطارقة المقدسين، أقيمت في العصور القديمة ومحاطة بحاجز قوي، وكل واحد من القبور واسع بقدر كنيسة كبيرة، وفي داخله ناوسين،

واحد للرجل والآخر لزوجته، وهم ممددون بشكل مجيد وبوضع مشرف، وإلى الوقت الحاضر تملأ روائح البلسم والعطور الثمينة التي دهنت بها الأجساد المقدسة، خياشيم الذين يذهبون إلى هناك بشكل طيب جداً، ودفنت عظام يوسف — التي حملها بنو اسرائيل، تنفيذا لما أوصاهم به، فجلبوها معهم من مصر — بالأسفل أدنى من البقية في الطرف الأقصى من القلعة، وماتزال البلوطات اللواتي وقف إبراهيم في ظلهن، ورأى الشباب الثلاثة قادمين عبر الطريق، حية، ويحملن أوراقاً، وذلك اعتماداً على ماقاله السكان المحليين، وذلك ليس بعيداً عن القلعة المذكورة أعلاه (٦٥).

والناصرة هي مدينة الجليل، وفيها تلقت العذراء مريم المباركة من الملاك تحيات ميلاد ربنا، وهي على مسافة حوالي الأربعة أيام سفراً من القدس، ويمر الطريق إليها خلال شكيم، مدينة السامرة، التي تعرف الآن باسم نابلس، وفيها تسلم القديس يوحنا المعمدان من هيرود الحكم بقطع رأسه، وهناك أيضاً بئر يعقوب، الذي وصل إليه يسوع وهو متعب من رحلته، فجلس إلى جانب البئر المذكور، وطلب إعطائه الماء ليشرب من امرأة سامرية جاءت إلى هناك لنضح الماء، فلم تعطه حسبما نقرأ في الإنجيل(٦٦)، ومن شكيم يمكن للانسان أن يسافر إلى قيسارية فلسطين، ومن قيسارية إلى حيفا Cayphas ومن حيفا إلى عكارون، وتقع الناصرة على بعد حوالي الثمانية أميال إلى الشرق من عكارون (٦٧)، وكانت مدينة الناصرة شبه مدمرة وقد أصبح عاليها سافلها بوساطة المسلمين، ومع ذلك فإن الدير المشهور فيها يشير إلى مكان بشارة ربنا، ومايزال النبع القائم قرب المدينة تتفجر منه المياه نقية، ومابرح — كما كان من قبل — محاطاً بأعمدة رخامية وببلاط، ومن هذا النبع نضح الطفل يسوع مع أطفال آخرين الماء مراراً لاستخدام أمه.

وجبل الطور، هو الجبل الذي صعده ربنا، وتجلى أمام بطرس، ويوحنا،

وجيمس، وهو واقع على مسافة تقارب الأربعة أميال من الناصرة باتجاه الشرق، وهو جبل كثير الأعشاب والأشجار، وهو قائم منتصب في وسط سهل الجليل الأخضر والعظيم الاستواء، وهو أعلى من جميع الجبال من حوله لمسافة بعيدة، وماتزال الديرة الثلاثة التي بنيت قديما على قمته قائمة، وأحد هذه الديرة مكرس على شرف ربنا يسوع المسيح، والثاني على شرف موسى، والثالث، وهو أبعد قليلاً، على شرف إيليا، ووفقاً لما قاله بطرس: « يارب جيد أن نكون هنا، فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة »(٦٨).

ويقع بحر الجليل أو بحر طبرية على مسافة تقارب الستة أميال إلى الشمال الشرقي، ومساحة هذا البحر عشرة أميال طولاً، وخمسة أميال بالعرض، ومدينة طبرية قائمة على الشاطيء في أحد الأطراف، وهناك في الطرف الآخر جرزيم وبيت صيدا، وهي مدينة أندرو وبطرس، ويمتد من طبرية سهل جنسار حوالي الأربعة أميال نحو الشمال، وهناك أظهر ربنا نفسه إلى حوارييه، عندما كانوا يصطادون، وذلك حسبما جاء في الانجيل (٦٩)، ومن جنسار وعلى مسافة تقارب الميلين إلى الشرق يقوم الجبل الذي أطعم عليه الرب خمسة آلاف رجل من خمسة أرغفة وسمكتين، ويدعى ذلك الجبل من قبل السكان المحليين باسم مائدة الرب، وعند سفح هذا الجبل كنيسة القديس بطرس، وهي كنيسة جميلة جداً، مع أنها مهجورة، ومن الناصرة إلى قانا الجليل (كفر كنّا) — حيث حول ربنا الماء إلى خمرة أثناء حفل زواج — مسافة تقارب الستة أميال إلى الشمال، وهي قائمة على رابية، ولم يبق هناك شيئاً فيما عدا الدير الذي يدعى أرشيتركليني(٧١) Architriclini.

وفيما بين الناصرة وقانا الجليل، في منتصف الطريق قريه تدعى رومة، حيث يجري الترحيب بجميع الحجاج القادمين من عكا إلى طبرية، وتكون الناصرة على اليمين وطبرية على اليسار،ومن طبرية سفر يوم نحو

الشمال حيث جبل لبنـان(٧٢)، فمن سفـوحه تنبـع مياه نهر الأردن مـن نبعين يـدعـى أحـدهما « أر» والثاني «دن» وتلتقـي ميـاه هـذيـن النبعين، فتكـونان نهراً سريـع الجريان اسمـه « الأردن»، وهذا الجبـل قائم بجـوار قيصريه مدينة فيليـب (بانياس) التيرا آرخ Tetrareh (حاكم ولاية صغيرة)، وإلى أحـوازها جـاء يسـوع وسأل حـوارييـه قـائلاً: «من يقـول النـاس إني أنـا ابـن الانسـان»؟(٧٣). وذلـك حسـب روايـة الإنجيـل، وجـريان نهر الأردن مـن منبعـه سريع جـداً، ويصـب في بحر الجليـل في إحدى النهايـات، ويفتح بقوة اندفاعـه لنفسه ممرا عند النهـاية الأخرى، ويستمـر بالجريـان مسافـة ثمانية أيـام ثـم يصب في البحـر الميت، وميـاه الأردن بيضـاء، وتشبه الحليـب أكثر مـن شبههـا جميع أنـواع المياه، ومـن الممكن رؤية ذلك وتتبعه طوال الطريق حتى البحر الميت.

وبعدمـا دخلنا إلى كل واحـد من الأماكن المقـدسة في مدينـة القدس وأحوازها بقدر ما كان بوسعنا وقدمنـا تعبدنا وتبجيلنا، صعدنا ظهر سفينة في يافا، في يوم عيد الحصاد، من أجـل العودة إلى الوطن، لكن لخوفنا من المسلمين، لم نتجـرأ على الابحـار داخـل عـرض البحـر الأدريـاتيكـي (المتوسـط) كما فعلنا عندمـا قدمنا، ذلك أننـا كنا خائفين مـن اسطولهم، ولذلك مررنـا عبر مدن الساحل التي احتل الفـرنجة بعضها، وأسماء هذه المدن هـي: أقربها إلى يـافا أتسـوف Atsuph أو أزتوس Azotus في اللاتينية (٧٤)، ثم قدمنا إلى قيسارية فلسطين، وبعدها إلى مدينة كيفاس (٧٥)، ويمتلـك هاتين المدينتين بلـدويـن الـذي هو زهـرة الملـك، ويلي هاتين المدينتين مـدينة أكراس، وهي مـدينة حصينة جدا، واسمهـا أيضاً أكارون (٧٦)، ويأتي بعـد هذا صور وسيغيت وهما صـور وصيدون(٧٧)، وعقب هذا مـدينة جيوبلت (٧٨)، ثـم بيروت (٧٩)، وكذلك طرطـوسا (٨٠)، التـي يمتلكهـا الـدوق ريمـونـد، وبعـد ذلـك جبيـل(٨١)، ثـم طرابلس وبعدها ليك (٨٢)، وقد مررنا بهذه المدن وجزناها (٨٣).

وفي يوم الأربعاء التـالي لعيد الحصاد عندما كنا مبحـرين فيها بين حيفا وعكا فوجئنا بظهور ست وعشرين سفينة مسلمـة أمام نظرنا، وكانت هذه السفن تابعة لأمير مـدينتي صور وصيدا، وهي متوجهـة نحو مصر، وتحمل جيشاً لمساعدة الفاطميين Chaldeans في حربهم ضد ملك القدس (٨٤)..، وتخلى عنـا اثنتان مـن السفن التـي جـاءت معنا مـن يافـا، وهما محملتان بالحجاج وتركتا سفينتنا لوحـدها، لأنهما كانتا أخف من سفينتنا، وبوساطة جهود المجدفين وصلتا إلى قيسـارية، وأبحرت السفن الاسلامية نحونا وطـوقت سفينتنا، وتوقفت على بعـد رمية سهم منا، وفرحـوا بوقوع مثل هـذه الغنيمة في أيـديهم، وعلى كل حـال كان رجـالنا على استعـداد للموت في سبيـل المسيح، وحملـوا أسلحتهم، وحصنـوا سفينتهم بقـدر ما سمح لهم الوقت، وأوقفوا الرجـال المسلحين للدفاع عنها، فقد كان تحت إمرة قيادتنا حـوالي المائتين من الرجال القادرين على الـدفاع عنها، وبعد انتظار حوالي الساعة، وبعدما عقد مُقدّم الأعداء مجلساً حربياً، أمر واحداً من ملاحيه أن يصعـد إلى أعلى صواري السفينة، فمن هناك كان بـإمكانه التأكد مما كان يجري في سفينتنا، وما الذي كنـا نقوم به، وعندما تفهم من الملاح قـوة دفاعـاتنا، حـرك أشرعته وانطلـق نحو البحـر المفتوح، وهكـذا انقذنا الـرب، بفضل نعمته في ذلك اليـوم من أعدائنا، وتمكـن شعبنا من أهـل يافـا مـن الاستيلاء فيما بعـد على ثلاث مـن هـذه السفن نفسهـا، وأغنوا أنفسهم بأسلابها.

وأبحرنـا على مقربـة من ساحـل سوريـة وفلسطين بقدر مـا استطعنا، ووصلنا بعـد ثمانية أيـام إلى ميناء القـديس أنـدريا Andrea في جزيرة قبرص، وأبحرنـا من هنـاك في اليوم التالي نحـو رومانيا (بيـزنطة)، ومـررنا بميناء القديس سمعـان ثم بميناء القديسة مريم، ووصلنـا بعد عدة أيام إلى ميناء أنطـاكية الصغرى (٨٥)، وغـالبا ما تعرضنـا أثناء تلك الـرحلة لهجمات القرصـان، لكن بفضـل الحماية الربـانية لم نفقـد شيئاً سـواء من

جراء هجمات الأعداء أو من تقلب أحوال المناخ، ثم وجهنا مسارنا على طول خط ساحل رومانيا، ومررنا بمدينتي: ستاميرا (٨٦) Stamirra ، وباتراس Patras (أوبترا، وهي مدينة) القديس نيقولا، ووصلنا إلى جزيرة رودس قبل عشية عيد القديس يوحنا المعمدان (٨٧)، مع شيء من المصاعب، لأن خليج مدينة ساتالوس (٨٨) Satalus كاد أن يبتلعنا، لولا أن رحمة الرب قامت بالدفاع عنا، واستأجرنا في رودس سفينة أصغر حتى نتمكن من السفر بسرعة أكبر، وعدنا ثانية إلى رومانيا، ثم وصلنا إلى مدينة ستروملو (٨٩) Stromlo وهي مدينة جميلة جداً، وكانت مدمرة كليا من قبل الترك، وجرت اعاقتنا هناك لأيام كثيرة بوساطة رياح معاكسة قوية.

ثم وصلنا إلى جزيرة ساموس، واشترينا من هناك ما احتجنا إليه من المؤن الضرورية، وهذا ما كنا قد فعلناه في جميع الجزر، ثم لامسنا جزيرة سكيو Scio، وتركنا هناك سفينتنا وكذلك رفاقنا، وبدأنا رحلتنا إلى القسطنطينية، من أجل أن نصلي هناك، وعبرنا في اليوم التالي مدينة سميرنا العظيمة، ووصلنا إلى جزيرة ميتيلينا Metelina ، ثم إلى تنيت Tenit (٩٠)، وكان هناك في منطقة رومانيا فيها مضى مدينة طروادة القديمة جداً، وكانت خرائبها ماتزال تشاهد — حسب روايات الاغريق — مغطية مساحة أميال كثيرة.

ثم حولنا مسارنا، فقدمنا إلى جزيرة البحر الذي يدعى ذراع القديس جورج (٩١)، الذي يفصل فيها بين بلاد رومانيا وبلاد مقدونيا، وأبحرنا في هذا البحر فوصلنا إلى سينت فيموس Phemus ، وهنا صارت بلاد الاغريق على يميننا ومقدونيا على يسارنا، وتقوم مدينة الأسقف القديس فيموس على أحد جانبي الذراع في مقدونيا، بينما تقوم مدينة أخرى تدعى سامثي (٩٢) Samthae على الطرف الآخر في بلاد الاغريق، وعلى هذا فإن ثلاث رميات قوس عقار بإمكانها أن تحمل الرمية من

المدينـة الأولى إلى المدينـة الثـانيـــة، ويطلـق على هـاتين المدينتين اسـم مفتاحي القسطنطينية، ثم أبحرنا إلى مدينة كاليبولي(٩٣)، وبعدها اجتزنا القديس جـورج وبانيادوس (٩٤) Paniados ، فسهل مقدونيا الشهير، ووصلنا إلى مدينة روثوستوك (٩٥) Rothosto ، وكان ذلك بعد عيد القديس ميكـائيل، ثم تحركنا من هناك فيها بعـد ووصلنا إلى راكليا (٩٦) Raclea ، وهـي مدينـة جميلة، ويـذكـر الاغريـق أن هيلين خطفت مـن هناك من قبل باريس الاسكندر.

حواشي رحلة حج سيولف

١— باري.

٢— بارليتا.

٣— سيبونتوم ممثلة الآن بـ «مانفردونيا» التي على مقربة منها قرية اسمها زابونتا.

٤— تراني.

٥— أوترانتو.

٦— تقع مونوبولي على بعد حوالي العشرين ميلاً من باري، ولقد جرى تقدير رحلة اليوم الواحد بعشرين ميلا.

٧— انظر المدخل.

٨— برنديزي.

٩— كورفو.

١٠— ٢٤ تموز.

١١— سيفالونيا.

١٢— مات روبرت غويسكارد في جزيرة سيفالونيا سنة ١٠٨٥، وكان وقتها يعد العدة للهجوم على القسطنطينية.

١٣ — من المعتقد أن هذا الاسم تصحيف باليوبولس Palaeoplis ، أو هو اسم لمدينة قديمة ،وتقع خرائب اليس على بعد خمسة أميال داخل البر، وهناك على كل حال مكان يدعى باليو آخيا، في خليج بتراس، من الممكن أنه كان على الطريق المباشر.

١٤— غالبا ما دعيت الأماكن التي كان الوصول إليها يتم بحراً

باسم «جزر» من قبل بقية رحالة العصور الوسطى.

١٥— ٩— آب.

١٦— ليفادي أوستا تصحف إلى ليفادوسترو.

١٧— أعمال الرسل: ١٧/ ٣٤.

١٨— جزر بيتالي ليست بعيدة عن ماراثون.

١٩— قامت أندروس وتينوس، وسيرا وميكونوس وناكسوس كلها على الطريق إلى كريت.

٢٠— يبدو أنه أبحر على محاذاة جزر: أمورغو، وساموس، وسيكو، وميتايلين وهكذا إلى سميرنا، ثم رجع إلى باتموس وليرو، وكالمنو وكوس، (أوستانشيو) وليدو (التي لابد أنها غندوس قرب رأس كريو) وآسوم (لعلها جزيرة سيمي) وهكذا إلى رودس.

٢١— غلطة وقع فيها أكثر الناس معرفة.

١٢٢ ربما ماكرونيسوس أريد بها جزيرة كاكافا.

٢٣— المقصود هنا اسكندرونة السورية.

٢٤— كان القديس نيقولا من أبناء باتارا، وتسلم أسقفيه ميرا، وهناك توفي سنة ٣٤٢، وتم نقل رفاته إلى باري سنة ١٠٨٧، من قبل أحد التجار، الأمر الذي أحدث اثارة عظيمة في ايطاليا كلها، وكان قبره فارغاً عندما زاره سيولف.

٢٥— لعل جزيرة خيلدونيا هي نتوء بحري يحمل الاسم نفسه عند نهاية خليج فينيكا، وربما هي تسمية خطأ لـ «اكسندا كوبو».

٢٦— هناك مزج بين العملين : ١٣/ ٢— ٤ و ١٥/ ٢٢، وعمرّ

القديس برنابا بشكل عام طويلاً، وإذا كان القديس بطرس قد جلس على كرسي أنطاكية لمدة سبع سنوات، تبعا للقديس غريغوري الكبير، وخمس وعشرين سنة في روما، لابد أنه مضى إلى أنطاكية خلال سنوات ثلاث من صعوده.

٢٧— من شبه المؤكد أن دورمندي هي دور مونس، التي ذكر جيبون أن الامبراطور الكسيوس كومينوس امتلك فيها اسطولا جيداً، وقال: « كانت هذه الشواني الخفيفة العائدة للامبراطورية البيزنطية تمتلك صفين من المجاذيف، وفي كل صف خمسة وعشرين مقعداً، ووضع لكل مقعد مجذافين وصفت المجاذيف على جانبي السفينة ». (تدهور وسقوط — الفصل ٥٣).

وربما كانت الكاتي شبيهة بسفن النقل النروجية التي كان لكل منها مؤخرة ضيقة، ووسط عميق وهي ما تزال تعرف باسم كات.

ولعل الغولافري نوع من أنواع الشواني، لكن ليس من الهين شرح الاسم.

٢٨— ينبغي أن نتذكر أن بلدوين لم يكن ملكاً للقدس أكثر من عامين، وأن عكا وعسقلان كانتا ما تزالان بأيدي المسلمين، وتراجع رواية الراهب دانيال المقبلة فهو قدم رواية مماثلة بعد أربع سنوات.

٢٩— اسمها الآن باب يافا.

٣٠— انظر الرسمين التوضيحيين رقم / ١/ ورقم / ٢/.

٣١— المزامير: ٧٤/ ١٢. انظر الرسم التوضيحي ٢/ ٧.

٣٢— يوحنا: ٢٠/ ١٥.

٣٣— حكت القديسة مريم المصرية بنفسها ماحدث فقالت: « تابعت المضي في طريقي الشرير حتى بلغت التاسعة والعشرين من

العمر، وشاهـدت عدداً من الأشخاص متوجهين نحو البحـر، فسألت إلى أين هـم ذاهبون، وأخبرت أنهم كـانوا على نيـة الاقلاع للسفـر إلى الأرض المقدسـة، للاحتفـال بالقـدس بعيد تمجيـد الصليب الـرائع، أي صليب مخلصنا (تأسس سنة ٣٢٥م).

فأقلعـت معهم، متطلعـة نحو فـرصة جـديدة لـلاستمرار في إغـوائي، وكـان الجميـع في يـوم العيـد ذاهبين إلى الكنيسة، فـاختلطـت بـالحشـد لأذهـب إلى الكنيســة، حيـث عـرض الصليـب المقــدس أمـام المؤمنين لمشـاهـدته وتبجيلـه، لكـن وجـدت نفسي غير قادرة على دخـول المكـان ومعاقـة من قبـل قوة غير مـرئية، وحـدث هذا لي ثـلاث مرات أو أربـع، وتراجعت نحـو زاوية الساحة وبـدأت أقدر بنفسي ما سبب هـذا وما هو مصدره، وقـدرت عن جـدّ أن حياتي الآثمـة لابد أنها السبـب، وانهمرت دموعي وشرعت أضرب صدري الآثم وأبكي وأنـوح، وشاهدت هنا فوقي صـورة لأم الـرب، فثبـت نـاظـري عليهـا، وخـاطبـت بنفسي العـذراء المقـدسـة، ورجـوتها الحصـول على طهــارة كـاملـة لضمان نفسي الآثمـة والمحملة بثقـل من الموبقـات، والتمست منها التمكـن من الـدخول الى الكنيسة من أبـوابها حتى أشاهد الصليب المقـدس لمخلصي، واعدة من تلك اللحظة أن أكرس نفسي للرب في الحيـاة الحاضرة، آخذه إياها كفيلاً لي في هـذا التغيير لحيـاتي، وبعد هـذه الصـلاة الصعبـة شعرت بـروحـي بـانفـراج سري وزوال لحزني، وحـاولـت مجدداً الـدخــول الى الكنيسـة، فدخلت إليها بكل سهولـة وصرت في وسطها، وتمتعت وابتهجت بتعبدي للخشبة الثمينة للصليب الرائع الذي يجلب الحياة للانسان، وتقديراً مني — بناء عليـه — لرحمة الـرب التي لاتقـدر، واستعداده لتقبـل المذنبين حتى يتـوبوا ، ألقيـت بنفسي على الأرض، وبعدما قبلـت البلاط بـدموع نهضـت ومضيـت نحـو صـورة أم الـرب، وجثـوت هنـاك على ركبتـي، ورجـوت وساطتهـا وأن تكـون دليلي، وبعدمـا أنهيـت صلاتي، خيـل إليَّ

سماع صوت يقول: (إذا ما ذهبت إلى ماوراء نهر الأردن سوف تجدين هناك الراحة والمواساة)» وقد أمضت هناك سبعاً وأربعين سنة في أعمال التوبة والاستغفار، وتلقت القداس الأخير من القديس زوسيموس Zo-simos قبل أن تتوفى في سنة ٤٣١. (انظر Actass, Bolland, IN2 (April

٣٤— انظر الرسم التوضيحي رقم ٢.

٣٥— تأسست رهبانية الاسبتارية في سنة ١٠٩٩، بعد انتخاب غود فري دي بوليون. وكان جيرارد، كونت دي أفنسس أول مقدم أعظم لهذه الرهبانية، وغدت رهبانية عسكرية في سنة ١١١٨، وكان مقرها قريباً من الضريح المقدس. (كنيسة القيامة).

٣٦— أعمال الرسل: ٣/ ١—٨.

٣٧— التكوين: ٢٨/ ١٧—١٨.

٣٨— يبدو أن سيولف لم يكن على دراية بالعهد القديم بقدر ما كان متعمقاً بالعهد الجديد، فقد قال قبل قليل إن معنى ايليا «بيت الرب»، ولعله مزج هذا مع «بيت ايل» التي معناها «بيت الرب». وسنرى حول هذا المزج في المستقبل روايات جون أوف وورزبيرغ وثيودورك، وفوكاس.

٣٩ —أعمال الرسل: ٣/ ١١؛ ٥/ ٢١.

٤٠— لوقا: ١/ ١٣.

٤١— لوقا: ٢/ ٢٨.

٤٢— لوقا: ٢/ ٤٦.

٤٣— متى: ٢١/ ١٣.

٤٤— يوحنا: ٢/ ١٩.

٤٥— يوحنا: ٨/ ٥٩.

٤٦— يوحنا: ٨/ ٣.

٤٧— انظر انجيل جيمس الأبوغرفاوي — الاصحاح: ٤.

٤٨— متى: ٢١/ ١٥.

٤٩— يوحنا: ٥/ ٢، الخ.

٥٠— متى: ٢٦/ ٣٦،الخ.

٥١— لوقا: ٢٢/ ٤١— ٤٤.

٥٢— يوحنا: ٩/ ١٧.

٥٣— أعمال الرسل: ١/ ١١.

٥٤— يبدو أن سيولف كان دليله في البداية سريانيا، غير أنه عندما تعرف على الجليل الصحيح أضاف هذا الايضاح وبين أن قانا هي في الجليل.

٥٥— يوحنا: ٢١/ ٣—٤.

٥٦— متى: ١٥/ ٣٢— ٣٨. «سبعة أرغفة وقليلاً من السمك».

٥٧— يوحنا: ٢٠/ ١٩.

٥٨— يوحنا: ٢٠/ ٢٧.

٥٩— في سنة ٤١٥، من قبل الكاهن لوسيان في كافا جمالا على نحو عشرين ميلاً من القدس (انظر: تلمونت Tillemont. ج٢ ص ٥، الخ). وكرس تاريخ الثالث من آب تخليداً لهذه الحادثة، وكان أبيباس

ابن جماليل.

٦٠— اكتشفت هذه الخرائب مع بلاط فسيفسائي جميل لهذه الكنيسة أو لواحدة مجاورة لها في سنة ١٨٨١، من قبل الميجر كوندر.

٦١— في الدير الأخير أمام الراهب دانيال ووجد راهبا كان دليلاً أفضل من السرياني الذي رافق سيولف، وتبعاً للراهب دانيال لقد كان دير القديس يوثيموس هو الذي تخرب. توفي القديس سابا في ٥— كانون أول سنة ٥٣٢ عن عمر ٩٤ سنة.

٦٢— لابد أن السريان بذلوا جهداً كبيراً لاقناع سيولف بهذه الحكايات، ومع هذا روى الحكاية نفسها جون ماندفيل في سنة ١٣٢٢.

٦٣— انظر التكوين: ١٣/ ٣. وفي ١٣/ ١٠ مقارنة هذا السهل مع الفردوس.

٦٤— الملوك: ٢/ ٢/ ٢١— ٢٢.

٦٥— التكوين: ١٨/ ٤.

٦٦— يوحنا: ٤/ ٦— ٧.

٦٧— عكا.

٦٨— متى: ١٧/ ٤.

٦٩— يوحنا: ٢١/ ٤.

٧٠— هناك حجرة تدعى «حجرة المسيح» موجودة على قرني حطين.

٧١— أرشيتركليني تعني «بيت حاكم العيد».

٧٢— جبل الشيخ (حرمون).

٧٣— متى: ١٦/ ٣—.

٧٤— أرسوف.

٧٥— حيفا.

٧٦— عكا.

٧٧— صور وصيدا.

٧٨— جبيل.

٧٩— بيروت.

٨٠— طرطوس. وقد استولى عليها ريموند كونت طولوز في ١٢ — آذار سنة ١١٠٢، وقد توفي أثناء حصار طرابلس في حوالي سنة ١١٠٨.

٨١— جبلة.

٨٢— اللاذقية.

٨٣— الترتيب ينبغي أن يكون: يافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. عكا. صور. صيدا. بيروت. جبيل. طرابلس. طرطوس. جبلة . اللاذقية.

٨٤— كانت الخلافة الفاطمية قد أرسلت حملة في هذه الآونة للتفريج عن عسقلان التي كان الملك بلدوين يحاصرها، وكان العرب في هذه الآونة يقاتلون في الجزيرة مدينة الرها، وكانوا قد هزموا تانكرد مع الصليبيين عند حران، وأسروا كل من جوسلين وبلدوين دي بورغ، وكان الأمير بوهيموند بن روبرت غويسكارد محصوراً في أنطاكية، وقد نجا منها بتظاهره بالموت.

٨٥— كانت هناك بلدة على الساحل قرب جبل كراغوس، تدعى أنطاكية الصغرى.

٨٦— مايرا MYRA .

٨٧— ٢٣ — حزيران.

٨٨— هي أضاليا الحالية، انظر أعمال الرسل: ١٤/ ٢٤.

٨٩— هي الآن سترانبالي Stranpali.

٩٠— تينيدوس Tenedos.

٩١— مضيق الدردنيل، وقد دعا آسيا الصغرى باسم بلاد الاغريق ورومانيا ، وفي هذا اشارة فقط إلى الأماكن التي كانت ماتزال تحت حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية.

٩٢— كان هناك عذراء قديسة اسمها يوفيميا هلكت في خلقيدون بأعمال تعذيب ديوكلشيان وفي كنيستها الكبرى (بازيكليا) عقد مجمع خلقيدون المسكوني، وعلى اسمها كرست عدة كنائس في القسطنطينية ، ومن الممكن أن مدينة كرست على اسمها حيث تقوم الآن قلعة أوروبا، في حين إن سامثي (ربما المقصود هو ايناسي أو ايناثي) تقوم الآن حيث قلعة آسيا على الطرف الآخر من مدخل الدردنيل.

٩٣— غاليبولي.

٩٤— بانادوس.

٩٥— رودوستو.

٩٦— اراكيا، من قبل هرقليا .

رحلة حج الراهب الروسي دانيال
(١١٠٦ — ١١٠٧)

مدخل

يعود تاريخ رحلات حج الروس إلى الأرض المقدسة إلى أواخر القرن العاشر، عندما تحول الروس إلى المسيحية، وهناك ايماءة مبكرة، يعود تاريخها إلى ١٠٢٢، وردت في ترجمة القديس ثيودوسيوس من كييف، إلى وجود حجاج روس في فلسطين، لكن أول المعروفين من هؤلاء هو القديس فارلام Varlaam الذي كان راعياً للدير في كييف، وأنه زار القدس سنة ١٠٦٢م، وأقدم رواية حج روسية إلى الأرض المقدسة وصلتنا هي رواية حج دانيال الذي كان راعي دير روسي، وهو لانعرف شيئاً مؤكداً حوله، ويمكن أن نستخلص من اشارته الى نهر سنوف Snov ،على أنه نهر يمتلك كثيراً من سمات نهر الأردن،على أنه جاء من منطقة تشير نغوف Tchernigov ، في روسيا الصغرى ، التي يجري فيها نهر سنوف، ومن المفترض أنه كان دانيال نفسه الذي كان أسقف سوربيف Suriev في١١١٥، والذي توفي في ٩- ايلول ١١٢٢م.

وكان دانيال معاصراً لنصطور،الذي هو أقدم صاحب حوليات روسية،وروايته هي واحدة من أعظم الوثائق الروسية أهمية مما يعود الى بداية القرن الثاني عشر،ويبدو أن سماتها الأصلية أكسبتها شعبية واسعة جداً ،حيث هناك مايزيد على خمس وسبعين مخطوطة منها ،أقدمها تاريخه ١٤٧٥. ومن الممكن تحديد تاريخ الحج بشيء كبير من اليقين، باستخراجه من مواد دانيال نفسه، فهو قد أتى على ذكر الدوق الروسي الأعظم ميخائيل سيفا توبولك اشعياسلافووتشMichel Sviatopolk Isiaslavowitsch (١٠٩٣ — ١١١٥)، وبلدوين ملك القدس (١١٠٠ — ١١١٨)، وذكر أيضاً أن عكا كانت بحوذة الفرنجة، وبما أنه

تـم الاستيلاء على هـذه المدينة في ٢٦ — أيـار ١١٠٤، لابـد أن تاريـخ الرحلـة كان فيها بين ١١٠٤ و ١١١٣. ومـن الممكن اجـراء تدقيـق أكثر، فقد حدثنا دانيال أنه رافق بلدوين في حملته ضد دمشق، ويعتقد أن هذه الحملة وقعـت فيها بين ١١٠٦ و١١٠٨، ومرة أخـرى تحدث عن الهجمات التي تعـرض لها الحجاج من قبل مسلمـي عسقلان، وأتى وليـم الصوري على ذكـر إحـدى هذه الهجمات على فـرنجـة كـانـوا يعبرون من يـافـا إلى القـدس سنـة ١١٠٧ (تـاريــخ أعمال أنجـزت فيها وراء البحـار — ط. باريس ١٨٧٩ ج١ ص ٣٨٤)، وينبغي أن نلاحظ أخيراً، أنه في اللحظة التـي يصف فيهـا دانيال احتفـال النـور المقدس، ليـس هناك اشـارة إلى بطريرك لاتيني، وأن واحداً من الأسـاقفة احتل هذا الموقع، أي أن فولتشر أوف تشارتـرز جرى تعيينـه لمنصب البطركيـة، ومامن أحـد يعرف بـوجود بطـريرك لاتينـي بالقـدس أثناء فصـح سنة ١١٠٧، لأن دوغـوبرت تـرك المدينة في سنة ١١٠٣، وأن ايبريمار Ebremar ، الذي كـان وكيله أو بديلـه أخذ الطريق إلى رومـا في نهاية سنة ١١٠٦، وعلى هذا كـان اسبوع الفصح الذي أمضاه دانيال في القدس، لابد أنه كان اسبوع عام ١١٠٧، وأن حجه ربما كان فيها بين سنتي ١١٠٦ و ١١٠٧م.

والميدان الـواسع الذي تغطيـه رواية دانيـال، أوسع من الميـدان الذي غطته رحلـة الحج المتقدمة، فضلاً عـن هذا تلقي التفاصيـل الكثيرة التي تقدمها، الضـوء على أوضاع البلاد بعيد عدة سنوات مـن الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، ثم إن المصداقية التي كتبت فيها تعطيها قيمة أكبر، لم تكن مـلاحظة من قبـل، وسافـر دانيال بشكل مكثـف في فلسطين غربي الأردن، وزار معظم الأماكن المقدسة والمعـابد والأديرة، ولأنه زود نفسه في كل مكان بـأفضل الأدلة، لقد كتـب وصفاً دقيقاً لكل مـارآه، وذكر هو في رحلته أنـه لم يصف شيئـاً لم يره بعينيه، وهـذا مؤيد مـن خلال الشـواهد الداخليـة في روايته، لأنه عنـدما لم يستطع زيـارة مكان ما، ذكـر بصراحة

أنه اعتمد على الآخرين بالنسبة لمعلوماته، وبالمناسبة ألقى الراهب الروسي بعض الأضواء الغريبة على الأوضاع غير المستقرة للبلاد، والمخاطر التي كان المسافرين يتعرضون لها على الطرقات خلال السنوات الأولى من تاريخ المملكة اللاتينية، ففي اللد على الطريق الرئيسي من يافا إلى القدس، اعتاد الحجاج على امضاء الليل في خوف عظيم من امكانية تعرضهم لغارات المسلمين من عسقلان، وغالباً مانشط قطاع الطرق على الطريق من القدس إلى أريحا، وكمنت جماعات مسلمة من عسقلان فوق التلال المكسوة بالغابات قرب بركة سليمان، بانتظار الذين كانوا يسافرون من بيت لحم إلى القدس، وكانت الجبال الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم مليئة بقطاع الطرق إلى حد أن دانيال ورفاقه توجب عليهم السفر تحت حماية واحد من المقدمين المسلمين، فما من أحد كان بإمكانه السفر من القدس إلى بحيرة طبرية بدون حراسة مسلمة، وهاجم المسلمون من بيسان الرحالة عندما كانوا يقطعون مخاضات الأنهار، وقتل المسلمون الفرنجة الذين كانوا يسافرون من جبل الطور إلى الناصرة، ولم يكن بالإمكان زيارة لبنان بسبب نشاط المسلمين، ونعلم من الرحلة أيضاً أن النمور وحمر الوحوش كانت ماتزال تعيش في براري يهودا، وأن الأسود بأعداد كبيرة كانت موجودة في أحراش وادي الأردن، وفي الوقت نفسه ازدهرت زراعة النخيل —التي اختفت— في مناخ أريحا وبيسان شبه الاستوائي.

وتنبع أهمية رواية دانيال أيضاً من كون أن كاتبها لم يكن فقط عضواً في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، بل راعياً لواحد من الأديرة، ولأنه كان كما هو مفترض رجلاً مثقفاً وفهيماً، وقد كتبت بروح تقية مؤمنة، كما هو متوقع من رجل هو رجل دين ارثوذكسي، وليس فيها أدنى أثر لروح عدوانية تجاه الديانة اللاتينية، ورافق دانيال أثناء حجه راهب من دير القديس سابا الأرثوذكسي «وكان رجلاً تقياً ومتقدماً بالسن، ومتمكناً من

معرفة الكتابات المقدسة»، وكان دانيال ضيفاً مرحباً به في عدد كبير من الأديرة الأرثوذكسية في أرجاء البلاد، وكانت تقاليد هذه الأديرة هي تقاليد الكنيسة الشرقية المحلية، التي أشار إليها سيولف، مع التقاليد السريانية الأخرى، ومن المؤكد أنه كان يعرف الأناجيل الأبوغرفاوية بأشكالها الاغريقية، ونقل من الانجيل الأبوغرفاوي المعزو إلى جيمس، الذي صدرت عنه كثير من التقاليد، وكانت العلاقة فيها بين الكنيستين اللاتينية والأرثوذكسية في هذه الآونة علاقة صداقة حميمة، ورفع ملك القدس الخلافات إلى رجال الدين الأرثوذكس وإلى رهبان القديس سابا ضمن ملاحظات هامة خاصة، وكان رجال الدين الأرثوذكس مسؤولين عن كنيسة القيامة، واحتفظوا بمفاتيح أبواب الضريح، وفي أثناء احتفالات الفصح وضعت المصابيح الأرثوذكسية على الضريح نفسه، في حين علقت المصابيح التي عادت إلى اللاتين فوقه، وهناك توافق بين وصف دانيال ووصف فولتشر أوف تشارترز (١١٠١م) لنزول الضوء ،أو النار المقدسة، فقد كان فولتشر حاضراً مناسبة الذكرى هذه، عندما لم تشعل النار المقدسة المصابيح حتى أحد الفصح، وكلاهما وصف اللهب بأنه كان وردي اللون، وذكر أن جميع الموجودين شاركوا الأرثوذكس بصراخهم «Kyrie Eleison»، وذكر دانيال أن الأرثوذكس واللاتين قرأوا قداس سبت الفصح مع بعضهم، وقال فولتشر بأن الفرنجة قرأوا كل مقطع باللاتينية أولاً، ثم قرأ الأرثوذكس المقاطع نفسها بالاغريقية، وجاء في الرواية الفرنجية عن الاحتفال بأن البطريرك هو الذي فتح باب الضريح، في حين جاء بالرواية الروسية أن الذي تولى ذلك واحد من الأساقفة اللاتين، ويتضح هذا الاختلاف بغياب البطريرك اللاتيني أثناء زيارة دانيال.

ومادة دانيال على العموم صحيحة، لكنه اقترف بعض الأخطاء أحياناً، وتظهر بعض أخطائه جهلاً بالكتابات المقدسة التي لم تكن

معتمدة لـديه أو لـدى دليله، الـراهب المثقـف من ديـر القديـس سابـا، ويمكن أن نعزو الأخطاء الجغرافية إلى جهـل عام بتلك الحقبة، ومن هذه الأخطاء جعله كفر ناحوم على شاطـىء البحر قرب الكرمل، وأن اللد هي الرملة وأن قيصريـة فيليب (بانياس) هي قيساريـة فلسطين، وأن السامرة هي نـابلس، وأن بـاشان هـي بيسان، وأن الأسقفيـات العشر ديكابـولس Decapolis كانت بلـدة، وهناك أوهام أخرى، مـن الصعب أن نجد لها تسويغـاً، من ذلك على سبيـل المثال: الروايـة الطريفـة عن معركـة قرب أريحا، توقفت خـلالها الشمس عندما كـان يوشع يتغلب على عـوج ملك باشان، وقـد قال بأن المعركـة قد وقعت في بيسان، وكـذلك مزج فيها بين مـرقـص: ١٦/١ — ١٨ مـع ١٩/١ — ٢٠. هـذا وقليـل مـن الاعتماد يمكن أن يكون على المسافات والمساحـات التي وردت في النص، وكانت نصوص الـرحلات الـرومانيـة قد أهمل استخـدامها، والمسـافات في هـذه الـرحلات هـي تقـديريـة، بينما هـي في رحلة راهبنـا في غـالـب الأحيـان مغلوطة بسبـب تصحيفات لحقت بالنص أو أن النـص كتب على سرعة، ومعلـوماتـه غير كاملـة، المهـم أن الأخطاء كثيرة، وبـالنسبة لإعطـاء اتجاه الأماكـن، اعتاد دانيـال على اعتماد وضع الشمـس في الانقلابين الشتـوي والصيفي، وكـان هذا الاستخدام مـن بقايا الأيـام الخوالي، عندما كـانت تقـام حجـرة اشــارة لتسجيـل أقصـى انحـراف للشمــس نحـو الشمال والجنـوب، وكـانـت البهجـة تعم عنـدمـا يتـم الاعـلان أن نقطـة شروق الشمس بدأت تعود نحو الشمال.

وبدأ دانيـال رحلته من القسطنطينية، فمنهـا ذهب بحراً إلى يافـا، وقد زار على الطريق عدة أماكن مثـل إفسوس وقبرص، ويبدو أن رحلته كانت بـلا حوادث، واعتنـى بشكـل خـاص بالمواقـع التـي دفـن فيها مختلـف القـديسين والـرجال المقـدسين، وأتـى على ذكـر «الغبار المقـدس» الـذي ينبعث كـل سنة مـن قبر القديـس يوحنـا، والصليب المعلـق وسط الهواء

فوق جبل ترودوس في قبرص، ووصف الطريقة التي جمع بها صمغ الميعة في جبال ليكيا Lycia وسافر من يافا عبر اللـد التي وجدها مهجورة، ثم مرّ بالنبي صموئيل، وقال هي أرماثم Armathem (راماثيم زوفيم Ramathaim Zopnim) ثم وصل القدس، ووقف في أعلى جبل سكوبوس، حيث شاهد المدينة المقدسة كاملة، فترجل من أجل الصلاة، ثم وقد امتلأ بغبطة عظيمة، تابع سيراً على الأقدام، فجاز بكنيسة وضريح القديس ستيفن، إلى باب يافا الحالي، حيث اعتاد جميع الرحالة على دخول القدس، في ظل القلعة، أيام حكم الفرنجة.

واتخذ الراهب مقراً لـه في الميتوشيا Metochia، أو «بيت الحجاج» في دير القديس سابا، قرب برج داود، وكان هذا الدير مشغولاً الآن من قبل الرهبان الأرثوذكس (الاغريق) الذين نجوا لتوهم من مقتلة عند دير القديس سابا — الآن مارسابا — الأكثر شهرة، والواقع خارج الأسوار، وزار بمساعدة دليل كان من رهبان الدير، الأماكن المقدسة، ووصفه لهذه الأماكن، قبل أن يقوم الفرنج بأية أعمال بناء ضخمة، مفيد جداً، وروايته أغنى من رواية سيولف الذي زار القدس قبله بأربع سنوات أو خمس، وذكر عدداً من الأماكن المقدسة الأقل شأناً مثل «مدفن ارميا» و«بيت أوريا» و«منازل يودس وبولص»، التي لم يرد ذكرها لدى الحاج الأنكلو ــ سكسوني، ووصفه لكنيسة القيامة والضريح المقدس ومجموعة الأماكن المقدسة حول القيامة جدير بالعناية، وكذلك وصفه لقدس الأقداس «قبة الصخرة»، ولقد ذكر بأن البناء تولاه واحد من قادة المسلمين اسمه آمور Amor وهو تصحيف واضح لاسم الخليفة عمر فاتح القدس، وتقدم الحكايات الطويلة التي جمعت حول قبر العذراء في وادي قدرون، وحول الكنيسة فوق جبل صهيون، التي من المفترض أنها كانت بيت القديس يوحنا الانجيلي شرحاً موضحاً لنوعية المعلومات التي قدمها الأدلاء المقدسيون في أوائل القرن الثاني عشر لحاج من حجاج

الكنيسة الشرقية.

وقام دانيال من القدس برحلتين: الأولى إلى الأردن، وبراري اليهودية، وكانت الرحلة الثانية إلى بيت لحم والخليل، حيث لم يكن الصليبيون قد بنوا بعد كنيستهم مع دير القديس شارتون Chariton، وبعدما عاد من الخليل إلى القدس حصل على أذن من الملك بلدوين سمح له بموجبه بمرافقة القوات التي كانت على وشك الانطلاق للهجوم على دمشق، بقيادة الملك نفسه، ويبدو أن الطريق الذي سارت عليه العساكر هو عبر: البيره، لُبَّن، نابلس، التياسير ثم بيسان، حيث كانت قد وقعت هناك بعض الأحداث المتعلقة بحياة ربنا، من ذلك شفاء الأعميين من أهالي بيسان، وزحف الجيش إلى جسرين كانا قريبين من ينابيع الأردن، وشكلت هذه الينابيع بالنسبة لدانيال نهرين هما «أر» و «دن» اللذان يصدران عن بحيرة طبريا، ويبدو أن الجسرين كانا على مقربة من النقطة التي يغادر فيها الأردن الآن البحيرة، حيث مازال بالإمكان رؤية آثارهما، ويعرفان باسمي: جسر السيد، وهو مخرب الآن، وقائم تحت نقطة لقاء النهرين: «أر» و«دن»، ثم يخرجان من البحيرة ويشكلان جزيرة اسمها «الكرك»، والموقع الوحيد المعروف لجسر آخر هو موقع «جسر المجامع»،لكن في هذه الحالة علينا أن نفترض أن النهرين اللذين التقيا هما الأردن واليرموك، وهما المعنيانِ بالذكر، وعندما عبر بلدوين الأردن، ذهب دانيال إلى طبرية، وأمضى هناك عشرة أيام في زيارة الأماكن المقدسة على حدود بحيرة طبرية، ويبدو أنه لم يستطع مغادرة أحواز البحيرة، وكان فقط قادراً على رؤية أطراف بحيرة الحولة، التي دعاها باسم بحيرة جنسارث Gennesareth ، ورأى الراهب الروسي بأن الأردن أول مخرجه من بحيرة طبريا، وقد لاحظ وجود جزء منه فوق البحيرة، وهو عريض عرضه عرض نهر، ويتدفق من بحيرة جنسارث، وذهب دانيال من طبرية إلى جبل الطور حيث سمع حكايات غريبة

حول كهف «ملكي — صادق»، وكانت الناصرة آنذاك بيد اللاتين، وكذلك قانا الجليل وعكا، وبعد ما ارتاح لمدة أربعة أيام في عكا، سافر جنوباً عبر حيفا وقيسارية ونابلس فبيت ايل إلى القدس.

وبعدما شاهد احتفال نزول «النور المقدس» في كنيسة القيامة، يوم سبت عيد الفصح لسنة ١١٠٧، بدأ الحاج الروسي رحلة العودة نحو وطنه، وبعدما سافر عبر دير الصليب، فعين كارم، بلد زكريا ومكان ميلاد يوحنا المعمدان، مر بعمواس التي كانت مهدمة من قبل المسلمين، ووصل إلى يافا، ومنها توجه إلى أرسوف، فقيسارية فحيفا، ومن ثم إلى صور، فصيدا، فبيروت، ولا ندري إن كان نزل إلى بيروت أو إلى السويدية ميناء مدينة أنطاكية، وفي جميع الأحوال ساير الساحل عن قرب، وبعدما سلبه القراصنة أمام ساحل ليكيا قرب باتارا Patara ، وصل أخيراً سالما إلى القسطنطينية.

-١٠٥٦-

رحلة حج راعي الدير الروسي دانيال في الأرض المقدسة

(حوالي: ١١٠٦— ١١٠٧)

أنا دانيال، راعي الدير الروسي، والعبد غير الجدير، والأقل بين الرهبان، شعرت بالضيق بسبب ذنوبي الكثيرة، وأعمالي الصالحة غير الكافية، فاستولت علي — أولا — فكرة رؤية مدينة القدس المقدسة مع أرض الميعاد، ثم استبدت بي الفكرة، وبت عديم الصبر مشتاقاً لرؤية الأماكن المقدسة: ولقد زرت الجليل كله، وجميع الأماكن المقدسة حول مدينة القدس المقدسة، التي مشى عليها المسيح ربنا بقدميه، وحيث أظهر نفسه بوساطة معجزات رائعة.

ولقد رأيت جميع هذه الأماكن بعيني الخاطئتين، وتفضل الرب برحمته بتمكيني من رؤية ما تطلعت بشوق منذ سنين طوال إلى رؤيته؛ اغفروا لي ياأخواني، ويا آبائي وياسادتي، أخطائي، وتجاوزوا عن جهلي وسذاجتي في الوصف (الذي أنا مقبل على القيام به) الذي سأقوم به لمدينة القدس المقدسة، في الأرض المباركة، والطريق الذي يقود إلى الأماكن المقدسة. وكل من قام بهذه الرحلة بتواضع وبخوف من الرب، لن يذنب بحق الرحمة الربانية، فلقد سرت على هذا الطريق المقدس، مع أنني لا أستحق ذلك، سرت بضعفي كله وبكسلي، بدون عائق، وسلمت نفسي لكل شر من الشرور، لكن أملي برحمة الرب وبدعواتكم لصالحي، أن سأنال عفو ربنا يسوع المسيح عن ذنوبي التي لاتعد ولاتحصى، ولقد وصفت الأماكن المقدسة بدون تفاخر بأي شيء جدير بالثواب، وهذا التفكير بالحقيقة بعيد عني، لأنني لم أفعل شيئاً جيداً خلال رحلتي، وفقط صدوراً عن حبي لهذه الأماكن المقدسة توليت كتابة ما رأيته بعيناي،وذلك حتى أتذكر كل ما سمح لي الرب برؤياه، دونما اعتبار لعدم

جدارتي، وخشية من مثل ذلك الخادم الكسـول الذي دفن مهارات سيده دون ترجمتها إلى شيء نافع، قمت بكتابة هذه الرحلة للمؤمنين، من أجل أنهم لـدى سماعهم لـوصـف الأمـاكن المقـدسـة، يمكنهـم تصورهـم في أذهانهم، ومـن داخل أرواحهم، وبذلـك يحصلون من الـرب على الثواب نفسه مثل الذين زاروهم.

فلقد وصل كثير من النـاس الأفاضل إلى الأماكن المقدسـة، من خلال قيـامهم بـأعمال جيدة، والاحسـان إلى الفقراء، وصلـوها دون أن يغـادروا أوطانهم، وبـذلك جعلـوا أنفسهم أهـلاً لثواب أعظـم من ربنـا ومخلصنا يسوع المسيـح، وهناك بعض النـاس الذين أنا مقـدمهم، قد زاروا مـدينة القدس المقدسـة والأماكن المقدسة، فتفـاخروا بأنفسهم وكـأنهم قد فعلوا شيئاً جـديراً بالثنـاء، وبذلك خسروا ثمار تعبهم، ومـرة ثانية هنـاك آخرون قـامـوا بـالحج، وعـادوا دون رؤيـة كثير مـن الأشيـاء الثمينـة، لتشـوقهـم بالاسراع بالعـودة إلى وطنهم، لأن هذه الرحلة لايمكـن القيام بها بسرعة، كما أنـه مـن غير الممكـن الاسراع بـالمرور بجميـع الأمـاكـن المقـدسـة في القدس والمواقع الأخرى.

١ ـــ *القدس ودير القديس سابا*

ثم وصلـت أنا الراهب دانيـال غير الجدير إلى القدس، ومكثـت هناك ستة عشر شهـراً في بيت حجاج ديـر القديس سابـا، وبذلك كنـت قادراً على زيارة وتفحص جميع الأماكن المقدسـة، وليس من الممكن زيارة جميع الأمـاكن المقـدسـة وتفحصها مـن دون دليل جيـد وتـرجمان، وبناء عليـه دفعت كل مـا كان بإمكاني دفعه من وسـائلي المتاحة جائزة للذيـن كانوا على دراية كـاملة بـالأماكـن المقدسة وقـادرين على اطـلاعي عليهـا، مع المواقع الأخرى، حتى أتمكن من رؤيـة كل تفصيل، وفي هذا المقام، وتبعاً له، كنت ناجحاً.

وبنعمة من الرب، وجدت في دير القديس سابا، رجلاً تقياً جداً، ومتقدما بالعمر، كان واسع المعرفة بالكتابات المقدسة، فقد حنن الرب قلب هذا الرجل المقدس ليحبني أنا غير الجدير، ولقد كان هو الذي أراني بعناية كبيرة جميع الأماكن المقدسة، في كل من القدس وجميع أرجاء البلاد، وأخذني إلى بحيرة طبرية، وإلى الطور، والناصرة، والخليل، والأردن، وعطفا منه علي، قادني— مع أنه عانى من تعب عظيم — إلى عدد كبير من الأماكن المقدسة، التي سأتحدث عنها فيما بعد.

٢— *الطريق إلى القدس*

هذا هو الطريق الذي يقود (من القسطنطينية) إلى القدس، هناك ثلاثمائة فرسخ (روسي) من القسطنطينية إلى البحر الكبير، وسايرنا الشاطىء المتعرج، وقطعنا مائة فرسخ (كل فرسخ = ٣٫٥٠٠قدم) إلى جزيرة بيتالا Petala (مرمرة)، وهي أول جزيرة في البحر الضيق (بحر مرمرة)، ويقوم على هذا الطريق بلدة واسعة هي هرقلية (إيريغلي)، حيث يوجد ميناء واسع، وهناك مقابل هذه البلدة، زيت مقدس (اسفلت) ينبع من أعماق البحر، لأنه في هذه البقعة جرى اغراق كثير من الشهداء المقدسين من قبل معذبيهم.

ويقولون هناك مائة فرسخ من بيتالا إلى غاليبولي، وثمانين (الصحيح ثلاثين) من غاليبولي إلى بلدة أبيدوس، التي يقابلها مدينة دفن فيها القديس يوثيموس الأصغر.

ومن هناك إلى كرايت Crite مسافة عشرين فرسخاً، وبعدها يدخل الانسان إلى البحر الكبير، فينعطف نحو اليسار ليؤم القدس، ونحو اليمين إلى جبل (أثوس) المقدس، وسالونيك وروما.

وهناك ثلاثين فرسخاً من كرايت إلى جزيرة تندوس Tenedos، التي هي أول جزيرة يصلها الانسان في البحر الكبير، وهنا يرقد الشهيد

المقدس أفنوديموس Avnudimos.

وكان على الشـاطىءالمقابـل لهذه الجزيرة في الماضي بلـدة كبيرة اسمها تراوس Troas (اسكي ستـامبول)، وإليها قـدم الرسول بـولص للتبشير، وقد عمّد جميع المنطقة.

ويوجـد مائة فـرسخ فيها بين تنـدوس، وجزيـرة ميتيلين Mitylene ، وهناك دفن مطران ميتيلين المقدس (القـديس جورج ٨١٦م)، ومن هناك إلى جزيـرة كيوس مـائة فرسـخ، وفي هذا المكـان يرقـد القديـس ايزودور الشهيـد، وتنتـج هذه الجزيـرة، اللبـان، والخمـور الجيدة، ومختلـف أنـواع الخضروات.

٣ــ مدينة إفسوس (عرب سوس)

يـوجد ستين فـرسخـا مـن جزيـرة كيـوس إلى إفسـوس، ويشاهـد في إفسـوس قبرالقديـس يـوحنا الانجيلي، ويثـور في يوم ذكـرى مـوته غبـار مقدس مـن قبره، حيث يجمعـه المؤمنون ليكـون شفاء مـن كل داء، وعلى مقربة منـه هناك الكهف الذي ترقـد فيه أجساد السبعة النـائمين، الذين ناموا لمدة ثـلاثمائة وستين سنة، فقد سقطوا نائمين أيـام حكم الامبراطور ديكيوس Decius وأفـاقوا في أيـام الامبراطور ثيـوديـوس، ويوجـــد في الكهف نفسه (آثـار) ثلاثمائة من الآباء المقدسين مع القـديس الاسكندر، وضريح مـريم المجدليـة هو هنا أيضـاً وكذلك رأسهـا، ويرقد هنـا أيضاً الرسول تيموثي Timothy المقدس، الذي كان حواريا للقديس بطرس، داخل تابوت قديم، ومحفوظ في الكنيســة القديمة صورة العذراء المقدسة، ورفضت هذه الكنيسة مع أولئك (الآباء) المقدسين بدعة نسطور.

ويمكـن للمـرء أن يشـاهـد هنا أيضـاً حمام ديـو سكـو ريـدس Dio-scorides حيث عمل القـديس يوحنا الانجيلي مـع بروكورس Proch-orus في بيت رومانا Romana ، ورأينا أيضاً الميناء الذي اسمه «الميناء

الرخـامي»، حيـث لفظ البحر القـديس يوحنـا الانجيلي، وقد بقينـا هناك لمدة ثلاثة أيام.

وتقوم بلدة إفسوس بين الجبال، وتبعد عـن البحر مقدار أربعة فراسخ، وفيها وفرة من كل شيء، وتعبدنا هناك القبر المقدس، ثـم ارتحلنا من هناك مسرورين في ظل حماية نعمة الرب وصلوات يوحنا الانجيلي.

وهنـاك أربعين فرسخـاً من إفسـوس إلى سامـوس، والبحر هنـاك مليء بالأسماك، والجزيرة خصبة جداً.

٤— جزيرة باتموس

لقد قدروا وجود عشرين فرسخاً من ساموس إلى جزيرة ايكاريا Icar-ia (نيكـاريا الآن) ، ومـن هنـاك إلى جـزيرة بـاتموس Patmos ستين فرسخاً، وتقع هذه الجزيرة في طرف البحـر، وهي الجزيرة التي كتب فوقها القديس يوحنـا الانجيلي انجيله عندما نفي مع بروكـورس؛ ثـم جاءت جزر: ليروس Leros (ليرو) وكاليمنوس Calimnos (كالمنو) ونيسرا Nicera (نيسرو) وجزيـرة كوس Cos (كوس KQs) ، التي هي واسعـة جداً ومكتظـة بالسكـان، وغنيـة بـالقطعان، وجئنـا أخيراً إلى تيلـوس Telos المشهورة بـالنسبة لتعـذيب هيرود، وتحتـوي على كبريت يحترق، وهـو يباع بعـد تنقيته، ويستخـدم لاشعال النـار*، وبعيـداً على مسافـة من هنـاك جزيـرة خرقيـه (خلقي)، وجميع هـذه الجزر مسكونة بـالناس، وهـي غنية بقطعـان المواشي، وتبعـد الواحـدة عـن الأخـرى عشرة فراسـخ أو أكثـر، وجـزيـرة رودس أيضـاً جـزيـرة كبيرة جـداً، وخصبـة جـداً، وهنـا أمضـى الأميرالـروسي أولـغ، Oleg

---

*— الصحيح أن الينابيع الكبريتية في نيسيرو، وأخطأ الراهب حين ذكرهم في تيلوس.

شتائين وصيفين (١٠٧٩)، وهنـاك مائتي فـرسخ من سـاموس إلى جزيرة رودس، وستين فـرسخاً مـن رودس إلى مكـري Makri (تلمسوس Tel-messus القديمة على الساحل الجنوبي لـ «ليكيا»).

وتنتج بلدة مكـري هذه والمنطقة المحيطة بها امتداداً حتى مـايرا اللبان الأسود والميعة، وهـي تخرج من الشجرة بأشكـال مختلفة، وتجمع بوسـاطة آلة معـدنية حادة، وتدعـى الشجرة باسـم «زغيا Zygia » وهي تشبه شجرة الألدر Alder ، وهناك نوع آخر من الشجر يشبه الحور الرجراج، يدعـى «راكا Raka » ، وهناك حشرة كبيرة، مـــن أكبر أنواع اليُسروع، تعيش في أسفـل الشجرة تحت الجذع، ويسقـط الغبار النـاجم عـن عمل الحشرة مثل الدقيـق على الأرض، مشكلاً صمغاً مثل صمـغ شجرة الكرز، ويجمع هـذا الصمغ ويمزج مـع ما تنتجه الشجـرة المتقدمة، ثـم يتم غلي الجميع داخـل وعاء نحـاسي، وبهذه الطريقـة يحضرون لبان الميعـة، ويباع إلى التجار داخل أوعية جلدية.

وقدروا وجـود أربعين فرسخـاً فيما بين مكري وبلـدة باتـارا، التي ولـد فيها القديـس نيقولا، فهي موطنـه وبلده، ومنها إلى مايـرا أربعين فرسخاً، ويحتوي هـذا المكان الأخير قبر القديس نيقـولا، وهناك ثلاثين فرسخـاً من بلـدة مايـرا إلى خلدونيـا Chelidonia(شيلـدان بورون في أقصـــــى خليج أضاليا) ومائتي فرسخ من هذا المكان إلى جزيرة قبرص الواسعة.

٥ــ جزيرة قبرص

هـذه الجزيـرة واسعـة جـداً، ومكتظـة بـالسكـان، وفيهـا جميـع أنـواع المنتجات، وفيهـا عشرين أسقفـاً، ومطران واحـد، ومالايمكـن عدّه مـن الآثار، فهنا يرقد القـديس ايبيفانوس Epiphanius (٣٨٢م)، والرسول برنابا، والقديس زينو، والقديس فيلا غريوس Philagrius وهو الأسقف الذي عمده بولص الرسول.

٦— الجبل الذي أقامت عليه القديسة هيلانة صليباً

يوجد هنا جبل عظيم الارتفاع (اسمه جبل ترودوس Troodos) أقيم على قمته صليب من الخشب القبرصي من قبل الامبراطورة القديسة هيلانة (حنة) لطرد الأرواح الشريرة ولشفاء جميع أنواع الأمراض، ووضعت في الصليب واحداً من الأظافر المقدسة للمسيح، وظهر في هذه البقعة العديد من المعجزات وعملت هناك وعلى مقربة من الصليب، ومازال هذا يحدث حتى اليوم الحالي، وهذا الصليب معلق بالهواء دون أن يستند على أي شيء في الأرض، فهو مربوط من قبل روح القدس ومدعوم منها، وعبدت أنا الذي لا أستحق هذا الشيء المقدس والعجيب، ورأيت بعيني الخاطئتان النعمة الربانية الملقاة على هذا المكان، واكتشفت هذه الجزيرة بشكل دقيق وتعرفت إليها.

٧— البلسم

وبخور البلسم موجود هناك، وهو ينزل من السماء ، وهم يجمعونه من الأشجار. وينمو كثير من هذه الأشجار فوق الجبال، وهي ليست أعلى من نباتات الأعشاب الطبية، فعلى هذه يسقط البلسم الجيد، ويكون هذا خلال شهري تموز وآب.

ويسافر الانسان بوساطة البحر مسافة أربعمائة فرسخ من قبرص إلى بلدة يافا، والمسافة من القسطنطينية إلى جزيرة رودس ثمانمائة فرسخ، ومن جزيرة رودس إلى يافا ثماثمائة فرسخ أيضاً، وبذلك تكون المسافة التي يتوجب على المرء عبورها بحراً إلى يافا ألفا وستمائة فرسخ.

ويافا ليست بعيدة عن القدس، وهي قائمة على شاطيء البحر، والرحلة منها إلى القدس تكون براً، والمسافة بينهما هي ثلاثين فرسخا، وهناك عشرة فراسخ فوق أرض منبسطة إلى القديس جرجس (اللد)، فقد بنيت هناك كنيسة كبيرة كرست على اسم القديس جرجس، وهي

تحتـوي في داخلها على مـذبح وضريـح القـديس الـذي استشهد هنـاك، وهنـاك عـدد كبير من الينـابيـع في هـذا المكـان، وعلى مقـربة منهـا يـأتي الحجـاج للـراحة ولإمضـاء الليـل في خـوف عظيم، لأن المكـان مهجـور وليـس بعيـداً عـن بلـدة عسقلان، التـي يخرج المسلمـون منهـا فيقتلـون الحجاج على طـريقهم، وهنـاك خوف عظيم جـداً من هـذا المكان يـدفع المرء إلى حد اللجوء إلى الجبال.

ويقدرون وجـود عشرين فـرسخاً مـن القديـس جرجـس إلى القدس، والطريق هو في منطقة جبلية وعرة، وهو طريق مخيف ومقلق جداً.

٨— *جبل النبي صموئيل*

هناك على مقربة من القدس، وعلى يمين الطريق من يافا، جبل مرتفع يحمل اسم أرمـا ثم Armathem (النبي صمـوئيل)، ويـوجد على هذا الجبـل قبر النبي صمـوئيل، وقد عثـر عليه هنـاك، وكذلـك قبر والده إلقانه Elkanah ، وقبر مريم المصرية، وكان المكان والقرية موطن هؤلاء الأشخاص المقدسين، والبلدة محاطة بسور، ولهذا دعيت باسم أرماثم.

٩— *القدس*

تقـوم مدينـة القدس المقـدسة في واد وعـر، وفي وسط جبـال صخريـة عـالية، وأول شيء يـراه الانسان عنـدمـا يقدم إلى المدينـة هو بـرج داود (قرب بـاب يافـا)، ثم إلى الأمـام قليلاً جبـل الزيتـون، فقدس الأقـداس (الصخرة)، فكنيسـة القيامـة التي فيهـا الضريح المقـدس، وأخيراً المدينة بأكملها، وعلى بعد حوالي الفرسخ أمـام القدس هناك جبل منبسط بعض الشيء، وهو الـذي عندمـا يتم الـوصول إليـه يترجل كـل مسافـر، فيرسم علامة الصليب، ويتعبد القيامة المقدسة على مرأى من المدينة.

ويمتلىء كـل مسيحي ببهجـة عارمـة لدى مشـاهدتـه لمدينة القـدس المقدسـة، وتنهمر الدمـوع من عينيه بإيمان، ومـا من أحد يمكنـه أن يختار

سوى البكاء عندما يرى هذه الأماكن التي طالما اشتاق إليها، حيث تحمل ربنا المسيح الآلام في سبيل محو ذنوبنا، وهكذا بعد الشعور بهذه البهجة تتم متابعة الرحلة إلى القدس على الأقدام.

وإلى اليسار، على مقربة من الطريق، تقوم كنيسة الشهيد الأول، القديس اسطفان، ففي هذا المكان رماه اليهود بالحجارة، وقبره مرئي هناك، وهناك أيضاً جبل صخري وعر انشطر وقت صلب المسيح ويدعى المكان جيهنا Gehenna (الجلجلة)، وهو على رمية حجر من سور المدينة.

ويدخل الحجاج بعد هذا مدينة القدس المقدسة، وهم ممتلئين بهجة من الباب القائم قرب بيت داود، ويتجه هذا الباب نحو بيت لحم، ويدعى باب بنيامين، ولدى دخول المدينة هناك طريق عابر لها، ويقود نحو اليمين إلى قدس الأقداس (قبة الصخرة)، وإلى اليسار نحو كنيسة القيامة الحاوية للضريح المقدس.

١٠ — كنيسة قيامة الرب

كنيسة القيامة ذات شكل دائري، وفيها اثني عشر عموداً من الحجارة الضخمة، وست سواري، ومبلطة بألواح رخامية جميلة جداً، ولها ستة مداخل، وشرفات مع ستة عشر عموداً، وتحت السقف، فوق الشرفات، جرى تمثيل الأنبياء بالفسيفساء كما لو أنهم أحياء، ومطوق أعلى المذبح بصورة المسيح بالفسيفساء، وهناك عند المذبح العالي تمثيل لآدم بالفسيفساء، ويمثل الفسيفساء فوق القوس صعود ربنا، وهناك «بشارة» بالفسيفساء على الأعمدة على جانبي المذبح، وقبة الكنيسة ليست مغلقة بأقبية حجرية، بل مشكلة من إطار مصنوع من العوارض الخشبية، وهكذا فإن الكنيسة مفتوحة بالأعلى، والضريح المقدس موجود تحت القبة المفتوحة.

وهاكم وصف الضريح المقدس: هو عبارة عن مغارة صغيرة منحوتة بالصخر، ولها مدخل منخفض إلى درجة أنه من الصعب بالنسبة للانسان أن يمر من خلاله، وهو راكع على ركبتيه، وارتفاعه ليس كبيراً، وبالنسبة لمساحته فالطول يساوي العرض، وهو ليس أكثر من أربعة أذرعة، وعندما يدخل الانسان إلى المغارة بوساطة الممر الصغير، يمكن للانسان أن يرى على الجانب الأيمن نوعاً من أنواع المقاعد (نضد)، قدّ من صخرة الضريح، فعلى هذا النضد مدد جسد ربنا يسوع المسيح، وهو مغطى بالألواح الرخامية، ومن الممكن رؤية هذه الصخرة المقدسة التي يقبلها جميع النصارى، من خلال ثلاث فتحات صغيرة مستديرة، قائمة على أحد الجوانب،وهناك خمسة مصابيح زيتيه تحترق ليل نهار، وهي معلقة في ضريح ربنا، والنضد الذي رقد عليه جسد المسيح هو أربعة أذرعة بالطول وذراعين بالعرض، وذراع ونصف الذراع بالارتفاع، وعلى ثلاثة أقدام أمام مدخل المغارة هناك الحجرة التي جلس عليها الملاك الذي ظهر للنساء وأعلن لهن قيامة المسيح، والمغارة المقدسة مغطاة من الخارج برخام جميل، وهي قائمة مثل منصة، ومحاطة بإثني عشر عموداً من الرخام نفسه، ويعلوها برج جميل يقوم فوق الأعمدة، وينتهي بقبة مغطاة بألواح فضية مذهبة، تحمل في أعلاها تمثالاً فضياً للمسيح، على ارتفاع عادي، وقد وضع الفرنجة هذا التمثال ، وهذا البرج قائم تماماً تحت القبة المفتوحة، وله ثلاثة أبواب منفذة بصورة بارعة على شكل شعرية، وبوساطة هذه الأبواب يدخل الانسان إلى الضريح المقدس، وعلى هذا إن هذه المغارة ، هي التي تمثل ضريح الرب، وقد وصفتها تبعاً لشهادة السكان القدماء، الذين يعرفون الأماكن المقدسة بشكل دقيق.

وشكل كنيسة القيامة دائري، ومقاسها ثلاثين سغنس Sagenes (يساوي كل سغنس سبعة أقدام انكليزية) في كل اتجاه، وفيها حجر واسعة في الجزء العلوي يعيش فيها البطريرك، ووجدوا أن المسافة فيما بين

مدخل الضريح وجدار المذبح العالي تساوي اثني عشر سغنس، وخلف المذبح فيما وراء الجدار هناك «صرة الأرض»، وهي مغطاة ببناء على (قبته) تمثيل للمسيح بالفسيفساء مع هذا النص «يتخذ قدمي وحده مقياساً للأرض وللسماء».

١١ — *مكان مركز الأرض الذي صلب فيه المسيح*

هناك اثني عشر سغنس «من صرة الأرض» إلى المكان الذي صلِب فيه ربنا، وإلى النهاية، ومكان الصلب نحو الشرق، فوق صخرة مستديرة مثل رابية صغيرة، أعلى من ارتفاع رمح، ويوجد في ذروتها، في الوسط فتحه محفورة عمقها ذراع واحد، ومحيطها أقل من قدم، فها هنا نصب صليب ربنا.

وترقد تحت هذه الصخرة جمجمة آدم الانسان الأول، وفي الوقت الذي صلب فيه ربنا، وعندما أسلم الروح فوق الصليب تصدع حجاب الهيكل، وتفتت الصخرة وتبعثرت، وانفتحت الصخرة القائمة فوق جمجمة آدم، وجرى الماء والدم اللذان صدرا عن جنب المسيح نحو الأسفل من خلال الصدع فوق الجمجمة وبذلك تمت إزالة ذنوب البشر وغسلها، ومازال هذا الصدع موجوداً حتى هذا اليوم، ومن الممكن رؤية هذه الهبة المقدسة على يمين مكان الصلب.

١٢ — *الجمجمة*

ويحيط بهذه الصخرة المقدسة مع بقعة الصلب جدار، وهما مغطيتان ببناء مزين بفسيفساء رائعة، ويوجد على الجدار الشرقي تمثيل أشبه بالحياة لعملية صلب المسيح، لكن أعلى من الحجم الطبيعي، وعلى الجانب الجنوبي تمثيل رائع مماثل للنزول من الصليب، وهناك أيضاً بابين، ويصعد الانسان سبع خطوات إلى البابين، وخطوات كثيرة بعد ذلك، والأرض مبلطة برخام رائع، ويوجد دون مكان الصلب، حيث ترقد

الجمجمة بيعة صغيرة، مزينة بالفسيفساء بشكل جميل، وتعرف باسم الجمجمة، وفي هذا اشارة إلى مكان الجمجمة، والمسافة فيها بين بقعة الصلب ومكان النزول من الصليب خمسة سغنس، وفي جوار مكان الصلب، على الجانب الشمالي المكان الذي انتزع فيه رداء ربنا، وملاصق له البقعة التي وضعوا فيها على رأسه تاج الشوك، واستهزاءاً أو سخرية منه ألبسوه رداء ارجوانيا.

١٣ — *مذبح ابراهيم*

وملاصق لهذا المكان مذبح إبراهيم، الذي قدم عليه ذبيحة للرب، وذبح كبشاً عوضاً عن اسحق، وإلى هذا المكان نفسه الذي اقتيد إليه اسحق، تمّ حمل المسيح بمثابة أضحية، وصلب من أجل خلاص المذنبين، والمكان الذي ضرب فيه المسيح ربنا على الوجه يبعد سغنسان عن هذه البقعة، وثلاثة سغنس من هناك موقع السجن الذي دخله المسيح، وبقي فيه لبعض الوقت حتى حضّر اليهود الصليب ونصبوه، وهو الصليب الذي صلب عليه، وجميع هذه الأماكن موجودة تحت السقف نفسه، وإلى جانب بعضها، على الطرف الشمالي.

ويوجد خمسة وعشرين سنغس من سجن المسيح إلى المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب، والحربة، والاسفنجة، والقصبة، والمسامير، وتاج الشوك، ويقوم الضريح المقدس، ومكان الصلب، وجميع الأماكن المقدسة في منطقة مجوفة من الأرض، حيث ترتفع على الجانب الغربي أعلى الضريح المقدس ومن مكان الصلب، وليس بعيداً من هناك، فوق مرتفع هناك البقعة التي وصلت إليها العذراء المقدسة مسرعة وهي تتبع المسيح باكية، وخاطبته بالكلمات التالية وهي حزينة جداً في قلبها: « إلى أين أنت ذاهب يابني؟ لماذا أسرعت بخطاك؟ هل أنت مضغوط عليك لتصل إلى عرس آخر مثل ذاك العرس في قانا الجليل، يابني ويا إلهي؟ لاتذهب صامتا هكذا عني، عني أنا التي

ولدتك، قل كلمة لعبدتك».

وعلى كل حال عندما وصلت الأم المقدسة إلى ذلك المكان، ورأت من فوق أن ابنها قد تعرض للصلب، استولى عليها رعب شديد، وسقطت على الأرض، وغلبها حزنها وأساها، وبذلك تحققت نبوءة سمعان، فقد تقدم له أن قال متنبئاً للعذراء المقدسة: «هذا الطفل معين لسقوط ثم لرفع كثيرين في اسرائيل، ولسوف يخرق سيف روحك عندما سترين ابنك وهو يصلب» (لوقا:)/ ٣٤— ٣٥).

ووقف عدد كبير من أصدقاء يسوع ومعارفه في هذا المكان، ينظرون من بعيد، وكان بينهم مريم المجدلية، ومريم أم جيمس، وسالومي، وكذلك الذين قدموا من الجليل مع يوحنا وأم يسوع، وهكذا وقف جميع أصدقاء يسوع وأقربائه ينظرون من بعيد حسبما قال النبي متنبئاً: «وقف أصدقائي وأقربائي بعيداً عني».

وتقع هذه البقعة على بعد مائة وخمسين سغنس إلى الغرب من مكان الصلب، وتدعى «سبودي» Spudi التي ترجمتها «وجد العذراء المقدسة». وهناك الآن دير مكرس للعذراء المقدسة، ولكنيسته سقف من خشب.

١٤ — برج داود

وهناك مائتي فاثوم Fathoms (قامة) من هناك إلى برج داود وبيته، والبرج قائم حيث كان بيته، وهو المكان الذي نظم فيه النبي وكتب مزاميره، وقد بني بشكل غريب بأحجار ضخمة، وهو مرتفع كثيراً، وشكله رباعي، وهو متين شكله لايرام، وكأنه حجر واحد من أسفله إلى أعلاه.

ويحتوي على وفرة من الماء، وخمسة أبواب حديدية، وتقود مائتا درجة إلى قمته ويجري تخزين كميات هائلة من القمح في هذا البرج، ومن

الصعب جداً الاستيلاء عليه، ويشكل الدفاع الأساسي للمدينة، وهو محروس بعناية كبيرة، ولايسمح لانسان بدخوله إلاّتحت الاشراف، وبنعمة من الرب، سمح لي أنا غير الجدير كليا، بالدخول إلى هذا البرج المقدس مع اسد سلاف، فهو كان الوحيد الذي سمح له بالدخول معي.

١٥ — *بيت أوريا:*

وكان على مقربة من هذا البرج بيت أوريا، الذي سبب داود قتله حتى يستحوذ على زوجته، التي رآها وهي تستحم، وعلى رمية حجر من هذا البرج يوجد الآن« بيت حجاج» القديس سابا، وموضع الحمام من الممكن رؤيته حتى اليوم الحاضر.

ويبعد المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب المقدس عشرين سغنس إلى الشرق، وذلك على مقربة من مكان الصلب، وقد بني فوق الموقع كنيسة واسعة جداً، ولها سقف خشبي، وعلى كل حال لايوجد الآن شيء سوى كنيسة صغيرة، ويوجد باتجاه الشرق باب كبير، وهو الباب الذي أتت إليه مريم المصرية راغبة بالدخول إلى الكنيسة وتقبيل (الصليب)، لكنها منعت من الدخول بوساطة روح القدس، وبعدما استغاثت بالعذراء المقدسة، التي كانت صورتها في الرواق قرب الباب، كانت قادرة على دخول الكنيسة، وتقبيل الصليب المقدس، وخرجت من هذا الباب في طريقها إلى صحراء الأردن، وعلى مقربة من هذا الباب يمكن رؤية المكان الذي تعرفت فيه القديسة هيلانة إلى الصليب الحقيقي الذي رد إلى الحياة العذراء الميتة، وعلى مسافة قصيرة من هناك، بإتجاه الشرق، يوجد البراتوريوم Praetorium (عند النهاية الشمالية للحرم الشريف حيث كانت ثكنة عثمانية) إلى حيث جلب الجنود يسوع إلى بيلاطيس، فقام بيلاطيس هذا وغسل يديه وقال: « إني بريء من دم هذا البار». (متى: ٢٧/ ٢٤)، وجعل يسوع يتعرض للجلد ثم سلمه إلى اليهود، وهناك أيضاً السجن اليهودي، الذي أطلق

منه الملاك سراح بطرس الرسول المقدس في الليل، وكان حوش يهوذا الذي خان يسوع في هذه البقعة، وهي الآن مشعثة وملعونة، حيث ما من انسان يجرؤ على سكناها خوفاً من اللعنة، وعلى مسافة قريبة نحو الشرق نأتي إلى البقعة التي شفى فيها يسوع المرأة التي كانت تنزف دماً، وملاصق لهذا المكان الحفرة التي ألقى فيها النبي إرميا، وكان بيته هناك، وكذلك حوش الرسول بولص حينما كان يهودياً.

وعلى مسافةقصيرة من هناك باتجاه الشرق، وبعيداً بعض الشيء عن الطريق بيت يوشيم Joachim وحنة، وهناك تحت المذبح مغارة صغيرة منحوتة بالصخر، فهناك ولدت العذراء المقدسة، وهناك أيضاً القبرين ليوشيم المقدس وحنة.

١٦ — *بركة الغنم*

ليس بعيداً عن رواق سليمان، توجد بركة الغنم، فهناك شفى المسيح المقعد، ويقوم هذا المكان إلى الغرب من بيت القديس يوشيم وحنة، وهو على رمية حجر منه، وملاصق له، باتجاه الشرق يقوم باب المدينة الذي يقود إلى جيسماني. (هو الآن باب ستي مريم).

١٧ — *كنيسة قدس الأقداس*

تقع كنيسة قدس الأقداس (قبة الصخرة) على بعد رميتي سهم من كنيسة قيامة المسيح، وداخل قدس الأقداس رائع ومزين بشكل فني بالفسيفساء، وفي الحقيقة جمالها لايمكن وصفه، وشكلها دائري، وخارجها مغطى بألوان جميلة جداً، ولروعتها لايمكن للمرء أن يوفيها حقها بالوصف، والجدران وكذلك الأرض مغطاة بألواح مَن الرخام الثمين، ويوجد تحت الإطار الدائري اثني عشر عمود حجري ضخم، وثمانية أعمدة أصغر، وهناك أربعة أبواب مغطاة بألواح من النحاس المذهب، وداخل القبة مزين بأشكال جميلة ورائعة من الفسيفساء، وفي

الخارج مغطاة بنحاس مذهب، ويوجد تحت هذه القبة نفسها مغارة قدت من الصخر، فهناك قتل النبي زكريا، وكان من قبل يمكن رؤية قبره وعلامات الدم، لكن ليس الآن، ومايزال هناك تحت القبة صخرة خارج المغارة، وعلى هذه الصخرة رأى يعقوب في منامه سلماً يصل إلى السماء، وملائكة الرب يصعدون عليه وينزلون، وعندما أفاق يعقوب اصطرع مع الملاك وقال: « ما هذا المكان إلا بيت الله وهذا باب السماء» (التكوين: ٢٨/ ١٠— ٢٢)، وعلى هذه الصخرة نفسها رأى النبي داود ملاكاً واقفاً وبيده سيف مشهر يضرب به شعب اسرائيل، ودخل إلى المغارة وبكى وخاطب الرب بدعائه قائلاً: «يارب أنا الذي أخطأت.... وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟» (صموئيل : ٢/ ٢٤/ ١٧)، ومقياس الكنيسة ثلاثين سغنس بكل طريق، ولها أربع مداخل، ولقد جرى تدمير كنيسة قدس الأقداس، ولم يبق شيء من البناء القديم العائد لسليمان ما عدا الأساسات الأصيلة العائدة للهيكل التي بدأ داود بإرسائها، والمغارة مع الصخرة القائمة تحت القبة هما الأثران الوحيدان الباقيان من البناء القديم، لأن الكنيسة الحالية بنيت من قبل رئيس المسلمين الذي اسمه عمر.

١٨— بيت سليمان

وكان هناك أيضاً بيت سليمان، وكانت له واجهة كبيرة ذات جمال مدهش وعظمة، مغطاة بألواح رخامية، وهو قائم على أقواس، وكان مزوداً بصهاريج واسعة، وكانت المخادع مزينة بشكل فني بوساطة الفسيفساء، وبصفوف رائعة الجمال من الأعمدة الرخامية، وقامت القاعات فوق هذه الأعمدة بشكل بارع وأصيل، والبيت كله مغطى بالرصاص.

وباب هذا القصر مغطى بشكل جميل وفني بالرصاص، ومزين بالفسيفساء والنحاس المذهب، ويدعى «الباب الجميل»، وهنا شفى

بطرس ويوحنا المعـاق، ومايزال هذا المكان قائماً حتـى الآن قرب الباب، وهناك ثلاثة أبـواب أخرى، ويدعى الباب الخامس بـاسم باب الحواريين (الباب الذهبي)، وقـد بني بقوة وببراعة من قبل النبـي داود وهو مغطى بألـواح نحاسية مـذهبة، ومن الخارج مغطى بشكـل متين بوساطـة ألواح من الحديد، وهناك أربعـة مداخل لهذا الباب، وهي مع بـرج داود وحدها المتبقية مـن البلدة القديمة، والبـاقي هو جـديد، ذلك أن مدينـة القدس القديمة قد هدمت أكثر من مرة.

ومن هـذا البـاب دخل المسيح إلى القدس عنـدما جاء من بيـت حنينا مع لازاروس الذي أقـامه من الموت، ويقوم بيت حنينـا في الشرق، مقابل جبـل الزيتـون، ومن هـذا الباب إلى كنيسـة قدس الأقـداس هناك مـائة وثمانية سغنس.

١٩ — قرية بيت حنينا

بيـت حنينا بلـدة ذات منطقـة صغيرة قـائمة في وادي خلـف الجبـل، وتبعد فرسخين عن القدس إلى الجنوب، ولـدى دخول الانسان من باب البلدة يـرى على اليمين مغارة، فيها قبر القـديس لازاروس، وهنـاك أيضاً زنزانة وقـع فيها مريضاً ومـات، وهناك أيضاً كنيسة كبيرة عـالية في وسط البلـدة كانـت مزينـة بالطـلاء بشكـل بهي، وقالـوا إنها تبعد اثنـي عشر سنغس عن كنيسـة قيامة لازاروس، القائمة إلى الغـرب من الكنيسة، بينما الكنيسة نفسهـا متجهة نحوالشرق، وخـارج البلدة، باتجاه الغـرب، هناك نبع ماء لطيـف، ينبع من مكان عميق تحت الأرض، ينزل إليـه بدرجات، وعلى مسافة فرسخ من بيت حنينـا، على جانب القدس، هناك برج، أقيم على البقعة التـي التقى فيهـا مرثـى بيسوع، وفي هـذا المكان أيضـاً ركب يسوع ظهر أتان بعدما أقام لازاروس.

٢٠— *قرية جيسماني*

جيسماني قـرية مـلاصقـة للقدس، وهـي تحتـوي على ضريح العـذراء المقدسة، وهي قائمة فـوق جدول قدرون في «وادي الدموع»، فبين نقطتي الصيف والشتاء تشرق الشمس في القدس.

٢١— *أبواب المدينة*

على بعـد ثمانية سنغـس مـن أبواب المدينـة المكـان الـذي حاول فيـه اليهـودي أوخونيـاس Okhonias أن يلقـي أرضا مـن على النعـــش جسم العـذراء المقدس الـذي كان محمـولاً من قبـل الحواريين ليدفـن في جيسماني، لكـن الملاك قطع يـديـه بسيفـه، ووضعهما على النعش، وكـان هناك ديراً في هذا المكان فيما مضى،لكن جرى تدميره من قبل الكفار.

٢٢ـ *مكان ضريح العذراء المقدسة*

وقـدروا وجـود مـائة سنغـس بين هـذا المكـان وبين ضريـح العـذراء المقـدسـة، وهذا الضريـح قـائم في واد، داخـل مغارة صغيرة قـدّت مـن الصخر، مع مدخل منخفض إلى حد يصعب فيه على انسان واقف المرور فيه، وفي نهاية المغارة، أمام المدخل، يمكـن للانسان أن يرى نضد صغير قدّ من الصخر، ففـوق هذا النضد وضع الجسد المقدس لسيـدتنا المقدسة جداً التـي هي أم الرب، وقـد قامـت وانتقلت من هنـاك دون أن يلحقها فساد إلى الفـردوس، وارتفاع هـذه المغارة بقـدر قامـة رجل، وهـي بعرض أربعة أذرع وبـالطول نفسه، ويحمـل واقع المغارة مـن الداخل منظـر بيعة صغيرة، لها واجهة مغطاة بألواح رخامية جميلـة، وكان مبني من قبل هناك كنيسة كبيرة بمنـاسبة صعود العـذراء المقدسة بعد مـا قامت فـوق قبرها، والمكان في الوقت الحالي مشعث مخرب من قبل الكفار.

٢٣— الكهف الذي جرت خيانة المسيح فيه

يبعد الكهف الذي سلم فيه المسيح إلى اليهود من قبل يهوذا مقابل ثلاثين قطعة من الفضة عشرة سغنس عن ضريح العذراء المقدسة،وهو قائم على الجانب الآخر من جدول قدرون، عند سفح جبل الزيتون، وليس بعيداً عن هذه البقعة، باتجاه الجنوب،، وعلى رمية حجر،يقوم المكان الذي أمضى فيه المسيح الليلة التي سلم بها لليهود ليصلب، وهناك صلى لأبيه وقال:« ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس» (متى: ٢٦/ ٣٩)، ويقوم الآن في هذا المكان كنيسة صغيرة. وعلى بعد مقدار رمية سهم يوجد قبر يهوشافاط، وكان ملكاً لليهود، ولهذا السبب يُدعى هذا الوادي باسم وادي يهوشافاط.

وفي الوادي نفسه أيضاً ضريح القديس جيمس أخو الرب.

ويقع جبل الزيتون إلى الشمال الشرقي من القدس، وهو جبل مرتفع جداً، عندما يتسلقه الانسان من جهة جيسماني، والمسافة أكثر من ثلاث رميات سهم، لكن من جيسماني إلى الأب نسطور رمية سهم واحد.

٢٤— المكان الذي بدأ فيه المسيح بتعليم حوارييه

جرى بناء كنيسة كبيرة في هذا المكان، ويوجد تحت المذبح كهف علم فيه المسيح حوارييه الصلاة للرب، ومن هنا إلى قمة جبل الزيتون، حيث حدث صعود الرب، مسافة تسعين سغنس.

٢٥— جبل الزيتون

المكان الذي حدث فيه صعود ربنا قائم فوق قمة جبل الزيتون، ويوجد على الجانب الشرقي رابية صخرية صغيرة، كان فوقها صخرة مستديرة، ارتفاعها أعلى قليلاً من ركبة الانسان، ومن فوق هذه الصخرة صعد ربنا المسيح إلى السموات، وهذا المكان المقدس مغلق بشكل

دائري، ومبلط بـألواح رخـامية، ومحاط بغـرف على شكل أقبيـة، وبني في وسـط داخل الفنـاء بيعـة دائرية صغيرة، وهـي مكشـوفة للسماء وبـدون بلاط، وتحت هـذه القبة المفتوحـة تقوم الصخرة التـي وقفت عليها قـدما ربنا ومعلمنا، وقد بنـي فوق هذه الصخرة مذبح من ألـواح الرخام، وإنه هنـا في هذا المكـان يترأسون الآن القـداسات، وتقـع هذه الصخـرة تحت المذبح المقـدس، وهي مغلفه بـالرخام، وبذلـك يمكن للانسـان أن يرى الجزء العلـوي منهـا وهـو الذي يقبلـه المسيحيـون، وللبيعـة بـابين، وعلى الانسـان أن يصعد اثنتين وعشريـن درجة حتـى يصـل إلى مكان صعـود الرب.

ويشرف جبل الزيتون على القدس، ومـن على ذروته يمكن للانسان أن يرى كـل شيء في المدينة: قـدس الأقداس، وجميـع المنطقة امتـداداً حتى بحر سـدوم، والأردن، لابل حتـى إلى ما وراء النهر، وذلـك بقدر مـا جبل الزيتون هو أعلى الجبال قرب القدس.

٢٦— *مدينة القدس*

القدس مدينة كبيرة، ومحاطة بأسوار متينـة، وقد بنيت على شكل مربع، أطرافـه الأربعة متساويـة الطول، وهي محاطـة بعدد مـن الوديان الـوعرة، والجبـال الصخـرية، وهـي مكـان بـلا مـاء تماماً، ولايجد الانسـان قـرب القدس، لانهر، ولا آبار، ولاينابيع، اللهم باستثنـاء بركة سلوان، وبناء عليه لايتملك سكـان البلدة مـع قطعانهم سوى مـاء المطر لـلاستخدام، وعلى الرغـم من ذلـك ينمو القمـح بخصب في تلـك المنطقة الصخـرية التـي تفتقر إلى المطـر، لكن بفضـل رضا الـرب ورحمته مـواسم القمـح والشعير ممتازة، ففـي بزر مكيـال واحد يحصـد الانسان تسعين ضعفـاً أو مائة. أو ليست مباركـة الرب ملقاة فوق هذه الأرض المقدسـة؟ وفي أحواز القدس هنـاك وفرة مـن الكروم، وأشجـار الفـاكهة، وشجـر التين، وشجر الجميـز، وشجر الزيتون، وشجر الخروب، وما لايحصى عدّه من الأشجار الأخرى.

ويوجد فوق جبل الزيتون، في الجانب الجنوبي، قرب مكان الصعود، كهف عميق يحتوي على قبر القديسة فيلاجيا Pelagia المحظية، وعاش هناك رجل عمودي ومستقيم جداً.

٢٧ــ الطريق الذي يقود إلى الأردن

يمر الطريق إلى الأردن فوق الجانب الشمالي الشرقي من جبل الزيتون، وهذا الطريق متعب جداً وخطير، ومعدوم الماء، وغالبا ما يطرأ قطاع الطرق على هذه الجبال الصخرية المرتفعة والشعاب المخيفة.

وقالوا هناك ستة وعشرين فرسخاً من القدس إلى الأردن، بما في ذلك خمسة عشر إلى كوزيبيا (دير القلط)، حيث صام القديس يوشيم بسبب عقمه، وهذا المكان هو إلى جانب مجرى مسيل قرب الطريق وعلى اليسار.

ومن كوزيبيا إلى أريحا خمسة فراسخ، ومن أريحا إلى الأردن ستة فراسخ كبيرة، وذلك عبر سهل رملي صعب، هلك عليه كثير من الحجاج بسبب الحرّ والعطش، وليس بعيداً عن هناك بحر سدوم الذي يصدر أبخرة محرقة ويحيط به جو منتن، مما يسبب دماراً لجميع المناطق المجاورة، وقبل الوصول إلى الأردن تأتي إلى دير القديس يوحنا المُبَشِّر، وهو قرب الطريق، وقائم فوق جبل.

٢٨ــ جبل حرمون

يقع جبل حرمون على مسافة تقارب العشرين سغنس من الدير، وهو على يسار الطريق، وهو هضبة رملية، صغيرة وليست كبيرة، والمسافة من حرمون إلى دير القديس يوحنا القديم هي رميتي سهم واسعتين، وكان هناك أربع كنائس واسعة مكرسة للقديس يوحنا المبشر.

٢٩ــ المكان الذي رآه فيه البحر وهرب وحيث ينعطف الأردن عائداً

هناك ليس بعيداً عن هذه الكنيسة، وفوق مرتفع على الجهة الشرقية،

بيعة صغيرة فيها مـذبح، ويبين هذا المكان الـذي تولى فيه يوحنـا المُبَشِّـر تعميـد ربنا يسـوع المسيح، ويصـل الأردن إلى هذه البقعـة، وعندمـا رأى خـالقه مقترب للتعميـد، ترك مجراه، واستـدار مرعـوبا عـائداً ،وكان بحـر سـدوم فيما مضـى يصـل حتـى مكان التعميـد، لكنـه الآن على مسـافـة تقارب الأربعـة فراسخ، وعلى هـذا رأى البحر الـرب عارياً في وسـط مياه الأردن، فهرب مرعوباً ، واستـدار نهر الأردن عائداً حسبما قال النبي: «لماذا هـربـت أيها البحـر؟ وأنـت أيها الأردن لماذا استـدرت عـائداً»؟ (المزامير: ٥/٦٤).

٣٠— المكان الذي عُمد فيه المسيح

يبعد المكـان الذي تعمد فيه المسيـح عن نهرالأردن مسافة رميـة حجر صغير من قبل الانسان.

٣١— مكان الاستحمام

هنا « مكـان الاستحمام» في نهر الاردن، وهنا يستحـم جميع المسيحيـون الذيـن يزورون البقعة، والمخـاضة التي تقـود إلى العربيـة قائمة هنـا فوق الأردن، ففـي هذا المكـان نفسه تقـدم لميـاه الأردن أن التفت عـائدة، فيما مضى مـن الزمن أمام الاسرائيليين، ويمـر جميع الناس فوق أرض جـافة، وهنـا أيضاً ضرب اليسـايـوس Elisaeus الماء بعباءة اليـــاس، وعبر الأردن على أرض جـافـة، وهنـا أخيراً عبرت مريـم المصريـه الماء لتتسلـم القربان المقدس من الأب زوسيموس Zosimus، وبعدما تسلمت جسد المسيح عادت عبر الطريق نفسه إلى الصحراء.

٣٢— الأردن

نهر الأردن نهر سريـع: الضفـة على الطـرف الأقصـى المقـابـل جـرفيـة منحدرة جداً، وعلى هذه الجهة منبسطـة، والماء متوحل كثيراً، لكنه مقبول الطعم، ولايستطيـع الانسان أن يشرب كثيراً مـن هذا الماء المقـدس، لأنه

لايضر، ولايعكر المعدة.

ويشبه نهر الأردن في كل مجال نهر سنوف، فله العرض نفسه والعمق،وله التعرجات نفسها والمجرى السريع، وعمقه أربعة سغنس في مكان الاستحمام فأنا جربت ذلك وقسته بنفسي، وعبرت إلى الضفة الأخرى من نهر الأردن وتجولت طويلاً هناك، وعرض نهر الأردن، هو عرض نهر سنوف نفسه عند مصبه، وعلى هذا الطرف من الأردن، قرب مكان الاستحمام هناك نوعاً من أنواع الغابة ذات الأشجار الصغيرة، مثل الصفصاف، وبعيداً على محاذاة الشاطيء هناك نوعاً من أنواع الشجيرات ليست مثل الموجود لدينا، لكن أكثر شبها بصفصاف الصحراء، وهناك أيضاً الكثير من القصب، والخلجان الصغيرة الكثيرة، كما الحال في نهر سنوف، والحيوانات البرية كثيرة، والخنازير الوحشية كثيرة جداً، وهناك كثير من النمورو الأسود، وعلى الطرف الآخر من الأردن، بعيداً عن الشاطيء، هناك جبال وعرة، وعند سفوح الجبال هناك جبال أخرى لونها شديد البياض، وتمتد هذه نزولاً حتى الأردن، وتدعى المنطقة الواقعة على الطرف الآخر من الأردن باسم زبلون ونفتالي.

٣٣— *كهف القديس يوحنا المعمدان*

ليس بعيداً عن النهر، وعلى رميتي سهم نحو الشرق، يوجد المكان الذي حمل منه النبي الياس إلى السماء في عربة من نار، وهنا أيضاً كهف القديس يوحنا المعمدان، ويجري هنا جدول جميل فوق حصاة ويصب بالأردن، والماء حلو جداً، وبارد كثيراً، وقد شرب منه يوحنا المُبَشِّر بالمسيح، عندما سكن في هذا الكهف المقدس.

٣٤— *كهف النبي الياس*

ويوجد هنا كهف رائع آخر، ومن الممكن رؤيته، وهو الكهف الذي سكنه النبي الياس مع حوارييه اليسايوس (إليجا)، ولقد رأيت — برحمة

من الـرب— هذه الأماكن كلهـا بعيني الخاطئين، وسمح لي الرب بـزيارة الأردن المقدس ثـلاث مرات، وكنـا هناك أيضاً يـوم عيد الغطـاس، ولقد رأينا تبريكـات الرب تنـزل على مياه الأردن، وكـان على طرف النهـر عدد لايحصى من النـاس، وغنوا بشكل جميل جداً جميعاً أثنـاء الليل، وأشعلت نماذج كثيرة من المشاعل، وتمت تبريكات الماء في منتصـف الليل، ونزلت آنذاك روح القـدس فوق ميـاه الأردن، وكان هـذا يمكن رؤيتـه من قبـل النخبة فقـط، ولم تر حشود الناس شيئـاً، مع أن كل مسيحي شعـر ببهجة عارمة وبـاشراق في قلبه، وعندما صرخوا: « تقبل الـرب التعميد بالأردن» قفز جميـع الناس إلى الماء، وتعمـدوا بماء الأردن في وسط الليـل، مثلهم في ذلك مثل المسيح.

وعلى الطرف الأقصـى من النهر هناك جبـل مرتفع كثيراً يمكـن رؤيته من مسافة من على كل جانـب، فعلى هذا الجبل مات موسى، على مشهد من أرض المعياد.

والمسافـة هي فـرسخ واحد مـن دير القـديس يوحنـا إلى دير القـديس جيراسيموس، والمسـافة نفسها من هـذا الدير الأخير إلى قلمونيـة، أي دير العذراء المقدسة، فهنـا أمضت العذراء المقدسة الليل مـع يسوع المسيح، ويـوسـف، وجيمس أيـام فـرارهـم إلى مصر، وآنـذاك لقبت هـذا المكـان بقلمونيـة، الذي يعني «المسكن الجيـد»، ومازال روح القدس ينـزل هناك حتى اليـوم الحالي على صورة للعـذراء المقدسة، وهـذا الديـر الصغير قائم عند مصـب نهر الأردن، حيث يصـب في بحر سـدوم، وهو محاط بـأسوار، ويسكنه عشرون راهبـاً، وعلى بعد فـرسخين من هناك يقـوم دير القـديس يوحنا خـريسوستوم Chysostom (عند قصر حجلة ، أوتـل الكرسي)، وهو محاط بسور ومشهور بغناه.

٣٥ ـ *بلدة أريحا*

والمسافة من هناك إلى أريحا هي فرسخ واحد فقط ، وكانت هذه فيما مضى مدينة واسعة وقوية جداً، استولى عليها يوشع بن نون وهدمها بشكل كامل ، وهي في الوقت الحالي مجرد قرية مسلمة ، وفيها بيت زكريا ، وجزع شجرة تسلق عليها ليرى فيها إذا كان المسيح ما يزال موجوداً ، وهناك أيضاً مسكن شونامايت SHunamite الذي أعيد ابنه الى الحياة من قبل اليسايوس ، والأرض حول أريحا خصبة جداً ومنتجة ، وسطح الأرض مستو وجميل ، وفي تلك الأحواز كميات من أشجار النخيل العالية وجميع أنواع أشجار الفواكه ، وتنتشر عدة ينابيع فوق المنطقة وهناك الكثير من الأقنية ، وهي مياه (عين السلطان) اليسايوس ، التي جعلها النبي عذبة المذاق .

وعلى مسافة فرسخ من أريحا بإتجاه الشمال الشرقي ، المكان الذي ظهر فيه ميكائيل رئيس الملاكة الى يوشع بن نون ، بحضور جيش بني اسرائيل ، فعندما رفع يوشع رأسه رأى أمامه رجلاً مسلحاً مرعباًفقال له :« هل لنا أنت أو لأعدائنا » ؟ فأجابه رئيس الملائكة قائلاً: « أنا ميكائيل ، قائد جيوش الرب ، وقد أرسلني الرب لعونك ، كن جريئاً، وأنت سوف تسحق أعدائك وزيادة على هذا قال له : « اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه هو مقدس (يشوع : ١٣/٥ــ ١٦) ثم سقط يشوع على وجهه فوق الأرض ، وتعبد الرب .

وقد أقيم فوق هذا المكان دير وكنيسة ، وقد كرسا على اسم القديس ميكائيل ، وفي هذه الكنيسة اثنتي عشرة صخرة نقلت من مجرى نهر الأردن ، عندما تراجعت مياه النهر أمام بني اسرائيل ، لتكون ذكرى لذراريهم ، وكان الكهنة الذين حملوا تابوت عهد الرب ، قد جمعوا من الصخور ما يساوي عدد أسباط بني اسرائيل ، ويعرف هذا المكان باسم

جلجال، وهنا عسكر الاسرائيليون بعد عبورهم للأردن .

٣٦ ـ *جبل جبعون*

إلى الغرب من هـذا المكان يوجد جبـل يدعى جعبون (جبـع) (جبل قرنطـل) الذي هو جبل مـرتفع وواسع جـداً ، ففوق هذا الجبل تـوقفت الشمس عـن الحركة لمدة نصـف يوم ، حتى يتمكـن يوشـع بن نـون من الانتصار على أعـدائه عندما قـاتل ضد عـوج ملك بـاشان وجميع ممـالك كنعان ، وعندما سحقهم يوشع تماماً غابت الشمس .

٣٧ ـ *الكهف الذي صام فيه المسيح أربعين يوماً*

وعلى جبل جبعون هـذا نفسه هناك كهف مرتفع كثيراً ، فيـه صام ربنا المسيـح لمدة أربعين يـوماً وعنـدمـا كـان جـائعاً فيها بعـد ، اقترب منـه الشيطان ، ورغب في أن يغـريه وقال له :« إذا كنت أنت ابـن الرب فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً » (متى : ٤/ ٣).

وعلى مسـافة قـريبة ، أي على نصـف فرسـخ من جبعـون هناك بيـت النبي الياس ، وكذلك كهفه وبئره .

ويقع دير القديس ثيوديوس (ديـر دوسي أو العبيدية أي خربة دير ابن عبيد) على بعـد ستة فراسـخ من القـدس ، وهو قائم على جبـل ، وكان محاطاً بسور، ومـن الممكن رؤيته من القـدس ، ويوجد في داخل الـدير كهف واسع، أمضى فيه الحكماء المجوس الليـل عندما هربوا من هيرود ، وترقـد الآن فيه هناك بقـايا القديس ثيـوديوس مع بقـايا عدد مـن الآباء المقدسين وذلـك بالاضافقة الى بقـايا أم القديس سـابا وكذلك بقـايا أم القديس ثيوديوس .

٣٨ـ *دير القديس سابا*

ويقـولون هنـاك ستة فـراسـخ من هـذا الديـر الى دير القديـس سابـا

ويواجه كلا الديرين الجنوب ، ويقوم دير القديس سابا في وادي يهوشافاط أو «وادي الدموع» ، الذي يبدأ من عند القدس، ويعبر جيسماني ، ويدخل في الدير ، وينتهي في بحر سدوم ، وبنعمة من الرب وضع دير القديس سابا رائع يعجز المرء عن وصفه ، وقعر الوادي صخري جاف ، يرعب الناظر اليه وهو عميق جداً ، وهو مغلق بجدران عالية من الصخور ، عليها تم اثبات حجر الخلوات وحفظت بيد الرب بشكل مدهش ومرعب، وهذه الخلوات مربوطة بالجروف التي تحلق فوق قعره الصخري المرعب ، وهي مثبتة على الصخور مثل النجوم في قبة السماء .

وهناك ثلاث كنائس وسط الخلوات ، وهناك في الجانب الغربي تحت صخرة مغارة مدهشة تحتوي على كنيسة مكرسة للعذراء المقدسة ، وكشفت هذه المغارة الى القديس سابا بوساطة عمود من نار ، فقد كان آنذاك يسكن وحيداً منقطعاً في قعر الوادي ، وتبعد الخلوة التي سكن القديس بها بالأصل نصف فرسخ عن الدير الحالي ، ومن هناك أراه الرب بوساطة عمود من نار ، المكان المقدس ، الذي يقوم فيه الآن دير القديس سابا ، ويقع قبر القديس سابا بين الكنائس الثلاث ، على بعد أربعة سغنس من الكنيسة الرئيسة ، وهو مغطى الآن بمزار جيد البناء ، وترقد هناك بقايا عدد كبير آخر من الآباء المقدسين منهم :الأسقف القديس يوحنا الصامت ، والقديس يوحنا الدمشقي ، والقديس ثيودروس الرهاوي ، وحفيده ميخائيل ،والقديس أفروديوس،وعدد كبير آخر من القديسين،وبقاياهم محفوظة بشكل تام،ويصدر عنها روائح طيبة بلا حدود ، ورأيت أيضاً بئر القديس سابا ، الذي دلته عليه أتان حمار الوحش في إحدى الليالي ، في قعر ذلك الوادي ، أمام خلوته ، ولقد شربت من ماء هذا البئر الذي هو بارد جداً ومقبول ، ولا يوجد في تلك الأطراف لا نهر ولا مجرى ماء ولا بئر غير بئر القديس سابا ، ويقع المكان

في وسط جبال صخرية وعرة وجرداء ، والمنطقة من حوله كلها جافة بسبب الحاجة الى الماء ، ولا يمتلك النساك الذين يعيشون هناك سوى مياه الأمطار.

وعلى مسافة قصيرة من الدير وباتجاه الجنوب ، هناك مكان يدعى روبا RUVA،وذلك ليس بعيداً عن بحر سدوم،وهو مغلق بوساطة جبال عالية،تحتوي على الكثير من الكهوف،رقد فيها بعدما سكن عدد من الآباء المقدسين،في هذه الصحراء المرعبة،ويعيش هناك أيضاً الكثير من النمور وحمار الوحش. وبحر سدوم بحر ميت،لايحتوي على أي كائن حي سواء من الأسماك أو القواقع أو الأسماك الصدفية،واذا ماحمل المجرى السريع للأردن أية أسماك إليه،لايمكنها العيش هناك ولو لساعة واحدة،بل تهلك على الفور، وينبع اسفلت أحمر اللون من قعر البحر، ويتجمع على شكل كتل كبيرة على الشاطىء، وهذا البحر يصدر روائح كريهة مثل الذي يصدر عن الكبريت المحترق، فجهنم الحمراء تقع تحت هذا البحر.

٣٩-*دير القديس يوثيموس*

ويقف على بعد ثلاثة فراسخ الى الشرق من دير القديس سابا،وخلف الجبل،دير القديس يوثيموس Euthymius (خربة مردو أو خان السحل، أو خان أخضر) وماتزال أثاره ترقد هناك مع آثار عدد كبير من الآباء المقدسين الآخرين،وهذا الدير قائم في وادي،ومحاط على مسافة منه بجبال صخرية وعرة،وكان بالعادة محاطاً بسور،ويمتلك كنيسة جميلة وعالية،وكان دير القديس ثيوكتستوس theoctistus (خربة الزرنق) ملاصق له تماماً،عند سفح الجبل ،الى الجنوب،من دير يوثيموس، وهذه الأماكن كلها مخربة بوساطة الكفار.

٤٠-جبل صهيون

صهيون جبل واسع ومرتفع،وهو يواجه الجنوب، ومنحدرراته من جانب القدس لطيفة جداً،وعليها بني قديماً مدينة القدس القديمة،التي دمرت من قبل نبو خذ نصر،ملك بابل،في أيام النبي إرميا،وجبل صهيون في هذه الأيام قائم خارج أسوار المدينة، الى الجنوب من القدس،وكان على جبل صهيون هذابيت القديس يوحنا الانجيلي،وقد بني هناك كنيسة كبيرة ذات سقف خشبي، والمسافة بين سور المدينة،والكنيسة المقدسة لجبل صهيون تقارب رمية حجر لطيفة،وخلف مذبح هذه الكنيسة توجد الحجرة التي غسل فيها المسيح أقدام حوارييه.

٤١-بيت يوحنا الانجيلي الذي جرى فيه تناول العشاء المقدس

ونمشي من هذه الغرفة باتجاه الجنوب،ونصعد الى حجرة أخرى بوساطة درج،سقفها مدعوم بوساطة أعمدة، وهي مزينة بالفسيفساء،كما أن هذه الحجرة مبلطة،ومثلها مثل كنيسة فيها مذبح قائم في النهاية الشرقية ،ولقد حدث في بيت يوحنا الانجيلي أنه تمّ العشاء المقدس للمسيح مع حوارييه،وهنا كان أن قال يوحنا وهو متكىء على صدر المسيح:«مولاي،من هو الذي سوف يخونك»؟(يوحنا:١٣/ ٢٥)،وفي هذا المكان نفسه نزلت الروح القدس على الحواريين يوم عيد الحصاد،ويوجد في هذه الكنيسة نفسها،في الطابق الأرضي،حجرة منخفضة أخرى،ظهر فيها المسيح في وسط حوارييه،مع أن الباب كان مغلقاً ،وقال:«سلام لكم»(يوحنا :٢٠/ ١٩)،وهنا أيضاً ارتبك توما في اليوم الثامن،وأرونا هناك صخرة مقدسة جلبوها من جبل سيناء بوساطةملاك،وعلى الجانب الآخر من الكنيسة،نحو الغرب،هناك حجرة أخرى أيضاً موجودة في الطابق الأرضي،فيها أسلمت العذراء المقدسة الروح،ووقعت هذه الحوادث كلها في بيت القديس يوحنا الانجيلي.

وكان هناك بيت كيفاس،حيث أنكر بطرس المسيح ثلاث مرات،قبل أن يصيح الديك، ويقوم هذا المكان الى الشرق من صهيون.

٤٢-المكان الذي أنكر فيه بطرس المسيح ثلاث مرات،فبكى بحرقة

وليس بعيداً من هناك،على السفوح الشرقية للجبل،هناك مغارة عميقة ينزل إليها الانسان باثنتين وثلاثين درجة،فهناك بكى بطرس بحرقة(بعد) انكاره،وبنيت كنيسة فوق هذه المغارة وأطلق عليها اسم الرسول بطرس المقدس.

٤٣-بركة سلوان

وأبعد قليلاً الى الجنوب ،عند سفح الجبل،توجد بركة سلوان،حيث رد المسيح البصر الى رجل أعمى.

٤٤-حقل الفاخوري

عند سفح جبل صهيون نفسه هناك حقل الفاخوري،(الخزاف)الذي اشتروه، والمسيح ثمنه،ليكون مدفناً للغرباء،وهو في الجانب الآخر من الوادي ،أسفل جبل صهيون،والى الجنوب من ذلك الجبل، وهناك كثير من الكهوف محفورة على جوانبه،وفي هذه الكهوف قبور جاهزة تماماً،وهي منحوتة بشكل جميل في الصخور.

وهم يدفنون هناك الرحالة الغرباء بلا مقابل،ولا يسمحون بأخذ أي شيء من هذا المكان المقدس،لأنه شري بدم المسيح

٤٥-بيت لحم

تقع مدينة بيت لحم المقدسة على بعد ستة فراسخ الى الجنوب من القدس المقدسة، وهي على بعد فرسخين عبر السهل الى المكان الذي ترجل فيه ابراهيم من على ظهر مطيته،وترك هناك خدمه الصغار مع الأتان،وأخذ ابراهيم ابنه ليضحي به،وطلب منه أن يحمل معه الخشب

والنـار،ثـم قـال لـه اسحـق:«هـو ذا النـار والحطـب ولكـن أيـن الخروف للمحرقة»؟وأجابه ابراهيم:«اللـه يرى له الخروف للمحرقة».(التكوين:٢٢ / ٧-٨)،وسار اسحـق وهو مبتهج على الطريـق المؤدي الى القدس،وحمل الى المكـان نفسه الـذي صلب فيـه المسيـح فيها بعد ، وعلى بعـد فرسـخ واحد فقـط من هنـاك توجـد البقعة التـي رأت فيها العـذراء المقدسـة رجلين ، بكى أحدهما والآخـر ضحك ، وبني فوق المكـان كنيسة ودير ، وكرسـا للعذراء المقدسـة ، لكنهما الآن مهدمـان من قبل الكفـار ، ومن هناك الى ضريح راحيل أم يوسف مسافة فرسخين .

٤٦ ـ *الكهف الذي ولدت فيه العذراء المقدسة المسيح*

وعلى بعد فـرسخين من هناك يوجـد المكان الذي شعرت فيـه العذراء مريـم بآلام المخاض ، فترجلت مـن على ظهر أتانها ، وهنـاك صخرة كبيرة ، استراحت عليهـا بعدمـا ترجلـت ، ثم تـابعت رحلتهـا سيراً على الأقدام حتـى الكهف المقـدس ، وفي ذلك الكهـف ولدت المسيـح ، والمسافـة من تلك الصخرة الى مكان ميلاد المسيح ، تساوي رمية سهم جيدة .

٤٧ ـ *كنيسة ميلاد المسيح*

هـي كنيسـة كبيرة على شكل صليـب لها سقـف خشبـي قائمـة فـوق مغارة المهد ، والسقف مغطى تماماً بالـرصاص ، وداخله مزين بصور من الفسيفسـاء ، وفيها خمسـون عموداً رخـامياً ضخماً ، ومبلطة بـألواح مـن الرخـام الأبيض ، ولها ثـلاثة أبـواب ، وطولها حتـى المذبح الكبير خمسين سغنس وعـرضها عشرين سغنـس ، وتحت المذبح الكبير هنـاك المغارة والمزود حيث حدثـت ولادة المسيح ، وهذه المغارة عبارة عـن كهف جميل وواسع ، وتنزل درجـاً بسبع درجات حيث باب المغارة المقـدسة ، الذي لـه مدخلين ، وتهبـط من كـل مـدخل سبـع درجات ، وإذا دخلـت الى المغارة المقدسـة بوساطة الباب الشرقي ، يمكنـك أن ترى على الطرف

الأيسر، فوق الأرض ، المكان الـذي ولد عليه ربنا المسيح ، ويوجـد فوقه مذبح يقيمون من عليه القداس .

٤٨ ـ *مزود المسيح*

يقوم مكان الميـلاد على الجانب الأيسر ، ومقابل ذلـك الى اليمين قليلاً مهـد المسيح تحت صخـرة قائمـة على الجانـب الغربي ، ففـي هذا المهـد المقدس وضـع ربنا المسيـح ، ولف بأقمشـة رخيصة بـالية ، وهـو الذي عانـى لخلاصنا ، وهذين المكـانين ـ مكان الولادة والمهـد متلاصقين إلى جانـب بعضهما بعضاً، ويفصل بينهما ثـلاث سغنس ، وهما مـوجودان في المغارة نفسها المغطـاة بالفسيفساء والمبلطة بشكـل جيد ، وتحت الكنيسة عدد من الكهوف يـرقد فيها بقايا الكثير من القـديسين ، وعند مخرجك من الكنيسـة ، هناك على اليمين كهف عميـق قائم تحت الكنيسـة ، فيه دفنـت بقـايـا الأبـريـاء المقدسين ومـن هنـاك نقلـت هـذه البقـايـا إلى القسطنطينية ، ويحيـط بالكنيسـة سور مـرتفع ، وقـام مكان الميـلاد فوق جبـل غير مسكون ومهجـور ، وهو الآن محاط بـالأسوار ، ويشير إلى مكـان ميلاد المسيـح ، الذي يـدعونه بيـت لحم ، وكانـت بيت لحم القـديمة مكانـاً صغيراً أمام المكـان الفعلي لميلاد المسيح ، وهنـاك في أيامنـا عمود صومعـة والصخرة التـي ارتاحـت عليها العـذراء المقدسـة ، فهنا كـانت بيت لحم القديمة .

وتدعـى المنطقة المحيطـة باسـم أفرانـه وأرض يهودا ، التي قـال عنها النبـي :« أما أنـت يـا بيـت لحم ، أرض يهودا ، لست الأدنـى بين المدن الرئيسية ليهـودا ، لأنه منك سوف يخرج القائد الذي يقـود شعبي شعب اسرائيل » (ميخـا : ٥/ ٢) ، وأحواز بيت لحم هـي جبال وهي جميلـة جداً ، فالسفوح المنخفضـة للجبال مغطاة بأشجار الفواكـه ، والزيتون والتين ، وأشجـار خروب تفـوق الحصر ، والكـروم كثيرة قـرب بيت لحم ، وهنـاك العديد من الحقول الخصبة في الوادي .

وليس بعيدا عن كنيسة المهد ، وخارج الأسوار، وعلى مسافة رمية سهم نحو الجنوب هناك مغارة كبيرة ، محفورة في الجبل ، وفيها سكنت العذراء المقدسة مع المسيح ويوسف .

٤٩ - *بيت يسي والد داود*

وعلى رمية سهم الى الشرق من بيت لحم هناك مكان اسمه بيت إيل ، وهو بيت يسي والد داود ، فهناك كان ، وحدث في هذا البيت أن قام النبي صموئيل بمسح داود ملكاً لبني اسرائيل ، مكان شاؤول .

٥٠ - *بئر داود*

وهناك أيضاً بئر داود الذي رغب مرة في الشرب من مائة ، وهو قرب المكان الذي أعلن فيه الملائكة للرعاة عن ميلاد المسيح ، فعلى بعد فرسخ الى الشرق من مكان الميلاد هناك في السهل البقعة القائمة عند سفح الجبل ، ففيها أعلن الملائكة المقدسين عن ميلاد المسيح للرعاة ، وكان يوجد هناك كهف بني عليه وأحيط بكنيسة جميلة ، أطلق عليها اسم القديس يوسف ، وكان إلى جانبها دير جميل ، وجرى تدمير هذه الأماكن من قبل الكفار، ويقوم هذا المكان وسط سهل جميل حيث الحقول خصبة جداً ، وحيث الزيتون كثير جداً ، ويدعون هذا السهل باسم أغيا بيمينا (حقل الرعاة) أي « المرعى المقدس» ويمتلك دير القديس سابا أرضاً هناك ، قائمة على سفح الجبل الى جانب بيت لحم .

٥١ - *الكهف وبلوطات ممرا*

وتقوم الخليل ، والكهف المزدوج وبلوطات ممرا الى الجنوب من بيت لحم ، والمسافة من القدس الى الخليل هي ثمانية وعشرين فرسخاً ، ويمر الطريق ببيت لحم الذي يقولون إن المسافة إليها ستة فراسخ ، وهناك ثلاثة فراسخ من هذه المدينة الى نهر إيثام Etham(وادي أرطاس) ففي هذا النهر قال النبي داود في المزمور :« أنت جففت أنهار

ايثام : لك النهار ، والليل لك أيضاً » (المزامير : ٧٤/ ١٥ ـ ١٦) .

ومجرى هـذا النهر جـاف جـداً هـذه الأيام ، لكنـه يجري تحت الأرض ويعاود الظهور قـرب بحر سدوم ، الذي يصب فيـه ، وهناك على الطرف الآخـر من النهـر جبل وعـر مرتفـع ، وهو مغطـى بغابـة واسعة وكثيفـة ، والطريق عبر هذا الجبل الموحش خطـرة ، وينقض المسلمون ، مستفيدين من هذا الممر ، على الذين يغامـرون في مواجهة المخاطر بأعداد صغيرة ، وبالنسبـة لي هيأ الـرب لي جماعة كبيرة وجيدة ، وبـذلك كنـت قادراً على عبور هذا المكان المخيف بدون معيقات ، وليس بعيداً عن ها هنا بلدة عسقـلان ، التـي يقـدم منهـا المسلمـون بـأعـداد كبيرة ، ويهاجمون المسافرين في هـذا الممر وعلى هذا الجبل ، وفي هذه الغابـة الكثيفة قتل أبسلوم بن داود ، فقد كـان هارباً من وجه جيوش أبيـه ، وحمله بغله الى أكثف مكـان في الغابة ، وأمسكـه أحد الأغصـان من شعره فبقـي معلقاً الى الشجرة ، وتلقى ثـلاث رميات في قلبه ، وعلى هذه الصـورة مات على الشجرة وقالوا بـوجود عشرة فراسخ من هناك الى بئر حلفـاء ابراهيم وستة فراسخ من هذا البئر الى بلوطات ممرا .

٥٢ ـ *الموضوع نفسه*

وتقـوم هذه البلـوطات على جبـل مرتفـع الى جانـب الطريـق ، على الجهـة اليمنـى ، ومنظرهـن منظـر رائع ، وبلـط الـرب حول جـذورهـن الأرض برخـام أبيض مثل أرضية كنيسـة ، وإنه لأمر رائع أن تـرى هذه البلوطات المقدسات منتصبات قائمات من وسط هذه الصخور ، وقمة الجبـل هذا حـول الشجرات عبـارة عـن أرض مفتوحـة بدون صخـور ، والى جـانـب هذه البلـوطـات ، بـإتجاه الشرق ، نصبـت خيمة ابـراهيـم ، والبلـوطـات ليست عـاليـة جـداًلكن كثيرات العقـد ولهن أغصـان كثيرة محملة بـالثمار ، والأغصان ليست عاليـة الى حد أن الانسان الـواقف على الأرض يستطيـع أن يـلامسهـن، ومحيطهـن حسبما قستـه بنفسي هـو

سنغنسان ، وارتفاع الجزع حتى الغصن الأول سغنس ، ولا يستطيع الانسان إلا أن يعجب نحو هذه الأشجار الرائعة التي توجت هذا الجبل المرتفع لمثل هذا العدد الكبير من القرون ، وهي لم تقع ولم تهترىء ، بل ما تزال صامدة محفوظة من قبل الرب ، وكأنهن قد زرعن الآن ، وهناك بارك الثالوث المقدس ابراهيم وزوجته ساره ، عندما كانا متقدمين بالسن ، ورزقهما بولدهما اسحق ، وأرى الثالوث المقدس أيضاً ابراهيم النبع الذي يشكل في هذه الأيام بئراً عند سفح الجبل ملاصقاً للطريق، وتدعى جميع المنطقة المحيطة بالبلوطات باسم ممرا ، ويقولون هناك فرسخان من هناك الى الخليل .

٥٣ - *جبل الخليل*

الخليل هي جبل مرتفع ، يوجد عليه بلدة واسعة جداً ، وأبنيتها قديمة جداً ، وسكن الجبل فيما مضى أعداد كبيرة من السكان ، لكنه الآن مشعث ، وكان أول من سكن جبل الخليل هو كنعان بن حام حفيد نوح الذي جاء بعد الطوفان وبناء برج بابل ، واستوطن جميع المنطقة من حول الخليل، ولهذا السبب دعيت أرض كنعان ، وهذه هي الأرض التي وعد الرب بها ابراهيم عندما كان في بلاد الرافدين في حران حيث كان بيت أبيه . وقال الرب لابراهيم :« اذهب من بلادك وبيت أبيك ، واسكن في أرض كنعان ، وأنا سوف أعطي تلك الأرض إليك وأجعلك مخصباً دوماً وسأكون معك»(التكوين: ١٢/ ١) ، وفي الوقت الحالي هذه الأرض والحق يقال هي أرض ميعاد الرب والعطاء له مع جميع الأشياء الجيدة : فالقمح ، والكروم ، والزيتون وجميع أنواع الخضروات تنمو فيها بوفرة ، والقطعان كثيرة ، فالأغنام وبقية الحيوانات تلد مرتين في السنة ، وهناك أعداد واسعة من الغزلان تعيش بين صخور هذه الجبال الجميلة ، وسفوح هذه الجبال مغطاة بالكروم وبأعداد لا تحصى من أشجار الفواكه من زيتون ، وتين وخروب ، وتفاح وتوت

وأشجار أخرى ، وجيـع أنواع الخضار ، التي هي هنا مـن أفضل وأكبر مما هو موجود في بقيـة الأرض ، فما من مكان تحت السماء يعادلها ، والماء في هذه البلاد رائع ويتـوافق مع مذاق كـل انسان ، وجميع المناطـق المحيطة بـالخليل متميـزة بجمالها وبخصبها الـذي لا يمكـن وصفه ، وعلى جبـل الخليل كـان هناك أيضـاً بيت داود ، الذي عـاش فيه ثمانيـة أعوام ، وعندمـا طرد مـن قبل ابنـه ابسلوم ، ويقـع كهف الخليـل المزودج على نصف فرسخ فقـط من الخليل ، وهومحفور بالصخـر ويحتوي على قبور : ابراهيم واسحق ويعقوب ، واشترى ابـراهيم هذا الكهف المزدوج من عفرون الحثـي ، ليكون مدفنـاً لجميع أولاده وكان ذلـك عندما جـاء من بـلاد الرافـديـن الى أرض كنعان ، وكـان هـذا الكهف المزدوج ، الـذي اشتراه ليكـون مدفنـاً لـه ولأسرتـه أول شيء استحوذ عليـه ، ويحيـط بالكهف حصن قوي وصغير ، وقد بنـي بشكل رائع من حجارة منحوتة شكلت أسـواراً عاليـة ، والكهف هو داخـل الحصن ، وجميـع الاطار المحيـط به مبلـط بـألـواح رخاميـة بيضـاء ، وتحت هـذا البلاط يـوجـد الكهـف المنحوت حيـث يرقـد : ابراهيـم واسحق ويعقـوب ، وأولاده ، وزوجـاتهم : سـارة وربيكـا (رفقـة) ، وليـس راحيـل ، لأنها دفنـت الى جانـب طريـق بيت لحم ، وهذه الأضرحـة مفصولـة عن بعضهـا بعضاً داخل الكهف ، وكـل واحد منها محاط ببيعة مستـديرة صغيرة وضريح ابراهيم وكـذلك ضريح زوجته سارة الى جانبـي بعضهما ، وكذلك الحال بالنسبة لقبري اسحق وزوجته ربيكا ، ويعقوب وزوجته ليا .

٥٤ ـ قبر يوسف

قبر يوسـف « الأثير» موجـود خارج المبنـى ، وهو على رميـة حجر مـن الكهـف المزدوج ، ويحمل هـذا المكان في هـذه الأيام اسـم « القديـس ابراهيـم » وعلى مقربـة من هذه البقعـة ، وعلى بعد فـرسخ مـن الكهف المزدوج باتجاه الشرق ، هناك جبل مرتفع صعـده الثالوث المقدس مع

ابراهيم الذي رافقهم من بلوطات ممرا ، وعلى قمة هذا الجبل هناك مكان جميل سجد فيه ابراهيم الى الأرض ، وتعبد الثالوث المقدس ، وقدم إليهم الدعاء التالي :

٥٥ - *دعاء ابراهيم*

« فتقدم ابراهيم وقال : : أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسين باراً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشى لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشى لك أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً. فقال الرب : إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم ، فأجاب ابراهيم وقال : إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة . فقال لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاد يكلمه أيضاً وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون . فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك ثلاثون . فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين . فقال : إني شرعت أكلم المولى . عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال : لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط ، عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال : لا أهلك من أجل العشرة » (بالأصل : خمسة).

وصمت إبراهيم ولم يتجرأ أن يجيب، وأرسل الثالوث المقدس من هذا الجبل اثنين من الملائكة إلى سدوم لتمكين لوط ابن أخي إبراهيم من الفرار من المدينة، وهناك قدم إبراهيم أضحية إلى الرب، ورمى قمحاً في النار، وبناء عليه يدعى هذا المكان «أضحية إبراهيم»، وهو قائم على ارتفاع معتبر، ومنه يمكن رؤية جميع بلاد كنعان.

والمسافة من «أضحية إبراهيم» إلى وادي «جـرزنووا» Greznowa فرسخ واحد، وكذلك من وادي جرزنووا إلى عتبات الأناضول. (أندرو؟)

٥٦— *ضريح لوط في سيجور*

ومن هناك إلى سيجور فرسخين، وهناك يمكن رؤية ضريح ابنتيه، وهما مدفونتان في ضريحين منفردين، ويوجد في هذا الجبل كهف واسع اتخذه لوط مع ابنتيه ملجئاً، وهناك أيضاً بقايا مدينة تعود إلى السكان الأول لهذه البلاد، وهي قائمة على أعالي هذا الجبل، ويدعى المكان سيجور، وعلى فرسخ من سيجور، باتجاه الجنوب، هناك عمود حجري، هو زوجة لوط، وهناك مسافة فرسخين من هناك إلى سدوم، ولقد رأيت هذا كله بعيني، لكن لم يكن بإمكاني الذهاب إلى مكان سدوم خوفاً من الكفار، ومنعني المؤمنون من الذهاب إلى هناك قائلين: «ليس هناك شيئاً مفيداً لتراه هناك، وستنال فقط الازعاج والتعب، لأن روائح النتن منتشرة هناك وسوف تجعلك مريضاً، ونتيجة لذلك عدنا إلى «القديس إبراهيم» وبحماية الرب ورحمته وصلنا إلى مزار الكهف المزدوج بصحة جيدة، وبجلنا هذه الأماكن المقدسة واسترحنا هناك لمدة يومين، وحمداً للرب وجدنا جماعة كبيرة متوجهة إلى القدس، فالتحقنا بها، وقمنا بالرحلة معاً مسرورين وبدون خوف، وهكذا وصلنا سالمين إلى مدينة القدس المقدسة. وحمدنا الرب الذي سمح لنا نحن الذين لانستحق بزيارة هذه الأماكن، التي من غير الممكن وصف قداستها بأية طريقة من الطرق لا بالكلام ولا بالكتابة.

وإلى الجنوب من بيت لحم، يقوم دير القديس شارتون (خربة الخرتون) على نهر ايسام المتقدم ذكره، وهو ليس ببعيد من بحيرة سدوم، في وسط جبال وعرة، وفي مكان مهجور، وهذا المكان مخيف، وأجرد، وهو محروم من الماء تماماً، يقوم أمامه جرف صخري وعر، وكان الدير محاط بالأسوار، وفي داخل المزار هناك كنيستين، تحتوي الكبيرة منهن قبر

القديس شيراتون، ويوجد خارج الأسوار كهف مقبرة واسع يحتوي على بقايا آباء مقدسين، رقدوا هناك، وقد يصل عددهم إلى أكثر من سبعمائة، وبين بقايا عدد كبير هناك بقايا القديس سرياقوس المعترف، الذي مايزال جسده محفوظ بحالة سليمة مع قبري يوحنا وأركاديوس ابني اكزنفون، وعنهما تصدر روائح طيبة، وقدمنا احترامنا إلى هذا المكان المقدس وتسلقنا الجبل فرسخاً إلى الجنوب من الدير.

وهناك مكان ناعم في الحقل، حمل منه الملاك النبي حبقوق المقدس، عندما كان يحمل طعاماً وشراباً إلى الحواصيد، وجلبه إلى بابل، إلى عرين (الأسد) العائد للنبي دانيال، وبعدما أشبع دانيال وأزال جوعه وأطفأ عطشه، حمله عائداً في اليوم نفسه والساعة نفسها إلى الحواصيد حيث أعطاهم غداءهم، وبني على البقعة نوع من أنواع المزارات إحياء لذكرى هذه المعجزة، ذلك أن بابل تبعد عنها مسافة أربعين يوماً، وهناك أيضاً قرب هذا المكان كنيسة كبيرة لها سقف خشبي، مكرسة للأنبياء المقدسين، ويوجد تحت الكنيسة كهف كبير، يرقد فيه في ثلاثة صناديق بقايا اثني عشر نبيا هم: حبقوق، ناحوم، ميخا، حزقيا، عوبيدا، زكريا، حزقيال، اسماعيل، ساول، باروخ، عاموس، وهوشع، وعلى الجبل المجاور هناك قرية كبيرة جداً، مسكونة من قبل عدد كبير من المسلمين والمسيحيين، وهي القرية التي ولد فيها الأنبياء المقدسون، وحيث بيوتهم أيضاً، وأمضينا ليلة هناك بحماية نعمة الرب، واستقبلنا استقبالاً جيداً من قبل المسيحيين الساكنين هناك، وبعدما استرحنا ليلة جيدة هناك استيقظنا باكراً، حتى نمضي إلى بيت لحم، وحمل مقدم المسلمين سلاحه ورافقنا وحرسنا حتى وصلنا إلى بيت لحم، وصاحبنا إلى كل مكان، ولولاه لما كان بإمكاننا السفر في هذه الأماكن بسبب وجود أعداد كبيرة من المسلمين يقطعون الطريق في الجبال، وهكذا وصلنا بسعادة إلى بلدة بيت لحم المقدسة، وبعدما عبدنا مكان ميلاد المسيح، أمضينا الليلة

هناك وعدنا مسرورين إلى مدينة القدس المقدسة.

٥٧— *المكان الذي قتل فيه داود جالوت*

وإلى جوار القدس، وعلى رمية سهم إلى الشرق من برج داود يوجد المكان الذي قتل فيه داود جالوت، وهو في سهل قرب صهريج ماء (قلعة جالوت)، ومن الممكن أن يرى الآن هناك حقل قمح جميل.

وعلى رمية سهم من هناك الكهف الذي ترقد فيه بقايا عدد كبير من الشهداء الذين قتلوا في القدس أيام حكم هرقل، ويدعى هذا المكان باسم حاجيا ماملا.

٥٨— *المكان الذي نمت فيه شجرة الصليب المقدس*

المسافة من هذا المكان إلى مكان الصليب المقدس هي فرسخ واحد، والمكان هذا قائم إلى الغرب من القدس، خلف جبل، فمن هناك قطعوا أعواد الصليب، الذي سمرت إليه القدمين المقدسين لربنا يسوع المسيح، ومحاط هذا المكان بأسوار، يقوم في وسطها كنيسة كبيرة، مكرسة للصليب المقدس، وهي مزينة بالرسومات بشكل ثري، وعند المذبح العالي، ودونه، يوجد جذع الشجرة المقدسة مغطى بألواح رخامية بيضاء، ومتروك هناك فتحات صغيرة مستديرة، يمكن من خلالها رؤيته، وهناك يقوم الدير الاسباني.

٥٩— *بيت زكريا*

هناك أربعة فراسخ من هذا الدير إلى بيت زكريا، القائم عند سفح جبل غربي القدس، وإلى بيت زكريا هذا جاءت العذراء المقدسة لتحيي اليزابث، وماأن سمعت اليزابث صوت مريم حتى قفز طفلها في داخلها لسروره وصاحت بصوت مرتفع:«مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة

بطنك. فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليّ». (لوقا: ١/ ٤٢). وولد في هذا البيت نفسه يوحنا المبشر، وتشغل هذا المكان الآن كنيسة، ولدى دخولك إلى هناك، باتجاه اليسار، تحت المذبح المنخفض، هناك كهف صغير، فيه ولد يوحنا المبشر، والمكان كله محاط بحصن حجري.

٦٠ــ *الجبل الذي التجأت إليه اليزابث مع المبشر*

على نصف فرسخ من هناك، وعلى الطرف الآخر من الوادي المليء بالأشجار، يقوم الجبل الذي هربت إليه اليزابث مع ابنها وقالت: «تسلم أيها الجبل الأم والطفل»، وانفتح الجبل، ومنحهما مأوى، وعندما وصل جند هيرود الذين كانوا يطاردونهما إلى هذا المكان، لم يبصروا أحداً، وعادوا خائبين، ومكان هذا الحادث يمكن أن يرى في الصخرة حتى هذا اليوم، وتقوم فوقه كنيسة صغيرة، يوجد تحتها مغارة صغيرة، عند المدخل إليها هناك كنيسة أخرى صغيرة، وينبع من هذه المغارة نبع ماء (عين ستي مريم عند عين كارم) شربت من مائه اليزابث ويوحنا أثناء اختفائهما في الجبل، حيث بقيا، برعاية أحد الملائكة، حتى وفاة هيرود، وهذا الجبل، القائم إلى الغرب من القدس، مرتفع جداً، ومغطى بغابات كبيرة، ومحاط بعدد كبير من الوديان، وتدعى أوروويني (لوقا: ١/ ٣٩)، وفي هذا الجبل أيضاً اتخذ داود ملجئاً، عندما عذبه الملك شاؤل وهرب من القدس.

٦١ــ *رامة*

تقوم رامة على فرسخين إلى الغرب من هذا الجبل، وعن رامة هذه قال النبي إرميا: « صوت سمع في الرامة نوح بكاء مر. راحيل تبكي على أولادها، وتأبى أن تتعزى على أولادها لأنهم ليسوا بموجودين» (ارميا: ٣١/ ١٥).

ورامة وادي واسع توزعت فيه قرى كثيرة، وتحمل جميع الأحواز هناك اسم رامة، وهي تشمل أراضي بيت لحم، وإلى رامة كان الملك هيرود قد بعث الجنود لقتل الأبرياء المقدسين.

٦٢— عمواس

عندما يوجه الانسان خطواته باتجاه الغرب، يصل بعد أربعة فراسخ إلى عمواس، حيث ظهر المسيح إلى لوقا وكليوباس في اليوم الثالث بعد القيامة، وكانا ذاهبين من القدس إلى البلدة، ولاحظاه عندما قطع خبزة، وكانت بلدة واسعة، وقد بنيت هناك كنيسة، وقد هدمت الآن من قبل الكفار، وبلدة عمواس بلدة مهجورة، وهي قائمة خلف جبل إلى اليمين، ليس بعيداً عن الطريق الذي يقود من القدس إلى يافا.

٦٣— اللد

من عمواس إلى اللد أربعة فراسخ عبر السهل، وكانت فيما مضى بلدة كبيرة اسمها اللد، لكن اسمها الآن هو الرملة، وهنا حدث أن شفى بطرس إنياس Eneas الذي كان ممدداً لمرضه على فراشه.

٦٤— يافا

من اللد إلى يافا عشرة فراسخ مستمرة عبر السهل، وفي هذه المدينة أقام الرسول بطرس طابيثا Tabitha من الموت، وهنا صام بطرس أيضاً، وعندما صعد إلى أعلى البيت في حوالي الساعة التاسعة رأى ملاءة مربوطة من الزوايا الأربعة نزلت من السماء، وعندما وصلت إليه رأى أنها مليئة بوحوش الأرض وبجميع أشكال الأشياء الزاحفة، وخاطبه صوت من السماء قائلاً: «قم يابطرس اذبح وكل. فقال بطرس: كلا يارب لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه أيضاً صوت ثانية: ماطهره الرب لاتدنسه أنت» (أعمال الرسل: ١٠/ ١٣ — ١٥)، وهناك الآن كنيسة عند هذه البقعة تدعى كنيسة القديس بطرس، وبلدة يوبا

قائمة على شاطىء البحر، وتصل الأمـواج إلى أسوارها، وتعرف الآن باسم يافا بلغة الفرنجة، ومن يافا إلى أرسوف ستة فراسخ.

٦٥— *قيسارية فيليب*

مـن أرسـوف إلى قيسـاريـة فيليـب (اقـرأ: قيسـاريـة فلسطين) أربعـة وعشرين فرسخـاً عبر طريق يجري على طول شاطىء البحـر، وفي قيسارية هذه عمّد الـرسول بطرس المقدس كـورنليوس Cornelius، وليس بعيداً عن هذه المدينة، على مسافة فرسخين إلى الجنوب، هناك جبل عاش عليه الأب مارتنيان Martinian، وإليه جاءت المحظية لأغوائه.

٦٦— *كفر ناحوم*

تبعد قيسارية فيليب ثمانية فراسخ عن كفـر ناحوم، وكانت كفر ناحوم (عثليت) فيما مضـى هامـة جداً، وبلدة مكتظـة السكان، لكنهـا في هذه الآونة مهجـورة، وقائمـة ليس بعيداً عـن البحر الكبير، وعـن كفر نـاحوم هذه قـال النبي: «الـويل لك يـا كفر نـاحوم، سـوف ترتفعين إلى السماء، ولسـوف تنحدريـن إلى أعماق الجحيـم»، وفي هـذه المدينة سـوف يظهـر المسيح الدجال، ولهذا السبب هجرها الفرنجة.

٦٧— *جبل الكرمل*

المسافة من كفـر ناحوم إلى جبل الكرم تقارب ستـة فراسخ، وعلى هذا الجبل عـاش النبي اليـاس المقدس، وغـذي من قبـل غراب أسـود، وهنا أيضاً ذبـح كاهـن بعل قـائلاً:«إنني أحـرق برائحـة طيبة لمولاي الـرب»، وهذا الجبـل مرتفع جداً، وعلى حـوالي الفرسخ عن البحـر الكبير، وتقارب المسافة من جبل الكرمل إلى حيفا فرسخاً واحداً.

٦٨— *بلدة عكا*

المسافة فيما بين حيفا وعكا هي خمسـة عشر فرسخاً، وعكا بلدة واسعة،

متينة البنـاء وتمتلك ميناء جيداً، وكانـت بيد المسلمين، وهـي الآن محتلة من قبل الفـرنجة، وهناك من عكـا إلى بلدة صور عشرة فراسـخ، والمسافة نفسها من صور إلى صيـدا، وقرية الصرفند ليست بعيدة عـن صيدا، ففي الصرفند أعاد النبي ابن الأرملة إلى الحياة.

٦٩— *بلدة بيروت*

المسـافة بين صيـدا وبيروت هي خمسـة عشر فرسخـاً، وفي هذه البلـدة خرق اليهود صـورة المسيح بحربة فـاندفع منها الـدم والماء، ووقتها تحول عـدد كبير من النـاس وتعمدوا بـاسـم الآب والابن وروح القـدس، وإلى بلدة بيروت هـذه نفسها جـاء يوحنا وأركـاديوس ولدي اكـزنفون ليـدرسا الفلسفة، ومن بيروت إلى جبيـل عشرين فرسخاً، ومن جبيـل إلى طرابلس أربعين فرسخاً، ومن طرابلس إلى نهر السويدية ستين فرسخاً.

٧٠— *أنطاكية الكبرى*

تقوم أنطاكية الكبرى على النهر المذكـور أخيراً، وهي على ثمانية فراسخ عن البحر، وعلى بعـد مائة فرسخ منهـا لوديكيا Laodicea ، ثم تأتي أنطاكيـة الصغرى، وكـانينورس Kaninoros ، ومافـــرونوروس -Mav ronoros، وبلدة ساتاليا (أضاليـا) الصغيرة، وجزيرة خيلدونيا الصغيرة، وجميع هذه البلـدات قائمة على شاطىء البحـر، ولهذا لم نلق المراسي حتى خيلـدونيا، وتـابعنا سيرنـا من هنـاك إلى بلدة مـايرا، وقـرب هذه البلـدة واجهنا أربعة غلايين، تحمل قراصنة، هـاجمونا وسلبونا، ومن هناك وجهنا طريقنا نحو القسطنطينية، التي وصلناها بصحة جيدة.

٧١— *الجليل وبحر طبرية*

الطـريق يقـود هنا مـن القدس إلى الجليـل باتجاه بحـر طبرية، وجبـل الطور والنـاصرة، وجميع المنطقة محدودة مـن قبل بحـرطبرية الذي يـدعى بحر الجليـل، وهو قـائم باتجاه الشمال الشرقـي من القـدس، وتبعد بلـدة

طبرية مسيرة أربعة أيام عن القدس للانسان المسافر على قدميه، والطريق خطر جداً ومرهق، فالانسان يسير لمدة ثلاثة أيام عبر طرق جبلية، وفي الأمام يتبع المسافر وادي الأردن، ويتجه دوماً باتجاه الشرق حتى ينابيع الأردن في مكان يصدر فيه هذا النهر عن البحر.

ولقد كان هذا الطريق الذي عبرته بعون الرب أثناء رحلتي، وكان بلدوين أمير القدس وقتها متوجهاً للحرب ضد دمشق، والسير عبر الطريق إلى بحر طبرية، لأنه الطريق الذي يؤدي إلى دمشق، وعندما علمت بأن الأمير سوف يأخذ هذا الطريق، ذهبت إليه، وحييته وقلت له: «أرغب رغبة عظيمة في أن أذهب معكم حتى بحر طبرية لكي أزور الأماكن المقدسة هناك»، وسمح لي الأمير بكل سرور بالذهاب معه وأمرني أن أنضم إلى حاشيته، وسررت شخصياً سروراً عارماً بهذا الأذن، واشتريت حيوانات للركوب، وهكذا اجتزنا بدون خوف أو رعب هذه الأماكن الخطرة بصحبة عساكر الأمير، لأنه بدون مرافقة لايستطيع المرء عبورهم،والقديسة هيلانة وحدها التي استطاعت أن تنجز ذلك.

وبناء عليه إليكم وصف طريق طبرية: المسافة من القدس إلى «بئر العذراء المقدسة» هي عشرة فراسخ، ومن هذا البئر إلى جبال جلبوع (لبّن) مسافة أربعة فراسخ، وعلى هذه الجبال كان مقتل الملك شاؤول وابنه يوناثان، وهي جبال مرتفعة، صخرية، جرداء وعرة وبلاماء، حتى الندى لاينزل عليها، ومن هذه الجبال إلى «بئر داود» مسافة فرسخين، ومن البئر إلى «كهف داود» أربعة فراسخ، ففي هذا الكهف وضع الرب الملك شاؤول في يدي داود، الذي لم يقتله بل قطع أطراف ردائة، وانتزع منه سيفه وأحزمته.

والمسافة من هناك إلى جبال شكيم أربعة فراسخ وكذلك إلى «جب يوسف» (عورتا)، ورعى على هذه الجبال أبناء يعقوب قطعان أبيهم، وإلى هناك جاء يوسف «صاحب الحظوة» ليحمل إلى أخوته تحيات أبيهم

يعقوب ووده وتبريكاتـه، لكنهم ما أن رأوه حتى انقضـوا عليه، وأمسكوه وألقـوه في الجب، الذي مـازال موجـوداً حتى الآن، وهـو يشكل صهـريجاً عميقاً، مبنـي بشدة بـوساطـة حجارة كبيرة، وحـدث أن أمضيا الليـل في هذا المكـان، الذي هو ليس ببعيـد عن الطريق الـرئيسي وقائم إلى اليمين منه.

٧٢— وقـالوا: هنـاك عشرة فـراسخ مـن هنا إلى قـريـة يعقوب التـي تدعـى سكر، Sichar (العسكر)، وبئـر يعقوب موجـود هناك، وهـو بئر واسع وعميق، وماؤه بارد وطيب المذاق، وتكلـم عند هذا البئر المسيح مع امرأة سامرية، وهناك أمضينا الليلة.

٧٣— *السامرة*

قرب هـذا المكان، وعلى بعـد نصف فـرسخ منـه تقوم مـدينة السـامرة (شكيـم أي نـابلس)، وهـي واسعـة جـداً، وفيهـا وفرة بحميـع الأشيـاء الجيدة، وهـي قائمـة فيها بين جبلين عاليين جـداً، ويجري في البلدة عـدد من الينابيـع الجيدة ذات الماء البارد، والبلاد خصبة بجميـع أنواع أشجار الفواكه مثل: التين، واللـوز والخروب، والزيتون، وهي تحيط بالسـامرة مثل غابة كثيفـة، والحقول المجاورة غنية بجميع أنواع الحبـوب، والمنطقة كلها جميلة بشكـل مدهـش، وانتاجهـا من الـزيتون كبير، وكـذلك مـن النبيذ، والقمـح والفواكـه، وبكلمـة موجـزة تجلـب مدينـة القـدس جميع مـؤنها وأطعمتها مـن هذا المكـان، وتدعـى بلدة السـامرة في هـذه الأيام بـاسم نابلس.

وعلى بعـد فرسخين مـن هذه البلـدة، وباتجاه الغـرب تقوم سبسطيـة، وهناك مكـان مغلق صغير يحتـوي على سجن القديـس يوحنـا المعمدان، وفيه جـرى قطع رأس هذا المبشر بالمسيـح بناء على أمر مـن الملك هيرود، ومـن الممكـن رؤية قبره هنـاك، وأقيـم هنـاك كنيسة حملـت اسـم المبشر،

وكذلك دير فرنجي غني جداً.

٧٤— بلدة أرماثيا

تقع بلدة أرمـاثيا Arimathea (رامة) التـي تضم قبري القــديس يوسف، والقديس مالإيل على بعد أربعـة فراسخ، وهي قائمة بين الجبال إلى الغرب من السامرة، وقد بني هنـاك بناء صغير مغلق، ويوجد فوق قبر يوسف هنـاك كنيسة ذات سقف خشبي، وهـم يدعون هذا المكـان باسم أرماثيا، واتجاه الطريق من السامرة إلى بحر طبرية هو نحو الشمال الشرقي.

٧٥— بلدة بيسان

ومن السامرة إلى بلـدة بيسان هناك ثلاثين فرسخاً، وهنـاك عاش عوج ملك بيسان الـذي قتل من قبل يـوشع بن نون، قـرب أريحا، وهذا مكان مرعـب جداً وخطير، وينبـع من البلدة سبعـة أنهر، وعلى أطرافهـم شعراء كثيفـة، وهناك في هـذه البلدة حـدائق عظيمـة من شجـر النخيل، وهـذا المكان والحق يقـال مرعب، ومن الخطـورة بمكان المرور به، فهنـاك يعيش مسلمون أشـداء وقساة بأعـداد كبيرة، ويستغلون مخاضـات الأنهار لمهاجمة المسافـرين، ويـوجد في هـذه الأجزاء الكثير مـن الأسود، وبيسـان ليست بعيـدة عــن الأردن، ويفصـل هـذه البلــدة عـن الأردن عــدد كبير مـن المستنقعات ذات الماء الآسن، وتصب هذه الأنهار في الأردن، وهناك تكثر الأسود، وعلى مقربـة من البلدة هناك على الجانب الشرقـي كهف عجيب طبيعي له شكـل صليب، ومنه ينبع نبع يجري في داخل خـزان عجائبي، لم تصنعه الأيدي، بـل خلقه الرب، واستحم في هـذا الخزان المسيح نفسه مع حـوارييه، ومـن الممكن رؤية الحجـر الذي جلـس عليه حتـى اليوم، واستحممنا نحن المذنبين الـذين لانستحق هناك، وإلى بلـدة بيسان هذه نفسها جاء اليهـود إلى المسيح، جالبين فلساً وسألوه: «هـل هو شرعي أن ندفـع الجزية أم لا»؟ غير أنـه سألهم: «رسـم من هـذا؟ .... أعط لقيصر

الأشياء التي لقيصر، وإلى الرب الأشياء التي للرب» ثم توجه بالخطاب إلى بطرس، وقال المسيح له: «امض وألق بخيطك بالبحر، وافتح أول سمكة تسحبها من الماء، فستجد هناك قطعة نقد ذات أربعة دراهم، فادفعها لهم عني وعنك»، وشفى المسيح قرب بيسان الرجل الأعمى الذي تبعه وسأله أن يشفيه.

٧٦— *نهر الأردن*

ومن بيسان إلى منابع الأردن وبيت تعشير متى هناك عشرين فرسخاً، وتتجه دوماً نحو الشرق، ويعبر الطريق سهولاً على طرف الأردن، الذي ماؤه حلو المذاق ونقي حتى منابعه، وينبع الأردن من بحر طبرية على شكل نهرين، يتدفقان بشكل رائع، ويدعى أحد هذين النهرين «أر» والآخر «دن» وهكذا يصدر الأردن عن بحر طبرية على شكل نهرين، يبتعد أحدهما عن الآخر ثلاث رميات سهم، وبعد مسيرهما منفصلين لحوالي النصف فرسخ، يعاودان الاتحاد بمثابة نهر واحد، يدعى نهر الأردن، وذلك من اسمي الفرعين، وجريان نهر الأردن سريع جداً وقوي، والماء نقي جداً، وهو يشبه كثيراً نهر سنوف في عرضه وعمقه ومستنقعات مائه الآسن، والأسماك عند نبعه كثيرة، وهناك جسرين من الحجارة بنيا بشكل شديد فوق قناطر، يمر من خلالها الماء ويتدفق، ويمتدان فوق الفرعين.

٧٧— *بيت تعشير متى*

وكان بيت تعشير متى حواري المسيح قريب من هذين الجسرين، لأن جميع الطرق التي تتجه إلى دمشق وبلاد الرافدين تلتقي هناك، وتغدى الأمير بلدوين مع عساكره قرب هذين الجسرين، وعسكرنا أيضاً معه قرب منابع الأردن واستحممنا في بحر طبرية، ثم ارتحلنا بعد ذلك وسرنا على طول شواطىء ذلك البحر دونما خوف من أي خطر، وزرنا جميع

الأماكن المقدسة التي داسها المسيح ربنا بقدميه، وواحد مذنب مثلي، سمح له الرب بالمرور خلال جميع بلاد الجليل ورؤيتها، وهو أمر لم أتجرأ أن آمل به، وتجولت قدماي المذنبتان فوق جميع الأراضي المقدسة التي تشوقت كثيراً لرؤيتها، ووصفت هذه الأماكن المقدسة بأمانة وصدق، وبدون كذب، فقط كما رأيتهم. ولم يستطع عدد كبير ممن زاروا هذه الأماكن تفحصهم والتعرف إليهم بشكل دقيق، وروى آخرون لم يصلوا إلى هذه الأماكن المقدسة، أكاذيب وحكايات مخترعة، وبالنسبة لي أنا المذنب، منحني الرب التعرف إلى رجل تقي متقدم بالسن، وواسع المعرفة كثيراً، وتقي، وأمضى ثلاثين سنة في الجليل، وعشرين سنة في دير القديس سابا، وقدم هذا الرجل جميع الأوصاف الموجودة في الضريح المقدس، فكيف لي، أنا المذنب، أن أقدم الشكر بما فيه الكفاية للنعمة التي أبديت نحوي.

وبقينا طيلة ذلك اليوم قرب الجسر، وعند المساء، عبر الأمير بلدوين مع عساكره الأردن وزحف نحو دمشق، في حين ذهبنا نحن إلى بلدة طبرية، حيث مكثنا لمدة عشرة أيام حتى عاد الأمير من حملته إلى دمشق، وزرنا خلال هذه المدة جميع الأماكن المقدسة القائمة على شاطىء بحر طبرية.

٧٨— *بحر طبرية*

يمكن للانسان أن يجوز حول بحر طبرية وكأنه بحيرة، والماء حلو المذاق كثيراً، ولايمكن للانسان مطلقاً أن يشرب كثيراً منه، وطول هذا البحر خمسين فرسخاً، وعرضه عشرين، وهو مليء بالأسماك، ويحتوي بشكل خاص على سمك مثل الشبوط، مما كان المسيح مغرم به كثيراً، والذي هو متفوق على جميع أنواع الأسماك بطعمه، وقد أكلت أنا نفسي منه مراراً خلال اقامتي في البلدة، وهو نوع السمك نفسه الذي أكل المسيح منه بعد قيامته، عندما جاء إلى حوارييه وهم يصطادون السمك

وقال لهم: «أيها الأولاد أليس لديكم مانأكله»؟ وأجابوه «كلا»، فقال لهم: «أرموا الشباك على الجانب الأيمن»، (يوحنا: ٢١/ ٥ — ٦).

٧٩— منابع الأردن

يوجد من منابع الأردن والجسرين إلى المكان الذي استحم فيه المسيح، والذي استحمت فيه العذراء المقدسة، والذي استحم فيه الحواريون، ستة فراسخ، ومن أماكن الاستحمام المقدسة هذه إلى بلدة طبرية فرسخ واحد، وبلدة طبرية واسعة جداً، طولها فرسخان وعرضها فرسخ واحد، وقائمة على شاطىء البحر، وصنع ربنا المسيح هناك عدداً من المعجزات، ويرون في وسط البلدةالمكان الذي شفى فيه المجذوم، وهناك أيضاً كان بيت حماة بطرس، وقد دخله يسوع وشفاها من الحمى المستمرة، وقد بنوا هناك كنيسة مستديرة كرسوها للرسول بطرس، وهناك أيضاً بيت سمعان المجذوم، والمكان الذي غسلت فيه المحظية قدمي ربنا يسوع المسيح الطاهرتين بدموعها، وجففتهما بشعرها، وبذلك تلقت الغفران لذنوبها الكثيرة، وفي هذه البلدة بالذات شفى المرأة المقعدة، وهناك حدثت معجزة قائد المائة، وهنا أيضاً أنزلوا الرجل المريض من خلال السقف المحطم، وهنا كان محسناً إلى المرأة الكنعانية، وينبع نبع بارد جداً، ماؤه نقي، ويخرج من كهف تراجع إليه المسيح عندما رغبوا في جعله ملكاً للجليل، وقام بمعجزات أخرى كثيرة في هذه البلدة، وفي هذه البلدة نفسها ضريح النبي إلياس بن يهوشافاط، ويوجد أيضاً قرب الطريق ضريح يوشع بن نون، وهناك على مقربة من البحر، باتجاه الشرق، وعلى رميه سهم من البلدة، صخرة كبيرة وقف عليها المسيح، عندما علّم الناس، عندما بادروا إليه مسرعين من شواطىء صور وصيدا، ومن المدن العشرة، ومن الجليل، وأرسل من هناك الناس إلى حوارييه الذين عبروا في قارب إلى الجانب المقابل، بينما بقي يسوع، ومشى بعد ذلك على وجه الماء وكأنه يسيرعلى الأرض، ووصل إلى الناس على

الشاطىء المقابل قبلهم، وعندما وصل هؤلاء ووجدوا يسوع هناك قالوا له: «أيها المعلم متى وصلت»؟، فأجابهم: «هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع»، (متى: ١٩/ ٢٦)، ويوجد عشرة فراسخ عبر البحر من هذا المكان إلى طبرية، فهناك بقعة من الأرض مرتفعة تبعد فرسخاً عن البحر.

٨٠— المكان الذي أشبع المسيح فيه خمسة آلاف رجل

وهذا المكان قائم في سهل مغطى بالعشب: هناك أشبع المسيح خمسة آلاف رجل، دون عدّ النساء والأطفال ، أشبعهم بخمسة أرغفة، وعبوة اثنتي عشرة سلة من الكسر.

٨١— المكان الذي ظهر المسيح فيه لحوارييه للمرة الثالثة بعد قيامته

ليس بعيداً عن شاطىء بحر طبرية، عند سفح جبل، يقع المكان الذي ظهر فيه المسيح لحوارييه للمرة الثالثة بعد قيامته، ووقف إلى جانب البحر، وقال لهم: «أيها الأولاد هل لديكم مانأكله» وأجابوه: «لا» فقال لهم: «ارموا الشبكة على الجانب الأيمن كما أخبركم، ولسوف تجدون»، (يوحنا: ٢١/ ٥ — ٦).

ورموا وكانوا الآن غير قادرين على سحبها لما فيها من أعداد هائلة من الأسماك، وعندما جلبوها إلى اليابسة وجدوا مائة وثلاث وخمسين سمكة، ورأوا قرب الشبكة خبزاً وناراً وسمكاً مشوياً، وأكل المسيح الوجبة، وأعطاهم ماتبقى، ويوجد هناك كنيسة مكرسة في هذا المكان على اسم الرسل المقدسين، وعلى مقربة من هناك بيت مريم المجدلية المقدسة، التي استخرج منها يسوع سبعة شياطين، ويدعى هذا المكان المجدل.

٨٢— بلدة بيت صيدا

ويوجد في الجبال على بعد قليل، مدينة بيت صيدا، وهي مدينة أندرو

وبطرس، وهي أيضاً المكان الذي جلب فيه ناثان ايل إلى بطرس وأندرو.

٨٣— المكان الذي جاء إليه المسيح متجهاً نحو حوارييه الذين كانوا يصطادون السمك

ويوجد على شاطىء البحر مكان اتجه منه المسيح نحو أندرو وبطرس ولدي زبداي، اللذان سحبا شبكتيهما وجمعاها، وهناك لاحظا يسوع فتركا قاربهما وشبكتيهما وتبعاه، وكانت قرية زبداي، والد يوحنا ملاصقة للبحر، وكذلك بيت القديس يوحنا الانجيلي، وهناك طرد المسيح فرقة من الشياطين من انسان، وأمرهم أن يدخلوا داخل قطيع من الأوز أغرقوا أنفسهم في البحر.

وتقوم قرية كفرناحوم على مسافة قصيرة من هناك، ويجري على مقربة نهر كبير يصدر من بحيرة جنسار (الحولة)، ويصب في بحر طبرية، وبحيرة الحولة واسعة جداً هي أربعين فرسخاً في الطول والعرض، وعلى مقربة من هذه البحيرة بلدة اسمها الحولة، وهي السبب في أن البحيرة تدعى الحولة.

٨٤— بلدة ديكابولس

وهناك بلدة أخرى هناك، تحمل اسم ديكابولس (الأسقفيات العشر)، وعلى مقربة من البحيرة مكان وعظ فيه يسوع الناس الذين جاءوا إليه من الأسقفيات العشر، ومن شاطىء صور وصيدا، وأتى الانجيل على ذكر هذه البقعة، وصنع يسوع قرب البحيرة عدداً كبيراً من المعجزات الأخرى.

٨٥— جبل لبنان

وعلى الطرف الآخر من البحيرة، باتجاه الشمال الشرقي، هناك جبل واسع ومرتفع قمته مغطاة بالثلج حتى أثناء الصيف: إنه يدعى لبنان.

وهو ينتج بخور لبنان والراتنج الأبيض، وينبع من هذا الجبل، جبل لبنان اثني عشر نهراً واسعاً، يسير ستة منها باتجاه الشرق وستة باتجاه الجنوب، وتصب الستة الأخيرة في بحيرة الحولة، وتتجه الستة الأخيرة باتجاه انطاكيا الكبرى، وتدعى هذه البلاد بلاد الرافدين، أي البلاد القائمة بين النهرين، وحران التي خرج منها إبراهيم، واقعة فيها بين هذين النهرين، وتغذي هذه الأنهار بحيرة طبرية بشكل واسع، فمنها يصدر ذلك النهر الواسع الذي يصب في بحر طبرية، ويزيد من حجم ماء البحيرة التي — كما قلت أعلاه — يصدر منها نهر الأردن.

ولم أستطع الوصول إلى جبل لبنان خوفاً من الكفار، لكنني كونت فكرة جيدة عنه من خلال أدلائي المسيحيين الذين عاشوا هناك، ولم يسمحوا لي بالذهاب إلى هناك، لأن عدداً كبيراً من الكفار يسكنون في ذلك الجبل، ورأيناه فقط، ورأينا أحواز بحيرة الحولة عن بعد، ويوجد بين بحر طبرية وبحيرة الحولة، فرسخان، وتقع الحولة إلى الشمال الشرقي من بلدة طبرية.

٨٦— *جبل الطور*

يقع جبل الطور والناصرة إلى الغرب من بحر طبرية، وهناك ثمانية فراسخ واسعة إلى جبل الطور، وماعلى الانسان سوى أن يعلو ظهر أحد الجبال ويتسلق آخر ارتفاعه خفيف، ويعبر بقية الطريق السهل وصولاً حتى الطور، وجبل الطور عمل رائع من أعمال الله، لايستطيع الانسان أن يصفه فهو جميل جداً، ومرتفع كثيراً، وعظيم للغاية، وله شكل كومة قش، ويرتفع بشكل جليل في وسط سهل رائع، وهو منفصل عن بقية الجبال الأخرى، ويجري نهر في السهل عند سفحه، وتنمو على سفوحه جميع أنواع الأشجار: زيتون، وتين، وأشجار الخروب بأعداد كبيرة، وهو أعلى من جميع الجبال الأخرى من حوله، وهو منفصل تماماً عنها، ومساحته معتبرة، وهو يقف بشكل جليل في وسط سهل مسكون،

ومستدير بعناية مثل كومة قش، ويساوي ارتفاعه من القمة إلى الأسفل أربع رميات سهم، وأكثر من ثمان رميات من القاعدة حتى القمة، وهووعر وهذا يجعل تسلقه منهك وصعب، وينبغي تسلقه بشكل حلزوني على طريق وعر جداً، فقد بدأنا بتسلقه في الساعة الثالثة من النهار، وتسلقنا بكل نشاط، وبصعوبة وصلنا إلى قمة هذا الجبل المقدس في الساعة التاسعة، وفي أعلى نقطة منه، نحو الجنوب الشرقي، هناك بقعة مرتفعة مثل رابية صخرية، أخذت شكل قمة مخروطية، وهذا هو مكان تغيير هيئة المسيح، ربنا، وتجليه على الجبل، ويوجد هناك في الوقت الحالي كنيسة جميلة مكرسة للتجلي، وكنيسة أخرى إلى جانبها باتجاه الشمال، وهي مكرسة للنبيين المقدسين: موسى وإلياس.

٨٧— *المكان الذي تغيرت فيه هيئة المسيح*

يحيط بمكان تجلي المسيح وتغيير هيئته أسوار حجرية متينة مع بوابات معدنية، وكانت المنطقة من قبل مقر أسقفية، وهي الآن مقر دير لاتيني، ووفرت ذروة الجبل مكاناً منبسطاً جيداً، لكنه صغير قائم أمام هذا الموقع المغلق، وإنه والحق يقال لنعمة عظيمة من الرب أن وفرة من الماء يمكن وجودها على هذا الارتفاع، كما أن الجبل كله مغطى بحقول جميلة مع أعداد كبيرة جداً من أشجار الفواكه، والمنظر من القمة واسع جداً وفسيح.

٨٨— *كهف ملكيصادق*

ويجعلونك ترى على جبل الطور موضع منبسط، عنده كهف غيراعتيادي قدّ في الصخر،مثل قبو له نافذة صغيرة في سقفه، وفي قعر الكهف وباتجاه الشرق هناك مذبح، وباب الكهف صغير جداً، وتنزل إليه بوساطة درجات من الجهة الغربية، وتنبت أمام المدخل شجرات تين صغيرة، وهناك من حولهن أنواع أخرى من الأشجار، وكان هنا فيما

مضـى غابـة واسعة، لكـن الموجـود الآن شجيرات صغيرة فقط، وسكـن ملكيصادق المقـدس في هذا الكهف الصغير، وهنـاك زاره ابراهيـم ودعاه ثلاث مرات قـائلاً: «رجل الرب» فخرج ملكيصادق حامـلاً خبزاً ونبيذاً، وبنى مـذبحاً في الكهـف، وقدم قربـاناً من الخبـز والنبيذ حمله الرب إلى السمـوات، وهناك بـارك ملكيصادق إبـراهيم، الـذي تولى قطـع أظافـره وقص شعـره، لأن ملكيصادق كان كثيف الشعـر، ومن هنا جاءت بـداية القـداس مع الخبـز والنبيـذ عوضـاً عـن الخبـز الفطير، حسبما قال النبـي: «أنت كاهن دوماً بناء على أمر ملكيصادق» (المزمور: ١٠٩/ ٤).

ويقع هـذا الكهف على رمية سهم جيـدة إلى الغرب من المكـان الذي تغيرت فيه هيئـة المسيح، وأبـدوا نحونـا في دير التجلي المقـدس كثيراً من الاحترام، وبعـدما استرحنـا هنـاك وتغدينـا زرنـا كنيسة التجلي المقـدس، وتعبدنـا المكان المقدس حيـث تغيرت هيئة ربنـا المسيح، وبعد مـاقبلناه بحب وسرور كبير، وبعـدما تلقينا التبريكـات من راعـي الدير ومـن جميع الرهبـان، غادرنـا الديـر المقدس، وقمنـا برحلـة زرنا فيهـا جميع الأمـاكن المقـدسـة في ذلـك الجبـل المقدس، ويمـر الطـريـق المؤدي إلى النـاصرة، والقائم إلى الغـرب من جبل الطور، مـن أمام كهف ملكيصـادق، وللمرة الثانية زرنا تائبين الكهف المقدس، وانحنينـا بأنفسنا أمام المذبح المقدس الذي شيـد من قبل ملكيصـادق وإبراهيم، وهـذا المذبح موجـود في هذا الكهـف حتى هـذا اليوم، وغـالباً مـاجاء ملكيصـادق المقدس إلى هنـاك للقيام بالقـداس، وأكد هذه الحقيقة لي جميع المؤمنين الذيـن يعيشون فوق هذا الجبل والذيـن يعبدون (المغارة)، ووقتها حمدنا الرب الـذي سمح لنا نحـن المذنبين والذيـن لانستحـق، بـرؤية هـذه الأمـاكـن المقدسـة، وأن نقبلهم بشفـاهنا المذنبـة، ونزلنـا بعد ذلـك من جبـل الطور إلى السهـل، وارتحلنا لمسافة فرسخين نحو الغرب باتجاه الناصرة.

ومن جبل الطـور إلى الناصرة هناك خمسة فراسخ، فـرسخان عبر السهل

وثلاثة عبر الجبل، حيث الطريق منهك، فهو ضيق ووعر جداً، واعتاد المسلمون غير الأتقياء، الذين توزعت قراهم فوق الجبال والسهل، على الخروج من مواطنهم وقتل الرحالة فوق هذه المرتفعات الصعبة، ومن الخطر الجواز من هناك من دون مرافقة جيدة، الأمر الذي لم يتوفر لنا هذه المرة، لأننا كنا ثمانية أفراد فقط بدون سلاح، لكن وقد وضعنا ثقتنا بالرب، فقد حمانا برحمته، وأعاننا بصلوات سيدتنا العذراء المقدسة، فوصلنا سالمين معافيين إلى مدينة الناصرة المقدسة، حيث تمّ بوساطة تدخل الملاك جبرائيل الإعلان لسيدتنا العذراء المقدسة، وحيث تربى يسوع ونشأ.

٨٩— بلدة الناصرة

الناصرة بلدة صغيرة قائمة في واد في قلب الجبال، ويمكن رؤيتها فقط عندما يصبح الانسان فوقها، وترتفع في وسط البلدة كنيسة واسعة وعالية، فيها ثلاثة مذابح، ولدى دخولك لها تجد على الجانب الأيسر، أمام مذبح صغير كهف صغير لكن عميق وله بابين صغيرين، واحد في الشرق والآخر في الغرب، ومن خلالهما يمكن الدخول إلى المغارة والوصول إليها، وإذا مادخل الانسان من الباب الغربي، يجد على الجانب الأيمن حجيرة، لها مدخل ضيق، فيها عاشت العذراء المقدسة مع المسيح، ولقد نشأ وتربى في هذه الحجيرة المقدسة، التي تحتوي أيضاً على الفراش الذي تمدد عليه يسوع، وهو منخفض كثيراً إلى درجة بدا فيها وكأنه على سوية الأرض.

٩٠— ضريح يوسف خطيب العذراء

لدى الدخول إلى الكهف نفسه بوساطة الباب الغربي، يجد المرء على يساره ضريح يوسف قرين مريم، الذي أدخل إلى هناك باليدين المقدستين للمسيح، وتتساقط نقاط من الماء الأبيض، مثل زيت مقدس،

من الجدار، قرب هذا الضريح، ويجمعها الناس من أجل معالجة المرضى.

٩١-الكهف حيث جلست العذراء المقدسة

في الكهف نفسه،قرب الباب الغربي،يوجد المكان الذي جلست عليه مريم العذراء المقدسة تغزل لوناً أرجوانياً،أي تصنع خيطاً أرجوانياً، وعندها مثل أمامها رئيس الملائكة جبرائيل مرسلاً من قبل الرب.

٩٢-المكان الذي أعلن فيه رئيس الملائكة الأخبار الطيبة الى العذراء المقدسة

لقد ظهر أمام ناظريها بعيداً قليلاً عن المكان الذي كانت العذراء المقدسة جالسة عليه،وهناك من الباب الى المكان الذي وقف عليه جبرائيل ثلاثة سغنس،وأقيم فوق هذا المكان مذبح صغير مستدير على عمود،وتقام هنا القداسات.

٩٣-بيت يوسف خطيب العذراء

كان المكان الذي يحتله الكهف المقدس،بيت يوسف،وكل شيء حدث في ذلك البيت،ففوق الكهف هناك كنيسة مكرسة للاعلان،وكان هذا المكان قد هدم من قبل،وتولى الفرنجة اعادة البناء بعناية فائقة، ويعيش هنا أسقف لاتيني غني جداً،والمكان المقدس تحت اشرافه وحكمه،وقد استقبلنا بحفاوة،وقدم لنا لحماً وشراباً وأمضينا الليل في هذه البلدة،ونمنا جيداً،ونهضنا في الصباح التالي،فذهبنا الى الكنيسة لتقديم الاحترام للمعبد،ودخلنا الى الكهف وتعبدنا الأماكن المقدسة فيه،ثم غادرنا بعد ذلك البلدة،وتوجهنا باتجاه الشمال الشرقي فوصلنا الى بئر عميق جداً،فيه ماء كثير البرودة،وينزل الانسان اليه بوساطة عدة درجات،وهذا البئر مغطى بكنيسة مستديرةمكرسة لرئيس الملائكة جبرائيل.

٩٤-بئر الإعلان الأول

هناك رمية سهم جيدة من بلدة الناصرة الى هذا البئر المقدس فقرب هذا البئر تلقت العذراء المقدسة الاعلان الأول من رئيس الملائكة،وكانت قد جاءت لتنضح الماء،وعندما ملأت ابريقها،سمع صوت الملاك غير المرئي قائلاً: «أحييك،أيتها المليئة بالنعمة،الرب معك»، ونظرت مريم من حولها، ولم ترأحداً،لكنها سمعت الصوت فقط،فتناولت الإبريق وعادت مندهشة قائلة لنفسها:«مامعنى هذا الصوت الذي سمعته دون أن أرى أحدا»؟ ، وبعد عودتها الى بيتها في الناصرة جلست على البقعة المتقدم ذكرها،وأخذت تغزل خيوط الأرجوان،ووقتها ظهر رئيس الملائة جبرائيل إليها،ووقف على المكان المذكور أعلاه،وأعلن لها عن ميلاد المسيح،وقالوا هناك خمسة فراسخ من الناصرة الى قرية ايساوEsau (مشهد مابين الناصرة وكفر كنا)

٩٥-*قانا الجليل*

والمسافة من هذه القرية الى قانا في الجليل هي فرسخ واحد ونصف الفرسخ،وقانا في الجليل قائمة على الطريق الرئيسي،فهناك غيّر المسيح الماء الى نبيذ،وواجهنا هناك قافلة كبيرة كانت ذاهبة الى عكا، وبسرور التحقنا بها،وتوجهنا الى عكا،التي كانت بالعادة بلدة إسلامية،لكنها الآن في حوذة الفرنجة،وهي مدينة محصنة على شاطىء«البحر الكبير»،ولها ميناء جيد:والبلدة مزودة بشكل جيد بكل شيء،وتقع عكا الى الجنوب من الناصرة،والمسافة منها إليها ثمانية وعشرين فرسخاً واسعاً.

وبقينا أربعة أيام في عكا،وبعدما استرحنا بشكل جيد،وجدنا قافلة كبيرة متوجهة الى مدينة القدس المقدسة،فانضممنا إليها بأنفسنا،وسافرنا معاً بكثير من السرور،ووصلنا الى حيفا،ومن هناك زرنا جبل الكرمل،وعلى ذلك الجبل كهف القديس إلياس،النبي المقدس،وتعبدنا فيه،ثم سافرنا الى كفرناحوم،وذهبنا من بلدة كفرناحوم الى قيسارية فيليب(اقرأ:فلسطين)،وساير الطريق شاطىء البحر العظيم،أحياناً فوق

السهل،وأحيانـاً فوق الرمال وصولاً حتـى قيسارية،وأمضينا ثـلاثة أيام في تلك البلدة التـي عمّد فيها بطرس الرسـول كورنيليوسCorelius الذي عاش فيها.

وتوجهنـا من قيسـارية بـاتجاه اليسار لنـزور السامـرة،والمسافـة فيما بين البلدتين هـي عشرين فـرسخاً،ووصلنا في اليـوم التالي،في حـوالي منتصف النهار الى السـامرة،وذلـك أننا سرنا ببطـيء بسبب الحر الـذي أزعج كثيراً المسافـرين على أقدامهـم أثناء سيرهم،وأمضينا الليـل أمام بلدة السـامرة قرب بئر يعقوب،حيث تحدث المسيح مع امرأة سامرية.

٩٦ -*القدس*

وعنـدمـا استيقظنـا التحقنـا مجدداً بـالطريـق الـذي جئنـا عليـه مـن القدس،ووصلنا أخيراً الى المدينـة المقدسة سعداء،وفي سرور عـارم،وسمح لنا الرب بـالقيام بهذه الرحلة دونها أي ضرر،ومنحنـا بالوقت نفسـه فضل أن نرى بـأعيننا جميع الأماكـن المقدسة التـي زارها المسيح ربنا مـن أجل خـلاصنـا،وسمح لنـا نحـن المذنبين أن نلقـي نظـرة على هذه الأمـاكـن المقدسـة ،والترحال على أرض الجليـل الرائعـة وفي جميع فلسطين،ورحلنـا في جميع أرجـاء فلسطين بحماية من الفضل الـرباني وحراسةمـن صلوات العـذراء المقـدسـة دون أن يلحقنا أذى،واسـم فلسطين تعـرف بـه جميـع المنطقـة الواقعـة حول القـدس،وبتأييـد من عـون الرب زرنـا جميع هـذه الأماكـن دون أن نواجه الكفـار أو الحيوانـات الضارية، ولم يلحـق بنا أي شر،ولم أعان مـن أي مرض البته، بل كنـت مثل نسر يحلق عاليـاً،وشعرت بنفسي أننـي مـؤيـد من قبـل النعمـة الـربـانيـة،ومدعـوم بقـوة الأعظـم علواً،وإذاكنـت سأتفـاخر بـأي شيء فبعـون المسيح،وبضعفـي كما يقول الرسـول:«صارت قوتي كاملـةبضعفي»(أخبار الأيام الثـاني:١٢/ ٩)،كيف لي أن أنوه يامـولاي بها فعلته لأجلي أنا المذنب البائس،بـالسماح لي بزيارة هذه الأماكـن المقدسة ورؤيتها،وهكـذا تمكنت بعون الرب مـن تنفيذ كل

مارغبته بقلبي،وبتفحص جميع الأماكن الذي سمح لي برؤيتها،أنا عبده المسكين الذي لاأستحق.

سامحوني يا أخواني،ويا آبائي ويا سادي،ولا تزدروا الجهل الذي قادني الى وصف الأماكن المقدسة في القدس وفي أرض الميعاد بكلمات بسيطة ، وبدون براعة أدبية ، وإذا لم أكن قد كتبت وفق طرائق العلماء، على الأقل ليس هناك كذب ، وأنا لم أصف شيئاً لم أره بعيني نفسي .

٩٧ـ *النور المقدس وكيفية نزوله على الضريح المقدس*

فيما يلي وصف للنور المقدس الذي ينزل على الضريح المقدس ،

حيث تلطف الرب فأراه لي أنا عبده السيء والذي لا يستحق، لأنني رأيت بكل صدق بعيني المذنبتين كيفية نزول النور المقدس على الضريح المخلص لربنا يسوع المسيح ، وخطأ وصف العديد من الحجاج تفاصيل نزول ذلك النور المقدس ، فبعضهم قال بأن روح القدس ينزل على الضريح المقدس على شكل حمامة ، وقال آخرون بأن البرق من السماء هو الذي يشعل المصابيح فوق ضريح الرب ، وهذا غير صحيح لأنه لا يرى في تلك اللحظة لا حمامة ولا برق ، بل تهبط النعمة الربانية غيرمرئية من السماء وتضيء مصابيح ضريح ربنا وأنا سوف أصف فقط بشكل كامل من الصدق ما رأيته ، ففي يوم الجمعة ، بعد العشاء ، نظفوا الضريح المقدس ، وغسلوا جميع المصابيح الموجودة هناك ، وملأوا المصابيح بزيت صاف بدون ماء ، وبعدما وضعوا الفتائل، تركوا المصابيح بدون إشعال ، وثبتوا الأختام إلى الضريح في الساعة الثانية من الليل، وأطفأوا بالوقت نفسه جميع المصابيح وحوامل الشموع في كل كنيسة من كنائس القدس وفي يوم الجمعة نفسه ، دخلت أنا الذي لا أستحق في الساعة الأولى من النهار

إلى حضرة الأمير بلدوين ، وانحنيت أمامه حتى الأرض ، ولدى رؤيته لي وقد انحنيت، أمرني بطريقة صديقة بالاقتراب منه وقال : « ما الذي تريده أيها الراهب الروسي» ؟ ذلك أنه عرفني وأعجب بي ، لأنه كان رجلاً لطيفاً جداً ، ومتواضعاً ، وليس متكبراً ، وقلت له : « يا أميري ويا مولاي ، اسمح لي من أجل محبة الرب ،وتقديراً لأمراء روسيا، في أن أضع مصباحي على الضريح المقدس باسم جميع بلاد روسيا ، » ثم إنه بلطف خاص ورعاية أعطاني الأذن في أضع مصباحي على ضريح الرب ، وبعث بواحد من أعيان حاشيته معي الى المسؤول عن حفظ القيامة ، والى حافظ مفاتيح الضريح المقدس .

وطلب مني المسؤول عن القيامة مع حافظ المفاتيح أن أجلب مصباحي مليئاً بالزيت ، وشكرتها وبادرت مسرعاً ببهجة عارمة فاشتريت مصباحاً كبيراً جداً من الزجاج ، وبعدما ملأته بالزيت الصافي ، حملته قبيل المساء الى الضريح المقدس ، وقد وجهت الى حافظ المفاتيح المتقدم الذكر، الذي كان لوحده في مزار الضريح ، وبعدما فتح لي الباب المقدس ، أمرني بخلع حذائي ثم سمح لي بالدخول الى الضريح المقدس وأنا حافي القدمين ومعي المصباح الذي حملته ، ووجهني لوضعه فوق ضريح الرب ، وقد وضعته بيدي الخاطئتين على البقعة التي تشغلها القدمان المقدسان لربنا يسوع المسيح ، وكانت المصابيح الاغريقية موضوعة حيث رقد الرأس ، ووضعت المصابيح العائدة لدير القديس سابا ولجميع الديرة ، فوق مكان الصدر لأن العادة جرت أن يضع الاغريق وكذلك دير القديس سابا مصابيحهم هناك كل عام، وبفضل من الرب اشتعلت هذه المصابيح الثلاثة في تلك المناسبة، لكن المصابيح العائدة للفرنجة، والمعلقة فوق الضريح لم تتلق النور، وكنت بعدما وضعت مصباحي فوق الضريح المقدس وبعدما تعبدت وقبلت بدموع التوبة والتقوى المكان المقدس الذي تمدد عليه

جسد ربنـا يسوع المسيـح، بعد هـذا كله تـركت الضريـح المقدس مليئـا بالبهجة، وعدت الى حجرة خلوتي.

واحتشـد الجميـع في اليـوم التـالي، وهـو يـوم السبـت المقـدس، في الساعةالسادسة من النهار، أمام كنيسـة القيامة المقدسة، وتجمهر الأجانب والمحليون من جميع البلدان: من القاهرة ومـن انطاكية، ومن كل جزء من أجـزاء العـالم، واجتمعـوا في ذلـك اليـوم في أعـداد لاتحصـى، ومـلأت الحشـود المكـان المفتـوح حـول الكنيسـة وحـول مكـان الصلـب، وكـان الضغط مرعبـا، والجيشان عظيما الى درجة ان عددا كبيرا مـن الاشخاص اختنقـوا في وسط ازدحـام النـاس الـذين وقفـوا وبـأيـديهم مشاعـل غير مشتعلة، ينتظـرون فتح أبواب الكنيسة، وكـان الكهنة لوحدهـم في داخل الكنيسة، وانتظـر الكهنة وكذلك الحشـود، وصول الأمير مع حاشيتـه، وما أن فتحـت الابـواب حتـى انـدفـع النـاس يـدفعـون بعضهـم بعضـا ويصطدمـون بالمنـاكب، وملأوا الكنيسـة والشرفات، ذلـك ان الكنيسة لم يكن بـامكانها استيعاب مثـل هذه الحشـود، واضطر جزء كبير مـن الناس الى البقـاء في الخارج حـول الجلجلـة ومكـان الجمجمـة، وامتـدادا حتـى البقعـة التي اقيمـت فـوقهـا الصلبان، وامتـلأ كـل مكـان بحشد لايعـد ولايحصى ، وصرخ النـاس في داخل الكنيسـة وفي خارجهـا بدون تـوقف مرددين <<Kyrie eleison>> «ارحمنا يارب»، وكـان الصراخ عاليا الى درجة ان المبنـى كله ردد الاصـوات وتنفس بها، وبكـى المؤمنون وسكبـوا دموعـا كثيرة، حتى الذي امتلـك قلبا من حجـر ماكـان بامكانـه التمنع عن البكاء، وكان كل واحد يبحث في اعماق نفسـه، ويفكر بذنوبه ويقول بشكل سري في قـرارة نفسه: « هـل ستمنع ذنـوبي نزول النـور المقدس»؟ وبقي المؤمنـون هكذا ينـوحون بقلـوب مثقلة، وبـدا الأمير بلدويـن نفسه نادما ومتواضعا جدا، يذرف سيلا مـن الدموع من عينيه، ووقفت حاشيته من حوله واجمة قرب المذبح العالي، مقابل الضريح.

ففي حوالي الساعة السابعة من يوم السبت غادر الامير بلدوين بيته، وسار على قدميه نحو ضريح ربنا، وبعث الى نزل القديس سابا من اجل راعي دير القديس سابا ورهبانه، وبناء عليه انطلق راعي الدير يتبعه الرهبان وسار نحو الضريح المقدس، وذهبت انا غير الجدير معهم، وعندما وصلنا الى الامير حييناه جميعا، ورد علينا التحية ووجه راعي الدير وانا العبد الحقير، لنمشي الى جانبه، في حين مضى رعاة الديرة الآخرون والرهبان أمامه، وسارت الحاشية من ورائه، وهكذا وصلنا الى الباب الغربي لكنيسة القيامة، لكن الازدحام الشديد أعاقنا ولم نستطع الدخول، وبناء عليه أمر الأمير بلدوين عساكره بتفريق الحشود وفتح طريق لنا، ونفذوا هذا وفتحوا الزقاق الى الضريح، وبهذه الوسيلة تمكنا من الجواز من خلال الحشد، ووصلنا الى الباب الشرقي للضريح المقدس العائد لربنا، واتخذ الأمير مكانا له الى اليمين قرب درابزون المذبح العالي، أمام الباب الشرقي للمذبح، ففي هذه البقعة هناك مكان مرتفع مخصص للأمير، وأمر الأمير راعي دير القديس سابا أن يتخذ موقعا له خلف الضريح ومعه رهبانه والكهنة الأرثوذكس، أما بالنسبة لي، انا الانسان الوحيد، فقد وجهني لأجلس نفسي أبعد قليلا، فيما وراء أبواب الضريح المقدس، أمام المذبح العالي، حتى استطيع أن أرى من خلال الأبواب الضريح، وكانت هذه الأبواب التي عددها ثلاثة، مغلقة ومختومة بالخاتم الملكي، ووقف الكهنة اللاتين الى جانب المذبح العالي.

وفي الساعة الثامنة بدأ الكهنة الأرثوذكس، الذين كانوا وراء الضريح المقدس بإنشاد تراتيل قداس العشاء، ومعهم رجال الدين، والرهبان، والنساك، وشرع اللاتين الواقفين إلى جانب المذبح العالي يتمتمون مثلهم ويرددون بعدهم، وبينما كان الجميع يغنون على هذه الصورة بقيت في مكاني صارفا انتباهي نحو مراقبة أبواب الضريح، وعندما بدأوا يقرأون الـ <<paroemia>> (نص مقدس خاص بالأرثوذكس يقرأ

عـادة عشيـة الفصح) لأجـل السبـت المقـدس، وفي أثناء قـراءة المقطـع الأول، تـرك الأسقف يتبعـه الشماس المذبـح العـالي، وذهبا نحـو أبـواب الضريح، ونظـرا من خلال الكـوة، وعندما لم يريـا الضوء عادا، وعنـدما شرعـوا بقـراءة المقطع السـادس مـن الـ <<paroemia>> ، عاد الأسقف نفسـه الى باب الضريح المقـدس، لكنه لم ير تغييرا، وبـدأ الناس جميعا يبكون ويصرخون <<Kyrie eleison>> ، التي معناهـا «ارحمنا يارب» وفي نهاية السـاعةالتاسعة، عنـدما بدأوا يترنمون بقطعـة من أغنية الخروج، جـاءت سحـابـة صغيرة فجأة مـن الشرق، ووقفـت فـوق القبـة المفتوحة للكنيسة، وتسـاقط مطر لطيف فوق الضريح المقـدس وبللنا مع الـذيـن وقفـوا وراء الضريـح، وفي هــذه اللحظـة أضـاء النـور المقـدس الضريـح المقدس، الـذي أشـع بنـور باهـر، وضيـاء رائع، وعنـدها فتـح الأسقـف الـذي تبعـه أربعـة شمامسـه أبـواب الضريـح، ودخلـه ومعـه شمعدان الأمير بلدويـن ليشعله أولا من قبل النور المقدس، ثـم عاد بعد ذلك الى الأمير الـذي غير مكانـه، وأمسك الشمعـدان بيديـه وهو مسرور غاية السرور، وأشعلنا شمعداناتنـا من شمعدان الأمير، وأمررنا الشعلة الى كل انسان في الكنيسة.

ولايشبه هذا النـور المقدس اللهب العادي، لأنه يحترق بطـريقة عجيبة رائعـة، ويعطي ضيـاء لايمكن وصفـه، ولونـا أحمر يشبه لـون الزنجفـر «كبريتيد الـزئبق»، ومكـث الناس جميعا واقفين، وبـأيديهم الشمعـدانات المشتعلة، وهـم يرددون بصـوت مرتفع وبسرور عـارم: « لقد رحمنـا الرب» ولايمكـن لانسان أن يشعـر بسرور يضـاهي السرور الـذي يشعـر به كـل مسيحي في اللحظة التـي يرى فيها نور الرب المقـدس، والانسان الذي لم يشارك في روعة ذلـك اليوم لن يصدق الـرواية التي دونتها والحاويـةلكل ما شاهـدته، وفقط الرجال العقـلاء والمؤمنين هـم الذين سيضعـون كامل الثقة في تصديق هذه الرواية، وهـم الذين سوف يستمعون بسرور إلى جميع

التفاصيـل المتعلقة بـالأماكـن المقدسـة، والصادق بـالقليل سـوف يكون صـادقاً بـالكثير، لكن بـالنسبة للشريـر وعديـم الثقة يبـدو الصدق دومـاً بـالنسبة لـه كذب، ويشهـد الرب والضريـح المقدس لـربنا على روايـاتي وعلى شخصي المتواضع، وكـذلك يفعل رفاقـي من روسيا، ومن نـوفغورد، وكييف وهم: ايزيـاسلاف، وايفانوفتش، وغوروديسـلاف، وميخائيلوفتش والاثنين كاشكتش، وعدد كبير آخر ممن كان هناك في اليوم نفسه.

وأعود إلى روايتي: ومـا أن أشع النور في الضريح المقدس حتـى توقف الغناء، وصرخ الجميع: "Kyrie Eleison"، وتحركوا جميعاً نحـو الكنيسة بسرور عارم، يحملون الشمعـدانات المشتعلة في أيديهم، ويتـولون حمايتهم مـن الريـح، ووقتهـا ذهب كـل إنسـان إلى بيته، وبعـدمـا أشعل النـاس مصـابيح الكنـائس بـوساطـة شمعدانـاتهم، بقيـوا هناك لإكمال قـداس العشاء، في حين بقـي الكهنة لـوحدهـم وبدون مسـاعدة أكملـوا قداس العشاء في داخـل كنيسة الضريـح المقدس الكبيرة، وعـدنا ونحـن نحمل الشمعدانات المشتعلة إلى ديـرنا مع راعي الدير والـرهبان، وأكملنا قداس العشاء هنـاك، ثم توجهنـا نحو خلواتنا، ونحـن نحمد الرب لأنـه تنازل فأرانا نحـن الذين لا نستحق نعمه الـربانية، وتلقينا التحليـل، وإثر ذلك انطلقنـا في حـوالي الساعـة الأولى مـن النهـار في التـوجه نحـو الضريـح المقـدس، وقـد حمل الراعـي بيـده الصليـب والـرهبـان ينشدون تـرتيلـة: «رفضـت أيها الـواحـد الخالـد الـذهـاب إلى القبر»، وبعـدمـا دخلنـا إلى الضريح المقـدس غطينا ضريح الـرب المانح للحيـاة بالقبلات والـدموع المنهمرة، وشممنـا بوجـد ونشوة العطر الـذي خلفه حضـور روح القدس وحدقنـا بإعجاب بالمصـابيح التي كانـت ما تزال مشتعلة بعظمـة رائعة وضياء عظيم، وأخبرنـا الحافظ للضريح المقدس وحامل المفـاتيح وراعي الدير بأن المصابيح الثلاثـة التي وضعت في الأسفل على الضريح المقدس قـد اشتعلت، وكـانت الخمسـة مصابيـح الأخرى المعلقـة فوق الضريـح

مشتعلة، لكـن نورهم اختلـف عن نـور الثلاثة الأولى، ولم يتملكـوا ذلك الإشعاع الرائع، ثم غـادرنا فيما بعد الضريح بوساطـة الباب الغربي، وكنا عنـدما سرنـا نحـو المذبح العـالي قـد قبلنا الكهنـة الأرثـوذكس، وتلقينـا التحليـل، وإثر هـذا غـادرنا هيكـل القيامـة المقـدسة مـع راعـي الديـر والرهبان، وعدنا إى ديرنا للاستراحة حتى وقت القداس.

وفي اليـوم الثالـث بعد قيـامة ربنـا، ذهبـت بعد القـداس إلى حافـظ مفاتيح الضريح المقدس وقلت: « بـودي أخذ مصباحي»، وقد استقبلني بلطف، وجعلني أدخل إلى الضريح لوحـدي تماماً، ورأيت مصباحي على الضريح المقـدس ما زال مشتعلاً بلهـب الضوء المقدس، وسجـدت أمام المكان المقـدس، وباستغفـار غطيت المكـان المقدس، حيـث تمدد الجسد النقي لـربنا يسـوع ، بالقبـل والدمـوع، ثم قمـت بعد هـذا بقياس طـول الضريح وعرضـه وارتفاعه حسبما هو الآن، وهـو أمر لم يكن بإمكـان أحد القيـام به مـن قبل، وأعطيـت «حـافظ مفـاتيـح» ضريح الـرب بقدر مـا استطعت، وقدمـت له بقدر ما توفـر لي من إمكانيات، وذلـك مجرد هدايا صغيرة وبسيطـة، ولـدى رؤيـة حـافظ المفـاتيـح مقـدار حبـي للضريـح المقدس، أزاح الألـواح التي تغطـي بعضاً مـن الضريح المقـدس، حيث تمدد رأس المسيح، وقطع كسرة من الصخرة المقدسـة، وأعطاها إليّ بمثابة تذكـار مباركـة، ورجاني بـالوقـت نفسه ألا أقـول شيئاً حـولها في القدس، وبعدما قبلـت ضريح الرب ثانيـة، سلمت على حافظ المفـاتيح، وحملت مصباحـي وهو مليء بالـزيت المقـدس، وغادرت الضريح المقـدس مليئاً بالغبطة، وغنياً بالنعمـة الربانية، وحاملاً بيدي هديـة من المكان المقدس، وذكرى مـن الضريح المقـدس لربنـا، ومضيت في طـريقي مسروراً وكـأني الحامل لثروة واسعة، وعدت إلى خلوتي مليئاً بالغبطة.

والرب يشهد والضريح المقدس أنني لم أنـس في هذه الأماكن المقدسة أسماء الأمراء الـروس والأميرات مع أولادهـم، وكذلـك لم أنس الأسـاقفة

ورعاة الديرة والنبلاء، أو أبنائي الروحيين وجميع المسيحيين، فقد تذكرت كل واحد، وصليت أولاً من أجل جميع الأمراء، ثم من أجل ذنوبي، والشكر لفضل الرب، الذي سمح لي، أنا الشخص غير الجدير لأن أكتب أسماء الأمراء الروس في دير القديس سابا، حيث يصلون الآن من أجلهم في أثناء القداسات، ومن أجل زوجاتهم وأولادهم، وها كم هي أسماؤهم: ميخائيل سفياتوبولك Sviatopolk [دوق كييف الأعظم: ١٠٩٣ — ١١١٣]، وفاسيلي فلادمير، وداود سفياتوسلافتش Sviatoslavitsch، وميخائيل أولغ بانكراسي Pancrace وسفياتوسلافتش Sviatoslavitsch، وغلب Gleb أوف منسك، واحتفظت فقط بهذه الأسماء التي كتبتها في الضريح المقدس، وفي جميع الأماكن المقدسة، وذلك دون تعداد بقية الأمراء الروس الآخرين والنبلاء، وأقمت خمسين قداساً من أجل الأمراء الروس وجميع المسيحيين، وأربعين قداساً من أجل الموتى.

علّ تبريكات الرب، والضريح المقدس وجميع الأماكن المقدسة تكون مع الذين يقرأون هذه الرواية بإيمان وحب، وعلهم يتلقون من الرب الجوائز نفسها مثل الذين قاموا بالحج إلى هذه الأماكن المقدسة، وسعداء هم الذين شاهدوا وآمنوا، وسعداء ثلاثة أضعاف الذين لم يروا ومع ذلك آمنوا، فبالإيمان حصل إبراهيم على أرض الميعاد، لأنه والحق يقال يعدل الإيمان الأعمال الصالحة، وباسم الرب لا تلوموا أخواني وسادتي جهلي وسذاجتي، ومن أجل خاطر الضريح المقدس لربنا لا تفسدوا هذه الرواية، فلعل الذي يقرأ بحب يتلقى الجزاء من ربنا ومنقذنا يسوع المسيح، وليكن سلام الرب معكم جميعاً حتى نهاية الدنيا. آمين

فيتيلوس

مدخل

قسم الكونت دي فوغ Vogue (في ملحق لعمله العظيم "كنائس الأرض المقدسة") أوصاف الأماكن المقدسة التي كتبت خلال العصور الوسطى إلى فئتين: الفئة الأولى وهي التي تضم ما يمكن أن يعد انطباعات شخصية، وهو ما يمكن أن ندرجه الآن تحت عنوان رحلات،وتضم الفئة الثانية مؤلفات مختصرة لمؤلفين مجهولين، يمكن أن ندرجها الآن تحت عنوان أدلة (ج. دليل)، وهي قد صممت لتزود الحجاج بالمعلومات التي يتطلبونها، أو لتساعد الذين لا يمكنهم الذهاب للحج، لتكون لديهم بعض الأفكار عن مشاهد الأرض المقدسة، وأشهر كتب الفئة الأولى كتاب أركولف Arcolfus ، الذي عدّ كتاباً معتمداً في بابه من الأيام التي كتب فيها (حوالي سنة ٦٧٠م) حتى حل محله كتب أخرى كتبت بأعداد كبيرة في أيام الحروب الصليبية، مثل كتب: سيولف Saewulf، وجون أوف وورزبيرغ Wurzburg ، وجون فوكاس، وولبراند فون أولدنبيرغ Wilbrand Vonoldenburg ، وتواريخ الأخبار العسكرية مثل كتب ألبرت دي أكس، وغيوبرت دي نوغنت، ووليم الصوري، وفولتشر دي تشارترز، وجاك دي فيتري، الخ. وبالنسبة للفئة الثانية لدينا كثيراً مما يمثلها، وعندما تعقد مقارنة فيما بين الكتابات التي كتبت أيام الحروب الصليبية، أو بعدها، يتضح على الفور أنها جميعاً استقت إلى أبعد الحدود من مصدر عام، فقد جرى نقل وتكرار بعض النصوص كاملة من قبل واحد ثم آخر، فآخر، وتبين للكونت دي فوغ أثناء أبحاثه وجود نماذج عدة من هذه الأدلة، عدلت أو غيرت من قبل كتاب خاصين لتوائم العصر، مع أوضاع الكتاب نفسه، ولاثنين من هذه الفئة أهمية خاصة، وأول نموذج منها ممثل في الكتاب الذي هو قيد الترجمة، ويعود بتاريخه إلى بداية القرن الثاني عشر م، وهو يظهر أوضاع

البلاد عند بداية الحروب الصليبية، وصنف الآخر في حوالي سنة١١٨٧، وهو يشير إلى التغييرات التي أحدثها الاحتلال اللاتيني لمدينة القدس المقدسة (سوف تتم إن شاء الله ترجمة كل النماذج المتوفرة)، وصنف النموذج الأول باللاتينية، والنموذج الثاني هو نموذج نورماندي — فرنسي.

وأقدم نسخة لدليل من الفئة الأولى، مما أمكن للكونت دي فوغ أن يحصل عليه، قد كتب فيها بين سنوات ١١٥١ و ١١٥٧، وهو موجود في مخطوطة من مخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (المكتبة الامبراطورية — المخطوطات اللاتينية رقم ١٢٩, ٥)، وذلك في نهاية تاريخ الراهب روبرت، ويبدو أن هذا المجلد قد كتب فيها بين السنوات المتقدمة أعلاه، ذلك أن قائمة الأمراء التي فيه تتوقف عند البطريرك فولتشر (١١٤٦ — ١١٥٧م)، والملك بلدوين الثالث (١١٤٤ — ١١٦٢)، وكونت ريموند الثاني صاحب طرابلس (١١٥١ — ١١٨٧م)، ويبدو أن الرسالة ترقى إلى تاريخ أبكر من هذا، فهي متقدمة على بناء جوقة المرتلين في الضريح المقدس (القيامة)، وجاءت بعد وقت قصير من تأسيس أخوانية رهبان الداوية، والتاريخ الذي اختتمت به كما يبدو أصلاً وتوقفت عنده هو من عهد بلدوين الثاني (ربما سنة ١١٣١)، وأضيفت الإشارات إلى الملك فولك والملك بلدوين الثالث من قبل كاتب متأخر، وعلى هذا يمكن أن نفترض أن تاريخها هو حوالي سنة ١١٣٠، ومصنفها غير معروف كلياً، ومع أنها معروفة تحت اسم فيتيلوس، من المؤكد تماماً أنه لم يكن كاتبها، وارتبط اسم الرسالة باسمه فقط بسبب أنه تولى إخراج نسخة تولى هو تحريرها، والرسالة الأصل كانت معروفة قبله، وهذا يمكن استنتاجه من نصها، وفيتيلوس نفسه نعرف القليل عنه، ويكتب اسمه أحياناً " فريتيلوس Fretellus والشيء الوحيد المؤكد حوله أنه كان رئيس شمامسة في أنطاكية في حوالي سنة ١٢٠٠م، ولقد اختصر النص الأصيل

اختصاراً كبيراً في النسخة التي حررها، خاصة في وصف صحراء التيه، والأساطير، والتاريخ الطبيعي، وغير الأجزاء الواضح أنها ترقى إلى تاريخ أبكر، مثل ذكر بناء كنيسة في صور فهو قد أحل كلمة أسست محل كلمة تبنى، وأضاف بعض الخصوصيات الأخرى، ووصلتنا نسخ أخرى من الرسالة، فقد نشر ليون ألاتيوس Leon Allatius في سنة ١٦٥٣ كتاباً تحت اسم Eugesippus وهو وصف للأماكن المقدسة، وهو على الرغم من عدد من التصحيفات نص فيتيلوس نفسه، وهي حقيقة ذكرها م.دي فوغ، ليظهر السهولة الكبيرة التي نسبت بها هذه الرسالة إلى مؤلفين آخرين.

وفي التفاتة نحو الرسالة نفسها، نجد من الصعب قول كثير من الثناء على ترتيب موادها، وفي هذا المجال لا يختلف كاتبنا الذي لا نعرفه عن كثير من كتاب الحجاج، ويبدأ وصفه برواية عن مدينة القدس مع أماكنها المقدسة، والمواقع المقدسة في أحوازها، وأشار إلى مختلف البقاع في المدينة المقدسة، التي يتعامل معها غالبية الحجاج، ثم يأخذنا إلى بيت لحم استطراداً بشكل غريب وهو ما يزال يتحدث عن القدس وعن وادي يهو شافاط، وجبل الزيتون، ثم مرّ بشكل سريع إلى الأردن قرب أريحا، والبحر الميت، والخليل وأحوازها، ثم عاد إلى البحر الميت، ويأتي هنا على حديث طويل حول طريق الخروج، وفي أثنائه ذكر بعض الأساطير العجيبة، وقدم تفاسير غريبة حول أسماء المحطات في صحراء التيه، وجرى تبني هذه الشروح آنذاك للإثارة، وظلت هكذا حتى أوقات قريبة نسبياً، وبعد إكماله لهذه القائمة، والاشارة إلى بعض الأماكن التي كانت هامة في الأيام الأولى لاحتلال أرض الميعاد، نقلنا إلى دمشق، عاصمة سورية، ثم تابع نحو ينابيع الأردن، وأحوازها حتى بحيرة طبرية، والناصرة، وجبل الطور، والسامرة، وشكيم، والقدس، وجاءت إشارته هنا إلى المدينة المقدسة عابرة، حيث جاز من هذه المحطة إلى بيت لحم

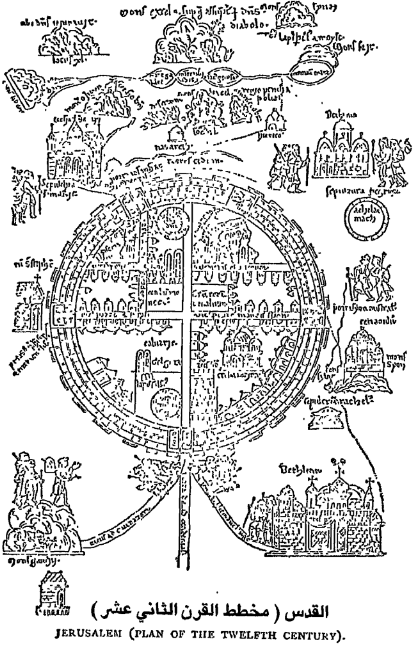
والمناطق المجاورة لها، وعاد من الجنوب إلى القدس، وقدم رواية متخلفة نوعاً ما حول تاريخها، ووضعها الطبوغرافي، ووصف إلى بعض الحدود مواقعها المقدسة، وعبر من القدس نحو الشمال، غير أنه عاد ثانية إلى بعض المواقع الجنوبية حول الخليل، ثم أخذنا من هناك إلى أريحا، وذلك قبل أن يتابع سيره عبر اللد إلى الشاطىء، فسايره إلى قيسارية، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وبعيداً حتى طرابلس، وختم رسالته بتجديد الإشارة إلى القدس، وأولى ذكر برج داود اهتمامه بربطه باسم غود فري دي بويلون، وأقحم هنا الأسطر التي كتبت على قبره في كنيسة القيامة، وهذه هي الإشارة الوحيدة حول هذا النقش معروفة بالنسبة إلينا، وأتى على ذكر خلفاء غود فري في فقرة ختامية ذكر فيها رواية عن الملك بلدوين الأول، وقد حذفناها مجاراة لما قام به م. دي فوغ.

وتنبع الأهمية الرئيسية لهذه الرسالة المجهولة المؤلف — كما أشرنا من قبل — من أنها تقدم لنا وصفاً لأوضاع الأماكن المقدسة أيام بداية الحروب الصليبية، ففي الحديث عن كنيسة القيامة — على سبيل المثال — ذكر المؤلف أن مقر جوقة المرتلين كان قيد البناء، وكان الدخول إلى البناء المستدير ما يزال ممكناً عبر أربعة أبواب في الجهة الشرقية، وتبنى الرواة الذين جاءوا من بعده أوصافه ونقلوها خطوة خطوة، وهذا من الممكن رؤيته بمقارنة بعض الفقرات المتعلقة بوصف شمال فلسطين لدى ما جاء عند جون أوف وورزبيرغ (الذي ستأتي ترجمة نصه فيما بعد إن شاء الله)، والتشابه بين النصين كثيراً وقريباً، وليس من المفيد الإشارة إليه بالتفاصيل هنا في الحواشي.

واعتمدت الترجمة على النص الذي ألحقه م. دي فوغ بكتابه، الذي تقدمت الإشارة إليه، (كنائس الأرض المقدسة، تأليف الكونت مليكيور دي فوغ، باريس ١٨٦٠، ص ٤١٢ ـ ٤٣٣)، واعتمد في إخراجه لهذا النص على مخطوطتين من رسالة فيتيلوس، ترقيان إلى القرن الثالث عشر،

وذلـك مع المخطـوطة الأقـدم التي تقـدم ذكرهـا، وإحدى المخطـوطتين مـوجــودة في المكتبـة الـوطنيــة (الامبراطـوريـة) في بــاريـــس، (F.de 574,Fo,172 s.victor,no)، والأخــرى مــوجــودة في المكتبــة الامبراطوريـة في فينا (مخطوط — مجمـوع رقـم ٦٠٩)، وجرى في حـالة أو حـالتين إكمال وصف القـدس مـن قبل الكـونـت دي فـوغ، والاستعانـة بكتاب غريب، وجـده في المكتبة الوطنية (الامبراطورية) حـوى رواية عن الحملة الصليبية الأولى، ووضع هـذه الإضافات في الحواشي، وعلى العموم تمت تـرجمة حواشي م. دي فـوغ، وجرت الإفـادة من نصـوص الرحـلات التي ستترجم، ومن كتاب لي سترانج «فلسطين في ظل الحكم الإسلامي».

هذا وجـرى تزويـد هذه الرسـالة بمصور للقـدس خلال القـرن الثاني عشر، أيام جـون وورزبيرغ وثيوديـرك، أي بعد ثـلاثين أو أربعين سنة مـن تاريخ تحرير رسالتنا الحالية.



القدس (مخطط القرن الثاني عشر)

JERUSALEM (PLAN OF THE TWELFTH CENTURY).

-١١٣٠-

وضع مدينة القدس والأماكن المقدسة في داخل المدينة نفسها أو في أحوازها

مدينة القدس قائمة في المنطقة الهضبية ليهوذا، في بلاد فلسطين، ولها أربعة مداخل:في الشرق وفي الغرب، وفي الجنوب وفي الشمال.

ويقع في الشرق الباب الذي ينحدر الإنسان منه إلى وادي يهوشافاط، ويذهب الإنسان عبره إلى جبل الزيتون،وإلى نهر الأردن، ويقع في الغرب باب داود، الذي تواجه إطلالته البحر، ومن ثم عبر عسقلان، وفي الجنوب يقع الباب الذي يدعى باب صهيون، فعبره يخرج إلى مقربة القديسة مريم فوق جبل صهيون،وفي الشمال هناك الباب الذي يدعى باب القديس اسطفان، لأنه هناك رمي بالحجارة خارج المدينة، وهذا الباب نادراً ما يفتح، ذلك أننا دخلنا إلى المدينة المقدسة عبر باب داود، الموجود على يمين الداخل منه برج داود، وهو لم يكن بعيداً عنا عندما دخلنا، ويقع برج داود على الجانب الغربي، ويعلو بارتفاعه فوق المدينة كلها.

يقوم هيكل الرب على مسافة قريبة، ويواجه اتجاه شروق الشمس، في الجزء الأكثر انخفاضاً من المدينة فوق وادي يهوشافاط، وله أربعة أبواب: باب من الشرق، وباب من الغرب، وباب من الجنوب، وباب من الشمال، وأعلى نقطة فيه هي في صخرته في الوسط، حيث هناك مذبح، وهناك جرى تقديم الرب من قبل والديه وتسلمه القديس سمعان، وإلى هنا اعتاد أن يصعد عندما كان يتولى وعظ الناس.

ويقع ضريح الرب في أسفل المدينة، على يسارنا قليلاً ونحن ذاهبون إلى الهيكل، وكنيسة الضريح المقدس (القيامة) مستديرة الشكل، وبناؤها جميل، ولها أربعة أبواب، فتحتها مواجهة لاتجاه إشراق الشمس، وضريح

الرب قائم في وسطها، وهو محمي بما فيه الكفاية، ومزين بشكل معقول، وفي خارجها، في الجهة الشرقية هناك موقع الجمجمة، وهو المكان الذي صلب فيه الرب، ويصعد الإنسان هناك ست عشرة درجة حيث يجد صخرة عظيمة، فهناك أقيم صليب المسيح، وفي الأسفل الجلجلة، حيث انساب دم المسيح إلى الأسفل من خلال وسط الصخرة، ومقام هناك مذبح مكرس على اسم القديسة أم الرب، وخارج هذا، وعبره في مواجهة لإتجاه مشرق الشمس، يقوم المكان الذي وجدت فيه هيلانة المباركة الصليب المقدس، وهناك مبنى كنيسة واسعة، [يومىء هنا إلى شرفة جوقة المرتلين في القيامة التي كانت يومها قيد الإنشاء] وفي الجانب الآخر وعبره في مواجهة الساعة السادسة (أي الجنوب) هناك مشفى للفقراء والمعاقين، وكذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وبجوارها كنيسة القديسة مريم اللاتينية، ويوجد في الكنيسة المشار إليها أعلاه، أعنى كنيسة المبارك يوحنا إبريق من الحجر حول فيه الرب الماء إلى نبيذ.

وكما سلف بنا القول يتفوق هيكل الرب بجماله على جميع الكنائس، وهناك فيه أيضاً إبريق ماء مصنوع من الرخام، فيه حول أيضاً الماء إلى النبيذ في قانا الجليل، وأسفل الصخرة القائمة في وسط الهيكل، البقعة التي كان فيها مرة قدس الأقداس، وإليها ينزل الإنسان ببضع درجات، وهناك كان زكريا يصلي عندما أعلن له الملاك جبرائيل عن ولادة المبارك يوحنا المعمدان، وهناك أيضاً المكان الذي كان الرب جالساً فيه عندما جلب إليه الفريسيون المرأة التي أُمسكت وهي تزني، وعلى الجانب الأيمن أيضاً قصر سليمان [المسجد الأقصى]، وهناك مقابل اتجاه إشراق الشمس، إلى جانب القصر المذكور أعلاه، كنيسة القديسة مريم، حيث ينزل إليها الإنسان درجات كثيرة، فهناك مهد المخلص، وحمامه وفراش أمه، وعلى الطرف الأيسر (أي الشمال) للهيكل، فيما وراء الأسوار كنيسة القديسة حنة، أم أم المسيح، وفي الخارج قيل هناك بركة الغنم.

وليس بعيداً، خلف أسوار المدينة، إلى الجنوب هناك الكنيسة التي تدعى كنيسة مريم جبل صهيون (جامع النبي داود)، حيث غادرت المباركة جداً الجسد، وفيها مكان يدعى الجليلية، حيث ظهر المسيح بعد القيامة إلى حوارييه، ووقتها لم يكن توما موجوداً هناك، وفي الكنيسة المتقدم ذكرها، في الشرق، يوجد المكان الذي ظهر فيه ثانية بعد ثمانية أيام، وكانت الأبواب مغلقة، ولقد ظهر لحوارييه، ووقتها كان توما حاضراً وقال: «سلام لكم»، وأراهم يديه، وجنبه، ومنحهم أن يلمسوه، حسبما روى الانجيلي، وإلى الأعلى يصعد الإنسان بدرج إلى المكان الذي تعشى فيه مع حوارييه، وفيه المائدة نفسها التي تعشى عليها، وهناك أعطاهم جسده ودمه للأكل في سبيل التحلل من الذنوب، وهناك أنارت روح القدس الحواريين في يوم عيد الحصاد، وعلى الطرف الأيسر هناك كنيسة القديس ستيفن، حيث دفن من قبل البطريرك يوحنا، بعدما جلب من كفر جمالا (بيت الجمال)، وأسفل قليلاً هناك جبل أكلداماك، أي حقل الدم، فهناك يدفن الغرباء، وعلى الطرف الآخر من الجبل، على منحدراته تقوم كنيسة القديس بطرس، حيث عندما صاح الديك بكى بحرقة لذنبه بالإنكار، وفي الأسفل أيضاً هناك نبع، يدعى بركة سباحة سلوان، حيث بناء على أمر من الرب، استرد الرجل الذي ولد أعمى بصره، ولا تمتلك مدينة القدس ماء للحياة غير هذا الماء.

وبيت لحم هي مدينة داود، وهي على بعد مرحلتين كبيرتين من القدس، في مقابل الساعة التاسعة (أي الجنوب الغربي)، وفيها كنيسة القديسة مريم، وهي مبنية بجمال معتبر، وفيها السرداب الذي حملت فيه العذراء مريم المباركة جداً بمخلص العالم، وفيه المزود الذي وضع فيه المسيح، وأمام السرداب مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مع الملوك الثلاثة، وما يزال أمام ذلك السرداب البئر الذي فيه ماء بارد وحلو المذاق، وقد قيل فيه سقط النجم الذي قاد الحكماء الثلاثة إلى مدخل

ذلك السرداب، زد على هـذا إن الذين يخرجـون من الكنيسـة يجدون قرب الباب سردابين آخرين، أحدهما أعلى من الآخر، ويرقد في السرداب العالي باولا المقـدسة جـداً، ويرقـد عند قدميهـا ابنتها، أقصـد العذراء المقـدسة جـداً،يوستوخيوم Eustochium ،وينـزل الانســـان الى السرداب المنخفض بـوساطـة كثير من الدرجـات، وهناك الضريح الـذي يرقـد فيه الجسد المقدس لأرميـا المبارك كثيراً،والطبيب المشهور،وهـذه هي بيت لحم التي أيضاً أمر فيها هيرود بذبح الرضع بشكل وحشي.

وتقع الكنيسـة التي تعرف بـاسم كنيسـة القديسة مـريم في وادي يهو شـافـاط،وتقـوم في وسـط الـوادي بين القــدس وجبـل الـزيتـون،حيـث يـوجـدضريـح القـديسـة مريـم أم الـرب،فهنـاك قبر جسـدهـا المقـدس جـداً،الرسـول يـوحنـا المبارك،ويـوجـد خـارج الكنيسة المكـان المسمـى جيسماني،حيث السرداب الـذي خان فيه يهوذا الرب الى اليهـود،وعلى بعد حوالي رميـة حجر بـاتجاه اليمين مكان وحـي حيث صلى لأبيـه في ساعـه آلامه، وصار عرقه مثل نقاط من الـدم تتساقط نحو الأرض،وظهر له ملاك لطمأنته ومـواساته،وعلى قمة ذلـك الجبل مكان وحي، ومـن هناك صعد الـرب الى السماء،وبـالجوار هنـاك كنيسـة أخــرى حيـث عمــل الـرب الصلاة(الرقيـة)الربانية،والى جانبهـا بيت فاج،الذي كان فيما مضـى قريه للكهنه،وعلى بعـد ميل واحد في مواجهـة الساعة الثـالثة تقوم قريـة بيت حنينا،حيث أقام المخلص لازاروس الميـت،وهنا ضريحه وهنا أيضاً كنيسة مريم المجدلية،التي كانت فيما مضى بيت شمعون المجذوم،حيث أعفاها الرب من ذنوبها.

ونهر الأردن بعيـد بعـض الشيء عـن القـدس، وعلى حـوالي العشريـن ميلاً، والـرحلة اليـه متعبة بمافيـه الكفايـة،زد على هذا،تبعـد مدينـة أريحا مــرحلتين عـــن الأردن،ويــأتي الأردن الآن مـــن الشمال،ويجري نحـــو الجنوب،والى جـانب الأردن تقوم كنيسـة القديـس يوحنا المعمـدان،حيث

يوجد فيهـا نحو عشرين راهباً أرثـوذكسيا يعبدون الرب،وتقـع العربية فيما وراء الأردن.

وليـس بعيداً عـن المكـان الـذي جرى تعميـد الـرب فيـه يقع البحـر الميـت،حيـث يصـب نهر الأردن،وكـان يـوجـد هنـا أربعـة مـدن هـي: سدوم،وعاموره،ودومـه،وساعور،التي أهلكت بعدالـة حكم الرب،ويعرف البحـر الميـت بهذا الاسم لأن مـامـن شيء يمكنـه العيش فيـه،ولايمكـن لـلأسماك أن تسبح فيـه أو تعيـش،كمالايمكـن لأي مخلوق الشرب منـه، وإذا ماطـار أي طائر فوق هذا البحـر،ووقع فيه فـإنه يموت،ويدعـى هذا البحر أيضاً باسم نهر الشيطان، ويقـع الجبل الذي صام فيه الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة على مسافة ثلاثة أميال من أريحا.

- ١١٣٥ -

وصف الأماكن القائمة حول القدس

كانت حبرون من قبل حاضرة فلسطين منذ مابعد الفيضان حتى وصول بني اسرائيل،وكانت مكان سكنى العمالقة،ومدينة كهنوتية،ومدينة مأوى لسبط يهوذا، وهي واقعة على بعد ستة أميال عن القدس باتجاه الجنوب،على تخوم صحراء اليهودية،وحدث في هذه المنطقة أن خلق الله القادر أبانا آدم،والمكان محفوظ تحت آبدة بعضها اصطناعي وبعضها طبيعي،وتأسست حبرون من قبل من قبل العمالقة قبل سبع سنوات من تأسيسهم لمدينة تنيس في مصر،ودعيت حبرون بهذا الاسم من خلال ممرا Mambre صديق ابراهيم،وهناك جبل مشرف على المدينة يحمل الاسم نفسه،وعند سفحه عاش ابراهيم لمدة طويلة، ومايزال موجوداً هناك البلوطات التي ظهر له عندها الملائكة الثلاثة،وقد تعبد واحداً منهم،حيث أخبرنا أن الثالوث المتحد، يتوجب إجلاله،وعندما اقتربوا إما بفضل الضيافة أو بفضل الحب،ليأخذوا أماكنهم الى مائدته،وضع هو أمامهم عجلاً من قطيعه مع حليب وزبدة، ومدفوع بهذه الرؤيا،بنى أول مذبح للرب،وعليه ضحى له بمحبة،ويحتفل سنوياً الى جانب البلوطات المتقدمات الذكر،احتفالاً عظيماً باسم الثالوث المقدس،وتبعاً لما ذكره إرميا انتشرت البلوطات منذ ذلك الوقت نزولاً الى أيام الامبراطور ثيودوسيوس،ومن الجذوع الحالية،تنمو كما يقال على جذورها،ومهما كانت جافة تبرهن أنها ماتزال تحتفظ بخواصها الدوائية،الى حد لو أن راكباً حمل معه قطعة منها فإن حصانه لن يخذله،وتدعى حبرون Arba ومعنى هذا بلغة المسلمين أربعة، وإليها يضاف كلمة «قرية » التي معناها باللغة نفسها «مدينة»،وهكذا صار اسم المدينة«قرية الأربعة»وأول هؤلاء الأربعة آدم المخلوق الأول،ثم يليه الآباء الرئيسيين:ابراهيم،واسحق ويعقوب،فهؤلاء يرقدون مدفونين في كهف مزدوج في حقل

عفرون،ومعهم زوجاتهم الأربع:حواء ،وسارة،ورفقه،وليا، وحبرون واقعة قرب وادي الدموع،وحمل وادي الدموع هذا الاسم،لأن آدم ناح على ابنه هابيل لمدة مائة سنة،وولد له في حبرون شيث،الذي سيلد منه المسيح،وكذلك أبناء وبنات.

ويرى في حبرون الحقل الذي قيل من ترابه صيغ آدم،ومن هناك نقل من قبل الرب الى الجنوب ليتملك في جنات عدن،التي معناها بالاغريقية والعبرية«نبع البهجة»،ونرى في التواريخ القديمة أنه بعد سقوطه،ساقه الرب من هناك الى حبرون،بدون فخر،بل على شكل نفي،فعاد ليعمل بجد في تربته المحلية،وللتعاسة والعمل بالفلاحة.

ويحفر الذين يقطنون قرب تلك المنطقة في الحقل المذكور أعلاه،ويأخذون ترابه للبيع في بعض أجزاء مصر وشبه جزيرة العرب،حيث هناك حاجة اليه،لأنه يستخدم في أماكن كثيرة بمثابة دواء وتوابل،ومهما حُفر هذا الحقل المذكور،ومهما بلغ عمق ذلك وعرضه،نجد أنه مع نهاية السنة،قد تجدد بشكل كامل، وذلك بفضل الرحمة الربانية، ولون تربة هذا الحقل حمراء،ومن هنا ذكرت التقاليد العبرية أن آدم كان أحمر اللون،وفي حبرون كان الجدان كالب ويوشع أول من لامس أرض الميعادالمقدسة، وبعدما انتخب داود ملكاً من قبل الرب وعمّد من قبل صموئيل حكم في حبرون لمدة سبع سنوات،وعنه قال الرب:« وجدت داود رجلاً حسب قلبي»(أعمال الرسل:١٣/ ٢٢)،وولد في حبرون سته أولاد لداود هم: عمون صاحب أخنوآم،وسيلآن صاحب أبيغل،وأبسالوم صاحب ماآخا،وأدونياس صاحب أغيس،وسافتياس صاحب أبيثال،وجتران صاحب أغلال،وكانت حبرون ملكا لكالب بن يفنه الذي طرد من هناك أبناء عناق الثلاثة: شيشاي،وأخيمان، وتلماي، وفي المنطقة المرتفعة من حبرون في مقابل بلاد الفلسطينيين بلدة دبير،التي كانت تحمل من قبل اسم سفر،أي مدينة الكتابه،التي استولى عليها

عنثيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال من حبرون، باتجاه الجنوب،هناك مكان قبر لوط،ابن أخي ابراهيم.

وعلى عشرة أميال من حبرون.باتجاه بلاد الفلسطينيين،توجد بير السبع،وهي مدينة جميلة وذات قدر في اسرائيل وقبل ذلك بكثير،وهي تدلل على «بئر الميثاق»،فهناك أقام ابراهيم واسحق ميثاقاً مع أبيمالك،وزرع ابراهيم في بير السبع حديقة حيث كان يدعو اسم الرب السرمدي،لأنه أقام هناك لوقت طويل،ومن بعده أقام أيضاً اسحق، الذي ظهر له الرب هناك وباركه وبارك ذريته.

وعلى بعد ستة أميال،باتجاه الجنوب،يوجد بيت فاروايل Bethef-aroel فيما بين حدود يهوذا ومصر،وهي بلاد الفلسطينيين والعربية، وقد كانت فيها مضى مدينة غنية ومليئة بالسكان،وهنا سكنت أولاً أم المخلص،عندما هربت من يهوذا الى مصر مع ابنها يسوع، وذلك أخذاً بتحذيرات الملاك،وبقيادة، خطيبها يوسف.

وعلى بعد عشرة أميال من حبرون،وباتجاه الشرق،تقوم بحيرة اسفلت،وتدعى هذه البحيرة باسم البحر الميت،وأيضاً باسم بحر الشيطان،لأنه بإغوائه و إثارته جرى تدمير المدن الأربعة الأكثر تعاسة وهي:سدوم،وعموره، ودومه،وساعور،بنار الكبريت،ولإسرافهن في أحوال الترف والغواية، ولاصرارهن على انحطاطهن أغرقن في تلك البحيرة، ومعنى كلمة سدوم:الجمهور الصامت أو العميان،وعموره: خوف الناس أو اللواطة،وساعور:البحر،أومحطة البحر،ودومه:الشهوة،وبعيد البحيرة على مسافة ميل منها،وفي إطار يهوذا تقع سيجور،ومعنى سيجور:صغير أو قليل، وتعني سيجور أيضاً بلع التي معناها امتص،وكذلك زرع، وهو اسم سرياني، وبتوحيد هذين الاسمين ودمجهما معا يصبح

الاسم «بلعزرع»،وسيجور هذه هي التي فرَّ إليها لوط من سدوم،تحت قيادة الملائكة،وقد حفظت من التعرض للنار وقلب عاليها سافلها استجابة لصلواته،وفي المخرج من سيجور،تحولت زوجة لوط الى تمثال من ملح،ولهذا مابرحت تترك أثرها هناك، وحدث على بعد من سيجور في جبل مقابل يهوذا،أن لوطاً كان قد شرب كثيراً،فتمدد مع ابنتيه،فأولدهما مآب وعمون،وتدعى سيجور أيضاً باسم«قلعة النخيل» ،وتدعى منطقة هذه المدن الخمسة باسم«بنتابولس»Pentapolis وذلك بسبب وجود هذه المدن الخمسة،وكانت البنتابولس،قبل أن يقلب عالي المدن سافلها مع المنطقة،وادياً مليئاً بالاشجار،ويحتوى على المدن نفسها،التي شن منها خدر لامور chodor laomorأو خدر لغومير chodolagomer ملك العيلاميين وعمرافيل Amrapfhel ملك شنعار Sennaar ،وعروج Ariogملك بنطش Pontus،وثدس THADES ملك الأمم، الحرب على بسا Basa ملك سدوم، وبرسا Barsa ملك عمورة، وسنعاب Sennaabملك دومه، وسمبر Semeber ملك ساعور،وملك بلع، وقد هُزم هؤلاء الملوك،وسلب المنتصرون وحملوا معهم أسلاب شعب سدوم وعمورا، وكذلك أخذوا أطعمتهم، وحملوا معهم لوط ابن أخي ابراهيم أسيراً.

وبين سيجور وأريحا تقوم المنطقة التي تعرف باسم نجدي Engadi، وهناك أيضاً كروم نجدي، حيث ينمو البلسم بشكل رائع بوفرته وخصبه،ويوجد فوق بحيرة الاسفلت الكثير من الشب وأيضاً الكثير من القطران، والشب هو ماء ملح الأرض،ويتكون في الشتاء من تمازج الفطر الغروي والماء،وينضج بوساطة شمس الصيف،.... والقطران نوع من أنواع السوائل،له رائحة قوية،وهو ضروري لدهن الجمال لإزالة الجرب،ولطلاء الكروم لطرد الحشرات التي تأكلهم،وقرب بحيرة اسفلت هناك جبل يبدو كله وكأنه من الملح، ويستخرج من البحيرة أحجار

الطـواحين،وهي الآن ضرورية في تلك المنـاطـق،ويستخرج مـن البحيرة الحمر (القـار)الذي يستخدمه الأطبـاء،والبحيرة نقية الى درجة يمكــن من خلالها رؤيـة الأبنية والخرائب بشكـل واضح،لكـن ملوحتهـا شديـدة الى درجـة أنه لايمكـن لأي مخلوق تحملهـا، كما لايمكن لأي طـائر أن يطير عبرها،ويوجد في البحيرة جزيرة تنتج تفـاحات خضر فاقع لونها،يبدون من شكلهن أنهن شهيات جداً ، لكن ما أن يمسكهن الانسان حتى يتفتتن ويتحولن الى رمـاد، ويخرج منهن دخان كما لو أنهن مازلن يحترقـن، وغالباً ماظهـرت أخشاب الجزر مبعثـرة مثل الرمـاد والجمرات،وكـأنها تمثل المدن المحترقة،وتجلب الأخشاب من الجزر بوسـاطة السفن لتستخدم بالأغراض والحاجـات المحلية،وإذا حـدث وأمضى أحـد النـاس ليلة فـوق البحيرة وترك زجاجـة مملوءة بالنبيذ أو الماء على الأرض،يجدها في اليـوم التالي وقد تحولـت مــن الحلاوة الى المرارة وغـدت غير سـائغــة للشراب،وهنـاك في البحيرة الجزيرة المواجهـة لزدرم،التـي زارها سابـا،وأمضى فيهـا الصيام في خلوة،وهنـاك كاد أن يحترق تمامـاً بسبب إغـواء الشيطان،وذلـك بوسـاطة صاعقة ناريـة مفاجئة،وبقي بلا حياة لمدة سبعة أيـام غير أنه حفظ برحمة الرب،واسترد قـوته،ومـع ذلك بقـي فيها بعد بـدون لحية،وعنـدما عـاد الى بلده نادراً ماعرفه أخوانه أنه سابا.

ويلي مناطـق اسفلت نـزولاً نحو المنطقـة العربيـة مدينــة الصفا Sava القديمة التي هدمها خدر لغومير chdorlogomer،والبنتابولس المتقدمة قائمة على التخوم بين يهوذا والعربية.

وكانـت العربيـة في أيام خـروج بني اسرائيـل من مصر أرضـاً معزولـة وواسعة،وكـانت مـرعبة ولايمكـن المرور بها،ولاماء فيهـا،لكن تحت قيـادة مـوسـى،وبـرحمة مــن الـرب امتـلأت بـالينـابيـع،وتحولــت الى أرض خصبـة جـداً،وأبقى الـرب بنـي اسرائيـل في العربيـة لمدة أربعين سنـة،في اثنتين وأربعين محطـة،ولم تهترىء مـلابسهـم خـلال هـذه المدة كلهـا،

وأشبعهم الرب من طل السماء ومن المن،وكان كل واحد منهم يجمع لأسرته وآل بيته جميع الطيبات المتنوعة واليابسة،وتوليت تبيان هذه المحطات الهامة وأحصيتهن ورتبتهن حتى أدونهن في رسالتي:ولابد أن العبرانيين الحقيقيين قد أسرعوا لدى اجتيازهم أثناء عبورهم من الأرض الى السماء،ولدى تسابقهم في سبيل ذلك،ولابد أنهم عندما تركوا مصر الدنيا قد دخلوا الى أرض المعياد،أي الى أرض الأب السماوية.

وكانت أول محطة هي رعمسيس،وهي مدينة داخل تخوم مصر،حيث منها دخل حشد بني اسرائيل الصحراء،في اليوم التالي لعيد الفصح،وذلك على مرأى من المصريين،الذين حرموا الى حد كبير من آنيتهم الفضية والذهبية،وتفسر كلمة رعمسيس أنها تعني: هياج أو عاصفة.

وكانت المحطة الثانية هي سكوت،حيث خبزوا للمرة الأولى خبز فطير،ولأول مرة نصبوا خياماً،ومعنى كلمة سكوت خيام العهد،أو خيام.

وكانت إيثام هي المحطة الثالثة،حيث مضى الرب أمامهم،ورأى شعبه في الليل عموداً من نار،وظللتهم الغمامة في النهار،ومعنى كلمة إيثام البهاءأو الكمال.

وكانت المحطة الرابعة هي الحيروثFyairoth التي قبالة بعل صفون،وتعني كلمة حيروث«فم النبلاء»،وكلمة بعل صفون«رب الريح الشمالية».

وكانت المحطة الخامسة هي مارة،وعبروا البحر الأحمر بعد ثلاثة أيام،ومعنى كلمة مارا«مرارة».

وكانت إيليم هي المحطة السادسة،حيث وجدوا اثنتي عشر عين وسبعين نخلة.

وكانـت المحطة السابعـة ثانية بعـد بعض التجوال حـول البحر الأحمر والتيه هناك.

وكانت المحطة الثـامنة في برية سين،التي تمتد حتـى جبل سينا،ومعنى كلمة سين عليق أو كراهية.

وكانت المحطة التاسعة هي دفقة التي معناها:نبضة.

وكانـت المحطة العـاشرة هي ألـوش،التي معنـاها عـدم الرضـا،وتبرم الاسرائيليـون في البرية وتضـايقـوا من الجوع،وكـانـوا يتلقون السلـوى في المساء والمن في الصباح التالي.

وكانت المحطة الحادية عشرة هي رفديـم التي معناها عزل الشجاع أو اعـادة القوة، وهنـا عنـدمـا عطش النـاس نبـع الماء مـن صخرة حـورب Oreb،وهنـا حارب يـوشـع أمالـخ Amalech ،والى هـاهنا جـــاء جـرتــو الى مـوســى،وهنـا تمتــم النـاس ضــد الـرب في أثنــاء غيـاب موسى،وصنعوا عجلاً من ذهب،وعبدوه.

وكـانت بـرية سينـاء هي المحطـة الثـانية عشرة، ومعنـى كلمة سينـاء العليق،وجبل سيناء في العـربية مرتفع كثيراً، ومن الصعب الـوصول اليه، ويساوي طـريق الصعـود اليه ثلاثـة الاف وخمسمائة درجة،وقـال النساك المقدسـون جداً والـرهبان عـن سيناء ،الـذين سكنـوا هناك إنـه لم ينقطع ترداد الملائكة عليها وسيرهم عليها منذ أيـام موسى،ويخرج الدخان دوماً مـن جبل سينـاء مع لمعـان أضـواء ناريـة،وقالـوا عـن سيناء،ومـاقالـوه حقيقي،بـأن هناك نـاراً سماوية تطير حـول سيناء كـل يوم سبـت غير أنها لاتحرق،،وبعـض الناس لمسهـا لكنها لم تـؤذهم، وفي الغـالـب تظهـر على شكل غيمات بيضـاء،وتتحرك بشكل لطيف وتطـوق الجبل،وتهبط أحيـاناً بصوت مـزعج ومخيـف،ووقتها يفـر المقدسـون الذيـن يسكنون هنـاك من خلال السراديـب والخلوات الرهبانيـة،وهناك على قمة جبل سينـاء كنيسة

مبجلـة وجميلة،وهـي قائمـة على البقعة التـي أعطـى فيها الـرب موسـى الشريعة مكتوبة باصبعه على ألواح مـن الحجارة، وللكنيسة المتقدم ذكرها مكانـة عاليـة وتبجيلاً عظيماً الى درجة أن مـامن أحـد يجرؤعلى دخولها،أو حتـى على صعـود الجبـل،مـالم يقـم بـاجـراءات القبـول بـالاعتراف ثـم بمجاهـدة النفس بالصـوم والصلوات، والرهبـان والنساك هناك متـدينون الى درجة عـالية حتـى أنهم يعبدون الـرب بإرادتهم لـوحدهـم وبدون أي ضغط جسـدي أو عقلي،وسمعتهم رفيعـة جداً،فهـم موضـع الاحترام من تخوم أثيـوبيـا الى حـدود بـلاد الفـرس،ويطـرى عليهـم بكـل لسـان شرقـي،ويتصرفون بممتلكـاتهم بحـريـة وبهدوء فيما بينهم أنفسهـم،ولهم خلواتهم في أرجـاء مصر وفي فارس وحـول البحر الأحمر،وفي العـربية التـي تأتي منهـا كل طلباتهم ملباة بكـرم زائد،وهم مبجلون جـداً الى درجة أن مامن أحـد يتجرأ على التفكير بايذائهم بأي شيء، وإذا مـاحدث وحاول أحد لمسهم بـأي سبيل،فانه يلقـى الانتقام ثقيلاً من الـرب،وهم يسكنون حول الجبل،كل واحـد في خلوته،ولا يعيشون بشكل جماعي بـل يتشاركون بالممتلكـات والمقتنيات، وفي سينـاء العليقة التي ظهـر فيها الـرب لموسى داخل لهب نار ماتزال آثارها قائمة.

وكان اسم المحطـة الثالثة عشرة هو قبروت هَتَأْوَة(قبـور الشهوة)،فهناك اشتهى أبناء اسرائيل اللحم كثيراً، ولهذا السبـب أثاروا غضب الرب،فنال الناس ذلك،وهلك بذلك عدد كبير، ومن هنا نال ذلك المكان اسمه.

وكـانـت حضيروت هي المحطـة الـرابعـة عشرة،حيث انتقـص هـرون ومـريـم مـن قدرموسـى لأنـه تـزوج مـن امـرأة أجنبية،هـي ابنـة ملـك أثيوبيا،فضر بامن قبل الرب،فهنـا تزوج في وقت نصره العسكري في مدينة سبا Sabaالتي اسمها الآن مارو Maro،وذلك على مسافة من النيل فيما بين أستابوس Astabusوأستابورا Astabura ،وهي مدينة تنتج كثيراً من الثروات بفعل تعاون الحرفة والطبيعة،ومعنى كلمة حضيروت إهانة أو

عدوان.

وكانت رثمة هي المحطة الخامسة عشرة، ومعنى هذا الاسم:صوت أو باقلاء،ومن هنا جرى ارسال الاثني عشر جاسوساً الى أرض الميعاد التي جلبوا منها عناقيد من العنب.

وكانت المحطة السادسة عشرة هي كاموس Camoth التي معناها : توزيع الرمان(رمون فارص).

والمحطة السابعة عشرة هي لبنة، والتي معناها باللاتينية:في الجانب

والمحطة الثامنة عشرة هي رتسه التي معناها:لجام.(في سفر العدد:٣٣/ ٢١-رسه ومعناها ندى).

والمحطة التاسعة عشرة هي قهيلاته التي معناها:كنيسة .

والمحطة العشرون هي جبل شافر(جبل الجمال)التي معناها:خيانه،أي خيانة المسيح.

والمحطة الحادية والعشرون هي عربة التي معناها: معجزة(في سفر العدد:٣٣/ ٢٤-حرارة ومعناها مكان الرعب).

والمحطةالثانية والعشرون هي مقهيلوت،التي معناها: في الاجتماع أي في الكنيسة.

والمحطة الثالثة والعشرون هي تاحت التي معناها:خوف.

والمحطة الرابعة والعشرون هي قارح التي معناها:للخدمة أو للمرعى.

والمحطة الخامسة والعشرون هي مثقة التي معناها:بهجة.

والمحطة السادسة والعشرون هي حشمونة،التي معناها:سرعة.

والمحطة السابعة والعشرون هي أفيروث(مسيروت)التي معناها:روابط

أو نظام.

والمحطة الثامنة والعشرون هي بني يعقان التي معناها :أبناء الضرورة أو السحق.

والمحطة التاسعة والعشرون هي جدجاد التي معناها:رسول،أو حاد،أو ختان.

والمحطة الثلاثون هي يطبات التي معناها: طيبات أي المسيح.

والمحطة الحادية والثلاثون هي عبرونة،التي معناها:العبور.

والمحطة الثانية والثلاثون هي عصيون جابر،التي معناها:عظام الرجل .

والمحطة الثالثة والثلاثون هي برية صين،وهي قادس أو قادس بارن،ومعنى صين:مقدس.وهناك توفيت مريم أخت موسى وهرون ودفنت،وهناك ضرب موسى الصخرة بالعصا مرتين،وجرى هناك جدولين لسقاية تلك الأجزاء من العربية.

والمحطة الرابعة والثلاثون هي جبل أور في تخوم أرض أدوم،وهناك توفي هرون في مكان اسمه هورث.

وفي منطقة أور هناك جبل اسمه جبل عدن،الذي يعرف أيضاً باسم«جبل الرمل»،لأنه قائم في منطقة رملية،وهو جبل يصعب الوصول اليه،وله ارتفاع رائع،مشيد بشكل طبيعي وكأنه برج،قد فصل بشكل اصطناعي،ومحيطه أكثر من مسيرة يوم،ونادراً ما يمكن رؤية أشجار على طرفي الجبل،وتطير أنواع مختلفةوكثيرة من الطيور حول الجبل على شكل أسراب،مع أن الجبل يبدو أنه بدون خضار أو ماء، وبعيد تماماً عن الخصب،لأنه قائم في صحراء ،وبالنسبة لهذا الجبل أكد الذين يعيشون على مقربة منه بشكل يقيني، أنه في إحدى المرات كان صعود الجبل مفتوحاً لاثنين من الرجال وذلك بإرادة من الرب، وتمكن الأول بينهما

بخطـوات سريعة وبحـرية مـن اجتياز حـدود الجبل، في حين لم يستطـع الآخر بصعوبة الـوصول إلى وسطه، فتعب وانقطع نفسه فجلـس ولم يتابع تسلقه، في حين عبر الآخر الأجـزاء العالية، وهو يتعجـب من جمال الجبل، ومن الهدوء والسكـون في البقعة، ومن نقاء الهواء، وجمال وروعـة الورود،، ومـن روائح الأعشـاب الجميلـة، ومن أنـواع الأحجـار الثمينـة في مجاري الجداول الصادرة عـن الينابيـع، ومن صفاء اليـنـابيع، ومـن وفرة الفـواكه التي تحملها الأشجار، ومن جمال تلك الفواكـه، ومن تغريد وغناء الطيور، ومـن المواقع الظليلـة وخضارهـا، ورغـب وهو مبتهـج، وتعهد أن يعيـش هناك وأن يمـوت أيضاً إذا ماسمح لـه الرب، ونظر مـن حوله فانـدهش لغيـاب رفيقه، وبسرور عـارم وبهجه، قـام وهو يضحـك في نفسه وصفـق بيديـه، فسارع نحـو قمة الجبـل، فدعـا رفيقه، واستـدعى صـديقه الـذي رغـب تماماً في أن يسكـن معه فـوق ذلك الجبـل، حيث — كما قـال — هناك نبع دائم، ووعده أن مـايدعوه إليه هو جنة ثانيـة، وصحيح أنه ألح كثيراً على رفيقه للالتحـاق به، نحن لانعرف، هل أدهشت هـذا الصديق مصاعب الجبل أو أنه دفع عائداً بمـوجب منع رباني، فتخلى عن الصعود والدخول وبقـي حيث هو، وبعدمـا لاحظ وأدرك ماسمعه ومـارآه، طلب الوداع من رفيقـه، ونزل بعد صعوبات جمة، وعاد إلى حيـث أتى، وحكى كل مارآه وماسمعـه،وهناك حول جبل عدن جبال أخـرى، وعدد كبير من التلال، والصخـور والأكوام الحجريـة، المنفصلة عن القمـة نزولاً بوسـاطة أقواس، وكهوف وسراديب، ومغائر متنوعة قـابلة للسكن، حيث قالوا بأن نساكاً أتقياء ورهباناً عاشوا فيها في الأزمان القديمة.

وينبع عند سفح جبل عدن نبـع قصير وبلا جدول، وأنت إذاما رأيت هذا النبـع تظن أنـه لايكفي بكل صعـوبة لإرواء فـرسين أو ثلاثـة، ومع ذلك إنه يكفي عدة رؤوس حيث تبرهن أن ماءه لايزداد ولاينضب.

والمحطة الخامسة والثلاثون هي صلمونة.

والمحطة السادسة والثـلاثون هي فونون، وهاتـان المحطتان لاوجود لهما في السياق التاريخي.

والمحطة السابعة والثلاثون هـي عيبار على تخوم مآب، ومعناها: أكوام من العابرين.

والمحطـة التاسعـة والثلاثـون هـي أوبوت التـي تغيرت فصار اسمهـا ماجي Magi أو فيتونس Phitons.

والمحطة التاسعـة والثلاثون هي ديبـون جاد، التي قاتـل فيها اسرائيل ضد سيمـون ملك الآموريين وعوج ملـك باشان، ومعنى كلمـة سيمون: إغواء العين، وعوج: خاتمة، وباشان: فوضى.

(الصحيح: سيمون: يجرف كل ماأمامه، عـوج: الرقبة الطويلة: الناعم أو التربة الرملية)

والمحطة الأربعون هـي علمون دبلاتايـم، وهنا في مواجهة أريحا مـوقع حشبون حيث كتب موسى سفر التثنية.

والمحطة الحاديـة والأربعون هـي جبل عباريـم في مواجهـة نبوب، وفي عبـاريم مـات موسـى، وفيهـا دفن، غير أن معـالم قبره غير ظاهـرة في أي مكان، ويقـول العبرانيون إن إرميا وقد أعطـي رؤيا سقوط القـدس، فخبأ في كهف تحت جبل عباريم تابوت العهد مع محتوياته.

والمحطـة الثانيـة والأربعون هـي سهل مـآب عبر الأردن غير بعيد عـن أريحا، لكن الأردن بينهما، وهنـاك نصبوا خيامهم التـي امتدت من مـوطن البرية حتى بسّـاخاتياس Bessachatais في سهل مَـــاب حيث عسكرت اسرائيـل عندما تمت مبـاركتها من قبل بلعـام فوق جبل كـرنيم (كرك؟) في جبـل مآب، وتـرجمة هذه الكلمـة: «جبل انفصـل بسبب تمزق عنيف»، وأقام في المكـان نفسه في السهل الآنف الذكر بـالق — بناء على

نصيحة بلعام — امرأة للاكتراء حتى ينخدع بها اسرائيل. وهناك طعن فنحاص زمري والعاهرة برمح، وهناك جرى احصاء بني اسرائيل ودخلوا في معركة ضد المدينيين، وهناك عبروا الأردن، وبعد عبور الأردن كان أبناء رأوبين وأبناء جاد، ونصف سبط منسي أول من تسلم ملكاً في أرض الميعاد عبر الأردن، لكن يوشع نصب خيمته في الجلجال حيث وضع هناك تابوت عهد الرب، وتدلل كلمة جلجال على لف أو وحي، وهنا جرى تحذير بني اسرائيل ومنعهم من جلب الأصنام إلى الأرض المقدسة: ومن هناك قدموا إلى أريحا وحاصروها، ودمروها تدميراً كاملاً ، ومعنى كلمة أريحا: قمر أو انقضى.

وبين الأردن وأريحا يقوم بيت أجلا Bethagla ومعنى هذه التسمية بيت الدائرة، لأن هناك التف أولاد يعقوب حول جنازة أبيهم وهم ينوحون وذلك عندما جلبوه من مصر إلى حبرون.

وبين أريحا والجلجال أم كنخور Emecanchor التي معناها: وادي عخور، أي جيشان الناس أو الحشود، فهناك رجم عخان حتى الموت لأنه أخذ أشياء ملعونة، وفي الجلجال ختن يوشع الناس مرة ثانية، وهم أقاموا الحجارة التي جلبوها من الأردن، لأن تابوت العهد ثبت هناك لمدة طويلة.

وتتصل العربية بأدوم في تخوم بوصترون Bostron التي هي بصرة التي كان منها برخئيل البوزي، لكن هناك بصرة أخرى في جبال أدوم، التي ذكرها إشعيا بقوله: «من ذا الآتي من أدوم بثياب حمر من بصرة؟» (إشعيا: ٦٣/ ١)، وأجزاء من أدوم هي طرخونة وعيطورة التي تطل على دمشق، ومن هاتين اتخذ فيليب — تبعاً للوقا الانجيلي — دويلة، وكان الذي أسس طرخونة هو عوص، الابن الأول لآرام، وحفيد سام، ولهذا السبب عرفت باسم بلاد عوص، ومنها جاء يعقوب البصروي المبارك، الذي كان من قبل مطران أدوم، وأدوم هي جزء من سورية، وفي سورية

تقوم دمشق.

وكان أليعازر ابن وكيل ابراهيم قد أوجد دمشق في ذلك الحقل الذي قتل فيه قائن أخاه، ولهذا السبب تعرف دمشق باسم ابنة الدم أو قبلة الدم، وكانت دمشق من قبل عاصمة سورية، لكن تلك المكانة نقلت من قبل أنطوخيوس إلى أنطاكية، وحملت سورية اسمها من سوري حفيد ابراهيم، وهو ابن قطوره Ceturah ، وتعرف دمشق أيضاً باسمها الثاني وهو أرام، وباسم ثالث هو أرفاث Arfath ، ولدمشق مكانة عالية في سورية، لأنها كانت مطرانية من قبل، وتبعاً لزكريا عرفت دمشق باسم حدراخ، وسكن عيسو أجزاء منها، وامتلك أيضاً سعير وأدوم، ونسبة لأدوم يعرف جزء من سورية باسم أدمة، وفي سعير تقوم مدينة أدمة، وفي أدمة، ليس بعيداً عن دمشق، يقع جبل سعير، وسكن في سعير الحوريون الذين قتلهم خدر لغومر.

وفي أحواز أدمة، وعلى بعد ثلاثة أميال من الأردن يقع نهر يعقوب، وعرف بهذا الاسم بعدما عبره يعقوب عندما عاد من بلاد الرافدين، وإثر ذلك تصارع مع الملاك.

وعلى بعد أربعة أميال من دمشق يقوم المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول وخاطبه قائلاً: «شاول، شاول، لماذا أنت تعذبني»؟، ولذلك هناك أيضاً في دمشق كنيسة محترمة مكرسة على شرفه وهي تحت ادارة رئيس أساقفة أرثوذكسي.

وعلى مسافة أربعة وعشرين ميلاً من دمشق تقوم بانياس، وذلك عند سفوح لبنان باتجاه الجنوب، وهي مدينة عظيمة تدعى أيضاً باسم بلنياس، وهذا الاسم مشتق من كلمة بيلينا Bilina بسبب جمال الموقع، وتعرف أيضاً باسم قيصرية فيليب، حيث تلقت من قيصر اسمه.

وعلى بعد (خمسة وعشرين) ميلاً من دمشق، وذلك باتجاه الشرق يقوم

مدخل وادي البقاع، وهناك تقوم بعلبك، وهي مدينة قائمة على موقع جميل جداً، وقد جرى تأسيسها من قبل سليمان، وبسبب خصب غابتها بمختلف الأشياء الجيدة وشهرتها، دعاها باسم «غابة لبنان»، فقد بنى فيها بيتاً من عاج، ومن هنا تعرف أيضاً باسم غابة لبنان.

وينبع عند سفح جبل لبنان فرفروأبانا،نهرا دمشق،ويفصل أبانا جبال لبنان ويتدفق عبر سهل عرقة،وفي تلك المنطقة يتصل بالبحر العظيم،والى هذه المنطقة انسحب يوستاخيوس Eustachius المبارك،لدى اعتزاله بعدما حرم من الزوجة والأولاد.

وعرقة مدينة لاترام تقريباً ،وقد أقامها عرقيوس الابن السابع لكنعان،عند سفح جبل لبنان،على بعد ثمانية أميال من مدينة طرابلس،وذلك باتجاه الشرق، وتشكل عرقة بداية فينيقية،التي حدها جبل الكرمل،وهناك تبدأ فلسطين، ويشطر لبنان سورية وفينيقية،ويجري فرفر خلال سورية الى ربلاتا (ربلة) أي أنطاكية،ويتدفق قرب أسوارها ليدع نفسه فيصب في البحر المتوسط في ميناء سلوقية (السويدية)أي القديس سمعان،وذلك بعد عشرة أميال من المدينة.وعند سفح لبنان،وليس بعيداً عن بانياس هناك«أر»و«دن» فمن هذين النبعين يتشكل نهر الأردن تحت جبل جلبوع،حيث جرى تعميد المسيح من قبل يوحنا،ويمتد من جبال جلبوع الى بحيرة الوادي الذي يجري فيه نهر الأردن، ويعرف باسم الغور.

ويطلق بالعبرية(الصحيح بالاغريقية)اسم ألون على ذلك الوادي الواسع والمستوى الذي يحده من الطرفين استمرار امتدادات جبل لبنان الى صحراء فاران،ودون ألون هناك وادي بيسان،أي الوادي الذي يمتد من بيسان الى الأردن.

وفي الشمال ،فوق الأردن،هناك بعل،وبعل معون،وهما مدينتان لهما

شهرة واسعة،بنيتا من قبل رأوبين،ويوجد في الشمال بيت رام الذي بناه سبط جاد.وفي ألون،عبر الأردن،هناك عمون أي بيت حنينا الذي تعمد فيه يوحنا، وفي زاوية بيت حنينا هذه هناك:قرنايم وعشتاروث، فهناك-حسبما قالوا-سكن يعقوب،ويفصل الأردن فيما بين الجليل ومنطقة البترون،ومعنى كلمة الأردن:الانحدار،لأنه ينحدر دوماً عبر مجراه،ويرسل«دن» ماءه تحت أرض غالبية المنطقة من منبعه الى ميدان ليس بعيداً عن ثمان themanالتي هي مطرانية سوته(الحولة)،وميدان سهل جميل وخصب،فيه تظهر قناة«دن»بوضوح فوق الأرض،ولهذا السبب عرف باسم ميدان، لأن«دن»ينبعث ثانية في منتصفه.

وعند المسلمين تطلق كلمة ميدان على الطريق الواسع،ويقابلها باللاتينية فوريومForum،وللسبب التالي أطلق عليه اسم ميدان،ذلك أنه في كل صيف يحتشد عدد هائل من الناس هناك،ويقيمون في ذلك السهل،وهم يحملون أو يجلبون معهم كل شيء قابل للبيع والشراء،ويكون معهم قوة كبيرة من الفرس والعرب لحمايتهم، ولإطعام قطعانهم في هذه المراعي الخصبة جداً،وتتألف كلمة ميدان من كلمتي «مي»و«دان»،فكلمة «مي» معناها عند المسلمين الماء(في اللاتينية أكوا Agua)،ومعنى كلمة «»دان»نهر ،ويجري نهر «دن»من سهل دان الآنف الذكر الى الحولة.

والحولة الآن جزء من أرض الحصن(جمالا Gamala)،ومايزال يرى في الحولة آبدة يعقوب،وهي مسرح عيد سنوي يرعاه ويشارك فيه الأرثوذكس والسريان والمسلمون.

وبعد الحولة نعمان التي جاء منها سوفر Sophar النعماني، وينحرف«دن» المواجه لطبرية جانباً تحت مدينة جدر (أم قيس)،ويعبر السهول قرب الحمامات الطبية لسباينتومSpinetum(الحمة)ويتحد مع

«أر»تحت جلبوع.

وفي سبايتتوم انهزم جرفاس أوف باسيـل،وهو الأمير الثالث لطبرية بعد تانكرد، وهـوأيضاً انحدر من بيـت فرنجي نبيل،انهزم أمـام طغتكين ملك سورية وقـد أخذه أسيراً وحمله الى دمشق،وهنـاك أسكر طغتكين نفسه الى أبعد الحدود،وفي هـذه الحالة أمـر بقطع رأسـه، وبذلـك حولـه الى شهيد مشهور للرب،وعندمـا عاد الى نفسه في اليوم التالي شعر بـالخجل وغضب لأنه أهلـك مثل الرجـل الجيد،فأمر بـدفنه بدون رأسـه،وأمر بقحفه فـزينه بشكـل جميل بـالـذهـب وبالجواهـر الثمينـة واحتفظ بـه كتـذكـار عزيـز عليه،ويشرب منه.

ويصبح «أر»على مقربـة من بانياس بحيرة(الحولة)،ثـم بعد ذلك يصير بحر الجليل الذي يبـدأ بين كفر ناحوم وبيت صيدا،وجـاء من بيت صيدا كل من بطرس وأنـدرو،ويوحنا ،وجيمس،وجيمس هو ابـن ألفيوس وتقع على أربعة أميال من بيـت صيدا كوروزينCorozainالتي سوف ينتعش فيها المسيح الدجال.

وتقع جـدر على بعد أربعة أميـال من هاهنا،وهـي مدينة رائعـة ،عنها قيل:«هو سكن مع سكان جدر»،ومعنى كلمة جدر: الظلام.

وتقـع كفرنـاحـوم على النهايـة العليـا من البحـر،وعـن وفائهـا تحدث المسيح،وعلى بعـد ميلين من كفرنـاحوم يقع مهبـط الجبل،الذي أقـام فيه قداس وعظ للحشود،وهناك أيضاً أبرأ المجذوم.

وعلى مسافة ميل مـن ذلك المهبط المكان الذي أطعم فيـه الرب خمسة آلاف رجـل،ولهذا السبـب يعرف المكـان بـاسـم«المائدة»،ومصاقـب لـه المكان الذي أكل فيه المسيح معهم بعد قيامته.

ويقوم عبر شاطـىء بحر الجليل جرجـوسيا،وهو المكان الـذي شفى فيه الـذين تلبسهـم الشياطين.وعلى يسـار رأس البحر،في جـوف الجبل تقـوم

جنسار،ويحتوي المكان على ذهب،ومنه ينشأ مستنقع جنسار.

وعلى مسافة ميلين من جنسار يقع المجدل،الذي جاءت منه مريم المجدلية،وهنا زيادة على هذا يوجد كل من زبلون Zabulon ونفطليم Nephtalim التي جاء منها طوبياس، وكان في الأجزاء العليا من الجليل هذه عشرين مدينة أعطاها الملك سليمان بمثابة هدية إلى حيرام ملك صور.

وعلى بعد ميلين من المجدل تقع مدينة سينيرث cynereth التي هي طبرية، وكان هيرود الأصغر قد أسس طبرية تشريفاً للقيصر طايبروس، وأطلق عليها اسمه، ونسبة إلى مدينة طبرية حملت البحيرة اسمها وباتت تعرف باسم بحيرة طبرية، ومحيطها يقارب رحلة يوم واحد، زد على هذا إن من سماتها نفسها أنها إذا لم تتلق قاذورات المدينة والقلاع المجاورة يصبح ماؤها غير قابل للشرب وله رائحة.

وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقوم مدينة بيت أوليا (خطأ — الإشارة هنا إلى صفد ولعل بيت أوليا الآن: مثليا) التي جاء منها يودث الذي قتل أولوفرنس Olofernes.

وعلى بعد أربعة أميال من طبرية باتجاه الشمال تقع دوثيم (لعل المراد هنا خان يوسف وتقع دوثان قرب طولكرم) حيث وجد يوسف أخوته، وحيث هناك باعوه.

وتقع مدينة الناصرة على بعد اثني عشر ميلاً من طبرية، وهي حاضرة الجليل، وفيها نشأ يسوع وترعرع، ومعنى كلمة ناصرة هو: وردة، وفتح يسوع في الناصرة سفر يسياس Ysaias وشرح بعضاً منه لليهود، وعند أعلى نقطة من الناصرة، تجاه الشرق، ينبع نبع رائع اعتاد يسوع في طفولته أن ينضح منه الماء لحاجيات أمه ولحاجياته.

وعلى بعد ميلين من الناصرة تقع مدينة الصفورية، وذلك على الطريق

التي تقود إلى عكا، وقد نالت اسمها من صفت الذي أسسها، وكان من الصفورية حنة المباركة أم أم المسيح.

وعلى بعد خمسة أميال من الناصرة تقوم قانا الجليل (كفركنا)، وهي مدينة قديمة سكنها سبط أشير، وفيها حول يسوع عندما كان صبياً الماء إلى نبيذ، ومن قانا جاء شمعون الكنعاني وفيليب وناثانئيل.

وعلى بعد ميل واحد من الناصرة باتجاه الجنوب، هناك مكان يدعى Precipice (جبل قفزة)، وهو حافة جبل، رغب منها والدا يسوع أن يرمياه عندما اختفى عنهما.

وعلى أربعة أميال من الناصرة، باتجاه الجنوب، يقوم جبل الطور، وذلك في وسط الجليل، وهو جبل مرتفع له استدارة رائعة: وعليه تغير شكل يسوع وأظهر اشعاعه للذين كانوا معه، وعند منحدر جبل الطور التقى ملكيصادق بابراهيم وهو عائد من قتل أمالخ وقدم له خبزاً ونبيذاً، وعلى بعد ميلين من الطور، باتجاه الشرق يقوم جبل حرمون آخر في أدوم على مقربة من سلسة لبنان الشرقية، وتحت جبل الطور تعاهد ابراهيم وملكيصادق حول دفع العشور.

وتقع مدينة نين على بعد ميلين من الطور، وكانت فيها مضى من مدن بني اسرائيل، وعند بابها ردّ يسوع ابن الأرملة إلى الحياة، وعبر نين يقع جبل إندور (عين دور)، وفيها بين إندور والطور، في سهل نين تقوم كدوميم Kadumim ، أي مسيل قيسون (نهر المقطع)، ودون ضفته هزم باراخ الأدوميين، وذلك بناء على تحريض دبورة، لأن سيسرا Sysara كان قد قتل من قبل يئيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال من الطور، باتجاه الشرق، تقوم شارون Saron (تل صارم، أو سهل ابن عامر).

وعلى بعد خمسة أميال من الطور تقوم جرزيل، أي زرعين، وهي مدينة

قديمة، وفي جرزيل حكم أهاب وجيزبـل، وكان من جرزيل نبوت الذي قتل مـن قبل المتـآمرين التـابعين لجيزبل، وحـدث فيها بعد أن جـرزيل، قصفت من قبـل يهوه وقتل سكانها، وماتـزال بقاياها قـائمة هناك، وعلى مقربـة جرزبل يقوم سهـل مجيدو، فهناك هزم يـوشع وقتل من قبـل ملك السامرة، وحمل جسده إلى صهيون ودفن هناك.

وعلى بعد ميـل من جرزيـل يقوم جبل جلبـوع (فقوعة)، حيـث سقط ومات كل من شاول ويوناثان، وفي جبل جلبوع هناك قرية اسمها جلبوع (جلبون).

وعلى بعـد ميلين من جلبـوع تقوم بيسـان التـي هي مطـرانية الجليـل، وعلى أسوار بيسـان جرى تعليق رأس شـاؤول، وفي الجليل قـرية هلكيسي Helchisi التي جاء منها النبي ناحوم.

وعلى بعـد خمسة أميـال من جـرزيل تقـوم بلدة جنين التـي تبدأ منهـا السامرة ويقع بين جنين ومجدو (لجون) غير (غور)، وهـو المكان الذي قتل فيه ياهو ملك اسرائيل أخزيا ملك يهودا (الملوك الثاني: ٩/ ٢٧).

وعلى بعد عشرة أميال من جنين تقع السامـرة، التي منها نالت المنطقة التي مـن حولها اسمهـا، وهي قد أسسهـا سنحريب، ومـن السامـرة جاء السامريـون، وكان أنطوخيوس قد هـدمها تماماً ثم أعاد بنـاءها هيرود بن أنتباتـر تشريفاً للقيصر أغسطـس، وأطلق عليها اسـم أوغسطة التـي هي بالاغـريقية سبسطية، وقـد قيل بأن يوحنـا المعمدان قد دفـن هنا فيها بين إليجا وعوبيـدا، وكان قد قتل من قبل هيرود عبر الأردن في قلعـة مكرونتا Macheronta، ويحكى بأن جسـده قد أحرق من قبـل الحواري يوليان، وذر رمـاده في الهواء، وكـان رأسـه قـد حمل منـذ القـدم إلى الاسكنـدريـة والذي حمله هـو مارسيلوس الكاهن، ثم حمل فيها بعـد إلى أكوتين، وذلك مع ثلاثـة من الأبرياء، والذي حملـه هو فلسيوس Felicius، وهو راهب

كان في أيـام بين، وكـان بين عـائداً آنذاك مـن مقتلة أوقعهـا بالـوندال، وبفضل فضائل يوحنـا المبارك عاد إلى الحياة عشرون من رجالـه كانوا قد سقطوا وقت القتـال، أما اصبعه التي أشار بها ليسوع ليـأتي للتعميد، فقد حملتها معها العذراء تغريس Tygris المباركة خلال جبال الألب، واحتفظ بها هنـاك وسط تبجيل عظيـم في كنيسة مـورين Maurienne، ومن سبسطيـة كانـت الأم التي أكلـت أولادها تحت ضغـط الجوع، ومثل هـذا حدث لمريـم في القـدس، وفي سبسطيـة تنبأ إليسيـوس Eliseus ، وأطعم مـائة نبي في كهوف، وفي السامـرة مدينة سـونا Suna (سنور بين جنين وسبسطية) التـي جاءت منهـا المرأة السامـرية، ومـن السامـرة كان شمعون مجوس.

وعلى بعد أربعة أميال مـن سبسطية تقع مدييننة شكيم (نـابلس) التي بناها عمور Emor مع أولاده، وأطلق عليها اسـم شكيم، ودعيت فيها بعد بـاسم نيابـولس، أي المدينـة الجديدة، وهناك هـدم أولاد يعقوب شكيم، وقتلـوا عمور لغضبهم من مضـاجعته لأختهم، وفي شكيـم دفنت عظام يوسف التـي جلبت من مصر، وفي شكيم عند سفح جـرزيم، قرب نبع، صنع يربعام العجلين الـذهبيين، وقد وضع أحدهما في (دان) والثاني في بيت إيـل، ويحكي السامـرة والسوريـون أن أربعة جبال تظلـل شكيم هـي: جبـآل، ودان في الشرق، وبيـت إيل وجـرزيـم في الجنـوب، وهـذا ماكرره جيروم بالنسبة لـلاثنين، قائلاً إنهما في أرض الميعاد عبر أريحا، يعني جبآل، حيث قام يوشع بناء على أوامر مـوسى ببناء مذبح من حجارة غير منحوتـة، وإلى جانبـه جرزيم، ومـن هذين يمكـن سماع أصوات الـذين يتبادلون تبريكات ولعنات بعضهم بعضاً.

وعبر شكيم تقـع لوزان (خـربة لـوزة) وذلك على بعـد ميل منـه، وقد أسست مـن قبل يبوس، وهي تعـرف بالعبرية بـاسم ألموس ulamaus، وهنا أراد إبـراهيم بنـاء على أمر مـن الملاك، أن يذبـح ابنه اسحـاق، وفي

حين انتظره ابنه الشاب مع الأتان عند سفح الجبل، تمت التضحية بكبش عوضاً عنه، وتقليداً لإبراهيم يقوم المسلمون بالتضحية هذه كل عام، ويضحي سلطان الفرس وهو أعظم رجل بينهم وكذلك أمير ممفيس (القاهرة) بأيديهما بجمال، وبعدما نام يعقوب في ذلك المكان، والرؤيا التي رأى فيها السلم، صار يطلق على المكان اسم «بيت إيل»، أي بيت الرب، لكن بعدما وضع يربعام العجل الذهبي هناك صارت تعرف باسم «بيت أول» أي بيت الصنم، كما أنها دعيت من قبل إبراهيم باسم «الرب يرى» وشيد يعقوب حجراً لتكون آبدة ذكرى.

وعلى بعد ميل من بيسان تقوم بلدة عسكر، وذلك على مقربة من الملكية التي أعطاها يعقوب لولده يوسف، وفيها يقوم نبع يعقوب، الذي هو بئر، وقال الانجيلي بأنه عبره تكلم يسوع مع المرأة السامرية.

وقد بنيت هناك كنيسة، وليس بعيداً عن بيسان مكان البطمة التي أخفى يعقوب تحتها الأصنام.

وعلى بعد ستة أميال من بيسان ثانزري Thanazare (تمنة) وذلك باتجاه الجنوب، وهي مدينة يوشع، حيث عاش ومات، وضريحه مايزال في هذا المكان.

وعلى بعد عشرة أميال من بيسان تقوم قلعة صنجيل (Egidius) التي نالت اسمها من الكونت صنجيل (الكونت ريموند الرابع، كونت طولوز، كان أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى) الذي عسكر هناك مع جيش الفرنجة في اليوم الذي تقدم على رؤيتهم القدس.

وعلى بعد أربعة عشر ميلاً من القلعة المذكورة أعلاه تقع القدس، التي هي أهم حاضرة مقدسة في يهودا.

وعلى مسافة أربعة أميال من القدس تقع إفراته التي بنيت من قبل اليبوسيين، وقد سماها يعقوب فيها بعد بيت ليم (لحم)، أي بيت الخبز،

حيث هناك فيها ولد المسيح، وكان من بيت ليم (لحم): بوعز وعوفيد والد إيشا (يسي) والد الملك داود، الذي من ذريته انحدر المسيح، وفي بيت لحم، إلى جانب المهد هناك المزود الذي استلقى فيه الرضيع يسوع، وقد حمل إلى روما من قبل الملكة هيلانة، وبتشريف وضع في بازيليكا القديسة مريم الكبيرة.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، وباتجاه الجنوب أشع النجم على الرعاة عندما ولد الرب، حيث أنشد الملائكة «المجد في الأعالي»، وإلى بيت لحم جاء الحكماء (المجوس) لعبادة الرب، وهناك أيضاً جرى ذبح الرضع من قبل هيرود.

ويرقد الجزء الأكبر من الأبرياء مدفونين على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من بيت لحم.

وعلى بعد ميلين من بيت لحم وباتجاه الغرب تقوم راما (بيت جالا) التي قيل عنها: «صوت سمع في راما». وفي بيت لحم يرقد جسد جيرومي المبارك مع جسدي باولا ويوستوخيوم Eustochium.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم تقوم تقوع التي جاء منها النبي عاموس الذي يرقد جسده هناك في ضريح، ومن أحوازها حمل النبي حبقوق بوساطة الملاك إلى بابل، وفي تقوع اعتاد كثير من الأنبياء على الالتقاء للبحث في أشياء لاهوتية.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم، باتجاه حبرون تقوم كنيسة القديس كريتوث Karitoth (في خريطون قرب تقوع)، حيث عندما كان نفسه ينتقل من هذا العالم إنتقل جميع أصحابه تماماً معه، وحمل كريتوث المبارك فيما بعد إلى القدس حيث مايزال يرى في جسده.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، وعلى الطريق المؤدي إلى القدس هناك قبراتا (قبة راحيل أو قبر راحيل)، وهو المكان الذي ماتت فيه راحيل

بعدما ولـدت بنيامين، وكان موتها بـألام المخاض، فهناك دفنت مـن قبل يعقوب، وقد وضـع يعقوب فوق قبرها اثنـي عشر مصباحاً، وهي مـاتزال موجودة حتى الآن.

وعلى مسافـة ميل مـن قبراتا، بين بيـت لحم والقدس، وبـاتجاه اليمين هناك بيـت عرقة، وهـو المكان الذي قتـل فيه الملاك في ليلة واحـدة مائة وخمسة وثمانين ألفـاً من جيش سنحريـب، وقد هرب سنحريـب وعاد إلى نينوى وقتل من قبل ولديه.

وتبعاً للتقاليد العبريـة، قيل بأن أول من ولد لنوح هـو ابنه سام، الذي تدعـوه هذه التقاليـد باسم ملكيصادق، وهـو أول من أسس «سـالم» بعد الطوفـان حيث حكـم بمثابة ملـك وكاهن، واستـولى اليبوسيـون فيما بعد عليهـا وسموهـا «يبـوس» صدوراً عـن اسـم جدهـم يبـوس، وهو الابـن الثالـث لكنعان، ثم جـرى دمج كلمتي «يبوس» و«سـالم» فباتت تـدعى من قبل سليمان «يورو سلـوما» وكأنها «يبوس سلمونيا»، ودعيـت من قبل الشعراء «سـوليما» وباسـم «إيليا» مـن قبل «اليـوس هدريـان» لأنه هـو الـذي استردها، وهـي صهيـون التي معنـاهـا بالعبريـة «تـراقب» (يقـال معناها القمة أو المكان المشمس)، ومعنى كلمة أورشليم «رؤيا السلام».

والقدس هي حاضرة اليهوديـة، مثلما هي صرة الأرض، قائمة في وسط العالم، وبنـاء عليه قـال داود: «والله ملكي منـذ القدم فـاعل الخلاص في وسط الأرض» (المزمـور: ٧٤/ ١٢)، وتتفوق القدس على جميع مـدن العالم في الصلاة والإحسان، وحكم داود في القدس ثلاثـاً وثلاثين سنة بعد طرد شاؤول، ومن القـدس النبي يسياس Ysaias (زكريا) الـــذي نشر مع الشجرة، وكان نشره من قبـل الملك منشا Manasseh ، وفي القدس جبل مـوريا، أي أرض بيدر خـرنام اليبوسي، التـي رأى داود عليها الملاك الضارب، والتي بني عليها فيما بعد الهيكل من قبل سليمان.

وبعد مرور ثلاثة آلاف ومائة وستين من آدم وألف وأربعمائة سنة من الطوفان وألف ومائتي سنة من مغادرة ابراهيم لبلاد الرافدين، وخمسمائة سنة وستين من خروج بني اسرائيل من مصر، ومائتين وأربعين سنة من تأسيس صور، بدأت أعمال البناء في هيكل الرب، وقد بنى الملك سليمان الهيكل أي بيت إيل والمذبح الذي كرس بتقوى واخلاص وانفاق لامثيل له، وهذا الذي دنسه نبوخذ نصر أيام الملك صدقيا، ونهبه نهباً كاملاً، وجعل عالي المدينة سافلها، وأمر بصدقيا وأولاده بأن يقادوا أسرى أمامه إلى ربلة يعني أنطاكية، وهي أيضاً قد عرفت باسمين آخرين هما حماة وأفاميا (تقع ربلة على الطرف الشرقي من العاصي على بعد خمسة وثلاثين ميلاً إلى الشمال الشرقي من بعلبك)، وهنا قتل أبناء صدقيا وهو حاضر، ثم حرمه من عينيه، ودمر بعد هذا نبوزردم صهيون والهيكل تدميراً كاملاً، غير أنه أعيدت عمارته فيما بعد من قبل عزرا الكاتب ونحميا في ظل حكم قورش ملك الفرس، وجرى تدمير الهيكل ثانية من قبل أنطيوخس، وأعيدت عمارته من قبل المكابيين، وتم تدنيسه من قبل بومبي، الذي مكث فيه عندما هرب من وجه يوليوس قيصر، وأخيراً جرى تدمير الهيكل الثالث من قبل تيتوس وفسبسيان، وبشأن هذا الموضوع يقولون: أعيدت عمارته من قبل هيلانة في ظل حكم الامبراطور قسطنطين، وقال آخرون: لابل الذي أعاد البناء هو الامبراطور هرقل، لابل قيل من قبل بعضهم إن الذي تولى ذلك الامبراطور جستنيان، وهناك من يقول: إن الذي فعل ذلك واحد من أمراء ممفيس في مصر، وأوقفه على اسم «الكبير» أي «الله العظيم»، فهذا ماتذكره الكتابات الاسلامية بشكل واضح تماماً، لأنه عندما وصل الفرنجة لاشيء من الشريعة أو الاغريقية وجد مكتوباً عليه، ويدعى الهيكل الحالي باسم الهيكل الرابع، وأمام الهيكل الذي وجد قبله، جرى ختان الطفل يسوع، وقد عرض أحد الملائكة غرلته على شارلمان وجعله يشاهدها في الهيكل، وهو الذي جلبها إلى اكس لاشبيل (آخن)، ثم جرى نقلها فيما بعد من

قبل شـارل الجريء إلى أكوتين في مقـاطعة بواتـو قرب كـاروكس Char-roux، وجرى تقديـم يسوع وعرضه في الهيكـل من قبل أمه، وقـد تسلمه سمعان،وطرد يسوع من الهيكل الذين كانوا يبيعون ويشترون، وهناك حرر الزانية من أيدي الذين اتهموهـا، ومن الهيكل جرى رمي المبارك جيمس، وفي الهيكـل أعلـن الملاك وكـذلـك أعلم زكـريـا بميـلاد ابنـه، وفيها بين الهيكل والمذبـح سقط زكـريا بن بـراخيا، وحـول المسلمون فيها بعـد هذا المذبـح إلى مزولـة، ومـن الممكن رؤيتـه حتـى الآن في القـاعة، ويقـع في القدس إلى جـانب القديسـة حنة، وليـس بعيداً عن البـاب الذي يمضي الانسـان منه إلى يهوشـافاط، بـركة الغنـم، وأقام يسـوع في وسط القـدس الفتاة من الموت، وفي القـدس جرى اعدام جيمس الثـاني من قبل هيرود بوساطـة السيف، ومن هناك حمل إلى يـافا، ومن ثم فيها بعـد إلى اسبانيا، ودون مـوقـع الهيكـل يقـوم الآن مكـان إقـامـة الجنـود الـذيـن يحرسـون القدس*.

وفي القـدس Xenodochiumأو Muscomion، وال Xeno-dochium بـالاغـريقيـة بيـت استقبال للغـربـاء والفقـراء، أمـا Mus-comion أي المشفـى، فهـو المكـان الذي يجمـع المرضـى مـن الشـوارع والقرى ويعتنى به بهم، ويوجد خـارج أسوار القدس، فيما بين برج تانكرد وباب القديس ستيفن محطة لإيواء المجذومين، ويقال بأن هركانوس أمير اليهود أول من أسس مشفـى بوساطة أموال استخرجهـا من ضريح داود، وفي ضواحي القدس، في وادي أبناء عنون باتجاه الجنوب، هناك مكان

---

* بعد استيـلاء الفرنجـة على القدس عام ١٠٩٩، أعطيـت منطقة الحرم إلى فـرسان الـداوية الذين تـأسس نظامهم حديثاً، وقـد ترك هؤلاء قبة الصخرة بـدون تغيير، غير أنهم أحدثوا تغييرات هامة في المسجد الأقصى، حيث بنوا مستـودع أسلحتهم في جانبه الغربي على طول الجدار الجنوبي للمنطقة، وجعلوا اسطبلاً لخيـولهم في بناء منخفض ألحق بالزاوية الجنوبيـة الشرقية إلى الغرب من مهد يسوع.

توفث Thopheth وهو المكان الذي كان بنــو إسرائيل لايخجلون به من عبادة أصنــام الكفار، ومعنــى وادي عنون هــو وادي جنون، لأن العبرانيين ضحوا هناك بأولادهــم للشياطين، ويدعى هذا الوادي أيضــاً باسم وادي الأوثــان، لأنهم عبدوا فيــه الأوثان، ووادي جيسماني هــو وادي يهوشافاط، ويتصــل وادي عنــون بــوادي جيسماني، ودون قصر سليمان (المسجــد الأقصى) عند منعطـف صهيون، وإلى حد كبير في وادي يهوشافــاط، تقع بركــة سباحــة سلوان، التــي تنبع، حسبما جــاء في التقاليــد العبرانية، مــن سيلو Sylo ويجري جدول سيلو بصمت، لأن جــريانه هو تحت الأرض، وتحت سلوان هنــاك نبع روجــل (عين أم الدرج)، وإلى جــانبها دفــن كما قيــل بسياس، ومــلاصــق لعين روجل « الــزاحفــة » وهــي الحجر التــي ضحــى عليها أدونيــا بــأضاحــي (انظــر الملوك: ١/ ١/ ٩)، وعبر سلــوان، باتجاه الجنوب بركة سمك فولر Fuller، وحقل ملاصق لحقل الفاخوري وفيه أكلــداماك، حيث يجري دفــن الغرباء، وعبر أكلــداماك يوجــد مكان جيحون حيث مسح صادوق الكاهــن سليمان ملكاً، وقد قيل بأن جيمس المبــارك قد دفــن في وادي يهوشافــاط، ومن هنــاك نقل إلى القسطنطينيــة، وفي وادي يهوشافاط وتحت آبدة معلمة جرى دفن الملك يهوشافاط.

وعلى بعد ميل من القدس هناك بــاتجاه البحر الميت بيت حنينا، فهناك استقبل شمعــون يسوعــاً ضيفاً له، وهنــاك أيضاً استحقــت مريــم غفران الــذنوب، وحيــث أقام يســوع أيضــاً لازاروس من الموت، وفيما بين بيــت حنينا وجبل الزيتون يوجد بيت فاجي.

وغسل في صهيــون يسوع أقــدام حوارييــه وتعشى معهــم، وفي القدس بــاع يهوذا يسوع إلى اليهــود، وعند منعطــف جبــل الزيتــون المكان الــذي صلى فيه يســوع لأبيه، وذلــك عندما قــال لبطرس: «ألا تستطيــع أنت أن تصبر معي ســاعة واحدة»؟، ولدى عــودته من هنــاك إلى جيسماني، جرت خيانتــه من قبل يهوذا لصالــح اليهود، وقدم هناك مغلــولاً إلى أناس -An

nas وكيفـاس في رواق سليمان، وأخذ مـن هنـاك إلى صهيون إلى المكـان الـذي يدعـى الـ «Litostrotoså» الـذي مايـزال يـرى أمام بـــاب كنيسـة، وأخـذ بعـد هـذا إلى أكرا، وبعـد إهـانـان كبيرة صلـب فيما بين اللصوص، وفي ميدان التجار هناك كنيسـة تسمى «اللاتينية»، لأن اللاتين تملكوا هـذا المكان منذ أيـام الرسل، وهنـاك المكان الذي بكـت فيه الأم أولاً بعد الآلام مـن أجل ابنهـا، وكذلك فعـل الحواري من أجـل معلمه، ودون موقع أكرا (الجمجمة)، وباتجاه الجنـوب، في مدخل الكنيسة، هناك مكان وحـي، على مكان قيـل بأن ثـلاثة حملـن اسم مـريم قـد بكين من أجله، بينما هـو يعاني على الصليب، وليس بعيـداً من هناك المكـان الذي دفن فيه يوسـف يسوع، وتنزل هناك في ليلة عيد الصعـود على مشهد من عـدد كبير من النـاس، كـل سنة النـار المقـدسـة، ويجري تبجيل ضريـح الرب، وفي المكان الواقع في الـوسط فيما بين الضريح ومكان الآلام، ظهر يسوع لمريم المجدلية، وفي مكان يدعى السجن Carcer حبس يسوع بينما جرى اعداد الصليب له.

وعلى بعد تسعة أميال من القدس تقع يثروبولس Eutheropolis أي عمواس (خطـأ والصحيح بيت جبرين)، فعلى الطـريق هناك ظهـر الرب إلى اثنين من حوارييه عندما كـانا يسيران، وظهر في جبل صهيون لحوارييه أثناء غيـاب تومـا، وبعد ذلك ظهـر ثانيـة عندما كـان تومـا حاضراً، وفي جبل الـزيتون صعد إلى الأب، وهناك يـرقد أيضاً جسـد بلجيا Pelagia المبـاركـة، وقـد أخـذت إلى يهوشـافـاط مـن قبـل الحواريين، ويحكـى أن الملكين داود وسليمان مـع ملـوك القـدس الآخـريـن قـد دفنـوا في جبـل صهيـون، وأمام بـاب القدس المتجـه نحـو الغرب قـذف المبارك ستيفـن بـالحجـارة، وحمل مـن هنـاك إلى صهيـون ودفـن مـع نيقـوديمـوس -Ni .codemus

وفيما بين القدس ويهوشـافاط كنيسة، يقولـون جلس فيها شـاول وقت

تعرض ستيفن للقذف، وليس بعيداً عن القدس هناك كهف حمل منه أسد في ليلة واحدة — بارادة الرب — اثني عشر ألفاً من الشهداء الذين قتلوا من قبل خسرو Chosroes.

وعلى مسافة ميلين من هناك المكان الذي نمت فيه شجرة صلب الرب، وليس بعيداً عن موقع الجمجمة المكان الذي عثر فيه على الصليب المقدس، وعندما جرى البحث والتقصي عن مكان الجمجمة بكل يقظة، أمرت هيلانة بتنظيف الموقع، وقد جرى تدمير تمثال فينوس إلى قطع، وهو التمثال الذي وضعه هادريان هناك لإهانة المسيحيين.

وعلى محاذاة جبل الزيتون جبل العدوان حيث أغوي الملك سليمان من قبل زوجاته فبنى هيكلاً لكموش ولمولك.

وعلى بعد ثلاثة أميال من القدس تقع عناتا، التي جاء منها أرميا العناتي.

وعلى بعد ميل من القدس، وباتجاه جاجاس Gagas، يقع المكان الذي يدعى سكوبس، الذي خرج إليه سبط لاوي لمواجهة الاسكندر.

وعلى مسافة خمسة أميال من القدس، وباتجاه الجنوب، تقوم البلدة التي قدمت إليها مريم للسلام على اليزابث، وحيث يحكى بأن يوحنا قد ولد.

وعلى ميلين من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى نابلس يقع جبل جبعة، ومدينة فنحاص، حيث يقال هناك دفن (المتداول هو أن القبر في عورتا جنوبي نابلس، وجبعة هي تل عاصور).

وعلى بعد ميل من عمواس، وباتجاه الجنوب تقع جبعة، حيث يرقد حبقوق، ومن جبعون كان شاؤول قد انتخب في الجلجال، وفي جبعون فسدت زوجة لاوي.

وبين القـدس وعسقلان، وملاصـق لبيت حنينـا يقـوم مـوقع «أبـوزر Abuezer ، وهو المكـان الذي أخـذ فيه الفلسطينيـون تابـوت الرب. (لعل الموقع هو دير أبان إلى الشرق من عين شمس).

وموقع بيـت عور موجود في أرض أبناء يـوسف التي إليها طـارد يوشع الملـوك، وهناك بيتـان تحت اسم عـور وهما: بيت عـور الفوقـا وبيت عـور التحتـا، وبنى سليمان الفـوقا والتحتـا، وملكهما إلى اللاويين، وفي منطقـة بيت عور ولد النبي يوئيل وكذلك دفن.

وعلى بعد سبعـة أميال مـن القدس، وعلى الطـريق المؤدي إلى نـابلس تقع جبعـون التي جـاء منها الجبعونيـون، وهناك جبعـون أخرى مـلاصقة لراما ورامون، وهناك استحق سليمان الـوحي الرباني، ويحكى أن الشمس توقفت هناك عندما كان يوشع (بن) نون يقاتل.

وفي جبال حبرون مـوقع زيـف (تل زيف) الـذي يدعـى أيضاً كـرمل (الكرمل مـوقع منفصل قريب من تـل زيف)، وهنا كانت قريـة الكرمل التي جاء منهـا نابال، وفي الكرمل طلـب داود أرغفة لرجالـه الشباب من نابـال، وذلك أثنـاء فراره مـن وجه شـاؤول، وقابلتـه «أبيجايـل» في أثناء الهبوط من الكرمل، وهدأته وأرضته بهدايـا كبيرة، وبعد وفاة نابال تزوجها داود، وهناك زيـف أخرى منها جاء الـزيفيون: وزار يوناثـان في الصحراء داود، وذلك عندما كان متخفياً مـن وجه شاؤول، وهناك استولى داود على ترس شـاؤول (في صموئيـل: ١/ ٢٦/ ١٢: أخذ داود الـرمح وكـوز الماء) ورمحه.

وعلى بعد ثمانيـة أميال مـن عمواس ، وعلى الطـريق الـذي يؤدي الى حبرون تقـع مدينـة كيلا (خـربـة كيلا) ، فهنـاك سكن داود في إحـدى المرات .

وعلى مسافـة تسعة أميال من القـدس ، وعلى الطريق الـذي يؤدي الى

الرملة يقوم جبل مودين (المدينة ميغوموديعيم) ، ومنه جاء متاثياس mattathias أبو المكابيين ، وكانت مودين في يوم من الأيام مدينة لا ترام ، ومنها كان يمكن للانسان أن يرى كل من البحرين : البحر الكبير والبحر الميت ، ويرقد في مودين متاثياس وأربعة من أولاده مع اثنين من أحفاده ، تحت آبده ما تزال قائمة هناك .

وعلى الطريق النازل من القدس الى أريحا تقوم أدونيم التي تدعى الآن باسم الصهريج الأحمر (الخان الأحمر) ، وقد ورد، ذكرها لدى ربنا أثناء حديثه عن الرجل الذي سقط بين اللصوص .

وتقع أريحا على بعد ثلاثة عشر ميلاً من القدس ، وعبر أريحا وفي مواجهتها حدث لدى وصول الياس واليسع أن انقسم الأردن ، ولأنه ارتعب ترك اليسع رداءه ، الذي هو محفوظ في القسطنطينية ضد المرض العظيم ،وعندما كان يسوع يمشي في أريحا تسلق زكريا شجرة جميز موجودة فيها ، وكان في أريحا في أيام المبارك سابا بيتاً للضيافة ، له احسان عظيم ، وقد ترأسه ، وقد حدث فيه أنه كان يتولى رعاية صديق له من مأدبا ، وهي مدينة في العربية وكان اسمه توما ، وبينما كانا يأكلان ومعهما بولص وثيودور وهما أكثر الناس قداسة تم اعلام المبارك سابا ، أنه لا يوجد هناك نبيذ ، ولا أي شراب بالفعل سوى القليل من مرق الحنظل لطبخ الخضار من أجل الإفطار ، وجلب ذلك الى أمام المبارك سابا ، وقد قام بتصفية ذلك الموجود ، وعندها تحول الى وفرة كبيرة من النبيذ كانت كافية لجميع الذين كانوا موجودين في دار الضيافة لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، وأعطى بعضاً منه لتوما ولرفاقه لدى عودتهم الى موطنهم ، وجرى الاحتفاظ بكمية قليلة منه ، وقد أعادت هذه الكمية الى الصحة أشخاصاً مرضى عندما دهنوا بها ، وكان الرجل الأعمى الذي رد له الرب البصر في أريحا يجلس على جانب الطريق .

وعلى رميتي حجر من أريحا يوجد المكان الذي صام فيه يسوع لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وهو يدعى الآن باسم « الأربعين» (خلف عين السلطان) ،، وهناك أيضاً حاول الشيطان اغواءه بقوله له :« إذا كنت ابن الرب فقل تصير هذه الحجارة خبزاً » .

وعلى بعد ميلين من الأربعين » وباتجاه طبرية هناك جبل مرتفع (قرن صرطبه) منه مكن الشيطان يسوعاً من رؤية جميع ممالك العالم ، وتحت الأربعين هناك مغارة فيها ذلك النبع الذي حول اليشع ماءه الى ماء يشرب بعدما كان مراً ، وذلك برش بعض الملح فوقه .

وعلى عشرين ميلاً من القدس تقوم اللد ، التي هي ديوبولس ، ومعنى هذا : مدينة مزدوجة (الصحيح : مدينة جوبتير) ، وفيها تمنه التي كانت فيها مضى بلدة كبيرة ، وهنا جز يهوذا غنمة عندما اضطجع مع ثامار في مكان يلتقي فيه طريقان ، وذلك على بعد ميل من تمنه ، وقد أولدها فارص ورازح .

وعلى بعد أربعة أميال من اللد تقع أرماثياArimathia أي رمثا زو فيم Ramatha Sophim وهي مدينة القانه وصموئيل ، ومنها حسبما قال الانجيلي ، كان يوسف ، وهناك دفن ، وقد حمل جسده فيها بعد الى بيت لحم من قبل أحد البيتلحميين ، هو الآن أسقف ، ووجد معه الأربطة التي أنزل بها يوسف يسوع من على الصليب ، وأحد المسامير العائدة للرب ، والأربطة والمسمار معروضان في بيعة الملك في القدس .

وعلى بعد ميلين من اللد، وباتجاه البحر، تقوم قلعة بلنيا Balnea حيث نحت نيكوديموس من الخشب ما يشبه شكل المخلص، وهذا الشكل يبجل الآن في لوكا Lucca في ايطاليا .

وعلى بعد ميلين من اللد، وعلى شاطىء البحر تقع يافا التي أقام فيها بطرس طابيتا ، وحيث ظهرت «الملاءة» لبطرس (أعمال الرسل : ١٠ /

١١)، ويرى الانسـان هناك صخرة تـرى عليها آثـار سلاسل أنــدروميدا Andromeda .

وعلى بعد ستة أميال من يافا تقع أرسوف، التي بناها سليمان .

وعلى بعد عشريـن ميلاً مـن أرسوف، وبـاتجاه الشرق، تقع دور (خطـأ دور هي الطنطورة قرب حيفا)، وهي التي سماها هيرود قيسارية، تشريفاً لأغسطس قيصر، وهنـاك بنى أيضـاً ميناء لها من الـرخام الأبيـض، وفيها عمّد بطـرس كورنيلـوس، بعد ما حّـول بيته إلى كنيسـة، وقد عينـه أسقفاً وهناك يرقد أربـع نبيات عذراوات، ويقال بأن يوسيبيـوس الطيب كان في قيسارية هـذه أسقفاً، وكان في قيساريـة برج ستراتو Strato ، وفيه كان هيرود جالساًبثـوبه الأرجواني عندمـا ضرب بقوة انتقامية ربـانية ومات ، وازدهرت قيساريـة كثيراًفي أيام المسلمين بدورها فيها بين بابليـون وبابل ، أي فيها بين بغـداد في فارس وممفيـس في مصر (بغداد والقـاهرة) ،ونمـت حتى أصبحـت مثل جنة للمسلمين ، وفيهـا دفن النبلاء ورجـال السلطان ، ويوجد في محيـط المدينة ، وسط الحدائق عدد كبير مـن الكهوف الصغيرة ، مبنيـة من حجـارة منحوتـة فيها كـان يتـم مزج أنـواع البخور والطيـب حيث كان هـذا المزيج يحرق بالنار ، وبـذلك كانت المدينـة كلها تمتلىء بعبق الـروائح الطيبة ، وبهذا كان يجري حجـب الروائح السيئـة وتبتهج الأعداد العظيمة من السكان ،لكن زال هذا كله الآن وبات معدوماً.

ويعيـش في أنهار قيسـاريـة التماسيـح وهــي ثعـابين مـرعبـة ، وفـم التمساح متميز عن جميع الأفواه في أن الفك العلـوي لديه قابل للحركة ، في حين أن الفك السفلي ثـابت ، وليس للتمساح مخرج سفلي ، وبعـدما يأكـل التمساح طعامـه ، يتوجه نحـو مكان استحمامه المعتـاد على طرف النهر ، ويقـف على ذراعيه ، وتمتـد رقبته وفمـه مفتوح ، وكـأنه يسـاعد نفسه على التنفـس ، ثم يقـع نائماً ، وعنـدما يغـرق في نومـه تأتي بعـض الديدان إليـه ، وتأكل من طعـام التمساح ، وتدخل الى أمعـائه ، وتعمل

احداهن بمثابة بواب تراقب البقية ، خشية أن يفيق التمساح ويحبس الديدان في داخله ، وهكذا يجري خداع التمساح من قبل ذاته ، ويكره التمساح الانسان أكثر من كراهته لأي مخلوق آخر.

وهناك ثعبان آخر يدعى يدروس Ydrus (ابن عرس) يحب الانسان أكثر من حبه لجميع المخلوقات ، وهو يكره التمساح كثيراً ، ولهذا يبحث كل واحد منهما عن الآخر ويطلبه ، ويستطيع ، اليدروس تمويه نفسه واخفائها بالوحل ، وبذلك لا يستطيع عدوه ملاحظته ، ويعرض نفسه على التمساح الذي يدور حوله مرتين أو ثلاث مرات ، ويقوم بجهل منه بابتلاعه ، ويقوم اليدروس في سجنه الذي أغلق عليه بأكل ما في داخل التمساح ، ويحرك الأمعاء بشدة ، ويقطع الكبد ، ويمزق القلب الى قطع ، ويحدث فتحات في جوانبه ، ومن ثم يخرج بعد قتله لعدوه ، لكن كيف حصل وجاء التمساح الى قيسارية ، هذا ما سوف أحكيه باختصار : حكم فيما مضى من الأيام أخوان اثنان معاً في قيسارية بسلطات متساوية ، وتآمر الكبير بينهما ضد أخيه لأنه لم يكن يحكم وحيداً وأراد أن يميته ، وكان معروفاً عن أخيه أنه مصاب بالجذام ، ولقد ظن في نفسه أنه إذا استطاع جلب زوجين من التماسيح من النيل ووضعهما في الأنهار المتقدم ذكرها ينال غرضه فقد كان أخوه قد اعتاد على السباحة فيها في الصيف ، وبهذه الواسطة أمل أن يُقتل ومن ثم يحصل على المملكة منفرداً ، وهذا قد حدث بالفعل ، وحكم الأكبر المملكة لوحده .

وعلى بعد عشرة أميال من قيسارية وباتجاه الشرق تقع أسخريط التي جاء منها الخائن يهودا الأسخريطي .

وعلى مسافة ستة أميال من أسخريط بورفيريوم Porfirium ، عند سفح الكرمل ، على شاطىء البحر الميت، وكانت فيما مضى مدينة جيدة (أراد هنا حيفا التي حلت محل سيكامنيوم Sycaminum

ووقعت بورفيريوم على بعد ثمانية أميال الى الشمال من صيدا)

والكرمل هو جبل ، تحادث فيه لبعض الوقت الياس مع اليسع ، وضحى هناك للرب أمام أربعمائة وأربعين كاهناً لبعل ، واستحق النار السماوية ، وأمسك هناك الكهنة ، وذبحهم بالسيف فوق مسيل سيحون ،وهرب من بعد هذا من جزبل Jezebel وجاء الى حورب ، وتقع حورب، الآن على طرف سيناء .

وعلى بعد ثلاثة أميال من الكرمل يقع جبل قاين (تل قيمون) الذي عند سفحه هناك عين بقربها قتل لامخ أباه قاين بوساطة سهم ، وقتل بقوسه قائده .

وعلى بعد عشرة أميال من قاين تقع عكا (عكون) التي سماها بطليموس ملك مصر ثولومياس tholomaic ذلك أنه هو الذي أسسها ، والى هناك يصل أكبر عدد من السفن (مما يأتي الى أي ميناء) يقع على ساحل البحر العائد للفرنجة والممتد من عسقلان الى جبال طوروس ، وإليها تتدفق بضائع وحاجيات آسيا وأوربا وافريقيا ، وحدث في احدى السنوات ، في شهر آب على شاطىء البحر وليس بعيداً عن الأسوار ، باتجاه الشرق ، أن تفجرت ينابيع ، فحولت الجداول العائدة لهم الى البحر ، الذي عمل بمثابة حل للذين كانوا يشربون منهم حسب هواهم ، ولهذا السبب يتردد عليهم الذين يسكنون فيما بين الفرات والنيل .

وعلى بعد ستة عشر ميلاً من عكا تقع مدينة صور، التي كانت تدعى في العصور القديمة باسم سّرا Sara ، صدوراًعن اسم سمك كثيراً هناك ، وهو الذي يدعوه السوريون بلغتهم باسم سرSar، ومنه جاء اسم سمك صغير يدعى نوعه باسم سريا Saraeأو سردين (معنى صور : صخرة) ويسمي العبرانيون تاير Tyre باسم سور ، أو

بالـدارجة باسم صـور، وجاء الفينيقيون الـذين أسسوا صور مـن البحر الأحمر.

وتقع صيدا على مسافة أربعة عشر ميلا من صور.

وأسست صيدا مـن قبل صيدون ، الذي كان الابـن الأول لكنعان بن حام ، ومنه انحدر الصيداوييون وحكم في صور وصيدا فينكسFenix الذي كـان أخاً لكثمـوس (قدموس) الطيبـي في مصر، والذي جـاء من سورية ، ومن اسمـه صار هؤلاء الناس يدعون بـالفينيقيين واسم المنطقة كلها فينيقيـا ، التي احتلـت فيها صـور المرتبة الأولى ، وحكـم في صور حيرام عندمـا حكم سليمان في القدس و أبـولونيـوس عندما حكـم حكم انطوخيـوس في أنطاكية ، ويـؤكد السـوريون أن صور رفضـت استقبال يسوع عنـدما سار على طول ذلـك الساحل ، لكـن عندما قام يسـوع من الموت ، استقبلت باسمه بولص الـذي بشر فيها بالشريعة والانجيل ، ثم إنه جثـا فيها بعد على ركبتيه ، وصلى على ذلـك الرمل ودعـا أن تمتن رحمة المسيح صور وتدعمها في الإيمان ، ويوجـد أمام صور الصخرة التي قيل بأن يسوع قد جلس عليها ، وهي قد بقيت كما هي دونها أذى من أيامه حتى وقت طـرد المسلمين من المدينة ،وقد حطمت فيها بعـد وقطعت من قبل الفرنجة وكـذلك من قبل البنادقة ، وقيد البناء الآن فـوق بقاياها وحـول موقعهـا كنيسـة مكرسـة للمخلـص ، وتبعا لبيـدBede المبجل قدمت صور عدداً كبيراً من الشهـداء للرب ، وأعداد الذين ينتمون لها نفسها العلم وحده قادر على تعدادهم .

وصور هي مكان دفن أورجين Origen، وقد استولى الاسكندر الكبير على صـور الذي وسـع أراضيهـا بـوساطـة سـور، لأنها كـانت وقتـذاك مطوقـة بالبحر أيضـاً، وحوصرت في أيامنا صـور بفعالية مـن البر والبحر، وتـم الاستيلاء عليها من قبـل البطريرك وورموندWarmund صاحب الذكـرى الطيبة ، وذلـك بمساعدة البنـادقة ، وبـإذن من نعمـة الرب ،

وجاءت من أحواز صيدا وصور المرأة الكنعانية التي قالت ليسوع : « ارحمني يا بن داود » وعندما غادر يسوع هذه المناطق عاد إلى الجليل من خلال المدن العشرة » ، وأعاد السمع إلى الأصم والكلام إلى الأخرس

وعلى بعد ستة أميال من صيدا تقوم الصرفند على شاطىء البحر باتجاه صور ، وهي صرفند الصيداويين ، وإليها بعث الرب إلياس الى أرملة صرفندية، حتى تزوده بالطعام ، وحينها مكثا معاً كان قليل من الزيت في الابريق وبقايا الطعام كافية للوجبة ، وهنا أقام الياس ابن الأرملة ، أي يونه Jonahابن أماثوسAmathus وجمعت امرأة في الصرفند حزمتين ، ويقوم في جبال صيدا والصرفند جت حافر (المشهد على ثلاثة أميال من الشمال الشرقي للناصرة) ، وهي البلدة التي جاء منها يونه المذكور أعلاه ، وكان من صيدا ديدو Dido الذي بنى قرطاج في افريقيا ، وشهرت صيدا بوساطة الفينيقيين الذين تملكوها ، وقد ثبتوا اسمهاصيدا بسبب وفرة الأسماك ، لأنه معنى كلمة صيدا في لغتهم : سمك.

وعلى مسافةثمانية عشر ميلاً من صيدا تقع مدينة بيروت،وهي مدينة غنية جداً، ويوجد في بيروت تمثال لمخلصنا صنعه نيكوديموس بيديه،وحدث بعد أمد وجيز من آلام المسيح أن تم صلب هذا التمثال بشكل شائن من قبل بعض اليهود وذلك بشكل ساخر ،فصدر عنه دم وماء،ونتيجة لهذا الحادث آمن عدد كبير بالمسيح،وعاد كل واحد مسح بنقطة من التمثال الى الصحة.

وعلى بعد عشرين ميلاً من بيروت،وباتجاه الشرق،تقوم بيبلوس التي هي جبيل أو باللسان العبري جوبل،وجلب الى مرساها في أيام سليمان الخشب من جبل لبنان من أجل بناء بيت الرب في القدس، وقد نقل منها الى يافا.

وعلى بعد عشريـن ميلاً من جبيل،وبـاتجاه الشرق،تقوم طرابلـس،وهي حاضرة المنطقة،وهي مدينة محصنة بشكل رائع بالأسوار والبحر.

وعلى بعـد اثنـي عشر ميـلاً مـن طـرابلـس،وبـاتجاه الشرق،يـوجـد ألباناًAlbana [أبانا] ،وهو نهر عرقة،فمن هناك تبدأ مملكة القدس.

ويعـود أصـل الصـلاة العـامة على الميـت والمنفعـة العـامـة الى يهوذا المكابي،والى هركـانوس يعود تأسيـس المشفى العام،وتم بنـاء البرج الذي يدعى الآن باسـم برج داود من قبل هيرود،وعندماهـدم تيتوس وفسبسيان المدينـة تـركـاه قـائماً ليكـون عـلامـة على نصرهما،والقلعـة التـي بنـاهـا داودلنفسـه،حيـث أملى المزامير،قـد احتل مكـانها الكنيسـة التـي تحصـن صهيون وتجملـه،وذلك بـاتجاه بيت لحم على رابيـة مرتفعـة جداً، وظلـت القلعة قائمة حتـى أيام الابن الأصغر لمتاثياس الذي هـدم كل من القلعة والرابيـة،وعندمـا هدم تيتوس وفسبسيـان المدينة، لم يـأخذا منهـا سكانها فقط، بـل أخذا أيضـاً تابوت العهـد وماكان فيـه،وحملوا الجميـع الى روما معهما، وذلك كماهو منقـوش على أقواس النصر القائمة فيما بين البـلاديوم Palladium وتل البلاتـاين Palatineالى جوار كنيسة القديسـة مريم الجديدة(في روما حيث مازال قوس تيتوس).

وأخذ الـدوق غو دفري مفـاتيح البرج المذكور أعـلاه من يد البطـريرك داغـوبيرت،وهيأ كـل مايمكنـه من إحسـان وألطـاف للبطريـرك ولمكانـة الكنـائس،ولقـد استحـق عـن جـدارة أن ينـال أعلى المراتـب وأعظـم الألقاب،غيرأنه لم يؤثر مكانة وألقاب الـذين حكموا بل لقب عبد الرب، ونذر إذا مـا أعطاه الرب عسقـلان،وسلمها ليـديه، سوف يعطـي القدس كلها للذيـن يخدمون الرب في كنيسة الضريـح المقدس،ولسوف يزيـد من أملاك البطريرك،لكن عندما حلـت السنة التالية،لم يستطع إكمالها،ووصل الى النهاية التي لايمكن الفرار منها،وقـد دفن بحزن ونواح لانظير له أمام الجلجلة،حيث جرى صلب ربنا،وقد كتبت هذه الأبيات على قبره:

النجم الرائع.هنا يرقد الدوق غودفري.

مرعب مصر ، هازم العرب،ممزق صفوف الفرس.

ومع أنه انتخب ملكاً،رفض أن يلقب بملك.

وأن يتوج، وظل«عبد المسيح»فقط.

وكان همه أن يعيد الى صهيون حقوقها.

وككاثوليكي أن يتبع العقائد المقدسة للحق والمساواة.

وأن يزيل جميع الهرطقات من حوله وأن يرعى الحق.

وبذلك يمكنه أن ينال مع القديسين تاجاً.

وأن يكون مرآة الجيش،وقوة الشعب،وكهف الكهنوت.

وقد خلفه أخوه بلدوين،الذي كان أول قنصل للرها،والذي اختير من قبل جميع رجال الكهنوت والناس،وعندما ماكان في الحكم جلس الأدوميون والعمالقة صامتين،وارتعب العرب والفلسطينيون، ودفعت دمشق، وصور وعسقلان الجزية.... وخلفه في صهيون الذي خلفه في الرها، وأعني به بلدوين دي بورغ، الذي كان رجلاً حكيماً، وعظيم الشجاعة، وجاء من بعده المبجل فولك الثالث كونت أنجو ومين.

المحتوى

